منهــج القــــرآن في

إصــلاح المجتمع

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٥/٥/٢٣٣٨)

٢١٨,٩
الربية، سعد مثنى
منهج القرآن في إصلاح المجتمع (من خلال سورة الحجرات)/ سعد مثنى الربية._ عمان: دار المأمون للنشر والتوزيع، ٢٠١٥.
(٤٩٦) ص
ر.أ: (٢٠١٥/٥/٢٣٣٨).
الواصفات: / المجتمع//المشاكل الاجتماعية//الإسلام/

❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هـذا المصـنف عـن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ردمك **ISBN 978 – 9957 – 77 -386 -1**



دار المأمون للنشر والتوزيع
العبدلي - عمارة جوهرة القدس
تلفاكس: ٤٦٤٥٧٥٧
ص.ب: ٩٢٧٨٠٢ عمان ١١١٩٠ الأردن
E-mail : daralmamoun2005@hotmail.com

منهج القرآن في

إصلاح المجتمع

(من خلال سورة الحجرات)

تقديم

المستشار عبد الله العقيل

تأليف

سعد مثنى عبدالله الربِّية



دار المأمون للنّشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى التالين لكتاب الله في كل مكان

إلى الـذين يعملـون للنهـوض بـأمتهم وإصـلاح مجتمعاتهم وإخراجها من الظلمات إلى النور وإعادتها إلى منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة.

أهـدي هـذا الجهـد المتواضـع وأخـص بالـذكر والـديّ وشقيقي الأستاذ/ محمد مثنى الربِّية - رحمهم الله

المؤلف

شكر وتقدير

الحمد والشكر أولًا لله العلي الكبير الذي أسبغ علي النعم وأعانني على هذا العمل ووفقني إلى إتمام هذا الكتاب فهو سبحانه أهل الثناء والمجد.

ولا بد من شكر جميع الذين أفادوني في مراجعة الكتاب أو إسداء النصح أو إعارة الكتب أو إعانتي في المراجعات والأعمال الإدارية، وهم كثر، فالله وحده يتولى مضاعفة أجرهم، وحسن مثوبتهم . .

والشكر لابني بلال على ما قام به من طباعة وإخراج لهذا الكتاب وتعب فيه كثيرًا ، فجزاه الله خير الجزاء.

- **أصل الكتاب رسالة ماجستير نال المؤلف به درجة الماجستير بدرجة امتياز من جامعة النيلين بجمهورية السودان.**

المقدمـــــة

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام البيان معلم القرآن الذي تجسدت في حياته وسلوكه قيم القرآن كما تروي أمنا عائشة رضي الله عنها [كان خلقه القرآن]. صحيح مسلم (١/ ٥١٣).

وبعد..

فهذا كتابي (منهج القرآن في إصلاح المجتمع) يبين بعض جوانب أحكام الإسلام وأخلاق نبي الإسلام وما يجب أن يكون عليه أبناء أمة القرآن ليحيوا بصحبة القدوة لكل السائرين في طريق ترجمة أهداف ومضامين القرآن إلى واقع عملي متحرك في حياة الناس ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

إن القرآن هو المعين الذي لا ينضب والبحر الذي لا قعر له والذي جعله الله صلاح الإنسان في الدارين.

وهدايته وسعادته منوطة بالاعتصام به والسير على المنهج الذي دعا إليه.

وقد أودع الله سبحانه في القرآن كل ما يتلاءم مع فطرة الإنسان إلى أن تقوم الساعة.

ولما صارت أحوال المسلمين إلى ما صارت إليه من بعد عن منهج القرآن وانصراف عن هديه، وزهد عن توجيهاته، وشاعت الأمراض التي أدت إلى اختلالات جسام في كل نواحي حياة المسلمين مما لا يتسع المقام لذكره رغبت في أن أساهم في وضع معالم ترشد إلى الخروج من المآزق التي تعيشها الأمة إن هي عضت

عليها بالنواجذ، ووجدت بغيتي في سورة الحجرات التي اشتملت على كثير من الأخلاق والآداب الحميدة كما حذرت من جملة من الأخلاق الذميمة.

وكلها عبارة عن سياج منيع للمجتمع المسلم، إذا ما أحسن الاهتداء بها، والسير على ما دعت إليه فعلًا وتركًا.

وهذا الكتاب وإن كان رسالة ماجستير إلا أني عايشت هذه السورة المباركة زمناً طويلاً منذ بداية مرحلة الشباب حفظًا وتفسيرًا والتنقل بين المساجد والتجمعات لإلقاء بعض ما فيها سواء في خطبة جمعة أو محاضرة أو درس أو موعظة حتى تكونت فكرة تحويل كل ذلك إلى كتاب مطبوع .

أسال الله أن ينفع به كل من قرأه أو راجعه أو ساهم في طباعته وإخراجه وأن يجعل ذلك في ميزان حسناتنا جميعًا.

وأن يجعله من العلم النافع والعمل الصالح.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبة أجمعين

سعد مثنى عبد الله الربية

١١ جمادي أول ١٤٣٦هـ

٣١ مارس ٢٠١٥م

تقديم

بقلم المستشار عبد الله بن عقيل العقيل

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد، فهذه رسالة قيمة ألفها الباحث الأخ سعد مثنى الربية ومحورها سورة الحجرات. وهذه السورة الكريمة من السور التربوية المهمة التي وضَعت ضوابط وقواعد للسلوك الاجتماعي في الإسلام.

فنحن مع هذه السورة نتلقى آداب التعامل مع رسول الله ﷺ، موقفًا وصوتًا، في حياته وبعد مماته. ونتلقى أدب التعامل مع ما يقال ويشاع من الأخبار ألا نتلقاها بتصديق إلا بعد التثبت. كما نجد أنفسنا في هذه السورة مع حقوق الأخوة بين المؤمنين، وضوابط النزاع الذي يمكن أن ينشأ بينهم، وربما يصل إلى حدّ الاقتتال.

وفي السورة معالجة لبعض الأمراض الاجتماعية التي تولد سلوكًا خاطئًا بسبب تعكير حقوق الأخوة، ويقطع أواصر المحبة بينهم، ومن ذلك السخرية والغيبة.

وتضع السورة ميزان الحكم على الناس، فليس للإنسان فضل بنسبه ولونه وجنسه، بل المعيار هو التقوى.

إن السلوك المستقيم هو ثمرة العقيدة القويمة، والإيمان الصادق، وذلك ما تقرره هذه السورة الكريمة.

هذه القضايا الاجتماعية والعقدية المهمة تناولها الباحث الكريم بتفصيل بين، وجلاء واضح، يقربها إلى القارئ، في صورة منهج متكامل يضبط إيقاع الحياة الفردية والاجتماعية.

نسأل الله أن يجزي الباحث خير الجزاء على جهده الطيب، وأن يتقبل منه، وأن ينفع الناس بما كتب.

والله ولي التوفيق

تقديم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبة أجمعين ..

أما بعد .. فانه عندما يغيب القرآن الكريم عن صلة الأمة به تلاوة وتدبرًا واستلهامًا لمعانيه واستخراجًا لكنوزه وأسراره وتجاوبًا مع ما يدعو إليه فعلًا وتركًا وخضوعًا واستسلامًا بكامل السمع والطاعة لكل ما يرشد إليه – إن غياب ذلك عن الأمة يورثها الشقاء والفتنة والتيه والتخبط في متاهات إفرازات العقل البشري القاصر العاجز عن إسعاد الإنسان، فشقاء أي أمة على مدى تاريخ الإسلام إنما هو بقدر بعدها عن هدي القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم.

فالقرآن الكريم هو الذكر الذي قال الله تعالى عنه ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ..﴾ وهل الحياة التعيسة التي تعيشها الأمة اليوم إلا بسبب إعراضها عن كتاب ربها، لقد طغت الدنيا بمتاعها وزخرفها وشهواتها على حياة الناس فلم يعد عندهم وقت للالتفات إلى كتاب ربهم ليستهدوا به للخروج من المتاهات التي يعيشون فيها إذا ما أراد الله عز وجل بهم الخير، وأدركتهم رحمته، فسيقودهم إلى صدق العودة إلى كتابه العزيز ليهديهم إلى الصراط المستقيم والطريق الأقوم.

وقد سنحت لي فرصة – بحمد الله تعالى – فعشت بعض الوقت مع كتاب (منهج القرآن في إصلاح المجتمع.. من خلال سورة الحجرات) تأليف أخينا الأستاذ/ سعد مثنى الربيّق وقد حوى كثيرًا من المعالم التي لا يستغني عنها فرد ولا أسرة ولا مجتمع سواء في جوانب البناء بالعمل الجاد في التحلي بالأخلاق الكريمة التي يدعو إليها الإسلام، أو جوانب الترك والإعراض والعزوف عن الأمور التي تهدم بنيان الفرد والأسرة والمجتمع من الأخلاق الذميمة والباحث قد أجاد في إبراز

معالم السورة كما أحسن في التعريج إلى أمور ذات صلة وثيقة بموضوعات السورة فجاءت الرسالة مكتملة في بنيانها وقد استفاد كثيرًا من كثير من المراجع التي نقل عنها نصوصًا مفيدة وربطها ربطًا محكمًا، وما أجدرها بالعناية والاطلاع وتعميم نشرها لتعم الفائدة ، فقد كشفت عن كثير من الأمراض التي تعاني منها أمتنا اليوم ودلت على العلاج الناجع فجزاه الله تعالى خيرًا على جهوده والحمد لله رب العالمين .

وكتبـــه /

د . عبدالوهاب بن لطف الديلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم الشيخ/عبد الرحمن بن يحيى العماد

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبة ومن والاه..

وبعد:

فقد طلب مني الأخ الحبيب الأستاذ الفاضل المربي القدير سعد بن مثنى الربية.. قراءة مؤلفة (منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع من خلال سورة الحجرات)، فاستفدت مما قرأت كثيرًا، فقد أظهر فيما كتب عظمة الإسلام في شموليته، وما اشتملت عليه سورة الحجرات من الأحكام والتعاليم والتوجيهات والآداب في كل جوانب حياة الإنسان – الخاصة والعامة ..

فجمع المؤلف – وفقه الله – ما يتعلق بهذه السورة العظيمة مما كتب في كتب التفسير، وما كان متفرقًا في مؤلفات عدة لجوانب متعددة ومتخصصة، وصاغها صياغة متناسقة وسهلة في مؤلفه المذكور..

ولعل سر نجاح المؤلف فيما كتب الحرص على إرسال رسالة واضحة شاملة لإخوانه وأبنائه..

لمعايشته الاجتماعية والدعوية، وإلمامه بأمراض المجتمع، وسعيه الحثيث لمعالجة ذلك، فوجد في سورة الحجرات ضالته، وبذل جهدًا كبيرًا لإيجاد وصفة قرآنية نبوية لهذه المعاناة..

لذا أنصح طلاب العلم والدعاة وشباب الصحوة الإسلامية المباركة اقتناء هذا الكتاب، وقراءته والاستفادة منه قولًا وعملًا وتعليمًا.

جزى الله المؤلف خيرًا ونفع به وبما كتب..

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه.

كتبه : الفقير إلى رب العباد

عبدالرحمن بن يحيى العماد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله... والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعد:

فقد طلب مني الأخ الحبيب الأستاذ الفاضل المربي القدير سعد بن مثنى الربية.. قراءة مؤلفه (منهج القرآن الكريم في إصلاح الجوانب الاجتماعية من خلال سورة الحجرات)، فاستفدت مما قرأت كثيراً؛ فقد أظهر فيما كتب عظمة الإسلام في شموليته، وما اشتملت عليه سورة الحجرات من الأحكام والتعاليم والتوجيهات والآداب في كل جوانب حياة الإنسان - الخاصة والعامة..

جمع المؤلف - وفقه الله - ما يتعلق بهذه السورة العظيمة مما كتب في كتب التفسير، وما كان متفرقاً في مؤلفات عدة لجوانب متعددة ومتخصصة، وصاغها صياغة متناسقة وسهلة في مؤلفه المذكور..

ولعل سر نجاح المؤلف فيما كتب الحرص على إرسال رسالة واضحة شاملة لإخوانه وأبنائه.. لمعايشته الاجتماعية والدعوية، وإلمامه لأمراض المجتمع، وسعيه الحثيث لمعالجة ذلك؛ فوجد في سورة الحجرات ضالته، وبذل جهداً كبيراً لإيجاد وصفة قرآنية نبوية لهذه المعاناة..

لذا أنصح طلاب العلم والدعاة وشباب الصحوة الإسلامية المباركة اقتناء هذا الكتاب، وقراءته والاستفادة منه قولاً وعملاً وتعليماً.

جزى الله المؤلف خيراً ونفع الله به وبما كتب..

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه،

كتبه: الفقير إلى رب العباد

عبد الرحمن بن يحيى العماد

[signature]

تمهيد بين يدي السورة

إن سورة الحجرات التي لا تتجاوز آياتها ثماني عشرة آية، سورة جليلة عظيمة، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومن حقائق الوجود والإنسانية حقائق تفتح للقلب وللعقل آفاقًا عالية، وآمادًا بعيدة، وتثير في النفس والذهن خواطر عميقة، ومعاني كبيرة؛ وتشمل من مناهج التكوين والتنظيم، وقواعد التربية والتهذيب، ومبادئ التشريع والتوجيه، ما يتجاوز حجمها وعدد آياتها مئات المرات.

وقد عنونت الكتاب:

(منهج القرآن في إصلاح المجتمع – من خلال سورة الحجرات)

والمقصود بالمنهج: الطريق والطريقة التي عالج القرآن الكريم بها هذه الجوانب وقد جاء في لسان العرب ومنهج الطريق: وضَحُه، والمنهاج كالمنهج، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

وأنهج الطريق: وضح واستبان وصار نهجًا واضحًا بينًا[(١)]، والمنهج: الطريق المنهوج، أي: المسلوك[(٢)] والمنهج: وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة[(٣)].

ونهج الأمر: أبانه وأوضحه، والطريق سلكه؛ واستنهج الطريق: صار نهجًا واضحًا، والمنهج بفتح الميم وكسرها، والمنهاج جمعه مناهج: الطريق الواضح ومنه

---

(١) لسان العرب محمد بن مكرم بن منظور، دار الصادر بيروت - الطبعة الأولى ٢/ ٣٨٣.

(٢) التوقيف على مهمات التعريف – محمد عبد الرؤوف المناوي– دار الفكر دمشق– الطبعة الأولى١٤١٠هـ ص٦٨١.

(٣) المعجم العربي الأساسي أحمد العايد وآخرون بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم / الجامعة العربية تونس ١٩٩٩م ص ١٢٣٤.

منهج التعليم[١]. والمقصود هنا طريقة القرآن الكريم في إصلاح خلل المجتمعات.

القرآن: كتاب الله المنزل على رسوله محمد ﷺ، وسمي قرآنا لأنه جمع القصص والأمر والنهي والوعد والوعيد والآيات والسور بعضها إلى بعض، وهو مصدر كالغفران والكفران[٢]، والمقصود من القرآن خصوص ما جاء في سورة الحجرات والآيات التي تتعلق بموضوعاتها .

الإصلاح: نقيض الإفساد، وأصلح الشيء بعد فساده أقامه[٣]، والصلاح نقيض الطلاح ورجل صالح في نفسه ومصلح في أعماله وأموره[٤]، والإصلاح بمعنى التقويم والتغيير والتحسين[٥]. والمقصود بالإصلاح هنا: إقامة المجتمعات على منهج القرآن الكريم الذي يهدف إليه هذا الكتاب.

المجتمع : اجتماعي منسوب إلى الاجتماع، والعلوم الاجتماعية أي: خدمة تقدم للمجتمع أو لمجموعة منه، ورجل اجتماعي: أي مزاول للحياة الاجتماعية كثير المخالطة للناس، وشئون اجتماعية أي تتعلق بجماعة أو مجتمع من الناس[٦]. والهيئة الاجتماعية/ الحالة الحاصلة من اجتماع قوم لهم مصالح مشتركة[٧]، ويقصد هنا: المجتمعات بشكل عام، والمجتمع الإسلامي بشكل خاص

وهذا الموضوع يتناول جانبًا مهمًا من جوانب إصلاح المجتمع المسلم، وتنقيته من الأمراض التي قد تطرأ عليه، بحكم بشريته وضعفه، أو بسبب كيد أعداء الأمة

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام – دار المشرق بيروت – الطبعة الثامنة والعشرون ١٩٨٦م – ٨٤١.

(٢) لسان العرب ١/ ١٢٩.

(٣) المصدر نفسه ٢/ ٥١٦.

(٤) العين – الخليل بن أحمد الفراهيدي - دار ومكتبة الهلال تحقيق / مهدي المخزومي ٣/ ١١٧.

(٥) المعجم العربي الأساسي ص ٧٤٤.

(٦) المصدر نفسه ص ٢٦١

(٧) المنجد – مصدر سابق ١٠١- ١٠٢.

له، والحرص على إبعاده عن شريعته ومنهجه الرباني، وأخلاقه الفاضلة.

لهذه الأهمية، وحبًا في خدمة المجتمع المسلم استعنت بالله واخترت هذا العنوان لكتابي.

أسباب اختيار الموضوع:

اخترت هذا الموضوع للأسباب الآتية:

١- أن موضوع السورة يبين جانبًا من جوانب عظمة الدين الإسلامي، في إصلاح المجتمعات، من خلال إصلاح الأفراد، وبنائهم بناء صحيحًا يقوم على إصلاح العقيدة، والعبادة، والأخلاق، وحسن التعامل، والتأدب مع الله تعالى وكتابه ورسوله، وسنته، والخلق أجمعين.

في حين أن المناهج الأرضية قد عجزت عن إصلاح المجتمعات، بل زادت من شقائها أحيانًا.

٢- أن الكتاب يسهم في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم الذي نحن بحاجته لإصلاح الجوانب الاجتماعية في الأمة، ولنهتدي بهدي القرآن فيما يصحح علاقتنا مع الله تعالى، ومع نبيه، ومع بني البشر من حولنا، فيصبح منهج القرآن منهجنا، وسلوكه سلوكًا شرعيًا لنا ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

٣- ضرورة معايشة القرآن وآدابه، وبالأخص الآداب المستقاة من سورة الحجرات، التي تعتبر مدرسة متكاملة تربى على ضوئها أصحاب محمد ﷺ، إنها مدرسة عقدية وتشريعية وتربوية، قادرة على تربية مجتمع اليوم على سمو الأخلاق وفضائل الأعمال، وعلو الهمم، فما أحوج الأمة إلى الأخذ من هذا المعين الصافي، لإنقاذ أبنائها من هذا الضياع الذي لم يسبق

له مثيل، وما ذلك إلا بسبب البعد عن منهج القرآن، وعدم معايشته قولًا وعملاً وتركًا.

٤- لأهمية الموضوع في حياة الناس، وحاجة المجتمع إليه، وظهور الممارسات المخالفة للآداب الموجودة في السورة، وطغيان المجتمع بعضه على بعض.

٥- لم يجد الكاتب بحسب اطلاعه بحثًا مستقلًا وافيًا يعالج هذه الجوانب الاجتماعية من خلال تلك السورة.

أهمية الكتاب:

تبرز أهمية الكتاب من خلال ما يلي:

١- حاجة المجتمع إلى هذا الكتاب كونه سيعالج - بأذن الله - أمراضًا قائمة.

٢- سيسهم الكتاب في وضع حلول لكثير من معوقات إصلاح المجتمع في جانبه الاجتماعي إنشاء الله.

٣- يعتبر الكتاب من الموضوعات التي تحتاج إلى مزيد من الاهتمام والبحث والشرح لتسهيل تطبيقه في واقع المجتمعات.

٤- تأتي أهمية الكتاب في تنزيل نصوصه الشرعية على واقع المجتمعات.

أهداف الكتاب:

يهدف المؤلف من خلال هذا الكتاب إلى ما يلي:

١- دراسة الجوانب الاجتماعية وتأثيراتها على الفرد والمجتمع وتصحيح الفاسد منها من خلال سورة الحجرات.

٢- تنزيل الأحكام الشرعية والآداب الإسلامية التي حوتها السورة على واقع المجتمع ومطالب المسلمين.

٣- إبراز أهم القضايا الاجتماعية التي عالجتها السورة في قالب واحد، وتطبيقها على واقع المسلمين، ليعطى الفرد المسلم فكرة واضحة عن هذه القضايا تتضمن العلاج الناجع لتلك المشاكل بإذن الله.

٤- الإسهام في سد خلات المجتمع والحد من مشكلاته الاجتماعية ليشيد بنيانه على تقوى من الله.

٥- الإسهام في إثراء المكتبة الإسلامية بالمفيد النافع من البحوث.

٦- طمع المؤلف في تخليد ذكره واستمرار أجره بعد موته، كما جاء في الحديث: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له"(١).

ولعل السورة تبرز أمام النظر أمرين عظيمين للتدبر والتفكر(٢):

١- أنها تكاد تستقل بوضع معالم كاملة، لعالم رفيع كريم نظيف سليم؛ متضمنة القواعد والأصول والمبادئ والمناهج التي يقوم عليها هذا العالم؛ والتي تكفل قيامه أولًا، وصيانته أخيرًا.. عالم يصدر عن دين الله، ويتجه إلى الله.. عالم نقي القلب، نظيف المشاعر، عف اللسان، وقبل ذلك عف السريرة.. عالم له أدب مع الله، وأدب مع رسوله، وأدب مع نفسه، وأدب مع غيره، وأدب في هواجس ضميره، وفي حركات جوارحه(٣).

---

(١) صحيح مسلم – الإمام مسلم النيسابوري – دار أحياء التراث العربي بيروت تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي– كتاب الوصية – باب ما يلحق بالإنسان من الثواب بعد وفاته – ٣/ ١٢٥٥ برقم: ١٦٣١.

(٢) في ظلال القرآن .. سيد قطب – الطبعة الشرعية الخامسة عشرة ١٩٨٨م – دار الشروق القاهرة ٦/ ٣٣٣٥.

(٣) المصدر نفسه ٦/ ٣٣٣٥ .

٢- عالم متميز في التفكير والتشريع والعمل والأخلاق والسلوك، لأنه يتلقى عن الله سبحانه الذي خلقه ويعلم ما يصلحه، وهو يطالبه بإصلاح باطنه وظاهره، ويحاسبه على نيته وعمله، ولذلك ستجد أنه المجتمع المنسجم الموحد المتعاون الذي يؤدي الواجبات وهو يشعر بالراحة والاطمئنان.

الأمر الثاني الذي يبرز للنظر من خلال السورة، ومن مراجعة المناسبات الواقعية التي صاحبت نزول آياتها، هذا النهج الثابت المطرد، الذي تمثله توجيهات القرآن الكريم والتربية النبوية الحكيمة، لإنشاء وتربية تلك الجماعة المسلمة، التي تمثل ذلك العالم الرفيع الكريم النظيف السليم، الذي وجدت حقيقته يومًا على هذه الأرض؛ فلم يعد منذ ذلك الحين فكرة مثالية، ولا حلمًا طائرًا، يعيش في الخيال![1].

وهذه الجماعة لم توجد فجأة، ولم تُبنَ بين عشية وضحاها، بل جاءت بعد بناء استمر سنوات، وبذل في بنائها الجهد البشري حتى لا يقال اليوم أنها نمت بمعجزة خارج نطاق الجهد البشري ولا شك أن رعاية الله وتوفيقه قبل كل شيء كان الأصل في نشأتها، لكن الله سبحانه ترك الأمور تسير وفق سنن ثابتة يستفيد منها كل من يعمل بها، فمن يزرع يحصد، ومن يعمل يجد نتيجة عمله ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [**الإسراء**: ٧]. ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

(ومن خلال الصورة التي رسمتها هذه السورة، ومن خلال الآداب العظيمة التي تضمنتها، فقد مارس المؤلف هذا الموضوع زمنًا طويلًا من خلال عمله الميداني في المجال الاجتماعي، وتأمل هذه السورة الجامعة، وتدبرها، وتكلم عن بعض

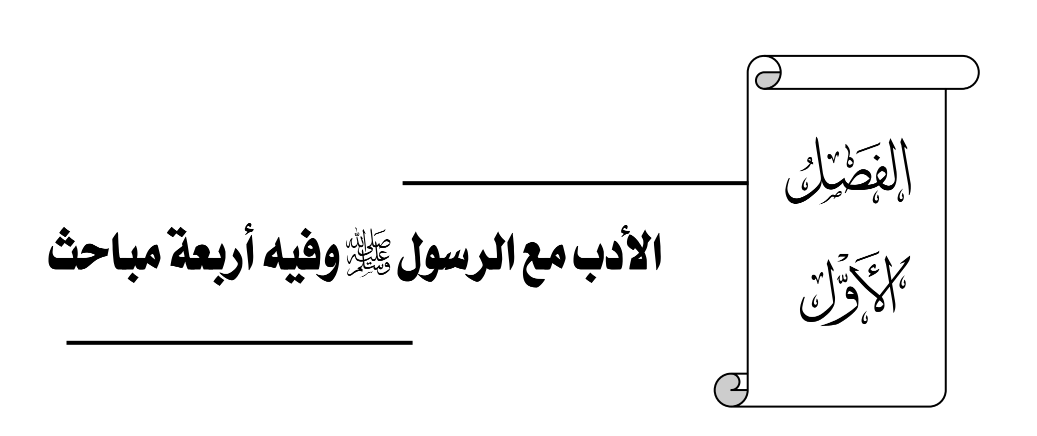
---

(١) المصدر نفسه ٦/ ٣٣٣٧.

مواضيعها، في محاضرات وخطب وخواطر عامة وخاصة، حتى تكونت الفكرة لتكون كتابًا نافعًا، وأرجو أن يكون العمل هذا خالصًا لوجه الله تعالى، ونافعًا للإسلام والمسلمين، وجزءًا من الدعوة إلى الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ اللذين أمر الله بهما وأوجبهما على الأمة).

ولا يخفى على أحد ما للأمراض الاجتماعية التي عالجها القرآن الكريم من خطر على المسلمين أفرادًا ومجتمعات، خاصة إذا استفحل أمرها، وأخذت موقعها، وتمكنت في قلوب المسلمين، فإذا آثارها السيئة تطل برأسها، وتستخدم معولها في هدم بنيان قائم على التقوى، وكلما اشتد خطر هذه العلل، واستفحل أمرها ورجع الناس إلى المنابع الصافية ليستمدوا منها علاجًا شافيًا، عوفوا بإذن الله، وأعظم هذه المنابع وأصلها هو القرآن الكريم الذي تجري على ساحته الرحبة هذه الدراسة، التي تحاول معالجة موضوع المجتمع من خلاله، وأرجو أن يجد في هذا الكتاب مُحِبُّو الفضائل والحريصون على نقاء المجتمع من الأمراض فوائد تيسر لهم معالجة المشكلات الاجتماعية في ضوء النص القرآني المعجز في المعنى والمبنى.

وهذا جهد المقل، والله المسؤول أن يتقبل من الجميع، وأن ينفع به المسلمين والناس أجمعين، وصلى الله على محمد وآله وصحبه، والحمد لله رب العالمين.



المبحث الأول: وجوب التحاكم إلى الشرع
وفيه ستة مطالب.
المبحث الثاني: الأدب مع الرسول ﷺ وعدم تقدمه بأي أمر
وفيه أربعة مطالب.
المبحث الثالث: أدب الصحابة مع النبي ﷺ وتوقيرهم له
وفيه خمسة مطالب.
المبحث الرابع: من لوازم الأدب مع النبي ﷺ
وفيه أربعة مطالب.



المبحث الأول: وجوب التحاكم إلى الشرع
وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: الآيات وأسباب النزول.

المطلب الثاني: وجوب التحاكم إلى الشرع والأدلة عليه.

المطلب الثالث: صلة التحاكم إلى الله ورسوله بالعقيدة.

المطلب الرابع: من ميزات الشريعة الإسلامية الجمع بين الثبات والمرونة.

المطلب الخامس: أبشع أنواع التقدم بين يدي الله ورسوله.

المطلب السادس: التفريق بين النصوص الشرعية وآراء البشر.

المطلب الأول: الآيات وأسباب نزولها:

المسألة الأولى / الآيات:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحُجُرات: ١ - ٥]

المسألة الثانية / أسباب النزول:

أخرج البخاري[١]: عن عبد الله بن الزبير[٢]رضي الله عنهما قال: قدم ركب

(١) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزيه البخاري، ولد سنة ١٩٤هـ وتوفي سنة ٢٥٦هـ، له كتاب صحيح البخاري، أصح كتاب بعد القرآن الكريم (سير أعلام النبلاء - محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. مؤسسة الرسالة١٤١٣هـ الطبعة: التاسعة، المحقق: شعيب الأرناؤوط- ١٢/ ٣٩١).

(٢) عبد الله بن الزبير بن العوام، ولد سنة اثنتين للهجرة وحنكه النبي ﷺ ودعا له، وكان شهما فصيحا، وقد بويع بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية فبقي ثمان سنوات حتى قتل في أيام عبد الملك سنة ٧٣هـ (المصدر نفسه ٣/ ٣٦٣).

من بني تميم على رسول الله ﷺ فقال أبو بكر[١] رضي الله عنه: أمّر القعقاع ابن معبد[٢]وقال عمر[٣] رضي الله عنه: بل أمّر الأقرع بن حابس.

فقال أبو بكر: ما أردت إلا خلافي، وقال عمر: ما أردت خلافك، فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزل في ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ حتى انقضت الآية[٤] .

وأخرج ابن المنذر[٥]عن الحسن البصري[٦]: أن أناسًا ذبحوا قبل رسول الله ﷺ

(١) عبدالله بن عثمان بن عامر بن أبي قحافة القرشي التيمي، ولد بعد الفيل بسنتين وستة أشهر، صحب رسول الله ﷺ سنتين قبل البعثة، وسبق إلى الإيمان به، وكان أول من آمن من الرجال، واستمر مع النبي ﷺ في مكة والغار والهجرة وفي المشاهد كلها إلى أن مات ﷺ وولي الخلافة بعده، فكان أول الخلفاء الراشدين، ومناقبه كثيرة ـ رضي الله عنه ـ توفي سنة ١٣ هـ (الإصابة في تمييز الصحابة، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني– الطبعة الأولى ١٩٩٢م – دار الجيل بيروت – تحقيق علي محمد البجاوي ٤/ ١٦٩).

(٢) القعقاع بن معبد بن زرارة التميمي ألد ارمي، صحابي ولم يذكر تاريخ وفاته (المصدر نفسه ٥/ ٤٥٢).

(٣) عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو حفص أمير المؤمنين (الفاروق)، ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة، أسلم في السنة السادسة من البعثة وكان إسلامه فتحا على المسلمين، شهد المشاهد كلها، توفي رسول الله ﷺ وهو عنه راض، ولي الخلافة بعد أبي بكر الصديق واستشهد سنة ٢٣ هـ، قتله أبو لؤلؤة المجوسي (المصدر نفسه ٤/ ٥٢).

(٤) رواه البخاري مصدر سابق – كتاب التفسير - باب إن الذي ينادونك من وراء الحجرات ٤/ ١٨٣٤ برقم: ٤٥٦٦.

(٥) أبو بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري الحافظ العلامة شيخ الحرم مات بمكة سنة ٣١٨هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٣٣٠).

(٦) الحسن بن يسار، أبو سعيد مولى زيد بن ثابت الأنصاري (البصري). من كبار التابعين، ولد سنة ٢٢هـ وتوفي سنة ١١٠هـ (المصدر نفسه ٤/ ٥٦٣).

يوم النحر، فأمرهم أن يعيدوا الذبح، فأنزل الله تعالى هذه الآية[١].

وأخرج ابن أبى الدنيا[٢] في كتاب الأضاحي بلفظ: ذبح رجل قبل الصلاة، فنزلت الآية.

وأخرج الطبراني[٣] في الأوسط عن عائشة[٤] رضي الله عنها: أن أناسًا كانوا يتقدمون الشهر فيصومون قبل النبي ﷺ فأنزلت[٥].

وأخرج ابن جرير[٦] عن قتادة[٧] قال: ذكر لنا أن أناسًا كانوا يقولون: لو أنزل

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول للأمام جلال الدين السيوطي– دار المعرفة بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٧م

ص ٢٧٢/ ٢٧٤ والدر المنثور - جلال الدين السيوطي - دار الفكر بيروت ١٩٩٣م – ٧/ ٥٤٧.

(٢) عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس الأموي ابن أبي الدنيا البغدادي الحافظ صاحب التصانيف المشهورة المفيدة ولد سنة ٢٠٨هـ وتوفي سنة ٢٨١هـ (طبقات الحفاظ– عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي– دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ١/ ٢٩٨).

(٣) سليمان بن احمد بن أيوب اللخمي الشامي الطبراني أبو القاسم الإمام الحافظ صاحب المعاجم الثلاثة ولد في عكا سنة ٢٦٠هـ توفي باصبهان سنة ٣٦٠هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١٦/ ١١٩).

(٤) عائشة بنت أبى بكر الصديق ولدت بعد البعثة بأربع أو خمس سنوات تزوجها النبي ﷺ وهي بنت ست وقيل سبع ودخل عليها وهي بنت تسع وكانت من أحب نساء النبي إليه وأفقههن وقد روت عن النبي ﷺ الكثير من الأحاديث وتوفيت سنة ٥٨ هـ ودفنت بالبقيع (المصدر نفسه٢/ ١٣٥).

(٥) لباب النقول.. مصدر سابق ص ٢٧٢/ ٢٧٤ والدر المنثور ٧/ ٥٤٧.

(٦) محمد بن جرير بن يزيد أبو جعفر الطبري الإمام المفسر صاحب التصانيف من أهل طبرستان ولد سنة ٢٢٤هـ وتوفي سنة ٣١٠ هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١٤/ ٢٦٧).

(٧) أبو الخطاب قتادة بن دعامة السدوسي البصري الضرير الأكمه حافظ العصر قدوة المفسرين والمحدثين ولد سنة ٦٠هـ وتوفي سنة ١١٨ هـ (المصدر نفسه ٥/ ٢٦٩).

الله فيّ كذا فأنزلت[١].

قال تعالى في الآية الثانية من السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾.

أخرج ابن جرير عن قتادة قال: كانوا يجهرون بالكلام ويرفعون أصواتهم، فأنزل الله الآية.

قال تعالى في الآية الثالثة من السورة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾.

وأخرج ابن جرير عن محمد[٢] بن ثابت بن قيس بن شماس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ قعد ثابت بن قيس[٣] في الطريق يبكي فمر به عاصم بن عدي بن العجلان[٤] فقال: ما يبكيك؟ قال: لهذه الآية،

---

(١) تفسير الطبري – جامع البيان في تأويل القرآن – لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري دار الفكر بيروت ٢٦/ ١١٧. الدر المنثور ٧/ ٥٤٦.

(٢) محمد بن ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري حنكه النبي ﷺ قتل يوم الحرة سنة ٦٣هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٣١٣).

(٣) ثابت بن قيس بن شماس خطيب الأنصار كان من نجباء الأنصار لم يشهد بدرا وشهد أحدا وبيعة الرضوان استشهد يوم اليمامة سنة ١١هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٣٠٨).

(٤) عاصم بن عدي بن الجد بن العجلان بن حارثة حليف الأنصار له صحبة شهد أحدا ولم يشهد بدرا وكان رسول الله ﷺ استعمله على قباء وأهل العالية ولم يذكر تاريخ وفاته (تهذيب الكمال– يوسف أبو الحجاج المزي مؤسسة الرسالة بيروت – الطبعة الأولى ١٩٨٠م تحقيق / بشار عواد معروف ١٣/ ٥٠٧)

أخاف أن تكون قد نزلت فيّ وأنا صبيت (رفيع الصوت)، فرفع عاصم ذلك إلى النبي ﷺ، فدعا به فقال: (أما ترضى أن تعيش حميدًا، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة)؟ قال: رضيت ببشرى الله ورسوله، ولا أرفع صوتي أبدًا على رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ﴾ الآية[1].

قال تعالى: ﴿ ٱلۡكُفَّارِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ عَلَىٰ رُكَّعًا ﴾

أخرج الطبراني وأبو يعلى[2] بسند حسن عن زيد بن أرقم[3] قال: جاء أناس من العرب إلى حُجر النبي ﷺ، فجعلوا ينادون يا محمد، يا محمد، فأنزل الله هذه الآية. وقال عبد الرزاق[4] عن معمر[5] عن قتادة: أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ فناداه من وراء الحُجَر فقال: يا محمد إن مدحي زين، وإن شتمي شين، فخرج إليه النبي

---

(١) تفسير الطبري مصدر سابق ٢٦/ ١١٨. وذكر البخاري القصة بلفظ قريب من هذا وبشره بالجنة أنظر البخاري ٤/ ١٨٣٣ برقم: ٤٥٦٥ كتاب التفسير باب لا ترفعوا أصواتكم وذكره السيوطي في الدر ٧/ ٥٤٩.

(٢) محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد البغدادي الحنبلي صاحب التصانيف المفيدة في المذهب الحنبلي ولد سنة ٣٨٠هـ وتوفي سنة ٤٥٨هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١٨/ ٨٩).

(٣) زيد بن أرقم بن زيد أبو عمرو الأنصاري الخزرجى نزيل الكوفة من مشاهير الصحابة توفي سنة ٦٦هـ (الإصابة - مصدر سابق ٢/ ٥٨٩).

(٤) عبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني الحافظ الكبير عالم اليمن أبو بكر الحميري ولد سنة ١٢٦هـ وتوفي سنة ٢١١هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٩/ ٥٦٣).

(٥) معمر بن راشد بن أبي عمرو الأزدي أبو عروة مولاهم البصري الإمام الحافظ نزيل اليمن ولد سنة خمس أو ست وتسعين هجرية وتوفي سنة ١٥٣هـ (المصدر نفسه ٧/ ٥).

ﷺ فقال: «ويلك إن ذلك هو الله» فنزلت الآية[١].

وأخرج أحمد[٢] بسند صحيح عن الأقرع بن حابس[٣] أنه نادى الرسول ﷺ من وراء الحجرات فلم يجبه، فقال: يا محمد، إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال: «ذلكم الله» وأخرج ابن جرير وغيره عن الأقرع أيضًا أنه أتى النبي ﷺ، فقال: يا محمد، أخرج إلينا، فنزلت[٤].

المطلب الثاني : وجوب التحاكم إلى الشرع والأدلة عليه :

المسألة الأولى / الأدلة من القرآن :

وردت آيات كثيرة جدًا في وجوب التحاكم إلى شرع الله، ونهت عن اتباع ما سواه، وفي بعضها حكم على من خالف ذلك، كنفي الإيمان، أو الوصف بالكفر، أو اتخاذ الأرباب من دون الله، ونحو ذلك، وسنذكر بعض هذه الآيات.

١- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحُجُرات: ١].

---

(١) أخرجه الترمذي - محمد بن عيسى الترمذي – دار إحياء التراث العربي بيروت - تحقيق أحمد محمد شاكر وقال حديث حسن غريب ٥/ ٣٨٧ برقم: ٣٢٦٧ والطبراني في الكبير ١/ ٣٠٠.

(٢) أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الهذلي الشيباني ثم البغدادي إمام أهل السنة والجماعة ولد سنة ١٦٤ هـ وتوفي سنة ٢٤١ هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١١/ ١٧٧).

(٣) الأقرع بن حابس بن عقال بن محمد بن سفيان التميمي المجاشعي وفد على النبي ﷺ وشهد فتح مكة وحنينا والطائف وهو من المؤلفة قلوبهم وقد حسن إسلامه قتل الأقرع بن حابس باليرموك في عشرة من بنيه سنة ١٥هـ (الإصابة مصدر سابق ١/ ١٠١).

(٤) أخرجه أحمد: ٣/ ٤٨٨ برقم: ١٦٠٣٤ وقال السيوطي أخرجه أحمد وابن جرير والطبراني بسند صحيح أنظر لباب النقول ٢٧٢ والدر المنثور٧/ ٥٥٢.

٢- وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[البقرة: ٢٥٦].

٣- وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢- ٣٣].

٤- وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[النساء: ١٠٥].

٥- وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

٦- وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ﴾[الأعراف: ٥٤].

٧- وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

٨- وقال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ﴾[يوسف: ٤٠].

٩- وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

١٠- وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي

ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

١١- وقال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

١٢- وقال تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[المائدة: ٤٧] .

المسألة الثانية/ ما قاله بعض المفسرين في الآية[١] :

قال ابن عباس[٢]: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة.

وقال مجاهد[٣]: لاتفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على لسانه.

وقال الضحاك[٤]: لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم.

---

(١)(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ...)[الحُجُرات:١].

(٢) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنوات في الشعب أثناء الحصار وكان ؓ ترجمان القرآن وحبر الأمة، توفي سنة ٨٤هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٣/ ٣٣١).

(٣) مجاهد بن جبر المخزومي أبو الحجاج ولد سنة ٢١ هـ أخذ التفسير عن ابن عباس توفي وهو ساجد سنة ١٠٤هـ وعمره ٨٣ عاما (المصدر نفسه ٤/ ٤٤٩).

(٤) الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو محمد وقيل أبو القاسم صاحب التفسير كان من أوعية العلم وكبار التابعين توفي سنة ١٠٢هـ (المصدر نفسه ٤/ ٥٩٨).

وقال سفيان الثوري[١]: لا تقدموا بين يدي الله ورسوله، لا تقضوا أمرًا دون رسول الله[٢].

ويقول القاضي أبو بكر بن العربي[٣]: قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أصل في ترك التعرض لأقوال النبي ﷺ، وإيجاب اتباعه والاقتداء به[٤].

ويقول سيد قطب[٥]: «نداء من الله للذين آمنوا به بالغيب، واستجاشة لقلوبهم بالصيغة التي تربطهم به، وتشعرهم بأنهم له، وأنهم يحملون شارته، وأنهم في هذا الكوكب عبيده وجنوده وأنهم هنا لأمر يقدره ويريده، فأولى لهم أن يقفوا حيث أراد لهم أن يكونوا، وأن يقفوا بين يدي الله موقف المنتظر لقضائه وتوجيهه في نفسه وفي غيره، يفعل ما يؤمر، ويرضى بما يقسم، ويسلم ويستسلم... يا أيها الذين آمنوا، لا تقترحوا على الله ورسوله اقتراحًا، لا في خاصة أنفسكم، ولا في أمور الحياة من حولكم، ولا تقولوا في أمر قبل قول الله فيه على لسان رسوله، ولا

---

(١) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبو عبد الله الكوفي المجتهد ولد سنة ٩٧هـ وتوفي سنة ١٦١هـ (المصدر نفسه ٧/ ٢٢٩).

(٢) أنظر هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢٦/ ١١٦-١١٧ وابن كثير ٤/ ٢٢٠.

(٣) أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري الاشبيلي المالكي المعروف بابن العربي ولد سنة٤٦٨ هـ وتوفي سنة ٥٤٣ هـ (طبقات المفسرين - عبدالرحمن السيوطي - مكتبة وهبة القاهرة - ١٣٩٦هـ الطبعة الأولى - تحقيق / علي محمد عمر ١/ ١٨٠).

(٤) أحكام القرآن – لأبن العربي – الطبعة الأولى ٢٠٠١م – دار إحياء التراث العربي بيروت – تحقيق علي محمد البجاوي - ٤/ ١٣١.

(٥) سيد قطب إبراهيم من صعيد مصر ولد عام ١٩٠٦م مفكر إسلامي كبير وعالم مجاهد من أهم مؤلفاته في ظلال القران معالم في الطريق، العدالة الاجتماعية في الإسلام، استشهد عام ١٩٦٦م (أنظر من أعلام الحركة الإسلامية.. المستشار: عبد الله العقيل - دار التوزيع والنشر الإسلامية الطبعة الأولى ٢٠٠٠م ص ٢٣٧).

تقولوا في أمر لا ترجعون فيه إلى قول الله وقول رسوله ﷺ»[(١)].

والآية ترشد إلى أمرين عظيمين، عليهما يدور الإسلام الصحيح، لبناء مجتمع مترابط في الإسلام راسخ البناء، وبغير هذين الأمرين لا يكون:

الأمر الأول: محبة الله تعالى، ومحبة رسوله ﷺ، وهذا هو مقتضى الإيمان الذي وصف الله به هؤلاء المنادين ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ خمس مرات في السورة.

الأمر الثاني: تعظيم أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ ونواهيهما، لأن ذلك هو اللازم لتعظيم الآمر والناهي، فإن الذين لا يعبئون بالأمر والنهي هم المستخفون بالله، وهؤلاء يشملهم قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣][(٢)].

فحقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لا يعارضا بترخص جاف، ولا يعرضا لتشديد غال فإن المقصود هو الصراط المستقيم، الموصل إلى الله ﷻ بسالكه..

والنهي في الآية ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ عام شامل لكل نواهي الكتاب والسنة ولا يجتنب ما حرم الله ورسوله إلا من طبق أوامرهما، وانقاد بهما إيمانًا وتطبيقًا... [(٣)].

وخلاصة المعنى: النهي عن الإقدام على أمر من الأمور دون التقيد بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو معنى قول الله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

(١) في ظلال القرآن.. مصدر سابق. ٤/ ٣٣٣٨.

(٢) منهج الدعوة الإسلامية في البناء الاجتماعي على ضوء ما جاء في سورة الحجرات د/ محمد بن محمد الأنصاري الطبعة الثانية ١٩٩٦م مطابع الصفاء مكة ص ٢٧٣/ ٢٧٤.

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم – الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ دار الكتاب العربي بيروت ص ٢٦.

نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الحشر: ٧].

أي: لاتقدموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله وقول رسوله ﷺ وفعله فيما سبيله أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا.

ومن قدم قوله أو فعله على الرسول ﷺ فقد قدمه على الله تعالى، لأن الرسول إنما يأمر عن أمر الله ﷻ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٣ - ٤][(١)].

المطلب الثالث: صلة التحاكم إلى الله ورسوله بالعقيدة:

يتصور بعض المسلمين أن تحكيم الشريعة من الأمور العملية، وكل ما يتعلق بها من قبيل المعاصي، بينما تحكيم الشريعة جزء من العقيدة الإسلامية التي لا يصح الإيمان بها، إلا بالاحتكام إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[(٢)].

قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ [يوسف: ٤٠].

ولنقف على ما قاله بعض العلماء في ذلك:

١ـ قال ابن تيمية[(٣)] رحمه الله:

---

(١) نظرات في سورة الحجرات – محمد محمود الصواف – الطبعة السادسة ١٩٨٧م– مؤسسة الرسالة بيروت ص ٢٠-٢١.

(٢) الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه - عبد الرحمن بن صالح المحمود. الطبعة الثانية– دار طيبة للنشر والتوزيع ١٩٩٩م الرياض. بتصرف ص ٢١.

(٣) تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي شيخ الإسلام ولد سنة٦٦١هـ وتوفي سنة ٧٢٨هـ (الدرر الكامنه ابن حجر العسقلاني – مطبعة دار المعارف – حيدر أباد الهند – الطبعة الثانية ١٩٧٢ – تحقيق/ محمد عبد المعيد ١/ ١٦٨).

«في قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [يوسف: ٤٠]. فالحكم لله وحده، فما حكم به الرسول، وأمرهم به، وشرعه من الدين، وجب على جميع الخلائق اتباعه وطاعته، فإن ذلك هو حكم الله على خلقه[(١)].

وقال في موضع آخر في معرض بيانه: كما أن الكفر ببعض الرسل كفر ببقيتهم، فكذلك المؤمن ببعض الرسالة دون بعض كافر أيضًا».

ثم قال في آخر كلامه:

«وكما ذم المدعين الإيمان بالكتب كلها، وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله، كما يفعل ذلك كثير ممن يدعي الإسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الصابئة الفلاسفة أو غيرهم، أو إلى سياسة بعض الملوك الخارجين عن شريعة الإسلام من ملوك الترك وغيرهم، وإذا قيل لهم تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضًا»[(٢)].

وقال ابن باز[(٣)] رحمه الله: «وأما شهادة أن محمدًا رسول الله فكثير من الناس لا يفهمها على حقيقتها، وحكموا القوانين الوضعية، وأعرضوا عن شريعة الله، ولم يبالوا بها، جهلاً بها، أو تجاهلاً لها»[(٤)].

---

(١) مجموع الفتاوى – أحمد بن عبد الحليم بن تيمية – ٣٥/ ٣٦٣.

(٢) مجموع الفتاوى – أحمد بن عبد الحليم بن تيمية مصدر سابق ١٢/ ٣٣٩.

(٣) عبد العزيز بن عبدالله بن عبد الرحمن بن محمد بن باز ولد في الرياض عام ١٣٣٠هـ مفتي عام المملكة العربية السعودية توفي ٢٧/ محرم/ ١٤٢٠هـ رحمه الله (الشيخ ابن باز بقية السلف وإمام الخلف.. من إصدارات الندوة العالمية للشباب الإسلامي تقديم د/ مانع بن حماد الجهني رحمه الله ص ١٥،٦، ١٦).

(٤) كتاب التوحيد - لابن باز ص ١٠٤.

إن شهادة أن محمدًا رسول الله تقتضي الإيمان برسول الله ﷺ وطاعته في أوامره، واجتناب نواهيه، وتصديق أخباره وألا يعبد الله إلا بالشريعة التي جاء بها عليه الصلاة والسلام - كما قال ﷻ ـ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧].

فالواجب على المسلمين وعلى جميع الثقلين أن يعبدوا الله وحده، وأن يحكموا نبيه محمدًا ﷺ كما قال ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

(والعبودية لله وحده، والبراءة من عبادة الطواغيت، والتحاكم إليه من مقتضى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، فالله سبحانه هو رب الناس وإلههم، وهو الذي خلقهم، وهو الذي يأمرهم وينهاهم، ويحييهم ويميتهم ويحاسبهم ويجازيهم، وهو المستحق للعبادة دون كل ما سواه، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾، فكما أنه الخالق وحده، فهو الآمر سبحانه، والواجب طاعته)[1].

فهل تنفصل العقيدة عن الشريعة في دين الله:

يحسب كثير من الناس بتأثير الفكر الإرجائي من جهة، وتأثير الغزو الفكري من جهة أخرى، أن النطق بلا إله إلا الله محمد رسول الله، يعطي الإنسان صفة

(١) انظر رسالة وجوب تحكيم شرع الله لابن باز - الطبعة الخامسة ١٤٠٩هـ الرئاسة العامة للدعوة والإرشاد السعودية ص٧.

الإسلام مدى الحياة، ثم يدخله الجنة في الآخرة، مهما تكن أعماله وأفكاره ومشاعره! ومن ثم فلا علاقة لهذا الأمر بتحكيم شريعة الله!

(ويرى فريق آخر من الناس، يعتبرون أنفسهم أكثر تفقهًا في دين الله، أن النطق بالشهادتين يعطي الإنسان صفة الإسلام في الحياة الدنيا، لاصقة به طول حياته، أيًا ما تكن أعماله وأفكاره ومشاعره، وحسابه على الله في الآخرة، يدخله الجنة أو يدخله النار بحسب ما يعلم من سريرته سبحانه، أما نحن فلنا الظاهر، والظاهر هو قول لا إله إلا الله.. ولا علاقة لهذا الأمر بالتحاكم إلى شريعة الله!)[١] وهذا ناتج عن البعد عن فهم الإسلام وعقيدته كما فهمها السلف الصالح.

(ويكفي للرد على هذا الوهم، وذاك أن أبا بكر ﭬ قاتل قومًا ينطقون بالشهادتين، ويؤدون الصلاة كذلك، ولكنهم يمتنعون عن أداء الزكاة فقط. ولو كانت صفة الإسلام في الحياة الدنيا، تظل لاصقة بالإنسان طول حياته، أيا ما تكن أعماله وأفكاره ومشاعره، ما جاز لأبى بكر ﭬ أن يقاتل أولئك القوم، ولا أ جمع الصحابة ﭫ على وجوب قتالهم، إلا بعد أن استوثقوا أن هذا هو حكم الله في الأمر)[٢].

ويبين الله لنا في كتابه المنزل وفي سنة رسوله ﷺ أن هذا الشرك ثلاثة أنواع رئيسية، كل واحد منها شرك، وكل منها ناقض لـ لا إله إلا الله:

الأول: يتعلق بالاعتقاد، وهو اعتقاد وجود آلهة تشارك الله ﷻ في النفع والضر، أو الإحياء والإماتة، أو تدبير الأمر..أو وجود شفعاء يملكون الشفاعة عند الله، فيغيرون حكمه في السماوات والأرض.

---

(١) حول تطبيق الشريعة – محمد قطب – الطبعة الثانية – مكتبة السنة القاهرة – ص ٩.

(٢) المصدر نفسه ص٩.

الثاني: يتعلق بالعبادة، وهو توجيه أي مظهر من مظاهر العبادة لغير الله، معه أو من دونه، كالدعاء والاستغاثة أو النذر أو الذبح.. الخ.

الثالث: يتعلق بالتحليل والتحريم، أي التشريع بغير ما أنزل الله.

ولما كان الاهتمام في هذه العجالة بالنوع الثالث من الشرك، وهو شرك التشريع بغير ما أنزل الله، فسيقتصر الحديث عليه.

فقد بين الله في كتابه المنزل أن الرسل الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - أرسلوا للناس لا ليدعوهم فقط إلى الاعتقاد بأن الله واحد لا شريك له، ولكن ليبينوا لهم كذلك أن العبادة والنسك يجب أن توجه لله وحده بلا شريك، ثم ليبلغوهم تعليمات من ربهم ينظمون بمقتضاها حياتهم وتعاملاتهم بعضهم مع بعض: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وبين سبحانه أن هذه الثلاثة: الاعتقاد، والشعائر، والشرائع، هي مقتضى قول كل رسول لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٥٠].

وأن نقض واحد من هذه الثلاثة، أو إشراك غير الله فيها، ناقض للإيمان.

قال تعالى عن شرك التشريع: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥].

كما قال عن اليهود والنصارى: أنه تعالى ألزمهم بالحكم بشريعته، وأن

مخالفتهم لأمره تخرجهم عن الإيمان:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[المائدة: ٤٦ - ٤٧].

وقال تعالى في بيان أن التشريع بغير ما أنزل الله شرك مخرج عن الإيمان مخاطبًا المشركين أو منددًا بهم: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾[الأعراف: ٣].

وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[الشورى: ٢١].

وقال تعالى عن اليهود والنصارى كذلك في هذا الشأن: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[التوبة: ٣١][1].

(١) المصدر نفسه ص ١٢ ـ ١٥.

أما ابن القيم[(١)]- $ - فيربط بين العقيدة والتحاكم في مواضع عدة من كتبه، ومن ذلك ما قاله شرحًا لحديث: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً»[(٢)] حيث قال بعد كلام طويل: «وأما الرضى بنبيه رسولاً، فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق لأمره، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتة، ثم قال: وأما الرضى بدينه، فإذا قال، أو حكم، أو أمر، أو نهى، رضي كل الرضى، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه، وسلم له تسليما»[(٣)].

وماذا بعد حكم الله ورسوله ﷺ إلا الأهواء والنزوات الطائشة الرعناء، وأحكام الجاهلية التي لا تعرف إلا التفكير في الشهوات، والدوران حولها؟.!!

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

وخلاصة القول: إن الله سبحانه وتعالى أدب المؤمنين بهذا الأدب ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهو نهي عام شامل لكل ما يشغل ويصرف عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام، فلا يجوز لأي أحد مهما كانت منزلته ـ

---

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي بن قيم الجوزية الحنبلي أبو عبد الله تلميذ الشيخ ابن تيمية ولد سنة ٦٩١هـ ومات سنة ٧٥١ هـ (الرد الوافر – محمد بن أبي بكر – المكتب الإسلامي بيروت – الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ تحقيق / زهير الشاويش ١/ ٦٨).

(٢) رواه مسلم – كتاب الإيمان – باب الدليل على أن من رضي بالله رب وبالإسلام دينا فهو مؤمن ١/ ٦٢ برقم: ٣٤.

(٣) مدارج السالكين – محمد بن أبي بكر أيوب ابن القيم – الطبعة الثانية ١٩٧٣م دار الكتاب العربي بيروت ٢/ ١٧٢.

آمن بالله إلهًا مشرعًا وبرسوله ﷺ رسولاً صادقًا أمينًا - لا يجوز له أن يتصرف فيما يخصه أو يخص غيره أو يعمه مع غيره إلا بعد أن يستفتي الله ﷻ من كتابه العزيز، ورسوله ﷺ من سنته المطهرة.

ما حكمهما في المراد، وبيانهما المفصل أو المجمل، المقيد أو المطلق، العام أو الخاص لأن ذلك جزء من عقيدته..؟! [(١)].

المطلب الرابع: **من ميزات الشريعة الإسلامية الجمع بين الثبات والمرونة:**

حتى لا يتصور أحد أن الشريعة نصوص جامدة لا تلبي مطالب الناس في عصورهم المختلفة، أو أنها مفتوحة الباب للتبديل والتغيير والتزييف لكل من هب ودب، ذكرنا هذا المطلب لتوضيح ما هو الثابت الذي لا يدخله التغيير، والمرن المتروك لاجتهاد أهل الاجتهاد من الثقاة في كل زمان ومكان.

إن من مزايا التشريع الإسلامي أنه يجمع بين الثبات والمرونة:

فالثبات في الأصول والأهداف.. والمرونة في الفروع والوسائل، فهو بمرونته يستطيع أن يتكيف ويواجه التطور، ويلائم كل وضع جديد، وهو بثبات أصوله وأهدافه يستعصي على الذوبان والميوعة، والخضوع لكل تغيير.

إن مهمة هذا التشريع أن يصوب الخطأ، وأن يقوم المعوج، لا أن يخضع له. ويبرر قيامه، ويصحح وجوده، باسم التطور.

إن هذا التشريع لم يضعه المجتمع حتى يخضع له، وينحني لظروفه وأوضاعه، ولكنه وضع للمجتمع ليرقى به، ويخضع ظروفه وأوضاعه لهدايته وتوجيهه، فكلمة هذا التشريع هي العليا لأنها كلمة الله.

---

(١) انظر منهج الدعوة.. مصدر سابق ص ٢٨٥.

ليس معنى هذا أن الناس مشلولون أمام هذا التشريع، كلا، فإن للاجتهاد البشري مجالاً كبيرًا في هذا التشريع: الاجتهاد في فهم نصوصه، والاستنباط منها، وتفاوت درجات هذه النصوص في ثبوتها، ودلالتها من حيث القطعية والظنية، يعطي فسحة أي فسحة لاجتهاد المجتهدين والاجتهاد في استنباط الأحكام لما لا نص فيها، عن طريق القياس الصحيح أو اعتبار المصلحة المرسلة، والاستحسان، أو غير ذلك من الأدلة التي تختلف في تقديرها آراء الفقهاء، باختلاف مشاربهم ومدارسهم.

فهناك منطقة محرمة لا يدخلها الاجتهاد، وهي منطقة (القطعيات) من الأحكام التي جاءت بها النصوص المحكمة، وأجمعت عليها الأمة وتلقتها بالقبول جيلاً، بعد جيل كفرضية الصلاة والزكاة والحج والصيام، وتحريم الزنى والربا وشرب الخمر والميسر وتحديد أنصبة المواريث، وعدد الطلاق والوفاة ونحوها، فلا يجوز بحال أن يوضع شيء من هذه الأمور وما ماثلها موضع الجدل والنقاش، كأن يبحث بعض الناس في جواز تعطيل فريضة الزكاة أو الحج توفيرًا للعملة الصعبة، أو تعطيل الصيام تشجيعًا للإنتاج، أو إباحة الزنى والخمر وما يتبعهما ترغيبًا في السياحة، أو إباحة الربا دعما لمشروعات التنمية والإنتاج!!

وهناك منطقة مفتوحة بل مناطق مفتوحة للاجتهاد البشري في مجال التشريع الإسلامي وهي منطقة (الظنيات) من الأحكام. وهي كثيرة، بل أكثر الأحكام الشرعية العملية ظنية. هناك الاجتهاد في الأخذ من النصوص بين مضيق يقف عند ظاهر النص وحرفيته، كأصحاب المدرسة الظاهرية. وبين موسع يأخذ بفحوى النص وإشارته وروحه. كأئمة المذاهب المتبوعة على تفاوت بينهم. وهناك (الاجتهاد) فيما لا نص فيه، ومجال هذا فسيح عند الفقهاء، من اعتماد القياس إلى المصلحة إلى الاستحسان، إلى العمل بشرع من قبلنا، إلى الأخذ بقول الصحابي. إلى

غير ذلك من الأدلة والاعتبارات، وهناك قواعد تشريعية مأخوذة من استقراء النصوص والوقائع الشرعية مثل: الضرر يزال.. الضرر لا يزال بالضرر.. يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.. والأدنى لدفع الأعلى.. الضرورات تبيح المحظورات.. ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها.. المشقة تجلب التيسير.. درء المفسدة يقدم على جلب المصلحة...إلى غير ذلك مما هو منثور في كتب الفقه، ومجموع في كتب القواعد والأشباه والنظائر(١).

إن واقع المسلمين اليوم لا تخفى حالته على أحد منهم، وكل يصفه من أنه واقع متدهور، مضطرب، مهدد، مشتت، مستضعف، خطير، محاصر بالعدو، مدخول فيه، مختلط بالفساد، والمنكرات كل ذلك يعود إلى شيء واحد، وهو أن كثيرًا من المسلمين لا يستحيون ولا يخجلون أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله ﷺ، فيحكمون الكفر في أنفسهم، ويقلدون الضلال، فيتخذون منه أدبًا وأخلاقًا، ويبتدعون ما لم يأذن به الله ورسوله ﷺ(٢). ونسوا شريعة الإسلام التي هي سبب صلاح دنياهم وآخرتهم. والشريعة التي جمعت بين الثبات والمرونة قادرة على حل مشاكل الناس اليوم إن آمنوا بها وطبقوها في حياتهم.

المطلب الخامس: **أبشع أنواع التقدم بين يدي الله ورسوله:**

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ [الحُجُرات: ١].

ولعل أبشع أنواع التقدم بين يدي الله ورسوله هو تحكيم شرع غير شرعه،

(١) انظر شريعة الإسلام.. خلودها وصلاحها للتطبيق في كل زمان ومكان - د/ يوسف القرضاوي الطبعة الثالثة ١٩٨٣م المكتب الإسلامي بيروت - ص ٢٢/ ٢٣.

(٢) انظر منهج الدعوة..مصدر سابق ص ٢٨٦.

والاحتكام إلى أهواء الناس.

إذا كان الله تعالى قد نهى عن أن نسبق رسوله ﷺ بكلمة، أو المشي أمامه، أو ذبح قبله، أو الظهور في مكان عام، كأننا أهم منه عند الناس، فكيف بتغيير حكمه والاحتكام إلى أهواء الناس القاصرة.

لأنه لا حرية للمسلم في نفسه ولا في غيره، ما دام قد استسلم لله وقبله حكمًا، وآمن به وبرسله وبكتبه، وليقيم بذلك شاهدًا للإيمان من نفسه، وليباين ظن الجاهلية، التي تحرص كل الحرص على التفريق بين جوانب حياة المسلم وشريعته، فتدعو هذا وتسميه دينًا وللدين، وتدعو ذاك دنيا وللقوانين الوضعية، أو تسمي بعض أموره بالأحوال الشخصية، وما بقي للقانون، والأهواء، والعادات، وهذا هو عين الشرك، إن خالف الشرع وهو أعم من أن يكون عمليًا فقط، بل هو عملي واعتقادي وسلوكي[(١)].

فإن كثيرًا من الناس اليوم يقدمون آراءهم على كلام الله وكلام رسوله، ويتصورون أنفسهم مجتهدين، وكم ظهر على الناس من منتقد لأحكام الله بغير علم، وإنما تلبية لدعوة أعداء الأمة، أو رغبة في شهوة عاجلة، وكل ذلك تقدم بين يدي الله ورسوله في كثير من جوانب الحياة.

أليست التربية على غير منهج الله تعالى وهو القرآن الكريم، وعلى غير طريقة الرسول ﷺ من التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ..؟!

أليس الحكم بقوانين وضعية بشرية صنعها المسلمون، أو صُنعت لهم مناقضة للشريعة، أليس ذلك من التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ..؟! أليست المعاملات الربوية التي تضخم حرامها في البنوك، وفي اقتصاد بعض المسلمين أفرادًا وجماعات

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٨٥.

ودولاً، أليس ذلك من التقدم بين يدي الله ورسوله ﷺ؟[(1)].

والله تعالى يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ - ٢٧٩].

وبعـد:

فقد اتضح لنا مما سبق خطورة الحكم بغير ما أنزل الله، وأنه أشد أنواع التقدم بين يدي الله ورسوله، فإذا كان الاقتراح على الله ورسوله يعتبر تقدمًا، فكيف بالتشريع من دونه؟ بل كيف بمن يعتبر حكم الله تخلفًا ولا يصلح لعصرنا؟!

ولن تصلح مجتمعاتنا اليوم إلا إذا التزمت بمنهج القرآن الكريم في كل شؤونها، وتأدبت مع كتاب ربها وسنة نبيها، ولم تتقدمهما في شيء، وهذا منهج القرآن الذي أصلح الأمة في ما مضى، وسيصلحها اليوم بإذن الله.

المطلب السادس: **التفريق بين النصوص الشرعية وآراء البشر:**

عندما تحكم الأهواء يظهر التحريف لشرع الله طلبًا لعرض الدنيا، وإرضاء للحكام. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

---

(١) المصدر نفسه.. ص ٢٨٥.

وهذا أمر خطير أن يتحول الدين إلى بيع وشراء، وإلى تجارة أو إلى تصفية حسابات بين العلماء، ولعل هذا الأمر من أخطر الأمور التي تجعل الأمة تبتعد عن تحكيم شريعتها وتصبح آراء البشر بديلاً عن الشريعة، وقد تكون هذه الآراء باسم الشريعة، أو باسم العلمانية، أو باسم العصرية، أو باسم المصلحة، أو أحكام القبلية، أو غير ذلك، فكل رأي مخالف للكتاب والسنة والإجماع فهو مردود كان صاحبه من كان.

قال سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآية: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

«وذلك لقاء السكوت، أو لقاء التحريف، أو لقاء الفتاوى المدخولة!، وكل ثمن هو في حقيقته قليل، ولو كان ملك الحياة الدنيا، فكيف وهو لا يزيد على أن يكون رواتب ووظائف وألقابًا ومصالح صغيرة، يباع بها الدين، وتشترى بها جهنم عن يقين، إنه ليس أشنع من خيانة المستأمن، وليس أبشع من تفريط المستحفظ، وليس أخس من تدليس المستشهد، وبعض الذين يحملون عنوان (رجال الدين) يخونون، ويفرطون، ويدلسون فيسكتون عن العمل لتحكيم ما أنزل الله، ويحرفون الكلم عن مواضعه، لموافقة أهواء الحكام على حساب كتاب الله تعالى»[1].

وبرغم كثرة مصائب الأمة الإسلامية اليوم الداخلية والخارجية، أضيف لها مصيبة الفتاوى المشتراة، واعتبار تلك الفتوى جزءًا من الشريعة الإسلامية، ومن خالفها فقد خالف الشرع، وإن لم يكن عليها دليل من كتاب، ولا سنة، واليوم في كثير من البلدان وفي كثير من المجالات أصبحت هذه القضية (قضية الفتاوى بغير تروٍّ، وبغير خوف من الله أحيانًا) تصبح سيفًا مصلتًا بيد الحكام يضربون به من يشاءون، فتجد مثلاً:

---

(١) في ظلال القران.. مصدر سابق ٢/ ٨٩٧.

١- من يفتي بجواز الصلح مع اليهود وهم يحتلون أرض المسلمين، ويقتلون إخوانهم، ويدنسون مقدساتهم، وينتهكون حرماتهم، ويتطاولون إلى خارج فلسطين لمحاربتهم عسكريًا واقتصاديًا وأخلاقيًا، وغير ذلك.

٢- وتجد أيضًا من يحاول من خلال الفتوى إضعاف المقاومة الجهادية في فلسطين، وأن الاستشهادي الذي يفجر نفسه ليقتل أعداء الله منتحرًا، وهذا تحطيم لمعنويات البعض من الأبطال الذين مازالوا يرفعون رأس هذه الأمة المنكوبة، ويذلون أعداء الله من اليهود والنصارى.

٣- وتجد من يفتي بجواز التعاون مع الكفار ضد إخوانه المسلمين.

٤- وتجد من يفتي بضلال وفسق إخوانه الدعاة لخلاف شخصي، أو مذهبي، أو حزبي أو فكري فرعي، وهو بالمقابل يكيل المديح للحكام الظلمة، وأعوانهم الفجرة، الذين عرفوا على أقل تقدير بولائهم لأعدائهم أعداء الإسلام، و بتضييعهم الواجبات مثل الصلاة، ومعاملتهم بالحرام مثل أكل الربا، وتشجيع الفاحشة والاختلاط، ومنع الحجاب والفضائل، ومع ذلك تجد أن الداعية الذي يختلف معه أهل الفتوى المتعجلة، أو المشتراة، الداعية ضال مضل، والفاجر المرتكب للكبائر ولي الله والمؤمنين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والحل في هذه المصيبة هو الالتزام بمنهج القرآن الكريم، ومنهج النبي ﷺ، والسلف الصالح في وضع الأمور في نصابها، وأخذ أحكام القرآن الكريم والسنة متكاملة، وعدم تجزئتها، ومعرفة مقاصد الشريعة الإسلامية، والبعد عن الأهواء والحكم بها على المخالفين بالتفسيق والتكفير دون أدلة قطعية من نصوص الكتاب والسنة الصحيحة، وكذلك التورع عند إصدار الفتوى ومراقبة الله في ذلك، ولأن

نخطئ في تبرئة مذنب خير ألف مرة من أن نخطئ في إدانة بريء.

وقد قال ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[(١)]، وفي حديث الخروج على الحكام الظلمة، قال ﷺ: «إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان»[(٢)] وكثير من هؤلاء يحاكمون النيات التي لا يعلمها إلا الله سبحانه.

(١) رواه البخاري مصدر سابق – كتاب الإيمان – باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ١/ ٢٧ برقم: ٤٨.

(٢) المصدر نفسه – كتاب الحيل – باب قول النبي سترون بعدي أمورًا تنكرونها ٦/ ٢٥٨٨ برقم: ٦٦٤٧ .



المبحث الثاني: الأدب مع الرسول ﷺ وعدم تقدمه بأي أمر وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الأدب لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: الإيمان برسالته ﷺ.

المطلب الثالث: وجوب محبته ﷺ.

المطلب الرابع: الحياء منه ﷺ.

المطلب الأول: **تعريف الأدب في اللغة والاصطلاح:**

المسألة الأولى: تعريف الأدب لغة:

قال ابن منظور[١]/ الأَدَبُ: الذي يَتَأَدَّبُ به الأَديبُ من الناس؛ سُمِّيَ أَدبًا لأَنه يَأْدِبُ الناسَ إِلى المحامد، ويَنْهاهم عن المقابح، وأَصل الأَدْبِ: الدُّعاءُ، ومنه قيل للصَّنِيع يُدْعَى إِليه الناسُ: مَدْعاةٌ و مَأْدُبَةٌ.

ولكلمة الأدب استعمالان: حسن الخلق، ودرس العلوم العربية.

والاستعمال الأول هو الشائع.

أما الاستعمال الثاني فهو اصطلاح جاء بعد الإسلام.

وخلاصة القول: أن كلمة الأدب كانت تطلق عند العرب على الأخلاق الحسنة. وأما بعد الإسلام فهي تطلق بجانب ذلك على الكلام الحسن والجيد من الأقوال، سواء كان نثرًا، أو شعرًا، والاستعمال الأول هو الذي يتمشى مع مقامنا هذا[٢].

المسألة الثانية: الأدب في الاصطلاح:

كلمة الأدب في الاصطلاح: لا تخرج عن المعنى اللغوي الذي أشرنا إليه آنفًا.

(فحقيقة الأدب استعمال الخلق الجميل؛ ولهذا كان الأدب استخراج ما في الطبيعة من الكمال من القوة إلى الفعل، فإن الله سبحانه هيأ الإنسان لقبول الكمال بما أعطاه من الأهلية والاستعداد التي جعلها فيه كامنة كالنار في الزناد، فألهمه

---

(١) محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي، جمال الدين أبو الفضل - ولد سنة ٦٣٠ هـ، وتوفى سنة ٧١١هـ ، الدرر الكامنه مصدر سابق ١٦/٦.

(٢) لسان العرب.. مصدر سابق بتصرف ٢٠٦/١.

ومكنه وعرفه وأرشده؛ وأرسل إليه رسله، وأنزل إليه كتبه؛ لاستخراج تلك القوة التي أهله بها لكماله إلى الفعل؛ قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ١٠].

فعبر عن خلق النفس بالتسوية الدالة على الاعتدال والتمام، ثم أخبر عن قبولها للفجور والتقوى، وأن ذلك نالها منه امتحانًا واختبارًا، ثم خص بالفلاح من زكاها فنماها وعلاها ورفعها بآدابه التي أدب بها رسله وأنبياءه وأولياءه، وهي التقوى، ثم حكم بالشقاء على من دساها فأخفاها وحقرها وصغرها وقمعها بالفجور، والله سبحانه وتعالى أعلم)[١].

أما الأدب مع الرسول ﷺ فيعني: كمال التسليم له، والانقياد لأوامره، وتلقي خبره بالتصديق والقبول.

فمن الأدب مع الرسول الكريم أن لا يتقدم بين يديه بأمر أو نهي، ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو، وينهى ويأذن، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وهذا باق إلى يوم القيامة ولم ينسخ، فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته كالتقدم بين يديه في حياته، ولا فرق بينهما عند ذي عقل سليم[٢].

قال أبو عبيدة[٣]: «تقول العرب: لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب، أي لا تعجلوا بالأمر والنهي دونه، وقال غيره: لا تأمروا حتى يأمر، ولا تنهوا حتى

---

(١) مدارج السالكين.. مصدر سابق ٢/ ٣٨٧.

(٢) مدارج السالكين.. مصدر سابق ٢/ ٣٨٩.

(٣) معمر بن المثنى التيمي بالولاء البصري، تابعي جليل ومن أوعية العلم، ولد سنة ١١٠هـ وتوفي سنة ٢٠٩هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٩/ ٤٤٥).

ينهى»(١).

ومن الأدب معه ﷺ أن لا تُرفع الأصوات فوق صوته، فإنه سبب لحبوط الأعمال، فما الظن برفع الآراء، ونتائج الأفكار على سنته وما جاء به؟ أترى ذلك موجبًا لقبول الأعمال، ورفع الصوت فوق صوته موجبًا لحبوطها؟

ومن الأدب معه ـ ﷺ: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره، قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[النور: ٦٣].

ومن الأدب معه ﷺ أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع ـ من خطبة، أو جهاد، أو رباط - لم يذهب أحدٌ منهم مذهبًا في حاجته حتى يستأذنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ﴾[النور: ٦٢](٢).

(ورأس الأدب معه ﷺ كمال التسليم له والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارض خيال باطل، يسميه معقولاً أو يحمله شبهة أو شكٌ، أو يقدم عليه آراء الرجال، فيفرده بالتحكيم والتسليم، والانقياد والإذعان ولا يرضى بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته، ومن يعظمه، فإن أذنوا له نفذه وقبل خبره، وإلا أعرض عن أمره وخبره وفوضه إليهم، وربما حرفه عن مواضعه وسمى

(١) البينات في تفسير سورة الحجرات إعداد/ عبد المجيد البيانوني دار نور المكتبات جدة - الطبعة الثانية ١٩٩٩م ص٥٧.

(٢) موسوعة نضرة النعيم/ مجموعة من الباحثين - إشراف الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد - الطبعة الأولى ١٩٩٨م دار الوسيلة للنشر - جده ٢/ ١٤٧.

تحريفه: تأويلاً وحملاً، فقال: نؤوله ونحمله، ولأن يلقى العبد ربه بكل ذنب على الإطلاق عدا الشرك بالله ـ خيرٌ له من أن يلقاه بهذه الحال)[1].

المطلب الثاني: **الإيمان برسالته ﷺ:**

الإيمان برسالته ﷺ أصل الآداب كلها، لأن الإيمان به ركن من أركان العقيدة، وأساس من أسس الدين، وأما غيره من الآداب فتابع له، بحيث إذا اختل هذا الركن تختل معه الآداب الأخرى، وعلى هذا فأول ما يطلب من الأنام تجاه رسول الله ﷺ الإيمان به بعد الإيمان بالله تعالى، بل إنهما متلازمان لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥٢].

وسوف يتطرق الباحث في هذا المطلب إلى المسائل المتعلقة بهذا الموضوع وهي على النحو التالي:

المسألة الأولى: تعريف الإيمان لغةً واصطلاحًا: -

- الإيمان في اللغة:

(الإيمان مصدر آمن يؤمن إيمانًا، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم على

(١) مدارج السالكين.. مصدر سابق ٢/ ٣٨٧.

أن الإيمان معناه التصديق) [١].

- **الإيمان في الاصطلاح:**

الإيمان عند جمهور أهل السنة هو التصديق بالجنان والإقرار باللسان والعمل بالأركان، أي اعتقاد وقول وعمل.

والإيمان قول باللسان واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح[٢].

ومن هذا يتبين أن الإيمان به ﷺ يستلزم ثلاثة أمور هي:

أ- الإيمان به ﷺ باطنًا جازمًا بذلك دون شك.

ب- شهادة اللسان بذلك إظهارًا لما في قلبه ما لم يكن صاحبه عاجزًا عن ذلك.

ج- العمل بمقتضى ما جاء به النبي ﷺ دون اعتراض أو ترك.

المسألة الثانية: حكم الإيمان به ﷺ:

الإيمان به ﷺ واجب على كل مكلف بلغته الدعوة الإسلامية على الوجه الصحيح، والأدلة على ذلك كثيرة في القرآن والسنة.

أدلة القرآن تنقسم إلى قسمين:

أ- قسم يشهد له ولغيره من الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام.

ومنها قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ

---

(١) لسان العرب.. مصدر سابق ١/ ٢٨٩.

(٢) مجموع الفتاوى.. مصدر سابق ٧/ ٥٠٦.

غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠- ١٥١].

ب- قسم يشهد له خاصة:

وأما ما يشهد له ﷺ خاصة فمنها:

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴾ [الفتح: ١٣].

أدلة السنة تنقسم إلى قسمين أيضًا:

أ- ما يشهد له ولغيره من الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ جميعًا:

فمنه إجابة النبي ﷺ لجبريل ـ عليه السلام ـ بعدما سأله عن الإيمان، حيث قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث»(١).

ب- ما يشهد له ﷺ خاصة، وهي كثيرة، منها قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس

---

(١) البخاري.مصدر سابق- كتاب الإيمان- باب سؤال جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة ١/ ٢٧ برقم ٥٠.

حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»(١).

ومنها ما أخرجه مسلم(٢) عن أبى هريرة(٣)رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهوديًا ولا نصرانيًا ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»(٤).

والنصوص السابقة تفيد وجوب الإيمان به ﷺ من عدة وجوه:

الأول:

الأمر بالإيمان به ﷺ ـ كما يفيده قوله تعالى:

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

الثاني:

تسمية من لم يؤمن به كافرًا، كما يفيد قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ

(١) المصدر نفسه – كتاب الإيمان – باب فإن تابوا واقاموا الصلاة ١/ ١٨ برقم: ٢٥.

(٢) مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد القشيري النيسابوري صاحب الصحيح توفي بنيسابور سنة ٢٦١هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١٢/ ٥٥٧).

(٣) عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني المعروف بأبي هريرة الإمام الفقيه المجتهد الحافظ صاحب رسول الله ﷺ سيد الحفاظ الأثبات توفي سنة ٥٩هـ (المصدر نفسه ٢/ ٥٧٨).

(٤) رواه مسلم.. مصدر سابق – كتاب الإيمان – باب وجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ ١/ ١٣٤ برقم ١٥٣.

وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾[النساء: ١٥٠- ١٥١].

الثالث:

الوعيد لمن لم يؤمن به ﷺ بإدخاله العذاب، كما يدل عليه قوله تعالى:﴿ وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾[الفتح: ١٣].

الرابع:

الأمر بقتال من لم يؤمن به ﷺ، كما يدل عليه قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»[(١)][(٢)].

المسألة الثالثة: ثمار الإيمان بنبوته ﷺ:

ثمار الإيمان بالله ورسوله كثيرة، نذكر بعضًا منها:

أ- الاستخلاف والتمكين في الأرض والاستقرار فيها، كما يقول تعالى:﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ

---

(١) البخاري مخرج في الهامش (٢).

(٢) التأدب مع الرسول ﷺ في ضوء الكتاب والسنة - حسن نور حسن – سنة النشر ١٩٩١م، دار المجتمع للنشر جده ص ١٤٢، وما بعدها بتصرف.

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾[النور: ٥٥].

ب- البشرى في الدنيا والآخرة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤] والمراد بالبشرى في الحياة الدنيا الرؤيا الصالحة، وأما في الآخرة فهي الجنة[1].

ج- الهداية إلى الصراط المستقيم، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج: ٥٤].

د- الحياة الطيبة والجزاء الحسن كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[النحل: ٩٧].

هـ- النصر في الدنيا وفي الآخرة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾[غافر: ٥١].

(١) الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد الأنصاري القرطبي الطبعة الثانية ١٣٧٢م - دار الشعب القاهرة ٨/٣٥٨.

و- قبول الأعمال الصالحة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾[الأنبياء: ٩٤].

ز- دخول الجنة، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢].

المطلب الثالث: وجوب محبته ﷺ:

المحبة من الأمور الخفية التي لا يطلع عليها إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولكن يمكن الاستدلال عليها ومعرفتها بالعلامات الظاهرة، مثل الاتباع والطاعة، ولهذا قال الله تعالى في شأن من ادعى محبة رسول الله ﷺ اختبارا لهم: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

ومحبته ﷺ من موجبات الإيمان، بل من الإيمان نفسه، كما يدل عليه قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله ووالده وولده والناس أجمعين»(١) وفي هذا الحديث جمع الرسول ﷺ أقسام المحبة التي تكون بين الناس، وهي ثلاثة:

أ- محبة إجلال وإعظام، كمحبة الولد والده.

ب- محبة إشفاق ورحمة، كمحبة الوالد ولده.

ج- محبة مشاكلة واستحسان، كمحبة سائر الناس.

---

(١) أخرجه البخاري..مصدر سابق- كتاب الإيمان- باب حب الرسول ﷺ من الإيمان١/ ١٤برقم: ١٥.

ومحبته ﷺ فوق هذا كله، كما يفيد أفعل التفضيل في قوله: (أحب إليه)[١].

وفي هذا المطلب سوف يتحدث الباحث عن المسائل المتعلقة بهذا الموضوع، وهي على النحو التالي:

المسألة الأولى: معنى المحبة:

المحبة في اللغة: يقول الفيروز آبادي[٢] في مادة الحب: «الحب: الوداد كالحباب، والحب بكسرها، والمحبة والحباب بالضم[٣]».

«والحب نقيض البغض، والحب الوداد، والمحبة، وكذلك الحب بالكسر»[٤].

أما المحبة في الاصطلاح: فقد ذهب العلماء إلى أن لفظها يدل عليها، وتحديد معناها بألفاظ أخرى لا يحقق الغرض من إيضاحها.

يقول القاضي عياض[٥]- رحمه الله - مبينًا ذلك:

«اختلف الناس في تفسير محبة الله ومحبة النبي ﷺ، وكثرت عباراتهم في ذلك، وليست ترجع بالحقيقة إلى اختلاف مقال، ولكنها اختلاف أحوال، فقال سفيان:

---

(١) التأدب مع الرسول.. مصدر سابق ص ١٥٤ بتصرف.

(٢) محمد بن يعقوب بن محمد بن الفيروز أبادي، ولد سنة ٧٢٩هـ بكار زين بفارس، من أئمة اللغة والأدب، وكان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، عاش ٨٨ عامًا، وتوفي سنة ٨١٧هـ في زبيد باليمن، وأشهر مؤلفاته القاموس المحيط (الشقائق النعمانية العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم – طاشكبري زاده – دار الكتاب العربي بيروت – ١٣٩٥هـ – ص ٢١).

(٣) القاموس المحيط.. للفيروز أبادي – المؤسسة العربية للطباعة والنشر بيروت ١/ ٩٠.

(٤) لسان العرب.. مصدر سابق ١/ ٢٨٩.

(٥) القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي ثم السبتي المالكي، الإمام العلامة أبو الفضل، ولد سنة ٤٧٦هـ، وتوفى سنة ٥٤٤هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٢٠/ ٢١٢).

المحبة اتباع الرسول، كأنه التفت إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ..﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال بعضهم: محبة الرسول اعتقاد نصرته، والذب عن سنته، والانقياد لها وهيبة مخالفته. وقال بعضهم: المحبة دوام الذكر للمحبوب. وقال آخر: إيثار المحبوب وقال بعضهم: المحبة الشوق إلى المحبوب. وقال بعضهم: المحبة مواطأة القلب لمراد الرب، يحب ما أحب، ويكره ما كره. وقال آخر: المحبة ميل القلب إلى موافق له، ثم قال: وأكثر العبارات المتقدمة إشارة إلى ثمرات المحبة دون حقيقتها، وحقيقة المحبة: الميل إلى ما يوافق المحبوب»[١].

المسألة الثانية: أنواع المحبة:

قسم العلماء المحبة إلى عدة أنواع: فمنهم من قسمها إلى طبيعية واختيارية، ومنهم من قسمها إلى حسية ومعنوية، ومنهم من قسمها حسب الأسباب الموجبة لها، مثل اللذة، والنفع، والفضل. ومنهم من قسمها بحسب الرتب والدرجات.

وقد قسم الراغب الأصفهاني[٢] المحبة إلى قسمين[٣]، حيث قال:

أحدهما: طبيعي، وذلك في الإنسان والحيوان.

الثاني: اختياري، ويختص به الإنسان، وهو على أربعة أضرب:

---

(١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى– القاضي عياض بن موسى اليحصبي– الطبعة الأولى ٢٠٠١م – دار الفكر لبنان٢/ ٣٩٠.

(٢) الحسين بن محمد بن الفضل الأصبهاني أبو القاسم، العلامة الماهر، المحقق الباهر، صاحب التصانيف، كان من أذكياء المتكلمين، توفي سنة ٥٠٢هـ رحمه الله (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١٨/ ١٢٠).

(٣) التأدب مع الرسول.. مصدر سابق ص ١٥٦.

١- للشهوة، وأكثر ما يكون ذلك بين الأحداث.

٢- للمنفعة، وأكثر ما يكون بين التجار وأرباب الصناعات المهنية.

٣- ما يكون مركبًا من ضربين كمن يحب آخر للنفع وذلك يحبه للشهوة.

٤- للفضيلة، كمحبة المتعلم للعالم.

ثم قال: «وهذه المحبة ـ أي الأخيرة ـ باقية على مرور الأوقات، وهي المستثناة في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾[الزُّخرُف: ٦٧].

وهو يعني المحبة في الله، وهي بين المؤمنين، سواء كانوا علماء وطلابًا كما ذكر، أو غيرهم ممن يشتغلون بالصناعات والأعمال الأخرى، ولا تختص بالعالم والمتعلم فقط.

المسألة الثالثة: علامات محبته ﷺ:

المحبة من الأمور القلبية التي لا يطلع عليها إلا من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ولكن الله جعل لها دليلاً عمليًا وعلامات كثيرة، وهنا بعضٌ من علاماتها:

أ- الإيثار: إيثار النبي ﷺ على النفس، كما يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر: ٩].

والآية وإن كانت عامة في إيثار المهاجرين، إلا أنه ﷺ هو رئيس المهاجرين

وقائدهم وهو المحبوب الأول من الخلق أساسًا.

ب- بغض من أبغض الله ورسوله ـ مهما كانت صلته ورتبته، لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾: نزلت في أبى عبيدة بن الجراح[١]، حين قتل أباه يوم بدر.

﴿أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾: في الصدِّيق، همّ يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن[٢].

﴿أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ﴾: في مصعب بن عمير[٣]، قتل أخاه عبيد.

---

(١) عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي المكي، أحد السابقين الأولين، ومن عزم الصديق على توليته الخلافة، وأشار به يوم السقيفة لكمال أهليته عند أبي بكر، يجتمع مع النبي ﷺ في النسب في فهر، روى أحاديث معدودة وغزا غزوات مشهودة ، توفي سنة ١٨هـ وله ثمان وخمسون سنة (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٥).

(٢) عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، شقيق أم المؤمنين عائشة، حضر بدرا مع المشركين، ثم أسلم وهاجر قبيل الفتح، توفي سنة ٥٣هـ (المصدر السابق ٢/ ٤٧١).

(٣) مصعب بن عمير – السيد الشهيد السابق البدري القرشي، أول سفير في الإسلام قدم إلى المدينة، كان من أغنياء مكة، قتل يوم أحد- رضي الله عنه – السنة الثالثة للهجرة (المصدر نفسه ١/ ١٤٥).

﴿أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ﴾: في عمر، قتل قريبًا له يومئذ أيضًا. وقيل: إن الآية نزلت في حاطب بن أبي بلتعة[1]، لما كتب إلى أهل مكة بمسير النبي ﷺ عام الفتح..)[2].

ج- حب من أحب رسول الله ﷺ، أي عكس الصورة السابقة، لقوله ﷺ: (الله الله في أصحابي، لا تتخذوهم غرضًا من بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه)[3].

المسألة الرابعة: ثمار محبته ﷺ:

ثمار محبته ﷺ كثيرة، وهذه أهمها وشواهدها:

١- أن محبته ﷺ تؤدي إلى مرافقته في الجنة.

ومما يدل على ذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، حيث قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: (و ما أعددت لها)؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله قال: (فإنك مع من أحببت)[4].

٢- ومن ثمار محبته ﷺ أنها من الخصال الموجبة لحلاوة الإيمان، قال ﷺ: (ثلاث

---

(١) حاطب بن أبي بلتعة، من مشاهير المهاجرين، شهد بدرا والمشاهد كلها، وكان رسول رسول الله ﷺ إلى المقوقس صاحب مصر، مات سنة ٣٠هـ (المصدر نفسه ٢/ ٤٣).

(٢) تفسير القرطبي مصدر سابق ١٧/ ٣٠٨.

(٣) رواه الترمذي مصدر سابق ٥/ ٦٩٦ برقم٣٨٦٢ وحسنه السيوطي في الجامع الصغير- فيض القدير عبدالرؤوف المناوي الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ١٩٩٨م مكتبة نزار الباز مكة تحقيق: حمدي الدمرداش ٣/ ١٣٠٩وضعفه الألباني ضعيف الجامع ص١٦٣/ برقم ١١٦٠.

(٤) رواه البخاري.. مصدر سابق – كتاب الأدب - باب علامة الحب في الله ﷻ ٥/ ٢٢٨٣ برقم: ٥٨١٩.

من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[١].

٣- ومن ثمار محبته ﷺ مرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، لحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله: إنك أحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك، فما أصبر حتى آتى وأنظر إليك، وإذا ذكرت موتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإني إذا دخلت خشيت أن لا أراك[٢]، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[النساء: ٦٩].

٤- ومن ثمار محبته ﷺ إتمام إيمان من اتصف بها، لقوله ﷺ: (فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أ كون أحب إليه من والده وولده) [٣].

(١) المصدر نفسه – كتاب الإيمان – باب حلاوة الإيمان ص ١/ ١٤ برقم: ١٦.

(٢) مجمع الزوائد - علي بن أبي بكر الهيثمي– دار الريان القاهرة ودار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٧هـ ٧/ ٧. والمعجم الأوسط للطبراني – دار الحرمين – القاهرة – سنة النشر ١٤١٥هـ ١/ ١٥٢ برقم: ٤٧٧. وقال السيوطي: أخرجه الطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والضياء المقدسي في صفة الجنة وحسنه عن عائشة– الدر المنثور ٢/ ٥٨٨ وقال مقبل الوادعي: له شواهد تزيده قوة انظر الصحيح المسند من أسباب النزول ص٨١ الطبعة الثانية– دار القدس صنعاء ١٩٩٤م.

(٣) رواه البخاري.. مصدر سابق – كتاب الإيمان - باب حب الرسول ﷺ من الإيمان١/ ١٤ برقم: ١٤.

المطلب الرابع: **الحياء منه ﷺ:**

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣].

الحياء من الحياة، ومنه الحياء للمطر، لكن هو مقصور، وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيى كان الحياء أتم، قال الجنيد[(١)] رحمه الله: الحياء رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء، وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق[(٢)].

والحياء منه ﷺ دليل قاطع على توقير الصحابة له، ومن أهم أمور الحياء عدم مخالفته ﷺ، واتباعه، وتطبيق سنته.

والحياء منه يأتي من تذكرنا لمقابلتنا له عند الحوض، وقد كان الصحابة يستحون منه حق الحياء، فيقتدون به في كل أمر، بل بلغ من كثير منهم أنهم لا يستطيعون وصفه ﷺ حياء منه.

وفي تأثير هيبة الرسول ﷺ في حياته و تأثير وفاته في القلوب، قال أنس رضي الله عنه: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء كل شيء منها،

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي ثم البغدادي، شيخ الصوفية، ولد سنة نيف وعشرين ومئتين، توفي سنة ٢٩٨هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١٤/ ٦٦).

(٢) مدارج السالكين.. مصدر سابق ٢/ ٢٥٩.

فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم كل شيء منها»[١].

وهذا أبو سفيان بن الحارث[٢] بعد أن حسن إسلامه يقال إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله منذ أسلم حياء منه، وكان رسول الله يحبه، وشهد له بالجنة، وقال: «أرجو أن يكون خلفًا من حمزة[٣]، ولما حضرته الوفاة قال: لا تبكوا علي، فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت»[٤].

وفي حديث عائشة أن صفية بنت حيي[٥] كانت تزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت لترجع إلى منزلها، وكان ذلك ليلاً، فقام النبي ﷺ ليمشي معها حتى بلغ دارها، وكان منزلها في دار أسامة بن زيد في جانب

---

(١) نوادر الأصول في أحاديث الرسول– محمد بن علي بن الحسن الترمذي– دار الجيل بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٢م تحقيق: عبد الرحمن عميرة ٢/ ١٣٧، وابن حبان ١٤/ ٦٠١ برقم: ٦٦٣٤، واحمد ٣/ ٢٢١ برقم: ١٣٣٣٦، والحاكم ٣/ ٥٩ برقم: ٤٣٨٩ وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه.

(٢) أبو سفيان بن الحارث (هو ابن عم النبي ﷺ) ابن عبد المطلب بن هاشم أخو نوفل وربيعة تلقى النبي ﷺ في الطريق قبل أن يدخل مكة مسلما فانزعج النبي ﷺ وأعرض عنه لأنه بدت منه أمور في أذية النبي ﷺ فتذلل للنبي ﷺ حتى رق له ثم حسن إسلامه – مات سنة ٢٠هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٢٠٢).

(٣) حمزه بن عبد المطلب القرشي الهاشمي المكي البدري، أبو عمارة، الإمام البطل الضرغام، أسد الله، عم رسول الله، وأخوه من الرضاعة استشهد يوم أحد، في السنة الثالثة للهجرة، قتله وحشي (المصدر نفسه ١/ ١٧١).

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ يوسف بن عبد الله بن عبد البر – الطبعة الأولى ١٤١٢هـ – دار الجيل بيروت – تحقيق علي محمد البجاوي ٤/ ١٦٧٤.

(٥) صفية بنت حيي بن أخطب – رضي الله عنها – من سبط هارون بن عمران، سباها النبي يوم خيبر، فاصطفاها لنفسه، فأسلمت وأعتقها وجعل عتقها صداقها، وقيل وقعت في سهم دحية الكلبي، فاشتراها رسول الله ﷺ وتزوجها، توفيت سنة ٥٠هـ (صفة الصفوة – عبد الرحمن بن علي أبو الفرج ابن الجوزي– دار المعرفة بيروت – الطبعة الثانية ١٩٧٩م – ٢/ ٥١).

المدينة، فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، وفي رواية تواريا،أي حياء منه ﷺ لكون أهله معه، فقال لهما ﷺ: «على رسلكما، إنها صفية بنت حيي»، أي لا تسرعا، وأعلما أنها صفية بنت حيي، أي زوجتي. فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا، أو قال شرًا»(١).

وعن حذيفة بن اليمان(٢)- رضي الله عنهما - أن الناس تفرقوا عن رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب فلم يبق معه إلا اثنا عشر رجلاً، فأتاني رسول الله ﷺ وأنا جاثٍ من البرد، وقال: «يا ابن اليمان قم فانطلق إلى عسكر الأحزاب فانظر إلى حالهم» قلت يا رسول الله: والذي بعثك بالحق ما قمت إليك إلا حياء منك من البرد، قال: «فابرز الحرة وبرد الصبح، انطلق يا ابن اليمان، ولا بأس عليك من حر ولا برد حتى ترجع إلي»، قال: فانطلقت إلى عسكرهم، فوجدت أبا سفيان(٣) يوقد النار في عصبة حوله قد تفرق الأحزاب عنه، قال: حتى إذا جلست فيهم، قال: فحسب أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم، قال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، قال: فضربت بيدي على الذي عن يميني، وأخذت بيده ثم ضربت بيدي على الذي عن يساري، فأخذت بيده فلبثت فيهم هنية ثم قمت، فأتيت رسول الله

---

(١) رواه البخاري. مصدر سابق- كتاب الجهاد والسير- باب ما جاء في بيوت أزواج النبي ﷺ ٣/ ١١٣٠ برقم ٢٩٣٤.

(٢) حذيفة بن اليمان العبسي، شهد أحداً، وكان من كبار الصحابة، وأمين سر رسول الله ﷺ، توفي عام ٣٦ هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٢/ ٣٦١).

(٣) صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، رأس قريش وقائدهم يوم أحد والخندق، وله هنات وأمور صعبة، ولكن تداركه الله يوم الفتح فاسلم، وكان من دهاة العرب وأشرافهم، وكان أسن من رسول الله ﷺ بعشر سنين، ومات بعده بعشرين سنة، توفي بالمدينة سنة إحدى وثلاثين وله نحو التسعين (المصدر نفسه ٢/ ١٠٥).

ﷺ وهو قائم يصلي، فأومأ إلي بيده أن ادن، فدنوت، ثم أومأ إلي أيضًا أن ادن، فدنوت حتى أسبل علي من الثوب الذي كان عليه وهو يصلي، فلما فرغ من صلاته قال: «ابن اليمان اقعد، ما الخبر»؟ قلت: يا رسول الله، تفرق الناس عن أبي سفيان، فلم يبق إلا عصبة توقد النار، قد صب الله عليهم من البرد مثل الذي صب علينا، ولكنا نرجو من الله ما لا يرجون[١]وعن عمران بن حصين[٢]- رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»[٣]، وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي أنه قال: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[٤]. و كان رسول الله أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه، «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[٥]وفي هذا قولان: أحدهما أنه أمر تهديد، ومعناه: أي من لم يستح صنع ما شاء، والثاني أنه أمر إباحة، أي انظر إلى الفعل الذي تريد أن تفعله فإن كان مما لا يستحيى منه فافعله والأول أصح. وقال ﷺ: «استحيوا من الله حق

(١) المستدرك على الصحيحين - محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري - الطبعة الأولى ١٤١١هـ دار الكتب العلمية بيروت – تحقيق مصطفى عبد القادر عطاء – ٣ / ٣٣ برقم: ٤٣٢٥ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. وهو في تهذيب سيرة ابن هشام ص ١٧٥.

(٢) عمران بن حصين بن عبيد، أبو نجيد الخزاعي، صاحب رسول الله ﷺ، ولي قضاء البصرة، وغزا مع رسول الله أكثر من مرة، وكان ممن اعتزل الفتنة، توفي سنة ٥٢ هـ (الإصابة مصدر سابق ٤/ ٧٠٥).

(٣) رواه البخاري – كتاب الأدب – باب الحياء ٥/ ٢٢٦٧ برقم: ٥٧٦٦.

(٤) رواه مسلم – كتاب الإيمان - باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها ١/ ٦٣ برقم: ٣٥.

(٥) رواه البخاري.. مصدر سابق – كتاب التفسير - باب أم حسبت أن أصحاب الكهف ٣/ ١٢٨٤ برقم: ٣٢٩٦.

الحياء» قالوا إنا نستحيي يا رسول الله، قال: «ليس ذلكم، ولكن من استحيى من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء»[1].

وعليه فالحياء من النبي ﷺ يعني اتباعه، والالتزام بسنته، والسير على طريقه، وقد كان الصحابة كذلك، فهذا ما يجب أن يكون عليه المسلمون اليوم، وهو المنهج القرآني الذي يبعد الناس عن الغلو في النبي ﷺ والجفاء في وقت واحد.

(١) المستدرك مصدر سابق ص ٤/ ٣٥٩ برقم: ٧٩١٥ وقال حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي وقال السيوطي صحيح أخرجه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن ابن مسعود - فيض القدير ٢/ ٩٥٩ وحسنه الألباني صحيح الجامع ١/ ٢٢٢/ برقم٩٣٥.



المبحث الثالث: أدب الصحابة مع النبي ﷺ وتوقيرهم له وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: في مجالسته ﷺ

المطلب الثاني: في الاستئـــذان

المطلب الثالث: غض الصوت عنده ﷺ

المطلب الرابع: صفة مناداته ﷺ

المطلب الخامس: صور من توقير الصحابة له ﷺ

المطلب الأول: **في مجالسته ﷺ:**

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجُرات: ١- ٣].

للمؤمنين آداب يتأدبون بها أمام رسول الله ﷺ، سواء كان ذلك في الجلوس معه في المسجد، أو البيت، أو في مكان عام، وهي جزء من إيمانهم به وتوقيرهم له.

ويجب على المسلم تجاه مقام النبوة عدم إزعاجه، سواء في الحضور عنده بغير إذن، أو الجلوس في بيته في فترة من الزمن، والانشغال بالحديث بعد الانتهاء من الغرض الذي من أجله أذن له، لما يترتب عليه من إيذاء للنبي ﷺ.

في حين أنه لا يقدر أن ينبه على من تصدر عنه هذه الأفعال حياء منه ﷺ، كما تشير إليه الفقرة الأولى من آية الحجاب، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّۚ ...﴾ [الأحزاب: ٥٣].

من هذه الفقرة من الآية الكريمة يتبين عدة أمور مرغوب عنها في المجتمع المسلم، وخاصة في بيوت رسول الله ﷺ، وهي دخول البيوت بغير إذن، والتطفل، وانتظار نضج الطعام، والمكث في البيوت بعد انتهاء الغرض الذي من أجله أذن لهم.

وهذه الأمور ينبغي أن يطهر منها المجتمع الإسلامي في ذلك الحين وإلى الأبد، لأنها من الأمور المتبقية من العادات الجاهلية التي لا تتمشى مع روح الإسلام السامية[١].

عن أنس بن مالك[٢] رضي الله عنه قال: «أنا أعلم بهذه الآية آية الحجاب، لما أهديت زينب إلى رسول الله ﷺ كانت معه في البيت، وصنع طعامًا، ودعي إليه القوم فقعدوا يتحدثون، فجعل النبي ﷺ يخرج ثم يرجع، وهم قعود يتحدثون، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾ [الأحزاب: ٥٣]. إلى قوله: ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ﴾، فضرب الحجاب وقام القوم»[٣].

وعليه فإن الله قد أعطى اهتمامًا كبيرًا بالأدب مع رسول الله ﷺ ومع نسائه حال وجوده في بيته، أخذًا من هذه الآية وغيرها من الآيات الأخرى التي جاءت لمناسبات شتى.

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا

(١) التأدب مع الرسول.. مصدر سابق ص ٢٤٤.

(٢) أنس بن مالك بن النضر الأنصاري، خادم رسول الله ﷺ، كثر ماله وولده وعمر بدعاء النبي له بذلك، توفي سنة ٩٣هـ. (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٣٧).

(٣) رواه البخاري.. مصدر سابق -كتاب التفسير- باب قوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم ٤/ ١٧٩٩ برقم: ٤٥١٤.

يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجُرات: ٤ - ٥].

وهذه الآداب المتعلقة ببيت النبي ﷺ، وإن كانت وردت في حقه ﷺ وقت حياته يلتزمها المسلمون فيما بينهم أثناء حياته ﷺ، وبعد مماته لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[1].

ويلتزمون على وجه الخصوص في مجالسته بالآداب التالية:-

١- الإصغاء إليه، واحترام حديثه.

٢- عدم رفع أصواتهم على صوته.

٣- المبادرة إلى تنفيذ أوامره.

٤- التفسيح في مجلسه ﷺ.

المطلب الثاني: **في الاستئذان:**

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحُجُرات: ٣].

وإذا كان مطلوب غض الصوت عنده ﷺ كما سيأتي، فمن باب أولى عدم الخروج من مجلسه إلا بإذنه، خاصة في الأوقات الهامة، فقد يكون ﷺ يرغب في تنفيذ أمر عن طريق فرد، أو بقائه لديه، أو غير ذلك.

فمن الأدب مع النبي ﷺ عدم الخروج من مجلسه إلا بإذنه، بل البقاء معه إلا لضرورة قصوى، وخاصة إذا كان هناك أمر مهم يتطلب المشاورة والاستعانة بأهل

---

(١) التأدب مع الرسول.. مصدر سابق ص ٢٤٨.

الرأي، مثل أوقات الحرب والشدة، على عكس ما كان مطلوبًا في حالة وجوده مع نسائه في بيته ﷺ، لأنه يقال: لكل مقامٍ مقال، ولكل مقالٍ مقام، وهنا اختلاف المقالتين لاختلاف المقامين.

وقد ذكر الله تعالى مراعاة مقام النبوة في حالة وجوده في ملأ من الناس، وشهد لمن يلتزم مراعاة ذلك الجانب بالإيمان بالله ورسوله، في أسلوب حصر، كأنهم هم المؤمنون وحدهم، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: ٦٢].

ويتبين من نص هذه الآية الكريمة، الآداب التي ينبغي أن تراعى في مجلس رسول الله ﷺ من الاستئذان إذا نوى أحد أن يخرج منه، وإن كان ذلك خلاف الأولى لتذييل الآية بطلب الاستغفار من الرسول لمن يستأذن، مع تفويض الرسول ﷺ قبول الاستئذان أو عدمه لمن يشاء، تقديرًا للموقف والملابسات المحيطة به.

«وهذا يشير إلى مغالبة الضرورة، وأن عدم الانصراف هو الأولى، وأن الاستئذان والذهاب فيهما تقصير أو قصور يقتضي استغفار النبي ﷺ للمعتذرين: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. وبذلك يقيد ضمير المؤمن فلا يستأذن وله مندوحة لقهر العذر الذي يدفع به الاستئذان»[١].

ويدخل تحت هذا المفهوم ـ الاستئذان من الرسول ﷺ بالخروج من مجلسه وقت خطبته ﷺ ـ وإن كان هناك خلاف حول معنى الأمر الجامع في الآية الكريمة،

---

(١) في ظلال القرآن.. مصدر سابق ٤/ ٢٥٣٥.

هل هو في الحرب خاصة؟ أم يعم جميع الاجتماعات الأخرى كالجمعة والعيدين؟

وللعلماء رأيان في الأمر الجامع:

الرأي الأول: للإمام ابن العربي، حيث يقول: بأن الأمر الجامع مخصوص في الحرب مؤيدًا ذلك بأدلة، منها: قوله تعالى في الآية: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ..﴾[النور: ٦٣]. وذلك أن المنافقين كانوا يتلوذون ويخرجون عن الجماعة ويتركون رسول الله ﷺ، فأمرهم الله ألا يخرجوا حتى يأذن لهم الرسول ﷺ، وبذلك يتبين إيمانهم. ومنها: ﴿لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾، فأي إذن في الحديث والإمام يخطب وليس للإمام خيار في منعه ولا إبقائه، وقد قال: ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ﴾ فبين بذلك أنه مخصوص في الحرب التي يؤثر فيها التفرق، أما إن الآية تدل بقوة معناها على أن من حضر جماعة لا يخرج إلا لعذر بين أو بإذن قائم من مالك الجماعة ومقدمها وذلك أن الاجتماع كان لغرض، فما لم يتم الغرض لم يكن للتفرق أصل، وإذا كمل الغرض جاز التفرق[1].

الرأي الثاني: فريق آخر من العلماء ذهبوا إلى أن الأمر الجامع يعم جميع الاجتماعات من حرب وصلاة جمعة وعيدين وغيرها من الأمور الأخرى التي تقتضي اجتماع المسلمين مع قائدهم الرسول ﷺ، ومن هؤلاء الإمام ابن كثير[2] ـ رحمه الله تعالى ـ حيث يقول في تفسير هذه الآية: «وهذا أيضًا أدب أرشد عباده

---

(١) أحكام القرآن – ابن العربي – مصدر سابق ٣/ ٣٦٢.

(٢) إسماعيل بن عمر بن كثير البصري الدمشقي، حافظ ومؤرخ فقيه ولد سنة ٧٠١هـ، وتوفي سنة ٧٧٤هـ من مؤلفاته: البداية والنهاية، وتفسير القرآن العظيم..(طبقات المفسرين، أحمد بن محمد الأدنروي، مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة، الطبعة الأولى١٩٩٧م، ١/ ٢٦٠).

المؤمنين إليه، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف، لاسيما إذا كانوا في أمر جامع مع الرسول ﷺ من صلاة جمعة أو جماعة أو اجتماع في مشورة ونحو ذلك، أمرهم الله ألا يتفرقوا عنه في الحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته، ومن يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين»[١].

قال القرطبي[٢]: «القول بالعموم أولى وأرفع وأحسن وأعلى»[٣].

ومما يرجح القول الثاني، وهو أن الأمر الجامع يعم كل الاجتماعات، قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [الجمعة: ١١].

يظهر من سياق هذه الآية أن بعض الصحابة أو جلهم خرجوا من عند رسول الله وهو قائم يخطب، وكان خروجهم لأمور دنيوية بحتة، وهي التجارة، بحيث آثروا التجارة القادمة إلى المدينة على استماع رسول الله ﷺ، ولهذا نبههم الله ـ سبحانه وتعالى ـ على أن البقاء مع رسول الله ﷺ خير لهم، بخلاف ما صدر عنهم ولا يليق بمقام النبوة[٤].

«وتشير الآية إلى حادث معين، حيث كان رسول الله ﷺ يخطبهم في المسجد للجمعة حين حضرت قافلة من قوافلهم التجارية، فما أعلن نبأ قدومها حتى

---

(١) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير –الطبعة السابعة ١٩٩٥م دار المعرفة للنشر بيروت ٣/ ٣٠٧.

(٢) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله، مؤلف الجامع لأحكام القرآن، توفي سنة ٦٧١ هـ (طبقات المفسرين- عبد الرحمن السيوطي – مكتبة وهبة القاهرة – الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ ص ٩٢).

(٣) تفسير القرطبي.. مصدر سابق ١٢/ ٣٢١.

(٤) التأدب مع الرسول.. مصدر سابق ص ٢٥٢.

انفض المستمعون منصرفين إلى التجارة، واللهو الذي كانت القافلة تحاط به على عادة الجاهلية، من ضرب بالدفوف وحداء وهيصة، وتركوا رسول الله ـ ﷺ قائمًا فيما عدا اثني عشر من الراسخين، فيهم أبو بكر وعمر بقوا يستمعون كما تذكر الروايات»[(١)].

وخلاصة القول: إن الآيتين المذكورتين في هذه الفقرة ترشدان المسلمين إلى الآداب التي يجب على المسلم أن يتحلى بها في مجلس رسول الله ﷺ، سواء كان الأمر الجامع خاص بالحرب، أو إنه يعم كل الاجتماعات، أو إن الآية الأولى تتعلق بالحرب، بينما الآية الثانية تتعلق بالخطبة وما يجري مجراها، وهذه الآداب محلها في حال حياته ﷺ، وأما بعد مماته فتنتقل إلى من بعده من الخلفاء الراشدين ومن في حكمهم.

المطلب الثالث: **غض الصوت عنده ﷺ:**

من المعلوم أن الرسول ﷺ هو المصدر الوحيد الذي يتلقى عنه المسلمون تعاليم الله سبحانه وتعالى، سواء كان قرآنًا أو سنة أو حديثًا قدسيًا، لذلك يجب عليهم أن يتأدبوا معه ﷺ أثناء كلامه معهم أو كلامهم معه، وذلك بخفض الصوت وترك الجهر العالي.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ

(١) في ظلال القرآن.. مصدر سابق ٤/ ٣٥٦٣.

﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجُرات: ١ - ٥].

والأدب هنا يحصل بأمرين اثنين:

الأول: عدم رفع الصوت فوق صوته ﷺ، أخذًا من النهي الوارد في قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ..﴾.

الثاني: عدم الجهر بالقول له ﷺ كجهر بعضهم لبعض، أخذًا من النهي الوارد في قوله تعالى: ﴿ ...وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾. وقد التزم الصحابة رضوان الله عليهم بهذا الأدب مع رسول الله ﷺ في عهده كما ورد في الآثار:

منها قول أبى بكر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: «والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله»[١].

ومنها قول ابن الزبير - رضي الله عنهما - قال: «فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه»[٢]. وهذان النموذجان من أبى بكر وعمر رضي الله عنهما يمثلان سائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، الذين شاهدوا التنزيل، وتأدبوا بآدابه، ووقفوا عند حدوده، ينفذون أوامره، ويتركون نواهيه دون إبطاء أو تأخير[٣].

---

(١) المستدرك مصدر سابق٢/ ٥٠١. برقم ٣٧٢٠. وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه. وخرجه الحافظ في الفتح ٨/ ٥٩١.

(٢) البخاري – كتاب التفسير – باب لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي – ٤/ ١٨٣٣ برقم: ٤٥٦٤.

(٣) التأدب مع الرسول.. مصدر سابق ص ١٧٩ بتصرف.

«فهكذا ارتعشت قلوبهم وارتجفت تحت وقع ذلك النداء الحبيب، وذلك التحذير الرهيب؛ وهكذا تأدبوا في حضرة رسول الله ﷺ خشية أن تحبط أعمالهم وهم لا يشعرون، ولو كانوا يشعرون لتداركوا أمرهم! ولكن هذا المنزلق الخافي عليهم كان أخوف عليهم، فخافوه واتقوه!»[1].

ولأجل هذا الامتثال السريع من قبل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين امتدحهم الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾.

هكذا كان الأمر في حياته ﷺ، وأما بعد مماته فكذلك يجب على المسلم أن يتأدب مع رسول الله ﷺ بحيث لا يرفع صوته عند سماع أحاديثه ﷺ، لأن حرمته ميتًا كحرمته حيًا سواء بسواء، وإن أحاديثه تقوم مقامه.

وقد كره العلماء رفع الصوت عند قبره الشريف ﷺ، كما كان يكره في حياته وبين يديه لأنه ﷺ محترم حيًا وفي قبره دائمًا وأبدًا[2].

«وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهر ما يقصد به الاستخفاف والاستهانة، لأن ذلك كفر، والمخاطبون مؤمنون، وإنما الغرض صوت هو في نفسه والمسموع من جرسه غير مناسب لما يهاب به العظماء ويوقر الكبراء، فيتكلف الغض منه ورده إلى حد يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير، ولم يتناول النهي أيضًا رفع الصوت الذي لا يتأذى به رسول الله ﷺ، وهو ما كان منهم في حرب، أو مجادلة معاند أو إرهاب عدو، أو ما أشبه ذلك، ففي الحديث أنه قال عليه الصلاة السلام للعباس بن عبد المطلب لما أنهزم الناس يوم حنين: اصرخ

---

(1) في ظلال القران.. مصدر سابق ٦/ ٣٣٣٩.

(2) أنظر ابن كثير ٤/ ٢٠٨.

بالناس، وكان العباس أجهر الناس صوتا»[(١)].

وإن إساءة الأدب مع سنة النبي ﷺ وحديثه وهديه هي إساءة للأدب معه لا تختلف عنها، فهي منها سواء بسواء، فليحذر الذين يقفون من كلام النبي وسنته وهديه ﷺ كما يقف أحدهم من قول أي من البشر، أو ما ينقل إليه من مواقفهم وأخبارهم، فما أكثر ما سمعنا الاعتراض بغير فهم، والقول على سنة النبي ﷺ بغير علم!؟ ونسأل الله تعالى التوفيق للأدب، وحفظ اللسان من موجبات الخذلان، والعجب كل العجب أن ذلك لا يصدر من عدو معاند جاحد، بل من قريب معترف، يظن بنفسه الخير، وأنه على خير واستقامة!؟ ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣]. ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الأنفال: ٢٥].

«فحرمة النبي ﷺ ميتًا كحرمته حيًا، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه، فإذا قرئ كلامه وجب على كل حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به، وقد نبه الله تعالى على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة. بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأعراف: ٢٠٤]. وكلام النبي ﷺ من الوحي، وله من الحرمة مثل ما للقرآن، إلا معاني مستثناة، بيانها في كتب الفقه، والله أعلم»[(٢)].

ومع ذلك فيجب التفريق بين كلام النبي ﷺ، وفهم الناس أو تفسيرهم له فلا

(١) تفسير القرطبي.. مصدر سابق ١٦/ ٣٠٧.
(٢) تفسير القرطبي مصدر السابق ١٦/ ٣٠٧.

يعتبر التفسير والفهم جزء من كلام النبي ﷺ بل هو كلام بشري، قد يصح وقد يخطيء، فيجب أن يُفرق بينهما، وليس لهما نفس الحكم.

المطلب الرابع: **صفة مناداته** ﷺ:

النداء لون من ألوان الخطاب، إلا أنه يتميز عنه بتوجيهه إلى شخص المنادى مباشرة، الأمر الذي يجعل له أثرًا عند من ينادى عليه.

وفي مجال التأدب مع الرسول ﷺ جاء التنبيه في القرآن الكريم على ضرورة عدم مناداته بطريقة جافة مزعجة، بل لابد من مراعاة مقامه وقدره[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجُرات: ٤ - ٥].

عن زيد بن أرقم قال: جاء ناس من العرب إلى حجر النبي ﷺ، فجعلوا ينادون يا محمد، يا محمد، فأنزل الله هذه الآية.

وقال قتادة أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فناداه من وراء الحجر، فقال: يا محمد، إن مدحي زين، وإن شتمي شين، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: «ويلك إن ذلك هو الله» فنزلت الآية.

عن الأقرع بن حابس أنه نادى الرسول ﷺ من وراء الحجرات، فلم يجبه، فقال: يا محمد، إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال ﷺ: «ذلكم الله».

وأخرج ابن جرير وغيره عن الأقرع أيضًا أنه أتى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أخرج إلينا، فنزلت[2].

---

(١) التأدب مع الرسول.. مصدر سابق ص ١٨٢-١٨٣.

(٢) تفسير الطبري.. مصدر سابق ٢٦/ ١٢٢، وسبق تخريج الحديث ص ١٧.

وقد تضمنت الآية أمرين:

(الأول/ عدم إزعاج النبي ﷺ في وقت خلوته في بيته مع نسائه بالنداء غير اللائق به.

الثاني/ الإرشاد إلى ما ينبغي أن يفعل في هذه الحالة، وهو الانتظار إلى أن يحين وقت خروجه) [١].

«والله تبارك وتعالى ذم الذين ينادونه من وراء الحجرات، وهي بيوت نسائه، كما يصنع أجلاف الأعراب، فقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، ثم أرشد تعالى إلى الأدب في ذلك، فقال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾، أي لكان لهم في ذلك الخير والمصلحة في الدنيا والآخرة»[٢].

وهذا لا يعني أنه لا يجوز مناداته في وقت خلوته ﷺ بتاتًا، وإنما المحظور مناداته في وقت خلوته مع نسائه في بيته، كما في هذه الحالة، وكذلك مناداته بصوت مرتفع خال من الاحترام والتقدير، بل ينبغي أن ينادى له بصوت منخفض، وبصيغة معينة، تتناسب مع قدره وعظمته ووقاره، مثل: يا رسول الله، يا نبي الله، لا مجرد اسمه، مثل: يا محمد، يا أحمد، يا أبا القاسم. كما يفعل بعضهم لبعض.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ..﴾[النور: ٦٣].

فلا يسمونه إذا خاطبوه باسمه كما يسمي بعضهم بعضًا، بل يدعونه برسول الله، ونبي الله، وهذا من تمام تعزيره وتوقيره وتعظيمه، وكذا ينبغي أن يخص باقتران اسمه بالصلاة عليه، ليكون ذلك فرقًا بينه وبين ذكر غيره، كما كان الأمر بدعائه

---

(١) التأدب مع الرسول.. مصدر سابق ص ١٨٤.

(٢) تفسير ابن كثير.. مصدر سابق ٤/ ٢٠٩.

بالرسول والنبي فرقًا بينه وبين خطاب غيره، أمر من الله سبحانه بأن يميز عن غيره في خطابه ودعائه إياهم، قيامًا بما يجب عليهم من تعظيمه وإجلاله[١]، وتوقيره ﷺ عند الاستئذان وفي كل الأحوال فلا يدعى باسمه يا محمد، أو كنيته يا أبا القاسم، كما يدعي المسلمون بعضهم بعضًا إنما يدعى بتشريف الله له وتكريمه، يا نبي الله، يا رسول الله[٢].

وخلاصة القول: إن هذه الآية تبين ما يجب على المسلم أن يتحلى به في ندائه ﷺ حيث يخفض صوته، ويتخير ألفاظ التقدير والتعظيم لندائه، بيا رسول الله، ويا نبي الله، يا خير خلق الله، ويدع هذه النداءات السوقية في لفظها وكيفيتها، مثل: يا محمد، ويا أحمد أو كنيته، مثل: يا أبا القاسم، كما كانوا يفعلونه من قبل، بل بندائه ﷺ نداء يتناسب مع مقامه ومكانته، اقتداء بالقرآن الكريم في نداء الله سبحانه وتعالى له ﷺ، بحيث أن الله سبحانه وتعالى لم يناد رسوله في القرآن بمجرد اسمه ولو مرة واحدة، وإنما ناداه بصفة النبوة والرسالة، أو بأوصاف تدل على العطف والملاطفة، وهذه بعض أمثلة القرآن الكريم على ذلك:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ...﴾ [الأحزاب: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ ...﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ...﴾ [المزمل: ١ - ٢].

---

(١) جلاء الإفهام - ابن القيم دار العروبة- الكويت الطبعة الثانية ١٩٨٧م تحقيق/ شعيب الأرنؤوط ص٣٩٠.

(٢) في ظلال القران مصدر سابق ٤/ ٢٥٣٥.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ...﴾ [المدثر: ٢].

مع أنه سبحانه وتعالى قد قال في نداء الأنبياء الآخرين: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ...﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ...﴾ [هود: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ...﴾ [هود: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ...﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ [ص: ٢٦].

وهكذا فإن المولى سبحانه وتعالى قد عظمه في ندائه له، يا أيها الرسول، ويا أيها النبي، ونادى الأنبياء بأسمائهم مجردة، فهو دليل على تفضيله ﷺ عليهم جميعًا.

فلا يليق بأمته أن تناديه إلا بالتعظيم والتوقير والحب.

المطلب الخامس: صور من توقير الصحابة له ﷺ:

(إن تعظيم النبي ﷺ وإجلاله وتوقيره، شعبة عظيمة من شعب الإيمان، وهذه الشعبة غير شعبة المحبة، بل إن منزلتها ورتبتها فوق منزلة ورتبة المحبة.

ذلك لأنه ليس كل محب معظمًا، ألا ترى أن الوالد يحب ولده، ولكن حبه إياه يدعوه إلى تكريمه، ولا يدعوه إلى تعظيمه.

والولد يحب والده فيجمع له بين التكريم والتعظيم، والسيد قد يحب مماليكه، ولكنه لا يعظمهم، والمماليك يحبون ساداتهم ويعظمونهم، فعلمنا بذلك أن التعظيم

رتبة فوق المحبة)[1].

فمن حق النبي ﷺ على أمته أن يهاب ويعظم ويوقر ويجل أكثر من كل ولد لوالده ومن كل عبد لسيده، فهذا حق من حقوقه الواجبة له مما يزيد على لوازم الرسالة، وهو ما أمر الله به في كتابه العزيز، قال تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[الفتح: ٩].

وفي توقير الصحابة له ﷺ خير مثال، وهذه صور من توقيرهم له لبيان القدوة وبالمثال يتضح المقال.

الصورة الأولى: أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ:

١- «قالت عائشة رضي الله عنها: أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة في ساعة كان لا يأتي فيها، فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ في هذه الساعة إلا لأمر حدث فلما دخل تأخر أبو بكر عن سريره، فجلس الرسول ﷺ وليس عند أبى بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبى بكر[2] فقال رسول الله ﷺ أخرج من عندك، فقال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبى وأمي! فقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة، فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله؟ قال: الصحبة، قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدًا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، فلما قرب أبو بكر رضي الله عنه الراحلتين

---

(١) حقوق النبي ﷺ على أمته د/ محمد خليفة التميمي– الطبعة الأولى ١٩٩٧م مكتبة أضواء السلف للنشر الرياض ٢/ ٤٢١.

(٢) أسماء بنت أبي بكر الصديق القرشية التيمية المكية بنت الخليفة أبي بكر، ووالدة الخليفة عبد الله بن الزبير، وأخت أم المؤمنين عائشة، وآخر المهاجرات وفاة، روت عدة أحاديث، وتعرف بذات النطاقين، توفيت سنة ٧٣هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٢/ ٢٨٧).

إلى الرسول ﷺ قدم له أفضلهما، ثم قال: اركب فداك أبي وأمي! فقال رسول الله ﷺ: إني لا أركب بعيرًا ليس لي، قال فهي لك يا رسول الله فداك أبي وأمي! قال: لا ولكن ما الثمن الذي ابتعتها به؟ قال كذا وكذا، قال: قد أخذتها به، قال: هما لك يا رسول الله»[1].

٢- «من روائع الحب: ولم يزل الحب منذ فطر الله الإنسان ملهمًا للدقائق العجيبة، باعثًا على الإشفاق على من تعلق به القلب وأحبته النفس، وهذا كان شأن أبى بكر مع رسول الله ﷺ في هذه الرحلة، وقد روي أنه لما انطلق رسول الله ﷺ إلى الغار ومعه أبو بكر، كان يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن رسول الله ﷺ فقال: يا أبا بكر مالك تمشي، ساعة خلفي وساعة بين يدي؟ فقال يا رسول الله! أذكر الطلب فامشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك»[2].

الصورة الثانية: ثابت بن قيس رضي الله عنه:

عن محمد بن ثابت بن قيس بن شماس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ قعد ثابت بن قيس في الطريق يبكي فمر به عاصم بن عدي بن العجلان فقال: ما يبكيك؟ قال: لهذه الآية، أخاف أن تكون قد نزلت في وأنا صييت رفيع الصوت. فرفع عاصم ذلك إلى النبي ﷺ، فدعا به فقال: «أما

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام- عبد السلام محمد الهارون – الطبعة السادسة ١٩٨٩م- مكتبة السنة القاهرة ١٠٤/ ١٠٥.

(٢) الرياض النضرة – أحمد بن عبدالله الطبري – دار الغرب الإسلامي بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٦م – ١/ ٤٥٣ والسيرة النبوية لأبي الحسن الندوي – إدارة إحياء التراث الإسلامي قطر – سنة الطبع ١٩٨٧م ١٨٩-١٩٠.

ترضى أن تعيش حميدًا، وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة»؟ قال: رضيت ببشرى الله ورسوله، ولا أرفع صوتي أبدًا على رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾[1].

الصورة الثالثة: أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب رضي الله عنهما:

١- قال ابن هشام[2] «قال أبو أيوب[3]: لما نزل علينا رسول الله ﷺ في بيت ينزل في السفل، وأنا وأم أيوب[4] في العلو، فقلت له يا نبي الله، بأبي أنت وأمي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وأنت تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: «يا أبا أيوب: إن أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت» قال: فكان رسول الله ﷺ في سفله، وكنا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حب لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا، ما لنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء تخوفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء يؤذيه[5].

٢- وقال ابن هشام «قال أبو أيوب: كنا نصنع العشاء ثم نبعث به إليه، فإذا رد

---

(١) لباب النقول.. مصدر سابق ص ٢٧٢/ ٢٧٤. سبق تخريج القصة ص ١٧.

(٢) عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري البصري، توفي سنة ٢١٣ هـ (سير أعلام النبلاء.. مصدر سابق ١٠/ ٤٢٨).

(٣) خالد بن زيد أبو أيوب الأنصاري الخزرجي النجاري البدري، الذي خصه النبي ﷺ بالنزول في بيته ببني النجار إلى أن بنيت له حجرة أم المؤمنين عائشة، مات سنة ٥٢هـ (المصدر نفسه ٢/ ٤٠٢).

(٤) بنت قيس بن سعد بن قيس بن عمرو الأنصارية الخزرجية، زوج أبي أيوب نزل عليهم النبي ﷺ حين قدم المدينة مهاجرا، روت عن النبي ﷺ ولم يذكر تأريخ وفاتها (تهذيب الكمال مصدر سابق ٣٥/ ٣٣١).

(٥) تهذيب سيرة ابن هشام.. مصدر سابق ص ١١٠.

علينا فضله تيممت أنا وأم أيوب موضع يده، فأكلنا منه نبتغي بذلك البركة، حتى بعثنا إليه ليلة بعشائه، وقد جعلنا له فيه بصلاً أو ثومًا، فرده الرسول ﷺ، ولم أر ليده فيه أثرًا، فجئته فزعًا، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، رددت عشاءك ولم أر فيه موضع يدك، وكنت إذا رددته علينا تيممت أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة، قال: «إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي، وأما أنتم فكلوه[١]».

الصورة الرابعة: زيد بن الدثنة[٢] رضي الله عنه:

«في موقعة الرجيع، وبعد قتل حفاظ القرآن الكريم، قدم الكفار بخبيب بن عدي[٣] وزيد ابن الدثنة إلى مكة، وباعوهما، فأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية[٤] ليقتله بأبيه، فبعث به صفوان بن أمية مع مولى له، يقال له نسطاس[٥] إلى التنعيم، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه، واجتمع رهط من قريش، فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال: له أبو سفيان حين قدم ليقتل: أنشدك الله يا زيد، أتحب أن محمدًا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدًا

---

(١) المصدر نفسه ص ١١١. واخرجه احمد ٥/ ٤٢٠ برقم: ٢٣٦١٦ والطبراني في الكبير ٤/ ١٢٦ برقم: ٣٨٧٨ بألفاظ متقاربة وقال الترمذي: حسن صحيح غريب ٤/ ٢٦٢ برقم ١٨١٠.

(٢) زيد بن الدثنة بن معاوية بن عبيد الأنصاري البياضي شهد بدرا وأحدا، وكان من مشاهير من حضر غزوة الرجيع، وقتله المشركون في مكة سنة ٣هـ. (الإصابة مصدر سابق ٢/ ٦٠٤).

(٣) خبيب بن عدي بن عامر بن مجدعة الأنصاري الشهيد (وقد ذكر قصة استشهاده) ولم يذكر تاريخ وفاته... (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٢٤٦).

(٤) صفوان بن أمية بن خلف القرشي الجمحي المكي، أسلم بعد الفتح، وحسن إسلامه، وشهد اليرموك، وروى أحاديث، توفي سنة ٤١هـ (الإصابة مصدر سابق ٣/ ٤٣٢).

(٥) نسطاس مولى صفوان بن أمية الجمحي، شهد أحدا مع المشركين، ثم أسلم وحسن إسلامه، ذكر ابن إسحاق أن نسطاسا هو الذي تولى قتل زيد بن الدثنة (سير أعلام النبلاء) مصدر سابق. ٦/ ٤٢٦).

الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأني جالس في أهلي. قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت في الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا؛ ثم قتله نسطاس»[١].

الصورة الخامسة: أبو دجانة[٢]:

١- قال ابن إسحاق[٣]: في أحد ترس دون رسول الله ﷺ أبو دجانة بنفسه، يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه، حتى كثر فيه النبل، ورمى سعد بن أبى وقاص[٤] دون رسول الله ﷺ: قال سعد: فلقد رأيته يناولني النبل وهو يقول: «ارم، فداك أبى وأمي»[٥] حتى إنه ليناولني السهم ما له نصل، فيقول: ارم به[٦].

٢- قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عمر: أن رسول الله ﷺ: رمى عن قوسه حتى اندقت سيتها، فأخذها قتادة بن النعمان، فكانت عنده، وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان[٧]، حتى وقعت على وجنته. قال ابن إسحاق: فحدثني

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة – ابن الأثير عز الدين أبي الحسن الشيباني - دار أحياء التراث العربي بيروت بدون سنة طباعة ٢/ ٢٣٠.

(٢) سماك بن خرشه الساعدي أبو دجانه الأنصاري، كان يوم أحد عليه عصابة حمراء، وهو الذي أخذ سيف رسول الله بحقه، وممن شارك في قتل مسيلمة الكذاب، أستشهد يومها سنة ١٢هـ (الطبقات الكبرى- محمد بن سعد الزهري- دار صادر بيروت ٣/ ٥٥٦).

(٣) محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار وقيل ابن كوثان، ولد سنة ٨٠ هـ، ومات سنة ١٥٢ هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٧/ ٣٣).

(٤) سعد بن أبي وقاص مالك بن أهيب أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد السابقين الأولين، وأحد البدريين، وأحد الستة أهل الشورى، مات سنة ٥٦ هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٩٢).

(٥) رواه البخاري ٤/ ١٤٨٩ برقم: ٣٨٢٩ كتاب المغازي باب إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا.

(٦) تهذيب سيرة ابن هشام.. مصدر سابق ص ١٤٧ والسيرة الحلبية ٢/ ٥٠٦.

(٧) قتادة بن النعمان بن زيد بن عامر، صحابي جليل شهد أحدا، توفي سنة ٢٣هـ وقيل ٢٤هـ (الاستيعاب في معرفة الأصحاب مصدر سابق ٣/ ١٢٧٤).

عاصم بن عمر ابن قتادة أن رسول الله ﷺ ردها بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدهما[(١)].

الصورة السادسة: قصة السعدين في غزوة الخندق:

في غزوة الخندق أقام رسول الله ﷺ والمشركون بضعًا وعشرين ليلة قريبًا من شهر، لم يكن بينهم حرب إلا الرمي بالنبل والحصى، ولما رأى رسول الله ﷺ أنه اشتد على المسلمين البلاء، بعث إلى عيينة بن حصن الفزاري، وإلى الحارث بن عوف المري، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة لينصرفا بمن معهما من غطفان، ويخذلا قريشًا، ويرجعا بقومهما عنهم، وكانت هذه المقالة مراوضة ولم تكن عقدًا، فلما رأى رسول الله ﷺ منهما أنهما قد أنابا ورضيا أتى سعد بن معاذ[(٢)] وسعد بن عبادة [(٣)] فذكر ذلك لهما، واستشارهما، فقالا: يا رسول الله، هذا أمر تحبه فنصنعه لك؟ أو شيء أمرك الله به فنسمع له ونطيع؟، أو أمر تصنعه لنا؟،

---

(١) المعجم الكبير – سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني – مكتبة العلوم والحكم – الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ تحقيق/ حمدي عبد المجيد السلفي ١٩/ ٨ برقم١٢وأخرجه السيوطي في الخصائص الكبرى دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٧ – ١/ ٣٦٠ وعزاه لابن سعد والبيهقي وأبى نعيم وقال الألباني وهو عند أبي نعيم من طريقين آخرين فهو يتقوى بهما – حاشية كتاب بداية السول، للعز بن عبدالسلام ص ٤٢.

(٢) سعد بن معاذ بن النعمان الأنصاري ثم الأوسي البدري، الذي أهتز لموته عرش الرحمن، رمي يوم الخندق ومات بعدها بشهر شهيدا سنة خمس للهجرة وصلى عليه النبي ﷺ وقال عنه «تضايق على صاحبكم القبر، وضمه ضمه لو نجا منها أحد لنجا هو ثم فرج الله عنه» (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٢٧٩).

(٣) سعد بن عباده بن دليم أبو قيس الأنصاري الخزرجي، شهد بدرا، وكان سيد الخزرج، له أحاديث يسيره، وكان نقيبا سيدا جوادا، مات سنة ١٤هـ بحوران (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٢٧٠).

قال: «بل أمر أصنعه لكم، والله ما أصنعه إلا أني قد رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة»، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، والله لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة إلا شراء أو قرى، فحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فسر رسول الله ﷺ بذلك، وقال أنتم وذاك، وقال لعيينة والحارث: انصرفا، فليس لكما عندنا إلا السيف، وتناول سعد الصحيفة وليس فيها شهادة فمحاها[1].

الصورة السابعة: شهادة مشرك قبل إسلامه:

بلغ أصحاب النبي ﷺ مراتب رفيعة في الأدب معه، وتعظيمه، وتوقيره ﷺ حتى بهروا بذلك ألباب المشركين، فاستشعروا أنهم أمام قوة متماسكة خلف قيادتها، التي تحبها من قلبها، وتجلها، وتبجلها بأعلى ما عرف الناس من أنواع التقدير والتبجيل.

فهذا عروة بن مسعود الثقفي[2] وفد على رسول الله ﷺ يفاوضه في صلح الحديبية، وكان مشركًا، فرأى عجبًا من شدة أدب أصحاب النبي الكرام ﭫ مع نبيهم ﷺ، فجعل يرمقهم بعينيه، ثم وصف ما رأى من مشهد، فقال: والله ما تنخم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدلك بها وجهه وجلده، ولا سقط من شعره ﷺ شيء إلا أخذوه، وإذا أمرهم ﷺ ابتدروا أمره، وإذا توضأ ﷺ كادوا يقتتلون على فضول وضوئه، وإذا تكلم ﷺ، وفي رواية: وإذا تكلموا خفضوا

---

(١) تفسير القرطبي..مصدر سابق ١٤/ ١٣٣. وزاد المعاد ٣/ ٢٧٣.

(٢) عروة بن مسعود بن معتب بن مالك بن كعب بن عمرو، كان أحد الأكابر من قومه، قتله قومه فقال عنه النبي ﷺ: «مثل عروة مثل صاحب ياسين، دعا قومه إلى الله فقتلوه» (الإصابة مصدر سابق ٤/ ٤٩٢).

أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيمًا له ﷺ.

ثم قال: والله لقد وفدت على الملوك، وفدت على قيصر[1] في ملكه، ووفدت على كسرى[2] في ملكه، ووفدت على النجاشي[3] في ملكه، والله إن رأيت ملكًا قط تعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمد محمدًا ﷺ.. وروى ما رأى من أدب أصحاب النبي ﷺ مع نبيهم[4]. فهذه شهادة مشرك قبل إسلامه، والفضل ما شهدت به الأعداء.

الصورة الثامنة: معاذ بن جبل[5]:

لما بعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن قال له: «كيف تقضي»؟ فقال: أقضي بما في كتاب الله، قال: «فإن لم يكن في كتاب الله»، قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال ﷺ: «فإن لم يكن في سنة رسول الله»؟ قال: أجتهد رأيي، قال ﷺ: «الحمد لله الذي وفق

---

(١) قيصر (لقب ملك الروم) وأسمه هرقل وهو بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف ولقبه قيصر كما يلقب ملك الفرس كسرى ونحوه (فتح الباري شرح صحيح البخاري – أحمد بن علي بن حجر العسقلاني- دار المعرفة بيروت – ١٣٧٩هـ تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي ١/ ٣٣).

(٢) يزد جرد بن شهريار بن برويز المجوسي الفارسي، انهزم من جيش عمر فاستولوا على العراق ثم ثار عليه أمراء دولته وقتلوه سنة ٣٠هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٢/ ١٠٩).

(٣) أصحمة بن أبجر النجاشي، ملك الحبشة، واسمه بالعربية عطية، والنجاشي لقب له، أسلم على عهد النبي ﷺ، ولم يهاجر إليه، وقصته مشهورة في إحسانه إلى المسلمين الذين هاجروا إليه في صدر الإسلام، ولما مات قال ﷺ: «قد مات اليوم عبد صالح، يقال له أصحمة فقوموا فصلوا على أصحمة فصفنا خلفه» قال الطبري:- كان ذلك في رجب سنة تسع للهجرة (الإصابة مصدر سابق١/ ٢٠٥-٥٠٦).

(٤) تفسير ابن كثير.. مصدر سابق ٤/ ١٩٧،١٩٦. والسيرة النبوية لابن هشام ٤/ ٢٨١.

(٥) معاذ بن جبل بن عمرو أبو عبد الرحمن الأنصاري الخزرجي المدني البدري شهد العقبة شابا أمرد اسلم وله ثمان عشرة سنة قال رسول الله ﷺ: خذوا القرآن من أربعة منهم معاذ بن جبل وتوفي سنة ١٨هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٤٤٣).

رسول رسول الله ﷺ»[١] انظر كيف أخر رأيه إلى بعد حكم الله وحكم رسوله ﷺ، وهذا من التوقير والتعظيم.

الصورة التاسعة: عدم تقدم الصحابة النبي ﷺ حتى فيما يعلمون:

عن أبي بكرة[٢] ﭬ قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر، قال: «أتدرون أي يوم هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه قال: «أليس يوم النحر»؟ قلنا: بلى، قال: «أي شهر هذا»، قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أليس ذا الحجة»؟ قلنا: بلى، قال: «أي بلد هذا»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست بالبلدة الحرام»؟ قلنا: بلى، قال: «فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت»؟ قالوا: نعم، قال: «اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[٣]. فسكوتهم مع علمهم بالجواب، وقولهم: الله ورسوله أعلم، يدل على توقيرهم لرسول الله ﷺ وعدم تقدمه بأي أمر، ولو كان أمرًا يعلمونه.

---

(١) أخرجه الترمذي –٣/ ٦١٦ برقم: ١٣٢٧. ورواه أبو داود في سننه – دار الفكر – تحقيق/ محمد محيي الدينفي سننه ٣/ ٣٠٣ برقم: ٣٥٩٢ ورواه ابن أبي شيبه في مسنده ٤/ ٥٤٣ برقم: ٢٢٩٨٨. وضعفه محمد ناصر الدين الألباني في السلسةالضعيفة٢/ ٨٨١. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ مكتبة المعارف الرياض.

(٢) نفيع بن الحارث أبو بكرة الثقفي الطائفي، مولى النبي ﷺ تدلى في حصار الطائف ببكرة، وفر إلى النبي ﷺ، وأسلم على يده، وأعلمه أنه عبد فأعتقه، روى جملة أحاديث، توفي سنة ٥١هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٣/ ٥).

(٣) البخاري.. مصدر سابق – كتاب الحج - باب الخطبة أيام منى ٢/ ٦٢٠ برقم ١٦٥٤.

الصورة العاشرة: وللنساء مواقف:

١- بعد غزوة أحد مر النبي ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نعوا لها قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرًا يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أروني حتى أنظر إليه، فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[١].

٢- زوجة جليبيب:

خطب النبي ﷺ إحدى بنات الأنصار لجليبيب، وكان جليبيب[٢] هذا، دميم الوجه قصير القامة، فشعرت البنت بأن أبويها كأنهما قد حزنا أن يكون هذا نصيب بنتهما، فقامت البنت لأبويها وقرأت الآية الكريمة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ثم قالت رضيت وسلمت بما يرضى به رسول الله ﷺ فسمع رسول الله ﷺ بذلك فدعا لها بخير وقال (اللهم صب الخير عليها صبًا، ولا تجعل عيشها كدًا)[٣] فلم يبق جليبيب عند زوجته بل خرج للجهاد مع النبي ﷺ فقتل شهيدًا ، وكانت تلك المرأة من بعد جليبيب من أغنى نساء الأنصار، وأكثرهن نفقة ومالاً[٤].

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام.. مصدر سابق ص ١٥٢. والبداية والنهاية٤/ ٤٧ والسيرة الحلبية ٢/ ٥٤٢.

(٢) جليبيب غير منسوب، وهو تصغير جلباب قيل: أن النبي ﷺ كان في مغزى له فقال: هل تفقدون من أحد قالوا: فقدنا فلانا وفلانا قال: «ولكني أفقد جليبيبا» أخرجه النسائي. وله ذكر في حديث أنس في تزويجه بالأنصارية وفيه قوله ﷺ: لكنك عند الله لست بكاسد (الإصابة مصدر سابق ١/ ٤٩٥).

(٣) رواه أحمد ٤/ ٤٢٢، وانظر موارد الضمأن – علي بن أبي بكر الهيثمي– دار الكتب العلمية بيروت ١/ ٥٦٣ – برقم ٢٢٦٨..وهو ضعيف.

(٤) أسد الغابة.. مصدر سابق ١/ ٢٩٣.

المبحث الرابع: من لوازم الأدب مع النبي ﷺ
وفيه أربعة مطالب:



المطلب الأول: الصلاة على النبي ﷺ

المطلب الثاني: عدم التأدب معه ﷺ من محبطات الأعمال

المطلب الثالث: الأدب مع ورثة الأنبياء

المطلب الرابع: آداب عامة

في هذا المبحث سيكون الكلام عن بعض المواضيع التي لها علاقة بالأدب مع النبي ﷺ وتوقيره، وتحتاج إلى تفصيل وبيان، لاستكمال موضوع الأدب، للحاجة إليها، أو لخطورتها وعدم انتباه الناس لها، أو لأنها من لوازم الأدب مع النبي، وهي كالتالي:

المطلب الأول: الصلاة على النبي ﷺ:

شرع الله الصلاة على النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾[الأحزاب: ٥٦].

وقد احتل موضوع الصلاة والسلام على النبي ﷺ حيزًا واسعًا في فكر العلماء وحياة المسلمين، ولذلك هناك الكثير من النقاط التي تندرج تحت هذا الموضوع، ولكن يكفي ذكر أهم المسائل وهي:

المسألة الأولى: مفهوم الصلاة على النبي ﷺ لغة واصطلاحًا:

تعريف الصلاة لغة:

الصَّلاةُ: الدعاء، والصلاة من الله تعالى الرحمة، والصلاة واحدة الصلَواتِ المفروضة، وهو اسم يوضع موضع المصدر، يقال: صَلَّى صلاةً، ولا يقال تصلية، وصلى على النبي ﷺ(١).

تعريف الصلاة اصطلاحًا:

التعريف الاصطلاحي للصلاة على النبي ﷺ لا تخرج عن معاني اللغة المذكورة إذا قيدت الصلاة على النبي ﷺ، وبالتالي فمعناها باق على ما كان عليه

---

(١) مختار الصحاح – محمد بن أبي بكر الرازي– مكتبة لبنان ناشرون– طبعة جديدة ١٩٩٥م تحقيق محمود خاطر١/ ١٥٤.

في الاستعمال اللغوي، ولم يذكر العلماء تعريفًا لها عند كلامهم عن هذا الموضوع، وإنما جل كلامهم ينصب على التفريق بين صلاة الله وصلاة المخلوقين، وعليه فالصلاة في الاصطلاح هي الدعاء للنبي ﷺ برحمة الله له، والثناء عليه، وتعظيمه، وإظهار شرف فضله وحرمته[1].

المسألة الثانية: حكم الصلاة على النبي ﷺ

هناك قولان في حكم الصلاة على النبي ﷺ:

الأول: أنها مستحبة.

الثاني: أنها واجبة: ولكن الذين يقولون إنها واجبة اختلفوا في عدد المرات، وفي المواطن التي تجب فيها، حتى بلغت أقوالهم تسعة أقوال، إلا أن أغلب هذه الأقوال متعلقة بالمواطن التي تجب فيها الصلاة، وأصح ما قيل في حكمها أنها تجب في الجملة بدون تقييد بعدد أو وقت، مع مراعاة المواطن التي يتأكد وجوبها أو استحبابها[2].

وذهب جمهور العلماء إلى أن الصلاة على النبي ﷺ قربة وعبادة، كالذكر والتسبيح والتحميد، وأنها واجبة في العمر مرة، ومندوبة ومسنونة في كل وقت وحين، وأنه ينبغي الإكثار منها، لما صح عنه ﷺ أنه قال: «من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا»[3] وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة الشهيرة في فضل الصلاة على النبي ﷺ، فهي مطلوبة، ولكن ليس على سبيل (الوجوب)، وإنما

---

(١) حقوق النبي مصدر سابق ٢/ ٥٠٨ بتصرف.

(٢) التأدب مع الرسول.. مصدر سابق ص ١٩٤-١٩٥.

(٣) رواه مسلم.. مصدر سابق – كتاب الصلاة – باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد ١/ ٣٠٦ برقم: ٤٠٨.

على سبيل (الندب) والاستحباب[١]. وهذا هو الرأي الصائب والممكن تطبيقه في الواقع، والله أعلم، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

المسألة الثالثة: صيغ الصلاة على النبي ﷺ:

للصلاة على النبي ﷺ صيغ كثيرة ذكرها العلماء في كتبهم، يروونها عن النبي ﷺ بأسانيد بعضها صحيحة وبعضها حسنة وبعضها ضعيفة، أو يلفقونها، ومما روي عن النبي ﷺ من صيغ الصلاة، أو يؤلفونها من عندهم.

وهنا نكتفي بذكر بعض الصيغ الصحيحة، لأن الغرض يتم بها، ولابد للمسلم أن يلتزم بهذه الصيغ المأثورة الصحيحة، أو الحسنة، ومنها:

الأولى: قالوا: يا رسول الله، كيف نصلي عليك؟ قال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صلِّ على محمد وأزواجه وذريته، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد[٢]».

الثانية: سألنا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهل البيت؟ فإن الله قد علمنا كيف نسلم عليكم، قال: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[٣].

الثالثة: قال رسول الله ﷺ: «قولوا: اللهم صلِ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل

---

(١) تفسير آيات الأحكام للصابوني الطبعة الثانية ١٩٧٧م مكتبة الغزالي دمشق ص ٣٦٧-٣٦٨.

(٢) البخاري.. مصدر سابق – كتاب الأنبياء ٣/ ١٢٣٢ برقم ٣١٨٩.

(٣) المصدر نفسه – كتاب الأنبياء – ٣/ ١٢٣٣ برقم ٣١٩٠.

إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد»[1].

في الصيغ السابقة لا حظنا أن الصلاة عليه ﷺ تتحقق من خلال طلبها من الله ﷻ أن يصلي عليه، وهنا سؤال مهم هو: لماذا لا نصلي عليه مباشرة، وإنما نطلب ذلك من الله ﷻ؟ وعن هذا السؤال يجيب ابن القيم فيقول:

أولًا: إن الصلاة من الله تعالى من أجلّ المراتب وأعلاها، ومحمد ﷺ أفضل الخلق، فلا بد أن تكون الصلاة الحاصلة له أفضل من كل صلاة تحصل لكل مخلوق، فلا يكون غيره مساويًا له فيها.

ثانيًا: إن الله تعالى أخبر أنه وملائكته يصلون عليه، ثم أمر بالصلاة عليه، ولا ريب أن المطلوب من الله هو نظير الصلاة المخبر بها، لا ما هو دونها، وهو أكمل الصلاة عليه وأرجحها، لا الصلاة المرجوحة المفضولة[2].

كما أن أجر فضل صلاة الله ﷻ أعلى رتبة من فضل صلاة الإنسان بنفسه، فقد كان هذا الفضل الحاصل بصلاة الله ﷻ عائدًا على الإنسان، وله فائدة وأجر عظيم.

المسألة الرابعة: فضل الصلاة على النبي ﷺ:

للصلاة على النبي ﷺ فضل عظيم وفوائد جمة، فإنك حينما تصلي عليه إنما تصلي على نفسك، وتجعل الملائكة تصلي عليك، وبالصلاة عليه تكسب الأجر والحسنات وترضى الله سبحانه، والله يصلي على من يصلي على النبي ﷺ، كما سنلاحظ ذلك من خلال الأدلة.

---

(١) رواه مسلم.. مصدر سابق – كتاب الصلاة – باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد ١/ ٣٠٥ برقم ٤٠٥.

(٢) جلاء الأفهام.. مصدر سابق ٢٨١/ ٢٨٣.

قال ﷺ: «من صلى علي واحدة صلى الله عليه بها عشرًا»[١].

وقال ﷺ: «من صلى علي صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى علي، فليقل عبد من ذلك أو ليكثر»[٢].

وعن أبي طلحة الأنصاري[٣] قال: أصبح رسول الله ﷺ يومًا طيب النفس، يرى في وجهه البشر، قالوا: يا رسول الله، أصبحت اليوم طيب النفس يرى في وجهك البشر، قال: «أجل، أتاني آت من ربي ﷻ، فقال: من صلى عليك من أمتك صلاة كتب الله له بها عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، ورد عليه مثلها»[٤].

المسألة الخامسة: فوائد وثمرات الصلاة على النبي ﷺ[٥]:

الأولى: امتثال أمر الله سبحانه، لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

---

(١) رواه مسلم.. سبق تخريجه ص ٥٤.

(٢) رواه أحمد.. مصدر سابق٣/ ٤٤٥ برقم: ١٥٧١٨وفيه ابن عبيدة الربذي وهو ضعيف. ورواه أبويعلى في المسند ١٣/ ١٥٤وابن كثير في التفسير ٣/ ٥١٠، وقال المنذري: (رواه احمد وابن أبي شيبة وابن ماجة كلهم عن عاصم بن عبيدالله وإن كان واهي الحديث فقد مشاه – بعضهم وصحح له الترمذي والحديث حسن في المتابعات والله أعلم) الترغيب والترهيب، عبد العظيم بن عبدالقوي المنذري – دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٧هـ الطبعة الأولى ٢/ ٣٢٧.

(٣) أبو طلحة الأنصاري، صاحب رسول الله ﷺ ومن بنى أخواله، وأحد أعيان البدريين، وأحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة، واسمه زيد بن سهل بن الأسود الخزرجى النجاري، له أحاديث، توفي في المدينة سنة ٣٢هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٢/ ٢٧).

(٤) رواه أحمد.. مصدر سابق ٤/ ٢٩ برقم: ١٦٣٩٩ ورواه الطبراني في المعجم الصغير ٢/ ١٩٤. وقال السيوطي في الجامع الصغير صحيح ووافقه المناوي – فيض القدير ١/ ١٩٦والالباني صحيح الجامع ١/ ٧٢/ برقم ٥٧.

(٥) جلاء الأفهام.. مصدر سابق ص ٤٢٥-٤٢٦.

الثانية: موافقته سبحانه في الصلاة على النبي ﷺ، وإن اختلفت الصلاتان، فصلاتنا عليه دعاء وسؤال، وصلاة الله تعالى عليه ثناء وتشريف.

الثالثة: موافقة ملائكته فيها.

الرابعة: حصول عشر صلوات من الله على المصلي مرة واحدة عليه ﷺ.

الخامسة: أنه يرفع عشر درجات.

السادسة: أنه يكتب له عشر حسنات.

السابعة: أنه يمحى عنه عشر سيئات.

الثامنة: أنه يرجى إجابة دعائه إذا قدمها أمامه، فهي تصاعد الدعاء إلى عند رب العالمين.

التاسعة: أنها سبب لشفاعته ﷺ إذا قرنها بسؤال الوسيلة له أو أفردها.

العاشرة: أنها سبب لغفران الذنوب.

الحادية عشرة: أنها سبب لكفاية الله العبد ما أهمّه.

الثانية عشرة: أنها سبب لقرب العبد من الله يوم القيامة.

الثالثة عشرة: أنها تقوم مقام الصدقة لذي العسرة.

الرابعة عشرة: أنها سبب لقضاء الحوائج.

الخامسة عشرة: أنها سبب لصلاة الله على المصلي وصلاة ملائكته عليه.

السادسة عشرة : أنها زكاة للمصلي وطهارة له.

السابعة عشرة: أنها سبب لتبشير العبد بالجنة قبل موته.

الثامنة عشرة: أنها سبب للنجاة من أهوال يوم القيامة.

التاسعة عشرة: أنها سبب لرد النبي الصلاة والسلام على المصلي والمسلم عليه.

العشرون: أنها سبب لتذكر العبد ما نسيه.

الحادية والعشرون: أنها سبب لطيب المجلس، وأن لا يعود حسرة على أهله يوم القيامة.

الثانية والعشرون: أنها سبب لنفي الفقر.

الثالثة والعشرون: أنها تنفي عن العبد اسم البخل إذا صلى عليه عند ذكره.

الرابعة والعشرون: أنها سبب لتمام الكلام الذي ابتدئ بحمد الله والصلاة على رسوله.

الخامسة والعشرون: أنها سبب لوفور نور العبد على الصراط.

السادسة والعشرون: أنه يخرج بها العبد عن الجفاء.

السابعة والعشرون: أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن للمصلي عليه بين أهل السماء والأرض، لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله ويكرمه ويشرفه، والجزاء من جنس العمل، فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك.

الثامنة والعشرون: أنها سبب البركة في ذات المصلي، وعمله وعمره وأسباب مصالحه لأن المصلي داع ربه يبارك عليه وعلى آله وهذا الدعاء مستجاب والجزاء من جنسه.

ويحسن ختم هذا المطلب بحديث أبي بن كعب، قال: قلت: يا رسول الله، إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: «ما شئت». قلت الربع؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير». قلت: النصف؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير» قلت: الثلثين؟ قال: «ما شئت، وإن زدت فهو خير» قال: أجعل لك

صلاتي كلها؟ قال: «إذًا تكفى همك، ويغفر ذنبك»(١).

قال ابن القيم رحمه الله:

«سئل شيخنا أبو العباس عن تفسير هذا الحديث، فقال: كان لأبي بن كعب دعاء يدعو به لنفسه، فسأل النبي ﷺ: هل يجعل له منه ربعه صلاة عليه، فقال ﷺ: إن زدت فهو خير لك، فقال له: النصف، فقال: إن زدت فهو خير لك، إلى أن قال: أجعل لك صلاتي كلها، أي أجعل دعائي كله صلاة عليك، قال ﷺ: إذًا تكفى همك، ويغفر لك ذنبك، لأن من صلى على النبي صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ومن صلى الله عليه كفاه همه، وغفر له ذنبه، هذا معنى كلامه رضي الله عنه»(٢).

المطلب الثاني: عدم التأدب معه ﷺ من محبطات الأعمال:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجُرات: ٢].

لماذا تحبط الأعمال بمخالفة هذه الآداب.!؟ والمعروف أن حبوط الأعمال لا يكون إلا بالكفر المخرج لصاحبه من الملة.؟ والظاهر أن سياق الآية وأسلوبها ينحو منحى التحذير والتخويف، الذي يكفي المؤمن التقي التنويه به، فيبتعد عن العمل المنهي عنه، خشية الوقوع في الأمر المخوف الذي يحذر منه.

فمن هنا ناسب المقام في الآية أن يكون التعبير بما يوحي بالخشية من ذلك

---

(١) رواه الترمذي.. مصدر سابق ٤/ ٦٣٦ برقم: ٢٤٥٧. وقال ابن القيم: أخرجه الإمام أحمد في المسند عن وكيع عن سفيان وأخرجه الحاكم في المستدرك وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. جلاء الأفهام ٧٨ وقال الحافظ أخرجه احمد وغيره بسند حسن فهذا الجيد من الأحاديث الواردة في ذلك، الفتح ١١/ ١٦٨.

(٢) جلاء الأفهام..مصدر سابق ص ٧٩.

الأثر الذي هو دافع وأي دافع!! بل وأعظم به من دافع للمؤمن ليعمل العمل، أو ليكف عما ينهى عنه متسربلاً بلباس التقوى الواقية الرادعة.

فمن أسوأ السيئات أن يساء الأدب في حضرة النبي ﷺ، وألا يوقر التوقير اللائق بالإيمان الصادق، والولاء الحق، أفلا يكون ذلك محبطًا لأحسن الحسنات والأعمال.! فكما أن الحسنات يذهبن السيئات، فإن السيئات اللاحقة تذهب الحسنات السابقة وتحبطها، وليس بالضرورة أنها تحبطها كلها.

وهناك منحى آخر في فهم الآية لا يبعد عما سبق وهو: إن قصد إيذاء النبي ﷺ كفر محبط للأعمال باتفاق، لا يأتي إلا من كافر أو منافق نفاقًا أكبر، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وهذا القصد، وهو إيذاء النبي ﷺ، أمر قلبي باطن، يخفى أمره على العباد، فأقيم الأمر الظاهر مقامه، وجاء النهي عما هو مظنة لأذى النبي ﷺ قطعًا للذريعة، وحسمًا للمادة، وتعظيمًا لحرمة النبي ﷺ، وردعًا لضعاف النفوس أن ينزلقوا مع المنافقين، الذين يؤذون النبي ﷺ فيوردوا بذلك أنفسهم مورد التهلكة، ويتعرضوا لمقت الله تعالى وغضبه، باقتحام حمى هذا الأمر الخطير(١).

ولقد عمل ذلك النداء الحبيب، وهذا التحذير المخيف عمله العميق الشديد في نفوس أولئك الصحب الكرام ـ رضوان الله عليهم ـ فارتعشت قلوبهم، وارتجفت، وتأدبوا في حضرة رسول الله ﷺ ذلك الأدب البالغ، وقد ذكر بعضه في هذا الفصل، مما يدل أبلغ الدلالة على سرعة استجابة أولئك الأخيار للنداء

---

(١) البينات مصدر سابق ص ٧٧.

الرباني، ودقة التزامهم بالتوجيه القرآني في كل مناسبة[١].

والأصل أن الأعمال لا يحبطها إلا الكفر، فلا يبعد أن يكون النص هنا على إحباط الأعمال بإساءة الأدب في حضرة النبي ﷺ له هذه الخصوصية التي ليست لسواه، لعظيم حق النبي ﷺ، وجليل قدره، ورفيع منزلته، أو لما قد يؤول إليه.

ويمكن أن يفهم حبوط الأعمال بإساءة الأدب مع رسول الله ﷺ على وجوه عديدة أهمها:

١- أن حق رسول الله ﷺ على الناس أعظم حق بعد حق الله تعالى، فانتهاك حق الله تعالى بالكفر يحبط العمل كله، وانتهاك حق رسول الله ﷺ بإساءة الأدب يحبط العمل أيضًا، لأنه عنوان التكذيب به ظاهرًا وباطنًا، كما هو شأن المنافقين، ومظنة ذلك إذا صدر عن أحد من المؤمنين عن جهل أو سوء أدب.

٢- وإذا كانت حقوق العباد لا تتجاوز يوم القيامة، ويقتص فيها بالحسنات والسيئات فكيف بحق رسول الله ﷺ وهو أعظم الحقوق وأجلها.؟!

٣- كما أن الحسنات يذهبن السيئات، فكذلك السيئات يذهبن الحسنات، ولاسيما الكبائر منها، فإنها تذهب مثوبة أعظم الأعمال مما يقابلها، وذلك نوع من حبوط الأعمال.

٤- إنما الأعمال بالقبول، وإنما يتقبل الله تعالى من المتقين، وكيف يوصف بالتقوى من يسيء الأدب مع رسول الله ﷺ حيًا كان أم ميتًا؟ وكيف يرفع عمله أو يقبل منه؟ ورأس التقوى في العمل أن يكون خالصًا لوجه الله تعالى، وأن يكون على هدي السنة والاتباع.

---

(١) انظر في ظلال القرآن مصدر سابق ٦/ ٣٣٣٩.

٥- من يسيء الأدب مع الرسول ﷺ ممقوت من الله تعالى مخذول، فكيف يوفق للعمل الصالح، أو يكتب له القبول..؟

٦- إذا كانت الصغائر قد تجر إلى الكبائر، فإن الكبائر ومنها إساءة الأدب مع رسول الله ﷺ قد تقود صاحبها إلى الكفر المحبط للأعمال.

٧- دلت الآية أن مما يرتكب من الآثام ما يذهب بثواب الأعمال، كما أن منها ما لا يدرى أنه كذلك، ويستصغر في نظر فاعله، وهو كبير عند الله تعالى، كما قال سبحانه: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾[النور: ١٥][(١)].

ومن معاني الآية الكريمة﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾: أي إنما نهيناكم عن رفع الصوت عند النبي ﷺ خشية أن يؤذيه تصرفكم هذا، ويزعجه صوتكم المرتفع بغير داع ولا سبب فيغضب من ذلك، فيغضب الله تعالى لغضبه، فيحبط عمل من أغضبه وهو لا يدري[(٢)]، كما جاء في الحديث الصحيح:

(إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم)[(٣)].

وقيل فيها أيضًا: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.. أي: تفسد، وتبطل، وتذهب سدى، لا يكتب لكم بها أجر ولا ثواب، لمخالفتكم لأمر الله عز وجل في أمور نهاكم عنها، فلم تنتهوا فأحبط أعمالكم من حيث لا تشعرون، فاحذروا هذا المسلك المعوج الوعر الشائك، فإن ارتكاب المحرم قد يكون داعيًا إلى استمرائه، والاسترسال

---

(١) الصواف.. مصدر سابق ص ٣٩.

(٢) ابن كثير مصدر سابق ٤/٢٠٨.

(٣) البخاري.. مصدر سابق – كتاب الرقاق - باب حفظ اللسان ٥/ ٢٣٧٧ برقم: ٦١١٣.

فيه من غير مبالاة لعقوبة الله.

فتكثر السيئات، وتحبط الأعمال، من حيث لا يشعر الإنسان، فالرذيلة تكون أولاً حالاً وعرضًا، ثم تصير ملكة ومرضًا، وكذلك الفضيلة.

المطلب الثالث: **الأدب مع ورثة الأنبياء:**

فإذا كان هذا هو الأدب الواجب على المسلم مع رسول الله ﷺ فكذلك يجب الأدب مع ورثته قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحُجُرات: ٣ - ٥].

إنه من خلال ما سبق من آيات في هذه السورة يرى المسلم عظمة هذا الدين في بناء الفرد المسلم على الأدب الجم، الأدب مع الله جل وعلا، والأدب مع رسوله ﷺ ومن ثم الأدب مع من يحمل كتاب الله، ويرث سنة رسوله ﷺ، فالعلماء ورثة الأنبياء، فإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم.

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»[١].

وورد عن ابن عباس قوله: من آذى فقيهًا فقد آذى رسول الله ﷺ، ومن آذى

---

(١) البخاري..مصدر سابق – كتاب الرقاق – باب التواضع ٥/ ٢٣٨٤. برقم ٦١٣٧.

رسول ﷺ فقد آذى الله ﷻ.

وروى الخطيب البغدادي[1] عن أبى حنيفة[2] والشافعي[3] أنهما قالا: إن لم يكن الفقهاء أولياء الله فليس لله ولي[4].

ومن هذا المنطلق، ولما نراه من هجوم على كثير من العلماء، من تتبع لمثالبهم وانتقاصهم، والتشهير بهم، ولم يقتصر الأمر على الأحياء، بل تعدى إلى الأموات من سلف هذه الأمة وقدواتها، ولما لهذا الأمر من خطورة قد لا يدركها كثير من هؤلاء الذين يقعون في علمائهم، فضلاً عن غيرهم من العامة فلا بد من وقفة مناسبة لبيان هذه القضية[5]:

المسألة الأولى / مكانة العلماء وفضلهم:

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُمَر: ٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

---

(١) أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أحد الحفاظ المؤرخين، وصاحب مصنفات أشهرها تاريخ بغداد، ولد سنة ٣٩٢هـ، وتوفي سنة ٤٦٣ هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١٨/ ٢٧٠).

(٢) النعمان بن ثابت المرزبان الفارسي أبو حنيفة، الإمام الأعظم، ولد عام ٨٠ هـ، ومذهبه أحد المذاهب الأربعة، توفي سنة ١٥٠هـ، وهو في السجن (المصدر نفسه ٦/ ٣٩٠).

(٣) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، عالم العصر ناصر الحديث فقيه الملة، صاحب المذهب الشافعي، ولد بغزة بفلسطين عام ١٥٠هـ، وتوفي بمصر عام٢٠٤ هـ (مصدر سابق١٠/ ٥).

(٤) نزهة الفضلاء..مصدر سابق ٢/ ٨٥٠.

(٥) سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية د/ناصر بن سليمان العمر - الطبعة الثالثة ٢٠٠١م - دار الصديق للنشر - صنعاء.. ص١٦٦.

وقال تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

وأولو الأمر، كما يقول أهل العلم: هم العلماء. وقال بعض المفسرين: أولو الأمر: الأمراء والعلماء[١].

وقال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة: ١١].

قال ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»[٢].

قال ابن حجر[٣]: (ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين، أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع، فقد حرم الخير)[٤] أي لم يرد الله به خيرًا.

وفي سنن الترمذي[٥] عن النبي ﷺ أنه قال: «فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ليلة البدر، العلماء هم ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به فقد أخذ بحظ وافر»[٦].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥١٩.

(٢) رواه مسلم..مصدر سابق – كتاب الزكاة – باب النهي عن المسألة ٢/ ٧١٨ برقم: ١٠٣٧.

(٣) أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن احمد بن حجر الكناني العسقلاني، المصري المولد والنشأة، له الكثير من المؤلفات، أشهرها (فتح الباري شرح صحيح البخاري)، ولد سنة ٧٧٣ هـ، وتوفي سنة ٨٥٢هـ (طبقات الحفاظ للسيوطي ١/ ٥٥٢).

(٤) فتح الباري مصدر سابق ١/ ١٦٥.

(٥) محمد بن عيسى بن سورة بن عيسى السلمي الترمذي الضرير، مصنف الجامع وكتاب العلل، ولد في حدود سنة٢١٠هـ، ومات سنة ٢٧٩هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١٣/ ٢٧٠).

(٦) أخرجه الترمذي. مصدر سابق ٥/ ٨٤ برقم٢٦٨٢. ورواه أبو داود ١/ ٣٦٤١. وذكره السيوطي بدون زيادة (العلماء ورثة الأنبياء..الخ) وقال ضعيف فيض القدير ٨/ ٤١٩٦، لكن الألباني صححه في صحيح الجامع الصغير، الطبعة الثالثة ١٩٨٨م – المكتب الإسلامي ٢/ ٧٧٦ برقم: ٤٢١٢ ولفظ (العلماء ورثة الأنبياء) قال الشوكاني أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وذكره البخاري في صحيحه بغير إسناد. نيل الأوطار ٦/ ٢٦٤.

المسألة الثانية / الآثار المترتبة على الوقيعة في العلماء:

هناك عواقب وخيمة، ونتائج خطيرة، وآثار سلبية، تترتب على أكل لحوم العلماء، والوقوع في أعراضهم، يدرك تلك الآثار من تأمل في الواقع، ووسع أفقه وبعد نظره، وإليك أهمها:

١- إن جرح العالم سبب في رد ما يقوله من الحق:

إن جرح العالم ليس جرحًا شخصيًا، كأي جرح في رجل عامي، ولكنه جرح بليغ الأثر، يتعدى الحدود الشخصية إلى رد ما يحمله العالم من الحق، ولذلك استغل المشركون من قريش هذا الأمر، فلم يطعنوا في الإسلام أولاً، بل طعنوا في شخص الرسول ﷺ لأنهم يعلمون، يقينًا أنهم إن استطاعوا أن يشوهوا صورة الرسول ﷺ في أذهان الناس فلن يقبلوا ما يقوله من الحق، قالوا: إنه ساحر، كاهن، مجنون.. ولكنهم فشلوا ولله الحمد ـ في ذلك. وقد كانوا قبل بعثته يصفونه بالأمين، الصادق، الحكم، الثقة، فما الذي تغير بعد بعثته؟ ما الذي حوله إلى كاهن، مجنون، ساحر؟ إنهم لا يقصدون شخص محمد بن عبد الله، فهم يعلمون أنه هو هو، ولكنهم يقصدونه بصفته رسولاً يحمل منهجًا هم يحاربونه، فعلموا أنهم إن استطاعوا تشويه صورته في نفوس الناس فقد نجحوا في صدهم عنه، وعما معه من الحق، وهذا هو أسلوب المنافقين اليوم.

٢- إن جرح العلماء سيؤدي إلى بعد طلاب العلم وجماهير الأمة عن علمائها:

وحينئذ يسير العلماء في طريق، و طلاب العلم وجماهير الأمة في طريق آخر دون مرشدين، فيتعرضون للأخطار والأخطاء، ويقعون في الزلل والشطط، وهذا فيه أشد الخطر على شباب الأمة اليوم، وسيظهر الإفراط والتفريط من خلال تصرف الشباب بعيدًا عن مشورة وحكمة العلماء.

المسألة الثالثة / ما يجب تجاه العلماء[1]:

١- أن نحفظ للعلماء مكانتهم في قيادة الأمة، والتأدب معهم:

قال الشافعي: ما ناظرت أحدًا قط إلا وتمنيت أن يجري الله الحق على لسانه.

٢- العلم أنه لا معصوم إلا من عصم الله، وهم الأنبياء والملائكة:

قال الإمام سفيان الثوري: ليس يكاد يثبت من الغلط أحدٌ.

وقال الترمذي: لم يسلم من الخطأ والغلط كبير أحد من الأئمة مع حفظهم.

٣- معرفة أن الخلاف موجود منذ عهد الصحابة، إلى أن تقوم الساعة:

لذلك يجب أن تتسع الصدور للخلاف بين العلماء، فلكل واحد منهم فهمه، ولكل واحد اطلاعه على الأدلة، ولكل واحد نظرته في ملابسات الأمور، فمن الطبيعي أن يوجد الخلاف بينهم، وهو على أي حال خلاف تنوع لا خلاف تضاد.

٤- حمل أقوال العلماء وآرائهم على المحمل الحسن: وعدم إساءة الظن فيهم، وإن لم تأخذ أقوالهم، والناس ليسو ملزمين بالأخذ بكل أقوال العلماء، لكن هناك فرق كبير بين عدم الأخذ بقول العالم ـ إذا كان هناك دليل يخالفه ـ والجرح فيه، فلا يعني عدم الاقتناع برأي العالم أن يستباح عرضه، ويؤكل لحمه، ولقد كان الإمام الشافعي رحمه الله يقول: «إذا صح الحديث فهو مذهبي»[2] ونقل ذلك عن غير واحد من الأئمة، فقد كانوا يدركون أنه

---

(١) ناصر العمر.. مصدر سابق ص ٢٠٨ وما بعدها.

(٢) عون المعبود – محمد شمس الحق آبادي – الطبعة الثانية – دار الكتب العلمية بيروت – ٢/ ٥٧.

ليس أحدٌ متعبدًا بقول عالم، فقد يكون قوله مخالفًا للدليل، لأنه لم يبلغه ـ مثلاً ـ لكن تبقى حرمة العالم مصونة من الطعن والوقيعة.

قال عمر رضي الله عنه: لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم سوءًا وأنت تجد لها في الخير محملاً(١). هذا مع أي أخ فكيف حينما يكون الأخ عالمًا.

المسألة الرابعة / أمور لابد من بيانها:

١- ليس من منهج القرآن الكريم تقديس الأشخاص، أو التغاضي عن الأخطاء، أو السكوت عن الحق، بل إنه يدعو إلى الأسلوب الصحيح في بيان الحق، بدون انتهاك لأعراض العلماء، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء.

٢- لماذا تبرز أخطاء العلماء أكثر من غيرهم؟.. السبب في ذلك أن العلماء صفوة الأمة وخيارها، وقدوتها، وأحمدها سيرة، فإذا وقع منهم خطأ كان جليًا واضحًا. لأنه بمثابة النقطة السوداء في صفحتهم الناصعة البيضاء، ولذلك قيل: زلة العالم مضروب بها الطبل، وما مثل العالم إلا كمثل الثوب الأبيض، فإذا أصابته نقطة ـ مهما كان صغرها ـ برزت فيه وظهرت، ومن هنا وجب على العلماء أن ينتبهوا لذلك الأمر، وأن يتفقدوا أنفسهم - ويتفطنوا لأعمالهم وتصرفاتهم وأقوالهم، كما يجب ـ كذلك ـ على الناس ألا يضخموا هفوات علمائهم، ولا ينفخوا فيها.

٣- الحذر من الذم الذي يشبه المدح: بعض الناس يسهب في الثناء على شيخ من المشايخ ويخلع عليه من نعوت الفضل وألقاب التوقير شيئًا كثيرًا، ثم يقول ـ مثلاً ـ (لكن الشيخ حبيب) أو طيب القلب، وهو يقصد أنه قد يُستغفل، أو

---

(١) الدر المنثور – مصدر سابق ٧/ ٥٦٥.

غير ذلك من الأساليب المغلفة بغلاف المدح، وهي للتنقص، وأن على هؤلاء الذين يستخدمون هذه الأساليب، أن يخافوا الله ويتقوه، وأن يدركوا خطورة ما يقولون، وأن يتوبوا إلى الله ويستغفروه، وأن يعتذروا ممن انتقصوه.

٤- أن من أساء الأدب مع العلماء فسيلقى جزاءه، عاجلاً أو آجلاً: قال الإمام الذهبي في ترجمة ابن حزم[١] رحمهما الله: «وصنف كتبًا كثيرة، وناظر عليه، وبسط لسانه وقلمه، ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب، بل فجج العبارة، وسب وجدع، فكان جزاءه من جنس فعله، بحيث أنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة، وهجروها، ونفروا منها، وأحرقت في وقته»[٢].

والواقع يشهد أن الذي يسب العلماء، ويتجرأ عليهم، يسقط من أعين العامة والخاصة.

٥- على العلماء وطلاب العلم الذين يبتلون بالتعرض للطعن، وكلام الناس فيهم، عليهم أن يصبروا ويتقوا الله، وأن يعلموا أنهم ليسوا أفضل من الأنبياء والمرسلين، فالرسول ﷺ لم يسلم من الكلام فيه، وطعن حتى في أهله في حادثة الإفك. فللعلماء أسوة في رسول الله ﷺ فليقتدوا به، وليعلموا أن العاقبة للمتقين، قال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ

---

(١) علي بن احمد بن سعيد بن حزم بن غالب الفارسي الأصل ثم الأندلسي أبو محمد، ولد بقرطبة سنة ٣٨٤ هـ، وله عدة مؤلفات، وهو الظاهري المعروف، وأهم مؤلفاته: (المحلى) توفي سنة ٤٥٦ هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١٨/ ١٨٤).

(٢) نزهة الفضلاء.. مصدر سابق ٣/ ١٣٩٧.

يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾[الأعراف: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ ﴾ [فاطر: ٤٣].

٦- وأخيرًا يجب على المتحدثين في العلماء: أن يتقوا الله ويتوبوا إليه، وأن يثنوا على العلماء بمقدار غيبتهم لهم، وإلا فأنهم الخاسرون، والعاقبة للمتقين وما مثلهم إلا كما قال الأول:

كناطح صخرة يومًا ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل[1]

وقول الآخر:

يا ناطح الجبل العالي ليثلمه

أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل[2]

وعليهم أن يتنبهوا، ويصححوا المنهج، وينظروا في العواقب، ويحفظوا حرمات الله يحفظهم الله، ويغفر لهم.

المطلب الرابع: آداب عامة:

المسألة الأولى: الأدب مع الأمير والمسؤول:

ومن الآداب التي دعا إليها الإسلام الأدب مع الأمير والمسؤول عنك، وذلك في المنظمات الإسلامية، وهو واجب، ما لم يخالف نصًا شرعيًا.

وقد حصلت كثير من الإشكالات والمخالفات نتيجة لعدم الأدب مع هذه المنظمات وقياداتها، مع أنها أنشئت لإعادة الأمة إلى الدين الصحيح.

---

(١) ديوان الأعشى قصيدة (ودع هريرة) في الفخر قالها ليزيد بن مسهر ص١٤٤.

(٢) القائل هو الحسن بن حميد – طبقات الشافعية الكبرى – ٢/ ١١.

فيجب متابعتها في ذلك، خصوصًا من الأفراد الذين ألزموا أنفسهم و ارتبطوا بها بأي صفة شرعية، فإن طاعة هذه القيادة وهذه المنظمات جزء من طاعة الله، والأدب معها أدب مع رسول الله ﷺ الذي قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»[1].

ولا نستطيع اليوم أن نقوم بأي عمل ذي بال لصالح الإسلام ما لم تكن هذه الآداب مرعية ومحترمة ونعتبرها عبادة نتقرب بها إلى الله تعالى.

ومن مشاكل المسلمين اليوم أن بعض المنتمين إلى المنظمات الإسلامية يتحول إلى قيادات لا يحترم بعضهم بعضًا؛ ولا يتأدبون مع بعضهم بالآداب الشرعية؛ مما يكون سببًا في ضعفهم، وعدم استمرار هذه المنظمات في أداء واجبها، وانشغال قياداتها بخلافاتهم الداخلية.

وأحيانًا قد يكون الخلاف بين أفراد هذه التنظيمات سببًا من الأسباب الرئيسة لكشف بعض الأشياء السرية لجهات معادية لها، بسبب عدم التأدب، وعدم الالتزام بأنظمة هذه التنظيمات، والتي تستمد من المنهج الإسلامي الصحيح، وقد تكون بعض القيادات أو الجهات سببًا في ظهور هذا المرض، بسبب ضعف تربيتها لأفرادها، أو سوء معاملتها لهم، والأفراد في الغالب ينظرون إلى القيادات نظرة مثالية، ويفترضون فيها أن تكون قدوة لهم في الخير، وينسون أن هذه القيادات بشرية معرضة للضعف والخطأ، فيفتنون ببعض هذه الأخطاء.

---

(١) رواه البخاري.. مصدر سابق – كتاب الأحكام – باب قوله تعالى ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ ٦/ ٢٦١١ برقم: ٦٧١٨.

المسألة الثانية: الأدب مع الخلق:

أما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم، فلكل مرتبة أدب، والمراتب فيها أدب خاص، فمع الوالدين: أدب خاص للأب، هو أخص به وللأم أدب يجب أن يرعى، وهو أخص من أدب الأب؛ ومع السلطان: أدب يليق به وله ومع الأقران أدب يليق بهم؛ ومع الأجانب: أدب غير أدبه مع أصحابه، وذوي أنسه، ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته.

ولكل حال أدب: فللأكل آداب، وللشرب آداب، وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب، وللتبول آداب، وللكلام آداب، وللسكون والاستماع آداب.

وأدب المرء: عنوان سعادته وفلاحه، وقلة أدبه: عنوان شقاوته وبواره، فما استجلب خير الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استجلب حرمانهما بمثل قلة الأدب، فانظر إلى الأدب مع الوالدين: كيف نجى صاحبه من حبس الغار حين أطبقت عليهم الصخرة؟ والإخلال به مع الأم ـ تأويلاً وإقبالاً ـ على الصلاة كيف امتحن صاحبه بهدم صومعته وضرب الناس له، ورميه بالفاحشة.

وتأمل أحوال كل شقي ومفتر ومدبر: كيف تجد قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان؟[1].

إن حسن الخلق والأدب هو مقام الاقتداء برسول ﷺ، واتباع سنته بفضل من الله عز وجل القائل في كتابه: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

وهو الذي أمرنا بذلك في قوله جل وعلا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ

(١) نضرة النعيم..مصدر سابق ٢/ ١٤٩.

حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

المسألة الثالثة: من فوائد الالتزام بالأدب[1]:

مع أنواع الأدب التي ذكرت، ومع تقدير أن الأدب هو الدين كله، فإن الالتزام بالأدب يحقق فوائد عديدة للإنسان المسلم، وأهمها كما يلي:

أولًا/ يصفي سلوك الفرد مما يشينه وينتقصه.

ثانيا/ يجعل الناس يتحلون بالمحامد والمكارم، ويبتعدون عن المناقص.

ثالثا/ يجعل الإنسان يحترز عن الخطأ، ويتحرى الصواب.

رابعا/ يهذب الأخلاق، ويصلح العادات.

خامسا/ يجعل الإنسان يلتزم بالمنهج الإلهي في الأرض مما يصلح أحواله.

سادسا/ الالتزام بالأدب مع الله يحقق التقوى في قلب الإنسان.

سابعا/ الالتزام بأدب الشريعة يؤدي بالإنسان إلى القيام بأركان المنهج الإسلامي.

ثامنا/الالتزام بالأدب مع رسول الله ﷺ يحقق التسليم والانقياد والطاعة له فيما أمر ونهى.

تاسعا/ الالتزام بأدب السياسة، يؤدي بالإنسان إلى القيام بواجباته في حياته مع الناس كل بما يستحقه، وفي هذا ضمان لحسن سير الحياة.

عاشرا/ يحقق الالتزام بالآداب الإيجابية في الحياة، وإتاحة الفرصة للإبداع والابتكار والحيوية في السلوك.

---

(١) نضرة النعيم..مصدر سابق- ٢/ ١٧٠.

وفي ختام الفصل يجد الباحث من المناسب التذكير بأن منهج القرآن الكريم يهتم بإصلاح المجتمعات بطرق متنوعة، ومن ذلك إلزام المجتمع بضرورة التحاكم إلى الكتاب والسنة، والتأدب مع الرسول ﷺ في كل أمر، وعدم تقديم آراء البشر على الكتاب والسنة مهما بدا لهم أنها وجيهة، بل لا بد من التأدب مع فئات المجتمع بمختلف شرائحه، ابتداء من الوالدين، والعلماء، والزملاء، والمسؤولين التنظيميين، وغيرهم، ولو التزم أبناء المجتمع هذه التعليمات، وساروا على هذا المنهج القرآني، لتغير حالهم وعاشوا حياة سعيدة لا نظير لها، أسأل الله أن يعيد المجتمع الإسلامي إلى سالف مجده، وأن يلهمه الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني

المنهج الشرعي في التثبت

ويشتمل على ثلاثة مباحث

المبحث الأول: التثبت، مفهومه وأهميته وفيه ثلاثة مطالب.

المبحث الثاني: ضوابط التثبت وأنواعه وفيه أربعة مطالب.

المبحث الثالث: آثار عدم التثبت وعلاجه وفيه أربعة مطالب.

المبحث الأول: التثبت مفهومه وأهميته وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الآيات وتمهيد وأسباب النزول.

المطلب الثاني: تعريف التثبت والتبين.

المطلب الثالث : وجوب التثبت وأهميته.

المطلب الأول: **الآيات وتمهيد وأسباب النزول:**

المسألة الأولى/ الآيات:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾

[سورة الحُجُرات: ٦ - ٨]

المسألة الثانية/ تمهيد:

التثبت في الأخبار فضيلة، تدل على الرجولة وضبط النفس. ولكنها - مع مر الأسف - ليست كثيرة عند الناس اليوم، وأكثر الناس يقعون في تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون، ولبعض مهرة الكذابين حيل وأساليب قد تخفى على أشد الناس تثبتًا، وعقلاً وحكمة، وإدراكًا، خصوصًا في زماننا هذا، وقد أصبحت أسلحة الدعاية فيه والكذب من أفتك ما نحارب به، بل أصبح للكذب معامل ومصانع ومطابخ تهيئ الكذب وتجمله وتزينه وتصقله، ثم تدس سمه في الدسم، وتقدمه طعامًا للغافلين الأبرياء من الناس، فتوقعهم في شباك الكذب من حيث لا يشعرون[1]، وعدم التثبت هو الذي يحول كثيرًا من الناس إلى كذابين وهم لا

(١) الصواف، مصدر سابق، ص ٦٨.

يشعرون، ومنهج القرآن يلزم المجتمع بالتثبت للخروج من هذا المرض العضال، وللحفاظ على وحدة وتماسك أبناء المجتمع المسلم.

وإذا كان رجال الأمس يتثبتون للخبر مرة واحدة، فيجب علينا نحن اليوم أن نتثبت ألف مرة ومرة، وقد كثرت بيننا الوشايات، وساءت بيننا العلاقات، وتفرقنا أيدي سبأ، بفعل الخائنين والكذابين والدساسين، وبفعل المؤامرات والمخططات الجهنمية التي حاكها ضدنا الاستعمار والصهيونية ومن لف لفهم من أذنابهم وخدامهم العملاء الخونة، حتى ساد بعضهم المجتمعات الإسلامية، وحكموا شعوبهم بالقسر والقهر وهم العبيد الأذلاء.. قال المتنبي[1]:

سادات كل أناس من نفوسهمُ   وسادة المسلمين الأعبد القزم[2]

والناس جميعًا في أشد الحاجة إلى العمل بهذه الآية الكريمة، لتستقيم أخلاقهم، وترتاح ضمائرهم، والذين هم أشد حاجة من جميع الناس للعمل بهذا الطراز من الخلق الرفيع، هم الذين بيدهم مقاليد الأمور، وكثيرًا ما يقع عدم التثبت من الكبراء والرؤساء، ويجيئهم ذلك من ناحية استبعاد أن تكذب عليهم بطانتهم، وهو مدخل للخطر عظيم، فقد تكون هذه البطانة من أكذب الناس وأشدهم حقدًا وحسدًا للآخرين، فتوقع رئيسها في طائلة الظلم والكذب والتسرع في الأمور، وتوقع المظلومين فريسة لها[3].

---

(١) أحمد بن حسين بن حسن الجعفي الكوفي، أبو الطيب، شاعر زمانه، الأديب الشهير بالمتنبي، ولد سنة ٣٠٣هـ، وتوفي سنة ٣٥٤هـ. (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١٦/ ١٩٩).

(٢) ديوان المتنبي، قصيدة (أين المحاجم يا كافور) في هجاء كافور، ص ٥٠٢.

(٣) أنظر الصواف مصدر سابق.. ص ٦٩.

المسألة الثالثة: أسباب النزول:

قيل إن هذه الآية نزلت في الوليد[(١)] بن عقبة بن أبي معيط، وسبب ذلك أن النبي ﷺ بعثه مصدقًا إلى بني المصطلق، فلما أبصروه أقبلوا نحوه فهابهم، وفي رواية، لإحنة كانت بينه وبينهم في الجاهلية، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام فبعث نبي الله ﷺ خالد بن الوليد[(٢)]، وأمره أن يتثبت ولا يعجل، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلاً، فبعث عيونه، فلما جاءوا أخبروا خالدًا أنهم متمسكون بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد ورأى صحة ما ذكروه، فعاد إلى نبي الله ﷺ فأخبره فنزلت هذه الآية، فكان يقول نبي الله ﷺ: «التأني من الله والعجلة من الشيطان»[(٣)]. وفي رواية أن النبي ﷺ بعثه إلى بني المصطلق بعد إسلامهم، فلما سمعوا به ركبوا إليه، فلما سمع بهم خافهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن القوم قد هموا بقتله، ومنعوا صدقاتهم، فهم رسول الله ﷺ بغزوهم، فبينما هم كذلك إذ قدم وفدهم على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤدي إليه ما قبلنا من الصدقة،

---

(١) الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي أبو وهب، له صحبة قليلة ورواية يسيرة، وهو أخو أمير المؤمنين عثمان لأمه، من مسلمة الفتح، بعثه رسول الله ﷺ على صدقات بني المصطلق، كان سخيا شاعرا، شجاعا قائما بأمر الجهاد، وله أخبار طويلة، ولم يذكر تاريخ وفاته (الإصابة مصدر سابق ٦/ ٦١٤).

(٢) خالد بن الوليد القرشي المخزومي أبو سليمان، سيف الله تعالى، وفارس الإسلام، وليثُ المشاهد، السيد الإمام الكبير قائد المجاهدين، هاجر مسلما في صفر سنة ثمان، ثم سار غازيا، شهد غزوة مؤته وكثير من الغزوات، عاش ستين سنة، وقتل جماعة من الأبطال، ومات على فراشه، فلا قرت أعين الجبناء، توفي بحمص سنة إحدى وعشرين،ومشهده على باب حمص (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٣٦٦).

(٣) رواه البيهقي في سننه الكبرى ١٠/ ١٠٤ وحسنه الألباني في صحيح الجامع١/ ٥٧٨ برقم: ٣٠١١.

فاستمر راجعًا، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله أنا خرجنا لنقاتله، والله ما خرجنا لذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وسمي الوليد فاسقًا أي كاذبًا[١]، وبعض المفسرين[٢] والباحثين لا يرون أن الوليد هو المقصود بالفاسق، وهو الحق لأنه توهم في تقديره وأخطأ، والخطأ معفو عنه كما هو معروف، ولا شك أن الوليد صحابي جليل له جهاده وفضله، ولا يمنعه ذلك من الوقوع في الخطأ، فهو بشر غير معصوم، علمًا بأن الروايات التي وردت في سبب النزول رغم كثرتها لا تصل إلى درجة الصحة[٣]، ورمي الوليد بالفسق دون دليل صريح صحيح يدل على عدم التثبت، والأمر عام للرسول ولجميع المسلمين أن لا يصدقوا أي خبر من فاسق حتى يتبينوا فيه.

المطلب الثاني: **تعريف التثبت والتبين:**

المسألة الأولى/ التثبت لغة واصطلاحًا:

التثبت في اللغة:

ثَبَتَ الشيءُ يَثْبُتُ ثَبَاتًا وثُبُوتًا فهو ثابتٌ، و أَثْبَتَه هو، و ثَبَّتَه، قال عز وجل: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠] ومعنى تَثْبِيت

---

(١) تفسير القرطبي، مصدر سابق ١٦/ ٣١١. والدر المنثور ٧/ ٥٥٥. وجمهور المفسرون يكادون يجمعون بأن الآية نزلت في الوليد بن عقبة أنظر الطبري ٢٦/ ١٢٤ وابن كثير ٤/ ٢٢٤. وغيرهما.

(٢) أنظر التفسير الكبير للرازي –دار إحياء التراث، بيروت – الطبعة الثالثة ٢٨ / ١١٩. ولباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين الخازن– دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٥م ٤/ .

(٣) أنظر التثبت والتبين في المنهج الإسلامي د/ أحمد محمد العليمي - الطبعة الأولى ٢٠٠٠م - دار ابن حزم، بيروت – ص ٢٥ وما بعدها.

الفُؤَادِ تَسْكِينُ القَلْبِ. وخلاصة التثبت في اللغة: التأني في الأمر والرأي[١].

التثبت في الاصطلاح:

التثبت مرتبة من مراتب وصول العلم، يراد بها ما يحصل من العلم بعد الالتباس، وتثبت في الأمر والرأي، واستثبت: تأنى فيه ولم يعجل، واستثبت في أمره إذا شاور وفحص عنه، ورجل ثبت، أي: ثابت القلب، وقول ثابت، أي: صحيح، والتثبت: طلب الثبات والتأني حتى يتضح الحال، والتثبت: تفريغ الجهد لمعرفة حقيقة الحال[٢].

المسألة الثانية/ التبين لغة واصطلاحًا:

التبين في اللغة:

مصدر تبين إذا تثبت في الأمر وبان الشيء يبين بيانًا فهو مبين أي اتضح اتضاحًا فهو واضح[٣].

التبين في الاصطلاح:

والتبين طلب البيان والتعرف، والتبين قوة الإبانة أي تأملوا وتبينوا، والأمر بالتبين أصل عظيم في وجوب التثبت في القضاء وغيره، وأن لا يتبع الحاكم القيل والقال، ولا ينصاع إلى الجولان في الخواطر من الظنون والأوهام.

والتبين أيضًا طلب البيان وهو ظهور الأمر، والتثبت التحري وطلب الثبات

---

(١) لسان العرب، مصدر سابق ٢/ ١٩.

(٢) نضرة النعيم، مصدر سابق ٣/ ٩٠١ بتصرف.والموسوعة الفقهية – وزارة الأوقاف بدولة الكويت – ١٩٨٧م الطبعة الثانية ١٠/ ١٤٢.

(٣) لسان العرب، مصدر سابق ١٣/ ٦٧. بتصرف.

وهو الصدق[(١)].

ولعل التثبت والتبين بمعنى واحد وهو التأكد من صحة الشيء وثبوته، وعدم التسرع في الحكم على الأمور قبل أن يتأكد من صحتها، وهو ينافي الأخذ بالشبهة أو التسرع في الحكم بلا دليل[(٢)].

وقيل إن بين التبين والتثبت عموم وخصوص، حيث إنهما إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، وذلك أن التثبت ينصب على السند، أما التبين فهو يدور حول معنى الخبر ومتنه وملابساته، فقد يثبت الخبر سندًا ولا يصح معنى، وقد يثبت سندًا ويصح معنى، ولكن ظروفه وملابساته قد تشفع لمن حدث منه وهذا من التبين، ومن ذلك قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في فتح مكة لا شك أنه وقع في محظور لكن عذره النبي ﷺ لسبب سابقته، ولسبب الملابسات التي حصلت في هذه الحادثة[(٣)].

المطلب الثالث: وجوب التثبت وأهميته:

المسألة الأولى: وجوب التثبت:

جاء الأمر بالتثبت في قبول الأخبار في آية عظيمة من كتاب الله عز وجل، وهي قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحُجُرات: ٦]..

(١) تفسير التحرير والتنوير، المعروف بتفسير ابن عاشور – محمد الطاهر بن عاشور – الطبعة الأولى ٢٠٠٠ مؤسسة التاريخ بيروت – ٢٦/ ١٩٢-١٩٣ بتصرف.

(٢) التثبت مصدر سابق ص ١٥.

(٣) سورة الحجرات، العمر، مصدر سابق، ص ٢٩٠-٢٩١ بتصرف.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَثَبَّتُوٓاْ﴾[١].

إذًا فالتثبت والتبين هو الأصل الذي يبنى عليه نقل الخبر، والتأني ثم التحري في صحة النقل دليل الكياسة والفطنة وكمال العقل، فإن [أصل العقل التثبت]، قال الإمام ابن الجوزي[٢] رحمه الله: (ما اعتمد أحد أمرًا إذا هم بشي مثل التثبت، فإنه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب كان الغالب عليه الندم، ولهذا أمر الإنسان بالمشاورة، لأن الإنسان بالتثبت يطول تفكيره، فتعرض على نفسه الأحوال، وكأنه شاور.

وأشد الناس تفريطًا: من عمل مبادرة في واقعة من غير تثبت ولا استشارة، خصوصًا فيما يوجب الغضب، فإنه بنزقه طلب الهلاك، أو استتبع الندم العظيم، فالله الله ! التثبت التثبت ! في كل الأمور والنظر في عواقبها، خصوصًا عند الغضب المثير للخصومة)[٣].

ووجوب التثبت من الأخبار والتحذير من الاعتماد على مجرد الأقوال جاء منعا من إلقاء الفتنة بين أفراد المؤمنين وجماعتهم، وأخذًا بالحيطة والحذر، وعدم إيذاء الآخرين بخطأ فادح، فيصبح المتسرع في الحكم والتصديق نادمًا على العجلة، وترك التأمل والتأني[٤].

---

(١) فتح القدير – محمد علي الشوكاني – دار الفكر، بيروت – ٥/ ٦٠.

(٢) الحافظ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي التيمي البكري البغدادي المشهور بابن الجوزي، ولد سنة ٥٠٩هـ ومات سنة ٥٩٧ هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ٢٢/ ٣٥٢).

(٣) صيد الخاطر – ابن الجوزي – دار الإشراق الدوحة – الطبعة الثانية ١٩٩٨م – ص ٣٠٩.

(٤) التثبت، مصدر سابق، ص ١٧.

قال عبد الرحمن السعدي[١] رحمه الله تعالى: «والتثبت في سماع الأخبار، وتمحيصها ونقلها وإذاعتها، والبناء عليها، أصل كبير نافع، أمر به الله ورسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾[الحُجُرات: ٦]. فأمر بالتثبت، وأخبر بالأضرار المترتبة على عدم التثبت، وأن من تثبت لم يندم»[٢].

قال الدكتور مصطفى السباعي[٣] رحمه الله:

«والجماهير دائمًا أسرع إلى إساءة الظن قبل إحسانه.. فلا تصدق كل ما يقال لك، ولو سمعته من ألف فم، حتى تسمعه ممن شاهده بعينه، ولا تصدق من شاهد الأمر بعينه حتى تتأكد من تثبته فيما يشاهد، ولا تصدق من تثبت فيما يشاهد حتى تتأكد من براءته وخلوه عن الغرض والهوى، ولذلك نهانا الله عن الظن، واعتبره إثمًا لا يغني من الحق شيئًا»[٤].

وعليه فالتثبت واجب شرعًا، ويزيد وجوبه إذا ترتب على عدم الأخذ به إضرار بالمجتمع أو الأفراد، وكلما زادت مسؤولية الفرد زاد وجوب التثبت عليه.

---

(١) العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، من علماء القصيم - السعودية، ولد سنة ١٣٠٧هـ، وتوفي سنة ١٣٧٦ هـ (من أعلام الحركة الإسلامية، مصدر سابق، ص ١٥٩).

(٢) الفتاوى السعدية – عبد الرحمن بن ناصر السعدي – عالم الكتب بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٥م ـ ص ٤٦.

(٣) مصطفى بن حسني السباعي، من مواليد حمص، سوريا عام ١٩١٥م وكان مجاهدا عالما وداعية عاملا، توفي رحمه الله عام ١٩٦٤م.(من أعلام الحركة الإسلامية.. مصدر سابق.. ص٢٥٤).

(٤) أخلاقنا الاجتماعية – مصطفى السباعي – المكتب الإسلامي بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٩م ص ٨٨-٨٩.

المسألة الثانية: أهمية التثبت:

للتثبت أهمية بالغة في الشريعة الإسلامية، فهو يعتبر من الأخلاق التي تجنب المسلم الزلل، وتجعل تصرفاته حصيفة موزونة، وبعيدة عن الطيش والتسرع، والوقوع في الأخطاء التي توصله عاجلاً أم آجلاً إلى الندم.

وتأتي أهمية التثبت والتبين أنه منهج اجتماعي ضروري للحفاظ على وحدة الأمة الإسلامية، واستئصال أسباب الفرقة والشتات فيها، حيث إن حاجة المسلمين لمعرفته، والتخلق به في هذا العصر عظيمة، وخاصة حاجة الحكام، والعلماء، والدعاة، وطلاب العلم، لأنهم من يصدر الأحكام، ويطبق النصوص على الوقائع والأقوال، فلا بد من تأكد وتبين من الواقعة وملابسات حدوثها، وصحة صدور القول من قائله، ومراده منه، ومقصده، والتحري من توافق ذلك مع النص عند تنزيله عليه.

وهذا الهرج الذي يسود ساحة الفتيا وإصدار الأحكام، مصدره عدم التثبت والتبين في العلم والتبحر فيه، والاكتفاء ببعض النصوص دون النظر إلى مقاصد التشريع، ومعرفة الجهد الذي سبق به العلماء في الحكم على المسائل والأحداث(١).

والتثبت أساس إعطاء الواجبات والحقوق، أو نزعها في حالة فقدانه وعدم وجوده إذ لا يتحقق العدل وإتاحة الفرص إلا بتطبيقه والبناء عليه في الأحكام والتشريع، فبناء الأمة لا يكون إلا بوجود التصور والتطبيق المتوافق مع الحق والعدل.

ولا يمكن أن تقوم الحياة، وأن يستقر المنهج في واقع التطبيق من خلال التعامل والأخذ والعطاء إلا بمنهجية التبين والتثبت، إذ هو من مقتضى العدل الذي يطلبه

---

(١) التثبت مصدر سابق.. ص٩.

المنهج القرآني ويستقر عليه[١].

وقد جاء الأمر صريحًا بوجوب التثبت والتبين في الأخبار عند رواية الفاسق لها حيث جاءت في قراءة سبعية متواترة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن وقاف متبين[٢].

والعقيدة الإسلامية عقيدة الوضوح والاستقامة والنصاعة، فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾[الإسراء: ٣٦].

وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجًا كاملاً للقلب والعقل، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثًا جدًا، ويضيف إليه استقامة القلب ومراقبة الله، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة!

فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق، ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة، ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم[٣].

وهذا يدل على أهمية التثبت في منهج القرآن الكريم، وأنه جزء من الدين، والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من

---

(١) المصدر نفسه ص ٨.

(٢) مجموع الفتاوى مصدر سابق ١٠/ ٣٨٢.

(٣) في ظلال القران، مصدر سابق ٤/ ٢٢٢٧.

الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرى، إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب، أمانة يسأل عنها صاحبها، وتسأل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعا، أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة، وكلما روى الإنسان رواية، وكلما أصدر حكمًا على شخص أو أمر أو حادثة، ولا تقف ما ليس لك به علم.. ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين، وما لم تتثبت من صحته: من قول يقال، ورواية تروى. من ظاهرة تفسر، أو واقعة تعلل، ومن حكم شرعي، أو قضية اعتقادية[1]، وفي الحديث: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»[2] وفي سنن أبي داود[3]: «بئس مطية الرجل زعموا»[4]، وفي الحديث الآخر: «إن من أفرى الفرى أن يري عينه ما لم تر.. »[5].

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه، والتثبت في استقرائه؛ إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته، وفي مشاعره وأحكامه، فلا يقول اللسان كلمة، ولا يروي حادثة، ولا ينقل رواية، ولا يحكم العقل حكمًا، ولا يبرم الإنسان أمرًا إلا وقد تثبت من كل جزئية، ومن كل ملابسة، ومن كل نتيجة، فلم يبق هنالك شك ولا شبهة

---

(١) في ظلال القران، مصدر سابق ٤/ ٢٢٢٧.

(٢) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب النكاح - باب لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ٥/ ١٩٧٦ برقم ٤٨٤٩.

(٣) سليمان بن الأشعث أبو داود الأزدي السجستاني، محدث البصرة، ولد سنة ٢٠٢ هـ وتوفي سنة ٢٧٥هـ(سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ١٣/ ٢٠٣).

(٤) سنن أبي داود ٤/ ٢٩٤ برقم ٤٩٧٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٤٧ برقم: ٢٨٤٦، والسلسلة الصحيحة - مكتبة المعارف للنشر - الرياض - ١٩٩٥ م -- ١/ ٥٢٢ برقم: ٨٦٦.

(٥) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب الحيل - باب من كذب في حلمه ٦/ ٢٥٨٢ برقم: ٦٦٣٦.

في صحتها، ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ حقًا وصدقًا[١]..

وهذا الكلام يدل على أهمية هذا المنهج القرآني في التثبت، وخطورة عدم الأخذ به، ويكفي التأمل في الآية: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ وفي أسباب نزولها، لبيان أهمية التثبت والتبين، وأثرهما في حياة الفرد والأمة.

إن من يتأمل في واقع الناس اليوم، وينظر في الكم الهائل من الأخبار التي تُسمع في كل يوم، ويرى الاختلاف والتباين بين مصادر هذه الأخبار، يدرك عظمة هذا الدين وسُمُوّ هذا المنهج الذي دعا إليه الإسلام، وأمر به القرآن (التثبت).

وتظهر أهمية التثبت والتبين أكثر مما يترتب على عدم الأخذ به من نتائج وخيمة، ستذكر في موضعها من هذا الفصل إن شاء الله.

---

(١) انظر: في ظلال القران، مصدر سابق ٤/ ٢٢٢٧.



المبحث الثاني: ضوابط التثبت وأنواعه وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: صفات من نقبل خبره.

المطلب الثاني: أنــواع التثبت.

المطلب الثالث: العوامل المساعدة على التثبت.

المطلب الرابع: الموقف من الدعايات والأقاويل المغرضة.

المطلب الأول: صفات من نقبل خبره:

للحكم بصحة الخبر يجب مراعاة ما يلي: -

المسألة الأولى: عدالة الراوي وضبطه:

أما العدالة فتكون بسلامته من الفسق وخوارم المروءة، وهذا أمر واضح، وقل من يغفل عنه إلا من لا يعتد به، والآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ نص فيه.

ومن القضايا الخفية التي قد يغفل عنها بعض الناس، أنهم بادئ الأمر ينظرون إلى عدالة الناقل وأمانته دون النظر إلى ضبطه وإتقانه في النقل، فعندما تكون استجابة الإنسان استجابة عاطفية، فإنه عادة يعجز عن تمييز الحقائق، فقد يكون الناقل قد بلغ الغاية في التقوى والورع، لكنه قليل الضبط قليل التيقظ، ضعيف الحفظ لما يسمع[(١)].

قال الإمام مالك[(٢)] رحمه الله تعالى: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذونه، لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين ـ وأشار إلى المسجد ـ فما أخذت عنهم شيئًا، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت المال لكان أمينًا، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن[(٣)].

---

(١) نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها – أحمد بن عبد الرحمن الصويان – الطبعة الثالثة ٢٠٠٠م – دار السليم للنشر والتوزيع – سلسة عن المنتدى الإسلامي – ص ٤٦.

(٢) مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر الحميري الأصبحي، إمام دار الهجرة، أبو عبدالله المدني، ولد سنة ٩٣ هـ. ومات سنة ١٧٩هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ٤٨/٨).

(٣) تهذيب الكمال: يوسف أبو الحجاج المزبي – الطبعة الأولى ١٩٨٠م – مؤسسة الرسالة بيروت ٤٣٩/٢٦.

ومن الناس من يسمع الخبر ثم ينقله على غير وجهه، ليس من باب الكذب والخيانة ولكنه لم يستطع أن يفهم الكلام على وجهه الصحيح، فالله سبحانه وتعالى لم يرزقه دقة الضبط والتيقظ ولهذا تراه يُقوّل الناس ما لم يقولوا، ويحمّل كلامهم ما لا يحتمل..!

وكثير من الناقلين ليس قصده الكذب، لكن المعرفة بحقيقة أقوال الناس من غير نقل ألفاظهم، وسائر ما به يعرف مرادهم، قد يتعسر على بعض الناس، ويتعذر على بعضهم[١].

المسألة الثانية: حسن الفهم ودقة الاستيعاب للمراد:

(صحة الفهم وحسن القصد من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده، بل ما أعطي عبد عطاء بعد الإسلام أفضل ولا أجل منهما، بل هما ساقا الإسلام، وقيامه عليهما، وبهما يأمن العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت فهومهم، ويصير من المنعم عليهم الذين حسنت أفهامهم وقصودهم، وصحة الفهم نور يقذفه الله في قلب العبد يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، ويمده حسن القصد، وتحري الحق، وتقوى الرب في السر والعلانية، ويقطع مادته اتباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى)[٢].

قد يتصور البعض صعوبة التفريق بين الضبط والإتقان، وبين الفهم والإدراك، وهذا ناشئ من رداءة الفهم وضعف الإدراك، وإلا فإن الطفل يحفظ

(١) منهاج السنة النبوية - ابن تيمية - الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - مؤسسة قرطبة ٦/ ٣٠٣.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين - ابن القيم - دار الجيل بيروت، سنة الطبع ١٩٧٣م، تحقيق طه عبد الرؤف ١/ ٨٧.

حفظًا عجيبًا، قد يعجز عنه بعض الكبار، ومع ذلك لا يـدرك مـا يحفـظ، ولا يفهـم مـا يروي، فالحفظ والفهم موهبتان منفصلتان، قد تجتمعان وقد تفترقان، ولا تلازم بينهما.

ويحسن في هذا المقام ذكر هذا الحديث لبيان الفرق في أفهام الناس: فقد صح عن الرسول ﷺ قوله: (نضر الله عبدًا سمع مقالتي فحفظها ووعاها، وبلغها من لم يسمعها فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)[(١)].

ففي قوله ﷺ: (فحفظها ووعاها) إشارة إلى الحفظ السليم والفهم المستقيم.

وفي قوله ﷺ: (وبلغها من لم يسمعها) إشارة إلى أداء الكلام بنصه.

وفي قوله ﷺ: (ورب حامل فقه لا فقه له) إشارة إلى صاحب الفهم الضعيف.

وفي قوله ﷺ: (ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) إشارة إلى تفاوت الأفهام، وأن سامع الخبر قد يستنبط مما سمع ما لم يستنبطه الراوي[(٢)].

تجربة عملية:

لو كتب شخص عبارة في ورقة ثم قرأها لشخص وطلب منه أن ينقلها لغيره شفاهًا، ثم إلى ثالث ورابع، وهكذا عن ظهر قلب، فسيجد الرابع وربما من قبله قد غير ونسي الكثير إن لم يكن من أهل الاستيعاب والضبط الدقيق.

المسألة الثالثة: منهج علماء الحديث في التثبت والتبين:

والتثبت والتبين يقتضي التأكد من الأخبار وناقليها، وهو منهج علماء الحديث النبوي الشريف في نقلهم وتلقيهم للروايات حتى أصبح ذلك المنهج علمًا

---

(١) رواه الترمذي، مصدر سابق ٥/ ٣٤ برقم: ٢٦٥٨. وقال حديث حسن. وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١١٤٥ برقم ٦٧٦٥.

(٢) منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين.. هشام إسماعيل الصيني، الطبعة الثانية ١٩٩٨م، المنتدى الإسلامي، ص ٥٨.

بارزًا لهذه الأمة المسلمة تميزت به على سائر الأمم، فحفظ الله به دينها وتصورها كما هو معلوم.

ووضعوا شروطًا للراوي، منها: أن يكون عالًما بطريق النقل حتى لا يجزم إلا بما يتحققه، فإن لم يحصل له مستند في الرواية، لم يجز له النقل، لقوله ﷺ: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»(١) وليكون متحرزًا عن وقوع المجازفة والبهتان، والافتئات والعدوان، وهو لا يشعر ولا يبصر، وقد اخترع علماء الحديث مجموعة من العلوم للتثبت من الأخبار، والتأكد من صحتها، ومن ذلك:

اختصاص الأمة المسلمة بالسند:

لمحة عن الإسناد:

لم يكن الإسناد معروفًا قبل الإسلام في جزيرة العرب أو غيرها، فكانت وقائع التاريخ وقصصه يروى غثها وسمينها، وصحيحها وضعيفها، وحقها وباطلها، وقويها وسقيمها، وما حدث منها وما لم يحدث، على أنها حقائق مسلمة.

وكذلك كانت تتلقى الديانات وتنقل الأفكار والأقوال من معلميها أو قائليها إلى من يليهم من غير أي تحر لأحوال نقلتها ولمضمونها. حتى إذا جاء الإسلام انبرى علماؤه إلى ضبط المنقول عن الرسول ﷺ ضبطًا دقيقًا محررًا(٢).

فبفضل الإسناد حفظ الله تعالى للأمة دينها، وقد اشتهرت بين أهل العلم والناس كافة منذ عصر التابعين عبارة العلماء: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم.

وقولهم: إن الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء(٣).

---

(١) رواه مسلم، مصدر سابق –مقدمة الكتاب – باب النهي عن الحديث بكل ما سمع ١/ ١٠ برقم: ٥.

(٢) علوم الحديث – مصدر سابق– ص ٢٠.

(٣) مقدمة صحيح مسلم، مصدر سابق ١/ ١٥.

إن الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمهم وحديثهم إسناد، وإنما هي صحف بأيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وهذه الأمة إنما تقبل الحديث من الثقة المعروف في زمانه، المشهور بالصدق والأمانة عن مثله، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهًا وأكثر، حتى يهذبوه من الغلط والزلل، ويضبطوا حروفه، ويعدوه عدًا، فهذا من أعظم نعم الله على هذه الأمة، نستوزع الله شكر هذه النعم[١].

قال الإمام الحافظ أبو حاتم الرازي[٢]: «لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمناء يحفظون آثار الرسول إلا في هذه الأمة»[٣].

وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ [الأحقاف: ٤] إسناد الحديث[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ [الزُّخرُف: ٤٤].

قال: قول الرجل: « حدثني أبي عن جدي»[٥].

كل ما سبق يؤكد أهمية الإسناد، وتوافق المحدثين على أنه مما تفردت به أمة الإسلام.

وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحِجر: ٩]..

---

(١) التثبت، مصدر سابق، ص ٨٦.

(٢) محمد بن إدريس بن المنذر أبو حاتم الرازي الحنظلي، من تميم، كان من بحور العلم، وبرع في المتن والإسناد ولد سنة ١٩٥هـ، ومات سنة ٢٧٧ هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ١٣/ ٢٤٧).

(٣) السيرة الحلبية – علي برهان الدين الحلبي – دار المعرفة، بيروت ١٤٠٠ – ٣/ ٣٨٨ والتثبت ٨٦.

(٤) القرطبي ١٦ / ١٨٢.

(٥) المرجع نفسه ١٦ / ٩٣.

ومن العلوم التي اخترعوها:

١ - علم تاريخ الرواة:

تعريفه: هو علم يعرف برواة الحديث من الناحية الشخصية، وتاريخ حياته التي تتعلق برواياتهم للحديث [ولادته - متى مات - هل لقي من ينقل عنه - شيوخه - تلاميذه - كلام العلماء عنه - رحلاته.. الخ].

أهميته: هو سلاح المحدثين في الحكم على أحوال الرواة، قال الثوري: لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ[1].

٢ - علم الجرح والتعديل:

وموضوعه: البحث في صفات الرواة وعدالتهم من عدمها، وقوة تحملهم من ضعفها، ونحو هذا مما ينبغي عليه قبول رواياتهم أو ردها، على تفصيلات في علوم الحديث[2].

المسألة الرابعة: مقارنة الخبر بالواقع:

إن الأخبار تحتاج إلى ثقة عدل دقيق الفهم للحكم بصحتها، وبعضها حتى لو نقلها الثقة فستجد أنها لا تتوافق مع واقع الناس، وبمجرد عرضها على الواقع تجدها بعيدة كل البعد عن الشرع والعقل.

قال ابن خلدون[3]: إن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل، ولم تحكم

---

(١) تدريب الراوي – السيوطي – مكتبة الرياض الحديثة – الرياض – تحقيق/عبد الوهاب عبد اللطيف٢/ ٣٥٠ والتثبت، مصدر سابق ص ٨٦.

(٢) التثبت، مصدر سابق ٨٧.

(٣) عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن، الاشبيلى الأصل، التونسي، ثم القاهري المالكي، المعروف بابن خلدون ولد سنة ٧٣٢هـ بتونس– توفي سنة ٨٠٨هـ (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع – محمد بن علي الشوكاني – دار المعرفة، بيروت ١/ ٣٣٧).

أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران، والأحوال في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد، والحاضر بالذاهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيدة عن جادة الصدق.

وكثير مما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثًا أو سمينًا، ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار، فضلوا عن الحق، وتاهوا في بيداء الوهم والغلط[١].

وهناك كثير من الأخبار عند مقارنتها بواقع الحياة والناس لا تستقيم، فيجب أن نفرق بين المعقول وغير المعقول.

فالضابط في هذه المسألة:

أن من عرف عنه الصدق والدين، وجودة الحفظ والفهم، وحسن التعبير والأداء، فإننا نقبل خبره دون تثبت، ومن اختلت فيه صفة من هذه الصفات، أو ما شابهها ـ مثل كلام الأقران بعضهم في بعض فإنه يحتاج إلى التثبت في خبره، وخاصة إن كان الخبر تترتب عليه أمور مهمة، وقد قيل: وما آفة الأخبار إلا رواتها.

المطلب الثاني: **أنواع التثبت**[٢]:

والتثبت مطلوب في جميع الأحكام سواء ما كان منها دينيًا أو دنيويًا فالأمة مأمورة به في كل أحوالها، وهذه بعض الأنواع للاستدلال بها على شمول منهج التثبت:

---

(١) مقدمة ابن خلدون – عبد الرحمن بن محمد بن خلدون– دار القلم بيروت – الطبعة الخامسة ١٩٨٤م ص ٩.

(٢) انظر التثبت، مصدر سابق ص٨٢، والموسوعة الفقهية، مصدر سابق ١٠/ ١٤٢.

المسألة الأولى: التثبت من الأخبار عمومًا:

لعل أهم أنواع التثبت، التثبت من أي خبر ينقله الناس، فلا يصدق ولا يكذب حتى يتبين السامع منه، فقد يخبر الثقة نقلاً عن غير الثقة فينقل دون تحر فيقع الناقل في الحرج والكذب والضرر للغير بسبب عدم التثبت، وقد صح عن النبي ﷺ: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»[(١)]، فما يسمعه الإنسان يختلط فيه الصدق والكذب، فما لم يتحر المسلم ويتثبت من الخبر فقد يحدث اضطرابًا في أحوال الناس، وبلبلة في أفكارهم، وعدم استقرار في حياتهم، بل قد يسبب ظلمًا كثيرًا عليهم، وما أكثر ما حصل من أضرار بسبب عدم التثبت، فقد روى أحد الأخوة أن خطيبًا ذكر أن فلانًا يبيع خمرًا، فلما حبس المتهم وطلب من الخطيب الإثبات لم يدر ما يقول، حيث إنه لم يتثبت ممن أخبره الخبر وهو يصعد المنبر لإلقاء الخطبة.

وأيام مراجعة الباحث لهذا البحث أقدم أحد اليمنيين بقتل جار الله عمر[(٢)] الأمين العام المساعد للحزب الاشتراكي اليمني، بعد إلقائه كلمة في مؤتمر عام لتجمع الإصلاح في صنعاء، وقبل أن يصل القاتل للشرطة اليمنية، أعلنت وزارة الداخلية أن القاتل ينتمي لحزب الإصلاح، وهذا الإعلان عن هوية القاتل قبل التحقيق معه، لا يعني فقط عدم التثبت، بل يعني العلم المسبق بالجريمة أو علم الغيب، وذلك لا يكون إلا لله تعالى.

---

(١) مسلم، سبق تخريجه ١/ ١٠ برقم: ٥ ص ٧٦.

(٢) جار الله محمد عمر الكهالي، ولد عام ١٩٤٢م في النادرة باليمن، من مؤسسي الحزب الاشتراكي اليمني، كان وزيراً للثقافة والسياحة لدولة الوحدة اليمنية، اغتيل في مؤتمر عام حزب الإصلاح عام ٢٠٠٢م بعد إلقائه كلمة الحزب الاشتراكي بصفته الأمين العام المساعد للحزب (مجلة نوافذ– يناير ٢٠٠٣م العدد ٣٩).

المسألة الثانية: التثبت في استقبال القبلة في الصلاة:

لا خلاف في أن من شروط صحة الصلاة استقبال القبلة لقوله تعالى:

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

ويستثنى من ذلك أحوال لا يشترط فيها الاستقبال، كصلاة الخوف، والمصلوب، والغريق ونفل السفر المباح، ومع ذلك لا بد من التثبت والتحري والبحث عن القبلة والسؤال عنها، حتى يغلب الظن عند الإنسان أنه متوجه إلى القبلة.

المسألة الثالثة: التثبت في شهادة الشهود:

ينبغي للقاضي أن يتثبت في شهادة الشهود، وذلك بالسؤال عنهم سرًا أو علانية، وهذا إذا لم يعلم بعدالتهم، لأن القاضي مأمور بالتفحص عن العدالة.

قال الشافعي رحمه الله: قد رأيت من الحكام من يثبت عنده الشاهدان العدلان والثلاثة، فيقول للمشهود له: زدني شهودًا، وإنما يريد بذلك أن يكون أطيب لنفسه، ولو لم يزده المشهود له على شاهدين لحكم بهما[1].

والإثبات إقامة الدليل الشرعي أمام القاضي في مجلس قضائه على حق أو واقعة من الوقائع، والمقصود من الإثبات وصول المدعي إلى حقه، أو منع التعرض له فإذا أثبت دعواه لدى القاضي بوجهها الشرعي، وتبين أن المدعى عليه مانع حقه. أو معترض له بغير حق، يمنعه القاضي عن تمرده في منع الحق، ويوصله إلى مدعيه.

---

(١) الرسالة – محمد بن إدريس الشافعي – ١٩٣٩م القاهرة – تحقيق: أحمد محمد شاكر ١/ ٤٣٣.

المسألة الرابعة: التثبت من رؤية هلال شهر رمضان وذي الحجة:

يستحب التثبت من رؤية هلال شهر رمضان ليلة الثلاثين من شهر شعبان لتحديد بدئه، فيؤمر بالصيام عند رؤيته، أو إكمال شعبان ثلاثين يومًا، لما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تصوموا حتى تروا الهلال، ولا تفطروا حتى تروه، فإن غم عليكم فاقدروا له»[1] وكذلك ليلة الثلاثين من شهر ذي القعدة لتحديد وقوف عرفة.

المطلب الثالث: العوامل المساعدة على التثبت:

هناك كثير من الأمور والتصرفات التي تساعد على التثبت إذا مارسها الناس في حياتهم ومعاملاتهم، ومنها ما يلي:

أولا/ عدم التسرع في اتخاذ الأحكام والقرارات، والتفكر والروية والتبصر في عاقبة التسرع في الحكم، وما يؤدي إليه في إدانة بريء، فالمؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة.

ثانيا/ أن لا يدفعه وجود أحد الخصمين وشعوره بأنه مظلوم أن يحكم له قبل الاطلاع على حجة الفريق الآخر، بل يجب أن يسمع دعوى الخصمين قبل الحكم، فلعل الذي يظهر في هيئة المظلوم يكون قد أوقع على خصمه ظلمًا أكبر من الذي حاق به.

عن أم سلمة[2] رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إنما أنا بشر وإنكم

(١) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب الصوم – باب قول النبي إذا رأيتم الهلال فصوموا ٢/ ٦٧٤ برقم: ١٨٠٧.

(٢) هند بنت أبى أمية المخزومية، بنت عم خالد بن الوليد، تزوجها النبي في سنة ٤هـ، وكانت من أجمل النساء وأشرفهن نسبا، آخر من ماتت من أمهات المؤمنين، توفت سنة ٦١ هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ٢/ ٢٠١).

تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض وأقضي له على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذ، فإنما أقطع له قطعة من النار»[1].

ثالثا/ عدم التسرع في تصديق الأخبار والأنباء التي ترد إليه من الناس أو من وسائل الإعلام قبل التأكد من صحتها أو كذبها، وخاصة الأخبار التي تأتي عن طريق الواشين.

رابعا/ الظن الحسن بالمسلمين وقياس ما يسمعه عنهم على نفسه، فإن استبعده عن نفسه يستبعده عن غيره.

وفي هذا يقول سبحانه وتعالى في حادثة الإفك: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[النور: ١٢].

خامسا/ المطالبة بالشهود أو البينة على الدعوى أو اليمين من الطرف الآخر عند النكول وعدم البينة، إعمالاً لقاعدة: «البينة على المدعي واليمين على المدعى عليه»[2].

سادسا/ عدم بناء الأحكام على الشك، بل لا بد من اليقين، ويجب أن يفسر ذلك الشك في صالح المتهم، ذلك لأن اليقين لا يزول بالشك، ولأن يخطئ القاضي فيبرئ مذنبًا خير له من أن يخطئ ويتسرع بإدانة بريء ومعاقبته.

---

(١) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب الحيل - باب إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت ٦/ ٢٥٥٥ برقم: ٦٥٦٦.

(٢) رواه الترمذي، مصدر سابق ٣/ ٦٢٥/ برقم ١٣٤٠ وقال حسن صحيح.وصححه الألباني صحيح الجامع ١/ ٥٥٩/ برقم٢٨٩٧. وفي لفظ للبخاري: «البينه على المدعي» ٢/ ٩٣١.

سابعا/ أن لا يقضي القاضي مدفوعًا بشهوة التشفي أو الحقد، ولا يستعجل في القضاء، وأن لا يقضي وهو غضبان، ولا جوعان، ولا نعسان، ولا مرهق، ولا هو يدافع الأخبثين «البول والغائط».

ثامنا/ أن يطلب من الله أن يلهمه الرشد والصواب في الأمر كله، وليذكر دائمًا قول الرسول ﷺ: «القضاة ثلاثة: قاضيان في النار وقاض في الجنة، رجل قضى بغير الحق فعلم ذاك فذاك في النار، وقاض لا يعلم فأهلك حقوق الناس فهو في النار، وقاض قضى بالحق فذلك في الجنة»[1].

ولا صواب إلا بالعلم والإلهام والتوفيق من الله تعالى، ومن يوكله الله إلى نفسه يهلك.

تاسعا/ الأخذ بالقواعد والمبادئ الفقهية والقضائية التي تعين على إصدار الأحكام الصحيحة، كالأخذ بمبدأ القرائن والأمارات والاصطحاب «واليقين لا يزول بالشك» «والشك يفسر لصالح المتهم»، وغيرها من القواعد، والإلمام بها ومعرفتها وإدراكها الإدراك التام.

عاشرا/ أن يستعين ويشاور أهل العلم والخبرة إذا تيسر له ذلك، وأن ينظر في اجتهادات القضاة والعلماء الذين سبقوه، وكيف تعاملوا مع القضايا التي بين يديه، وكيفية إصدارهم للأحكام، وما هي الطرق التي اعتمدوها.

الحادي عشر/ معايشة القرآن الكريم، ودراسة السيرة النبوية، ففيهما الكثير مما يتعلق بقضية التثبت والتبين[2].

---

(١) رواه الترمذي مصدر سابق ٣/ ٦١٣ برقم: ١٣٢٢. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجه ٤/ ١٠١ برقم:٧٠١٢ وقال المناوي: قال الهيثمي: رجاله ثقات – فيض القدير ٨/ ٤٤٠٥ صححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٨١٨ برقم: ٤٤٤٦.

(٢) التثبت مصدر سابق ١٠٢-١٠٤.

وفي الختام انظر إلى واقعنا ترَ صدق قول الشاعر:

وكم من عائب قولاً صحيحًا وآفته من الفهم السقيم

ولكن تأخذ الأذهان منه على قدر القرائح والفهوم[١]

المطلب الرابع: الموقف من الدعايات والأقاويل المغرضة:

لم يترك الأمر على الغارب في منهج القرآن الكريم، بل جعل الله سبحانه وتعالى أحكامًا وضوابط لكل الأعمال والأقوال، وبين سبحانه خطر اللسان إذا أطلق دون قيد، فإنه قد يوصل صاحبه إلى السقوط في النار، لقوله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفع الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوى بها في جهنم»[٢].

ومنهج القرآن من الأقاويل والدعايات المغرضة واضح في المنع والتحريم، ومن ذلك تحريم الكذب، بل جعله ينافي الإيمان، ومنع الإشاعات والحرص على التبين في كل أمر.

المسألة الأولى: الكـذب:

مواضع الزلل والتقصير عند الإنسان لا تكاد تنحصر في جانب دون الجوانب الأخرى، ولكن من أخطر وأسوأ ما يقع فيه الناس: الكذب، فهو صفة ذميمة، تظهر فيها الخيانة وتسقط فيها المروءة، والكذب يقلب الأمور، ويغير الواقع، ويزور الحقائق، فتصير العيوب محاسن والمحاسن عيوبًا، ويجعل الحسن قبيحًا ويجعل القبيح

---

(١) ديوان المتنبي قصيدة بعنوان (لا تقنع بما دون النجوم – من البحر الوافر) العصر العباسي ص ٢٣٢.

(٢) رواه البخاري مصدر سابق – كتاب الرقاق – باب حفظ اللسان ٥/ ٢٣٧٧ برقم: ٦١١٣.

حسنًا، وينسب للناس خلاف ما قالوه أو فعلوه.

يقع الإنسان في الكذب إذا لم يتثبت، فقد يأتي شخص يروي لك رواية فتنقلها دون تثبت، فتنقل الكذب وأنت لا تعلم، وقد قال ﷺ: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»(١)، والمعنى أن يحدث دون تثبت، فالكذب غالبًا يكون أثرًا من آثار عدم التثبت وإن لم يقصد قائله ذلك.

ويبدو أن الكذب حينما يطفو على السطح يكون ناتجًا عن تراكم مجموعة من الأخلاق المذمومة، كقلة الدين والورع، وكالحقد والحسد وغيرها، كما أن، الصدق ناتج عن عفة في النفس، ونبل المقاصد، وإرادة الحق، وحينما تترفع النفوس عن أهوائها وشهواتها، تنساب عفة وطهارة لا ترجو إلا الله والدار الآخرة.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾[التوبة: ١١٩].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما كان خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب، ولقد كان الرجل يكذب عند رسول الله ﷺ الكذبة، فما يزال في نفسه عليه، حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة»(٢).

والغالب أن الذي يكذب كذبة واحدة يتبعها بثانية وثالثة.. لكي يقرر ما قاله أو نقله ويؤكده، ثم لا يزال الرجل يكذب ثم يكذب حتى تصبح الصفة ملازمة له والعياذ بالله!

---

(١) رواه مسلم سبق تخريجه ص ٧٦.. ١/ ١٠ برقم: ٥...

(٢) صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان – محمد بن حبان بن أحمد التميمي – مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية – ١٤١٤هـ تحقيق / شعيب الأرنؤوط١٣/ ٤٤ برقم ٥٧٣٦. وأخرجه الترمذي في السنن ٤/ ٣٤٨ برقم: ١٩٧٣ وقال هذا حديث حسن، وصحح الألباني الجزء الأول من الحديث، أنظر صحيح الجامع ٢/ ٨٤٧ برقم: ٤٦١٨.

فعن عبد الله بن مسعود[١] رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكون صديقًا، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[٢].

وعند ملازمة الكذب ومداومة الاتصاف به، يصبح المرء متصفًا بصفة من صفات أهل النفاق، قال رسول الله ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»[٣].

ومن عظيم تربية النبي ﷺ لأصحابه على الخلق الكريم والمنهج القويم، أنه حث على ترك الكذب حتى في حالة المزاح:

قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»[٤].

وعن جابر بن سمرة[٥] قال: خطبنا عمر بن الخطاب بالجابية قال: قام فينا رسول

---

(١) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن، من أصحاب رسول الله ﷺ، كان من السابقين الأولين ومن النجباء العالمين شهد بدرا وهاجر الهجرتين، وكان يوم اليرموك على النفل، ومناقبه غزيرة، روى علماً كثيراً، حدث عنه أبو موسى وأبو هريرة وابن عباس وابن عمر، مات بالمدينة ودفن بالبقيع سنة ٣٢ هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ١/ ٤٦١).

(٢) البخاري، مصدر سابق – كتاب الأدب - باب قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ والنهي عن الكذب ٥/ ٢٢٦ برقم ٥٧٤٣.

(٣) المصدر نفسه، كتاب الإيمان – باب علامة المنافق ١/ ٢١ برقم: ٣٣.

(٤) المستدرك، مصدر سابق ٢/ ٨١ برقم ٢٣٩١ ورواه أبو داود ٤/ ٢٥٣ وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير ١/ ٣٠٦ برقم: ١٤٦٤ والصحيحة برقم: ٢٧٣ ١/ ٢٧٣.

(٥) جابر بن سمرة بن جنادة بن جندب السوائي، أبو خالد، ويقال أبو عبد الله، له صحبة مشهورة ورواية أحاديث، سكن الكوفة، وتوفي سنة ٧٦هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ص ٣/ ١٨٦).

الله ﷺ مقامي فيكم اليوم فقال: «أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل على اليمين لا يسألها، فمن أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، ولا يخلون أحدكم بالمرأة فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»[(١)].

«والصدق أساس الحسنات وجماعها، والكذب أساس السيئات ونظامها»[(٢)].

«والعدل هو الذي يخبر بالأمر على ما هو عليه، لا يزيد فيكون كاذبًا ولا ينقص فيكون كاتمًا»[(٣)].

قالﷺ: «اضمنوا لي ستًا أضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم»[(٤)].

المسألة الثانية: الإشاعات:

الإشاعة لا تنتشر إلا في المجتمعات التي لا تعرف التثبت، ولا تعرف حرب الشائعات، وإن كانت الإشاعة صورة من صور الكذب إلا أن أثرها أحيانًا أشد خطرًا من الكذب، فقد يقتصر تأثير الكذب على فرد أو جماعة، أما الإشاعة فقد تؤثر على مجتمع بكامله، وقد تتناقلها أجيال، خصوصًا إذا أحكم طباختها وإخراجها وحبكها.

---

(١) صحيح ابن حبان، مصدر سابق ١٥/ ١٢٢ برقم ٦٧٢٨.قال الألباني: أخرجه الحاكم ١/ ١٩٧، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي وهو كما قالا - الصحيحة ١/ ٧٩٢.

(٢) مجموع الفتاوى، مصدر سابق ٢٠/ ٧٤.

(٣) المصدر نفسه ٢٠/ ٨٤.

(٤) صحيح ابن حبان، مصدر سابق ١/ ٥٠٦ برقم ٢٧١ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. قال الألباني: وتعقبه الذهبي أن فيه انقطاع، لكنه ذكر له شاهدين بألفاظ متقاربة، وقال والحديث صحيح الصحيحة ٣/ ٤٥٥ وقال السيوطي: صحيح، أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم والبيهقي – فيض القدير ٢/ ١٠٥٥.

والإشاعة هي بداية الاختلاف والتفرق، وسرعان ما ينتهي الحال إلى معركة دامية تسل فيها الألسن، وتسقط فيها القيم والمثل، وربما يشهر فيها السلاح. نسأل الله السلامة..!

وحسبك أن تصغي إلى أحاديث الناس في منتدياتهم ومجالسهم العامة، بل وفي مجتمعاتهم الخاصة، لتسمع ضجيج الشائعات يطغى على كل شيء.

والنفوس مجبولة على التطلع إلى غرائب الأخبار ونوادر الحوادث، فأنت ترى أن الأنظار تنجذب إلى ذلك المرء الذي يثير الأخبار من هنا وهناك ولو لم تكن ثابتة، ولقد أثبتت الأيام بما لا يدع مجالًا للشك، أن الشهرة والسمعة تكون دائمًا حليف المرء الذي يحسن عرض الشائعة، ويزينها بآهات التحسر وإظهار الغيرة على الدين وأهله[1].

نماذج للشائعات:

التاريخ الإسلامي مليء بالحوادث والأخبار التي ظهرت فيها الآثار السلبية للشائعات، وهذان مثالان فقط للتدليل بهما على خطر الشائعة وأثرها السيئ في المجتمع:

المثال الأول:

من الحوادث المزعجة التي حصلت في تاريخ هذه الأمة: «قصة الإفك المشهورة» حيث كانت تلك الفرية الآثمة التي أشاعها بعض المنافقين، ورددها بعض المؤمنين بدون تورع أو تثبت، من أثقل ما مر على رسول الله ﷺ وأهل بيته وصحبه الكرام، رضي الله عنهم أجمعين ..!

وقد أنزل الله تعالى في ذلك آيات تتلى إلى قيام الساعة، واستعراض تلك

---

(١) نحو منهج شرعي، مصدر سابق ص ٢٥-٢٦.

الآيات بتدبر وخشوع، يرسم لنا منهجًا محكمًا في السلوك الإنساني القويم، وفي كيفية التعامل مع الإشاعات التي تنتشر بين الناس. وأن التثبت هو العلاج الناجح لمثل هذه المشكلات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ...﴾ [النور: ١١- ٢٠].

«وهي صورة فيها الخفة والاستهتار وقلة التحرج، وتناول أعظم الأمور وأخطرها بلا مبالاة ولا اهتمام: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾.. لسان يتلقى عن لسان، بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إمعان نظر. حتى لكان القول لا يمر على الآذان، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبره القلوب! ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ

هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ بأفواهكم لا بوعيكم ولا بعقلكم ولا بقلبكم، إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه، قبل أن تستقر في المدارك، وقبل أن تتلقاها العقول.

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ أن تقذفوا عرض رسول الله ﷺ، وأن تدعوا الألم يعصر قلبه وقلب زوجه وأهله؛ وأن تلوثوا بيت الصديق الذي لم يرم في الجاهلية؛ وأن تتهموا صحابيًا مجاهدًا في سبيل الله وأن تمسوا عصمة رسول الله ﷺ وصلته بربه، ورعاية الله له.

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾. وما يعظم عند الله إلا الجليل الضخم الذي تزلزل له الرواسي، وتضج منه الأرض والسماء، ولقد كان ينبغي أن تجفل القلوب من مجرد سماعه، وأن تتحرج من مجرد النطق به، وأن تنكر أن يكون هذا موضوعًا للحديث؛ وأن تتوجه إلى الله تنزهه عن أن يدع نبيه لمثل هذا؛ وأن تقذف بهذا الإفك بعيدًا عن ذلك الجو الطاهر الكريم[1]:

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

المثال الثاني:

«بلغ أصحاب رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى أرض الحبشة إسلام أهل مكة، فأقبلوا لما بلغهم ذلك، حتى إذا دنوا من مكة، بلغهم أن ما كانوا يتحدثون به من إسلام أهل مكة كان باطلاً، فلم يدخل منهم أحدٌ إلا بجوار أو مستخفيًا»[2].

فهذا الخبر يبين أن أهل مكة أشاعوا كذبًا إسلام قريش، حتى يضمنوا رجوع المهاجرين المسلمين من الحبشة، بعد أن عجز المشركون في إعادة المهاجرين بتحريض النجاشي عليهم استخدموا الإشاعة، وفعلاً، استبشر المسلمون بهذا النبأ،

---

(١) في ظلال القران، مصدر سابق ٤/ ٢٥٠٢-٢٥٠٣.

(٢) ابن هشام، مصدر سابق ٢/ ٢١١.

ورجع بعضهم، ثم علموا بطلان هذه الفرية، فلم يستطيعوا دخول مكة إلا خفية، أو محتمين بجوار أحدٍ من المشركين، فكادت الإشاعة أن تودي بحياة بعض الصحابة، وإفشال خطة الهجرة.

أسباب انتشار الشائعات[١]:

الأسباب التي تجعل الأخبار المكذوبة تشيع وتحل محل الحقائق في أذهان كثير من الناس بدون تفكير أو تدبر، أسباب عديدة منها:-

أولا: فصاحة قول المشيع وحسن منطقه، وإجادته عرض الشائعة، وهذا من أسباب رواج إشاعات المنافقين بين الناس، ولهذا قال الله تعالى في وصف المنافقين: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤].

عن أم سلمة زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ سمع جلبة خصام بباب حجرته فخرج إليهم فقال: «إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم، فلعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صادق فأقضي له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار فليحملها أو يذرها»[٢].

ثانيا: كون المشيع ممن تميل إليه قلوب سامعيه، إما بسبب الصحبة أو التحزب أو التمشيخ، أو غيرها، وهذا يمنع السامع من التثبت والنظر فيما ينقل إليه، وإحسان الظن لدرجة الغفلة وعدم التثبت سذاجة غير محتملة من شباب الصحوة ودعاتها على الإطلاق!

---

(١) نحو منهج شرعي، مصدر سابق، ص ٣٣ وما بعدها بتصرف.

(٢) البخاري، مصدر سابق – كتاب المظالم – باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه ٢/ ٨٦٧ برقم ٢٣٢٦ .

«فكم ممن لم يرد خيرًا ولا شرًا حتى رأى غيره، لا سيما إن كان نظيره ـ يفعله ففعله، فإن الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض»[١].

ثالثا: موافقة الخبر هوى في نفس السامع، كأن يرى في هذا الخبر انتصارًا لنفسه وفئته أو تقليلاً من قدر الفئات الأخرى، وهذه ظاهرة نفسية عجيبة لا مجال لإنكارها أو التغاضي عنها، فإنها تفتك بالقلوب، وتمزق وحدة الصفوف!

وترك التجرد مناقض للإنصاف، والعدل واجب، والإنصاف من الأمور العزيزة التي لا يتصف بها إلا الخُلّص من الرجال، وكما قال معن بن أوس[٢]:

إذا أنــت لم تنصــف أخــاك وجدتــه   على طرف الهجران إن كـان يعقـل[٣]

رابعا: أن ينطوي موضوع الإشاعة على شيء من الأهمية بالنسبة للمتحدث والمستمع.

خامسا: أن تتسم الوقائع الحقيقية بشيء من الغموض.

سادسا: الفراغ، حيث يشغل الفارغون البطالون أوقاتهم بالقيل والقال، ويصبح جل همهم البحث والتنقيب في أحوال الناس. وأسوأ ما يكون ذلك عند بعض من ينتسب إلى العلم والدعوة والدعاة، حيث تستهلك الطاقات والأوقات في أخبار الناس، ويصبح شغلهم في لحوم الناس وأعراضهم، ومن تدنت همته ولم يجد بيئة كريمة تدفعه إلى العطاء والإنجاز، ولغ في حضيض التفاهة، ولم يعرف إلا بالقيل والقال...!!

---

(١) مجموع الفتاوى، مصدر سابق ٢٨/ ١٤٩-١٥٠.

(٢) معن بن أوس بن نصر، شاعر مجيد فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، ولم يذكر سنة وفاته (الإصابة، مصدر سابق ٦/ ٣٠٧).

(٣) الكامل في التاريخ ٦/ ٥٠٥ وفي بعض الكتب أنه للبيد بن ربيعه في قصيدته (ألا كل شي ما خلا الله باطل).

ومن أعظم المصائب أن هؤلاء يسلم منهم أعداء الأمة كلهم من يهود ونصارى وعلمانيين وظلمة وجهلة، ولا يسلم منهم إخوانهم الدعاة، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



المبحث الثالث: آثار عدم التثبت وعلاجه
وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: آثار عدم التثبت على الأفراد.

المطلب الثاني: آثار عدم التثبت على المجتمعات.

المطلب الثالث: نماذج في التثبت والتأني.

المطلب الرابع: علاج عدم التثبت.

لا شك أن لعدم التثبت آثارًا سيئة على الأفراد والمجتمعات، وهي آثار واضحة التأثير تجعل الفرد والمجتمع في قلق وحيرة واضطراب وتنافر، ولخطورة عدم التثبت فإن منهج القرآن الكريم شنع على هذا الخلق السيئ، وحذر منه أشد التحذير، بل جعله سببًا من أسباب الندم ومن أسباب الفرقة، والتعرض لغضب الله سبحانه، وعدم عونه لمن لا يتثبت من الأخبار، وهذه أهم الآثار مفصلة مع علاجها:

المطلب الأول: آثار عدم التثبت على الأفراد(١):

المسألة الأولى: اتهام الأبرياء من الناس زورا وبهتانا:

فقد اتهمت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها زورًا وبهتانًا وهي زوجة إمام المسلمين، وأفضل النبيين، ورسول الله للعالمين، الأمر الذي أقلقها وأقلق أبويها ورسول الله ﷺ زوجها، وأقلق المسلمين أجمعين، شهرًا كاملاً، حتى نزلت البراءة بشأنها من فوق سبع سماوات وكان سبب هذا الاتهام هو عدم التثبت والتبين، حتى قال الله لهم: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٢- ١٣]، وحسب المؤمن هذا الأثر، إذ هو مجلبة للشر والإثم، والعياذ بالله - كما قال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بخياركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى، ثم قال: ألا أخبركم بشراركم؟ المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العنت»(٢).

---

(١) آفات على الطريق.. الدكتور السيد محمد نوح.. الطبعة الخليجية الأولى ١٩٩٨م..دار اليقين للنشر والتوزيع - مصر ٢/ ٢٨٨.

(٢) رواه أحمد، مصدر سابق ٦/ ٤٥٩ برقم: ٢٧٦٤٠. ورواه الطبراني في المعجم الكبير ٢٤/ ١٦٧. وذكره الألباني بلفظ «وإن أبغضكم إلي المشاءون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الملتمسون للبراء العنت» وقال: وله شواهد تقويه - الصحيحة ٢/ ٣٧٨.

المسألة الثانية / سفك الدماء وسلب الأموال:

فقد قتل أسامة بن زيد[١] رضي الله عنه رجلاً وسلب ماله بغير تثبت ولا تبين، وفيه وفي أمثاله نزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء: ٩٤].

المسألة الثالثة / الحسرة والندامة:

فإن بعض الصحابة الذين خاضوا في حادثة الإفك، وطاروا به من غير تثبت ولا تبين، من أمثال حسان بن ثابت[٢] ومسطح بن أثاثة[٣]، وغيرهما، وكذلك الذين قتلوا الرجل وأخذوا ماله بعد أن أسلم وشهد أن لا إله إلا الله، كل أولئك أصابتهم الحسرة وعمهم الندم، لما نزل الوحي من السماء، يكشف الواقعة ويضع النقاط على الحروف، وتمنوا أن لم يكونوا أسلموا قبل ذلك اليوم، بل ظلت الحسرة والندامة شبحًا مخيفًا يلاحقهم حتى لقوا ربهم، وهذا الأثر هو ما يشير إليه قوله تعالى في قصة الوليد بن عقبة بن أبي معيط مع بني المصطلق، الواردة في هذه السورة: ﴿فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾.

---

(١) أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل بن أمرؤ القيس حب رسول الله ﷺ ومولاه وابن مولاه، بعثه رسول الله على جيش وفيه أبو بكر وعمر وعمره ١٨ سنة، مات في آخر خلافة معاوية سنة ٥٤هـ (الإصابة، مصدر سابق ١/ ٤٩).

(٢) حسان بن ثابت بن المنذر، شاعر رسول الله وصاحبه عاش ستين سنة في الجاهلية وستين في الإسلام، توفي سنة ٥٤هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ٢/ ٥١٢).

(٣) مسطح بن أثاثة بن عباد المطلبي المهاجري البدري، المذكور في قصة الإفك، كان فقيرا ينفق عليه أبو بكر، عاش ستا وخمسين سنة، وتوفي سنة ٣٤هـ (المصدر نفسه ١/ ١٨٧).

المسألة الرابعة / فقد ثقة الناس مع النفور والكراهية:

فمن عرف عنه العجلة في الرأي، والحكم، وعدم التبين والتثبت، ينظر إليه الناس على أنه أرعن أحمق، ومثل هذا يسحب الناس ثقتهم منه، بل وينفرون منه، ويكرهونه بشدة، وإذا ذهبت الثقة، وكان النفور والكراهية، لم يعد في يد المسلم ما يكسب به الأنصار والمؤيدين، أو يقيم المنهج القرآني في حياته وحياة المجتمع من حوله.

المسألة الخامسة / التعرض للغضب الإلهي:

فمن تجرد من التثبت والتبين، كثرت أخطاؤه، وتضاعفت عثراته، ومن ثم يستوجب غضب الله عز وجل وسخطه عليه، ومن حل عليه غضب الله وسخطه، فقد ضاع دنيا وآخرة، وخسر خسرانًا مبينًا، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨١].

المطلب الثاني: آثار عدم التثبت على المجتمعات:

المسألة الأولى/ خلل واضطراب المجتمع:

فإن عدم التثبت والتبين من شأنه أن يؤدي إلى خلل واضطراب صف المجتمع المسلم، على نحو ما صوره صاحب الظلال رحمه الله تعالى، إذ يقول: إشاعة أمر الخوف في معسكر مطمئن لقوته، ثابت الأقدام بسبب هذه الطمأنينة قد تحدث إشاعة الخوف فيه خلخلة وارتباكًا، وحركات لا ضرورة لها، لاتقاء مظان الخوف، وقد تكون كذلك القاضية[1].

وعلى نحو ما وقع بين الأنصار أوسهم وخزرجهم، حين استمعوا إلى هذا

---

(١) في ظلال القرآن، مصدر سابق ٢/ ٧٢٤.

الدخيل اليهودي الذي بث بينهم في ساعات الصفاء، والحب في الله، ليذكرهم بيوم بعاث، وثاراتهم القديمة، لقد تنادوا قائلين:

السلاح.. السلاح، موعدكم الظاهرة (أي الحرة)، وخرجوا إليها، وانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض، على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، ولولا رحمة الله ولطفه بهم، ثم خروج الرسول ﷺ إليهم، وتذكيرهم بنعمة الله عليهم، وهدايته لهم، بعد الكفر والضلالة، قائلاً: «يا معشر المسلمين.. الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد إذ هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألف بينكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا»[1] لولا ذلك لعادوا - كما كانوا في الجاهلية - شيعًا وأحزابًا.

المسألة الثانية/ الفتور أو التراخي في العمل:

فإن عدم الالتزام بالتثبت والتبين من شأنه أن يؤدي إلى الفتور أو التراخي في العمل، وعدم قيام المجتمع بواجبه في توحيد صفه ومواجهة عدوه، كما يصوره صاحب الظلال، إذ يقول: ... فإن إشاعة أمر الأمن مثلاً في معسكر متأهب، مستيقظ، متوقع لحركة العدو إشاعة أمر الأمن في مثل هذا المعسكر تحدث نوعًا من التراخي، مهما تكن اليقظة النابعة من التحفز للخطر، غير اليقظة النابعة من مجرد الأوامر، وفي ذلك التراخي تكون القاضية[2].

المسألة الثالثة / إفساح المجال للأدعياء والدخلاء:

فان عدم الالتزام بهذا الخلق الإسلامي (التثبت) جعل أكثر المجتمعات الإسلامية مخترقًا ومكشوفًا من قبل الأدعياء، والدخلاء، وهذا فيه من الخطورة ما

---

(١) تفسير الطبري، مصدر سابق ٤/ ٢٣.

(٢) في ظلال القرآن، مصدر سابق ٢/ ٧٢٣-٧٢٤.

فيه لزرع الفتن والشقاق في المجتمع، والسيطرة عليه من قبل الأدعياء، وفرض ما يريدون من أفكار وأخلاق سيئة وأبناء المجتمع الصالحين مشغولون بخلافاتهم، لا يدرون من مؤامرات أعدائهم شيئًا.

المسألة الرابعة/ الانطلاق من الخيال لا من الواقع:

فإن من كان من شأنهم عدم التثبت والتبين سينقلون الأمور على غير وجهها، ويحكون ويصورون الواقع بصورة غير صورته الحقيقية التي هو عليها، وعليه فإذا وضع خطة أو منهجًا أو رأيًا فإنما يكون مصدره أو منبعه الخيال لا الواقع وتلك أولى عوامل الفشل والخسران.

المسألة الخامسة/ الحرمان من العون والتأييد الإلهي:

فإن عدم الالتزام بالتثبت والتبين.. سيؤدي إلى دخن في القلوب، وغل في الصدور، فضلاً عن باقي الآثار والسلبيات التي ذكرت آنفًا، وهذا بدوره يؤدي إلى حرمان العبد من العون والتأييد الإلهي، إذ أن عون الله سبحانه وتعالى وتوفيقه وهدايته وتأييده، كل ذلك مقرون باستقامة العبد وثباته في الطريق، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

المسألة السادسة / زرع البغضاء و الشحناء بين أفراد المجتمع:

إن المجتمع الذي لا يشيع فيه التثبت، تظهر فيها البغضاء والشحناء والتنافر، لأن الذين يكذبون ويمشون بالنميمة كثير في المجتمع اليوم، وهم مكلفون بتفكيك بنيان المجتمعات الإسلامية، فلا يستطيع أحد أن يرد كيدهم إلا بتطبيق خلق التثبت للحفاظ على وحدة هذه المجتمعات، وكم من خلافات ومشاحنات وقتال قام بسبب عدم التثبت، والله المستعان.

وهناك آثار غير التي ذكرت هنا، لكن من المهم أن يتذكر الناس ماذا ينفع الندم إذا وقعت الكارثة؟ وسقطت الضحايا البريئة، وسالت الدماء، وأزهقت الأرواح..؟!! لا شيء غير الحسرة تأكل القلوب، وتؤرق المشاعر، ولا شيء غير الإحساس بعقدة الذنب تخيم على النفس بسوادها وقتامها وظلامها.

ولا شيء غير التشاحن والتباغض والكراهية .... وأي مجتمع إنساني هذا الذي تسوده مثل تلك الظروف؟؟

إنه مجتمع متدابر متنافر، يغلي بالحقد والكراهية، ويأكل بعضه بعضًا، ومن ثم يصير إلى زوال وفناء، شأنه شأن كل مجتمع رائده الظلم .... فلا بد من التحقق والتبين لأنه مقتضى العلم، والإحاطة بالموقف، ثم انتفاء الجهالة..! منعًا للظلم، ونأيًا عن الخطأ الذي لا يصلحه ندم أو حسرة، والاستواء على محجة العدل الذي به يقوم ويدوم أمر الحضارة الإنسانية، والازدهار والتقدم لكل المجتمعات، صغيرها وكبيرها، من الأسرة حتى الأمة..!!

وإذا ما برئ المجتمع من سوء الظن والخديعة والوقيعة، والتلفيق والاتهام، وساده الصدق وحسن الطوية، وأمن فيه الفرد من المكر والحيلة ...، يكون قد وضع لبنة متينة ومتماسكة في بناء الصرح الشامخ، أو قاعدة صلبة في الأساس المتين لقيام المجتمع النظيف الذي تنشده الأمة ويرشد القرآن الكريم لإقامته[1]..

المطلب الثالث: نماذج في التثبت والتأني:

التأثير بالواقع المعاش يكون أعظم من التأثير بالكلام والمواعظ، وهذه نماذج عملية في ممارسة التثبت لتتضح فوائد التثبت، ويتبين خطورة عدم الأخذ به.

---

(١) في ظلال الحجرات.. محمد قطب.. الطبعة الثانية ١٩٨٧ م- دار القلم بيروت - ص ٥٣ بتصرف.

النموذج الأول / موسى عليه السلام:

نبي الله موسى عليه السلام في قصته مع الرجل الصالح - الخضر - الذي أخذ من موسى عليه السلام عهدًا وشرطًا إن أراد صحبته ليتعلم من العلم الذي أعطاه الله، ألا يسأله شيئًا حتى يوضحه له، ومع موافقة موسى عليه السلام على الشرط ألا يتسرع بالإنكار على الخضر عندما يقوم ببعض الأمور التي يبدو في ظاهرها المنكر. قبل أن يسمع من الخضر حقيقة ما يقوم به[1]:

قال تعالى: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف: ٦٥ - ٧٧].

---

(١) التثبت، مصدر سابق ص ٨٨.

إن الخضر يخرق السفينة التي حملتهما، وأركبهما صاحبها من غير نول، ولكن الخضر يكافئ يده بضدها ويتسبب- على ما كان يظهر لموسى عليه السلام- في غرق ركابها الوادعين، ويقتل غلامًا زكيًا لم يسئ إليهما، ولم يسئ أبواه إليهما كذلك، وبالعكس من ذلك يبني جدارًا يريد أن ينقض من غير أجرة يتقاضاها، وذلك في قرية لم يضيفهما أهلها ولم يعرفوا حقهما، هذه كلها تصرفات غريبة من الخضر، تثير في موسى الاستغراب والدهشة، وتحمله على الإنكار والسؤال مرة بعد مرة.

كان على موسى عليه السلام أن يتريث حتى يوضح له الخضر أسباب وحقائق ما يقوم به حتى يحصل على أكبر قدر من العلم من ذلك الرجل الصالح، الأمر الذي جعل الخضر يذكره بعدم التسرع بعد كل إنكار كان يقوم به موسى عليه السلام، مذكرًا له بالشرط الذي اشترطه عليه في بداية اللقاء، حتى قرر الخضر المفارقة، لأن موسى لم يلتزم بالشرط فحرم بسبب تسرعه علمًا كثيرًا.

قال تعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٨ - ٨٢].

فرد عليه أسباب قيامه بخرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار، على غير ما

بدا في ظاهرها، ليتعلم الدعاة من هذه القصة دروسًا في التأني والتثبت قبل الإنكار، وليعلموا أن من امتثل هذه الصفة، فكأنما حاز على النبوة. (التؤدة والاقتصاد والسمت الحسن جزء من أربعة وعشرين جزءًا من النبوة) [١][٢].

فأين الهمم التي تتسابق لامتلاك هذه الأجزاء النبوية؟

النموذج الثاني / سليمان والهدهد:

وكذلك صفة التثبت واضحة في سليمان عليه السلام. وذلك في قصته مع الهدهد إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠].

يقول سيد رحمه الله: ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ [النمل: ٢١]..

ولكن سليمان ليس ملكًا جبارًا في الأرض إنما هو نبي، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائيًا قبل أن يسمع منه، ويتبين عذره.. ومن ثم تبرز سمة النبي العادل: أو ليأتيني بسلطان مبين، أي حجة قوية توضح عذره، وتنفي المؤاخذة عنه[٣].

إن الأناة والتثبت صفة جميلة يحبها الله، وتكون أجمل إذا جاءت من القادر على العقاب، واتخاذ القرار.

---

(١) رواه الترمذي، مصدر سابق ٤/٤٦٦ برقم: ٢٠١٠ وقال: حديث حسن غريب، وقال السيوطي: حسن، فيض القدير ٥/٢٧٣٩ وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/٥٧٨ برقم: ٣٠١٠.

(٢) فقه الدعوة في إنكار المنكر – عبد الحميد البلالي – الطبعة الرابعة ١٩٩١م – دار الدعوة، الكويت – ١٠٤ وما بعدها.

(٣) في ظلال القرآن، مصدر سابق ٥/٢٦٣٨.

لهذا قال الشاعر ابن هانئ المغربي[١]:

وكل أناة في المواطن سؤدد ... ولا كأناة من قدير محكم

ومن يتبين أن للصفح موضعًا ... من السيف يصفح عن كثير ويحلم

وما المرء إلا بعد طول تثبت ... ولا الحزم إلا بعد طول تلوم[٢]

النموذج الثالث / عمر بن الخطاب:

ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه قصة تدل على وجوب التثبت وأهميته، وهي قصته مع سعيد بن عامر الجمحي[٣] رضي الله عنهم، وكان واليه على حمص، إذ قدر الله لعمر أن يزور هذه البلدة ويسأل أهلها: كيف وجدتم عاملكم؟ فيشكون له، قائلين:

نشكو أربعًا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، قال: أعظم بهذا. وماذا؟ قالوا: لا يجيب أحدًا بليل. قال: وعظيمة، وماذا؟ قالوا: له يوم في الشهر لا يخرج فيه إلينا، قال: عظيمة، وماذا؟ قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام (أي يغمى عليه، ويغيب عن حسه)، فلم يفصل عمر في الأمر، إلا بعد أن جمع بينهم وبينه، ودعا ربه قائلاً: «اللهم لا تفيل رأيي فيه»، وكان عمر حسن الظن به، وبدأت المحاكمة.

فقال عمر لهم أمامه: ما تشكون منه؟ قالوا: لا يخرج علينا حتى يتعالى النهار.

---

(١) محمد بن هانئ بن محمد الأندلسي المغربي أشعر المغاربة، وهو عندهم كالمتنبي عند أهل الشرق وهما متعاصران توفي سنة ٣٦٢هـ (الأعلام للزركلي مصدر سابق ٧/ ١٣٠).

(٢) ديوان ابن هانئ المغربي، قصيدة بعنوان (منار الدين وعروته) في المدح – العصر العباسي ص ٣١٣..

(٣) سعيد بن عامر القرشي الجمحي، من كبار الصحابة وفضلائهم، ولاه عمر حمص، وكان مشهورا بالخير والزهد، مات في زمن عمر سنة ٢٠هـ (الإصابة مصدر سابق ٣/ ١١٠).

قال: ما تقول؟ قال: والله إن كنت لأكره ذكره: ليس لأهلي خادم، فأعجن عجيني، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ، ثم أخرج إليهم.

فقال: ما تشكون منه؟ قالوا: لا يجيب أحدًا بليل، قال: ما تقول؟ قال: إن كنت لأكره ذكره: إني جعلت النهار لهم، والليل لله.

فقال: وما تشكون منه؟ قالوا: إن له يومًا في الشهر لا يخرج فيه إلينا، قال: ما تقول؟

قال: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ولا لي ثياب أبدلها، فأجلس حتى تجف، ثم أدلكها، ثم أخرج إليهم من آخر النهار.

فقال: ما تشكون منه؟ قالوا: يغنط الغنطة بين الأيام، قال: ما تقول؟ قال: شهدت مصرع خبيب الأنصاري بمكة، وقد بضعت قريش من لحمه، ثم حملوه على جذعة، فقالوا: أتحب أن محمدًا مكانك؟ فقال: والله ما أحب أني في أهلي وولدي وأن محمدًا ﷺ شيك بشوكة، ثم نادى يا محمد، فما ذكرت ذلك اليوم، وتركي نصرته في تلك الحال وأنا مشرك لا أؤمن بالله العظيم، إلا ظننت أن الله لا يغفر لي بذلك الذنب أبدًا، فتصيبني تلك الغنطة[(١)].

النموذج الرابع / الوزير أبو القاسم[(٢)] بن المسلمة:

وهو أحد وزراء بني العباس، وقصته مع اليهود الخيابرة في القرن الخامس الهجري، إذ رفع إليه هؤلاء اليهود كتابًا زاعمين أنه كتاب نبوي فيه إسقاط الجزية عنهم فلم يبادر بالفصل في المسألة دون تثبت أو تبين، وإنما رد الأمر إلى أهله، ودفع الكتاب إلى الحافظ الخطيب البغدادي شيخ علماء بغداد، ومؤرخها، ومحدثها في

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء - أبو نعيم الأصفهاني – الطبعة الرابعة - ١٤٠٥هـ - دار الكتاب العربي، بيروت ١/ ٢٤٤-٢٤٦.

(٢) علي بن الحسن بن احمد بن الحسن، أبو القاسم، المعروف بابن المسلمة، استوزره الخليفة العباسي القائم بأمر الله، توفي سنة ٤٥٠هـ (تاريخ بغداد ١١/ ٣٩١).

عصره، فنظر فيه ثم قال: هذا كذب، فسأله الوزير: وما الدليل على كذبه؟ فقال: لأن فيه شهادة معاوية بن أبي سفيان ولم يكن أسلم يوم خيبر، وقد كانت خيبر في سنة سبع للهجرة، وإنما أسلم معاوية يوم الفتح، وفيه شهادة سعد بن معاذ، وقد كان مات قبل خيبر، عام الخندق سنة خمس، فأعجب الناس ذلك، وتوقف الوزير عن العمل بالكتاب[١].

وهكذا لو أن الوزير استعجل ولم يتثبت، ونفذ ما في الكتاب من غير أن يرد الأمر إلى أهله فماذا تكون النتيجة؟ إن النتيجة هي تعطيل نص صريح من كتاب الله -عز وجل- بغير دليل ولا برهان.

المطلب الرابع: **علاج عدم التثبت**[٢]:

وبعد الوقوف على كثير من أحكام التثبت والتبين على النحو الذي سبق، فلا بد أن تُعرف سبل العلاج، للعمل بها وتحرير المجتمعات من الأخلاق المذمومة، وأهم هذه السبل هي:

المسألة الأولى / تقوية ملكة التقوى ومراقبة الله سبحانه وتعالى:

فإن هذه إن تأكدت في النفس، فسوف تحمل صاحبها حملاً على التأني والتروي، والإنصاف، ونقل الحقيقة كما هي دون زيادة أو نقص، بل ستكون سببًا في نور القلب، ونفاذ البصيرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩]. والمتأمل يلمح هذه الوسيلة العلاجية من قوله ﷺ: «التأني من الله، والعجلة من الشيطان»[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ١٨/ ٢٨٠.

(٢) آفات على الطريق.. مصدر سابق ٢/ ٢٩٣.

(٣) البيهقي، سبق تخريجه ص ٦٩.

المسألة الثانية / التذكير بالوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى:

حينما يتذكر المرء أنه سيقف بين يدي الله عز وجل للمساءلة والجزاء: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤] ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣]. ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

فإن هذا إن تمكن من النفس، وخالط القلب، فإنه سيقود حتما إلى التأني والتروي.

المسألة الثالثة / معايشة نصوص الكتاب والسنة:

من خلال هذه النصوص المتصلة بقضية التثبت والتبين، كما في آيات النساء: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء: ٨٣]. وآيات الإفك في سورة النور، وآيات سورة الحجرات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ وآيات سورة ص- داود مع الخصمين - ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١]. وآيات سورة النمل سليمان مع الهدهد، إذ قال له: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧].

وقول الرسول ﷺ: «التأني من الله والعجلة من الشيطان»[١] وقوله ﷺ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوى بها في جهنم»[٢] وقوله ﷺ: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»[٣].

فإن هذه النصوص جميعًا مدعاة إلى تربية ملكة التثبت والتبين في النفس.

---

(١) البيهقي، سبق تخريجه ص ٦٩.

(٢) البخاري، سبق تخريجه ص ٨١.. ٥/ ٢٣٧٧ برقم: ٦١١٣.

(٣) مسلم، سبق تخريجه ١/ ١٠ برقم: ٥. ص ٧٦.

المسألة الرابعة / دوام النظر في السيرة النبوية وسير وأخبار السلف:

ومن أنواع العلاج النظر في سيرة الأولين، فإنها طافحة بالنماذج الحية التي تجسد التثبت، وتجعله ماثلاً أمامنا كالعيان، وحسبنا في هذه السير، وتلك الأخبار: قصة عمر وسعيد بن عامر الجمحي، وقصة الوليد بن عقبة وبني المصطلق، وقصة سعد بن أبي وقاص مع أهل الكوفة، وقصة الوزير العباسي واليهود الخيابرة، وقد ورد أكثرها في هذا الفصل.

المسألة الخامسة / التربية على ذلك من خلال الأحداث والوقائع:

ومن العلاج التربية بالحدث على نحو ما جاء في: قصة أسامة بن زيد مع الجهني في سورة النساء، وعلى نحو ما جاء في قصة داود مع الخصمين في سورة «ص»، وعلى نحو ما جاء في: قصة الوليد بن عقبة مع بني المصطلق في سورة الحجرات، فإن هذا اللون من التربية يثبت في النفس ولا ينسى، نظرًا لارتباطه بالحدث أو القصة.

المسألة السادسة / التذكير بقواعد ومعالم وطرق التثبت:

وفي الذكرى علاج لمرض عدم التثبت، فإن الإنسان مجبول على النسيان، وعلاج هذا النسيان دوام التذكير: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الذاريات: ٥٥] ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩].

ولابد أن تكون الذكرى في موطنها عند عدم التثبت من شخص ما قبل أن ينفذ أمره ويظلم غيره.

المسألة السابعة / تقدير العواقب المترتبة على ترك التثبت:

إن تقدير العواقب المترتبة على ترك التبين والتثبت في الدنيا والآخرة، من شأنه أن يبعث في الإنسان من داخله، ما يحمله على التروي والتأني والتريث خوفًا من العواقب الوخيمة التي تنتظره.

المسألة الثامنة / معايشة أو مخالطة من اشتهروا بخلق التثبت:

معايشة من اشتهروا بخلق التثبت والتبين، فإنه يفيد الإنسان كثيرًا، ويدعوه إلى محاكاتهم والنسج على منوالهم، لتقل العثرات، وتسلم الخطوات.

فما أحوج الناس اليوم للقدوات في هذا الجانب، ولكثرة المصائب التي تحدث بين أبناء المجتمع الواحد بسبب شيوع هذا المرض، خاصة بين الجماعات الإسلامية والدعاة فقد أصبح الكثير من أفراد وقيادات هذا الجماعات لا يتثبت من خبر من يثق به وقد يكون فاسقًا والله المستعان.

المسألة التاسعة / محاولة الإفادة من مناهج أهل الأرض بشأن هذا الخلق:

إن الحكمة ضالة المؤمن فلو وجدنا طرقًا عند غير المسلمين للتثبت شريطة ألا يتعارض ذلك مع الإسلام، فإن لدى هؤلاء رصيدًا لو أمكن استغلاله، وتوجيهه التوجيه السليم لعاد على الإسلام، والمسلمين بالخير الكثير.

المسألة العاشرة / أن يتصور المسلم نفسه في موطن من يؤخذ بغير تثبت:

إن المسلم لو وضع نفسه موضع من يأخذ بغير تثبت وتبين، فإن ذلك يحمله على تعديل خطواته في الطريق، إذ ما لا يرضاه لنفسه، لا يرضاه لغيره في الغالب.

وذلك مقتضى الإيمان «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه»[1].

المسألة الحادية عشرة / حسن الظن:

ينبغي أن يعلم أن الأصل في المرء المسلم براءة الذمة وحسن الظن، وخاصة العلماء وطلاب العلم والدعاة، وهذه القاعدة شرط جوهري لنزاهة الفكر ومنهجية البحث، وليس من الرزانة ولا من العقل.. بل ولا من الشرع أن يكون

---

(١) رواه البخاري – سبق تخريجه، ص ٦ - ١/ ١٤ برقم: ١٣.

الأصل هو: اتهام المسلمين وإساءة الظن بهم، والمواقف وردود الأفعال لا ينبغي بل لا يجوز أن تبنى على مجرد التخرصات والظنون المرجوحة.. وهذا من مقتضيات قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

ولهذا كان الواجب على العاقل اللبيب إذا سمع خبرًا لم تطمئن به نفسه عن أحدٍ من الدعاة أو العلماء أو الصالحين أن يظن بهم خيرًا، ويحمل ما سمعه وما قرأه على أحسن المحامل الممكنة، ولا يترك للشيطان فرصة العبث بينه وبين إخوانه المسلمين، خاصة أن كثيرًا من الأعداء اجتهد في تشويه أحوالهم، وتلفيق التهم! قال سبحانه وتعالى، بعد حادثة الإفك: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾[النور: ١٢].

وقال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المسلم سوءًا وأنت تجد لها في الخير محملاً[١].

وعن سعيد بن المسيب[٢] قال: كتب إليّ بعض إخواني من أصحاب رسول الله ﷺ: أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبك، ولا تظنن بكلمة خرجت من امرئ مسلم شرًا وأنت تجد لها في الخير محملاً[٣]..

---

(١) الدر المنثور للسيوطي.. مصدر سابق ٧/ ٥٦٦.

(٢) سعيد بن المسيب بن حزن القرشي المخزومي، أبو محمد، عالم أهل المدينة، وسيد التابعين في زمانه، ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر رضي الله عنه ومات سنة ٩٤هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٤/ ٢١٧).

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ٦/ ٣٢٣ وأخرج احمد في الزهد عن عمر بن الخطاب بنحوه، أنظر الدر المنثور ٧/ ٥٦٥.

المسألة الثانية عشرة / سلامة الصدر:

عند زحمة العمل وكثرة الاختلاط بالناس... يحدث التنافس في مجالات العمل بين الدعاة، وقد تحصل بين حين وآخر بعض الاختلافات في وجهات النظر وطريقة سير العمل وأحيانًا يؤدي الاختلاف في الآراء والتصورات إلى اختلاف القلوب وجفوتها، وقد يصل الأمر عند بعض الناس حدًا يجعله يضمر في نفسه شعورًا غير حسن تجاه إخوانه وهذه- بلا شك- مشكلة من كبرى المشكلات في العمل الإسلامي.

يقول محمد الغزالي[١] رحمه الله:

(ليس أروح للمرء، ولا أطرد لهمومه، ولا أقر لعينه من أن يعيش سليم القلب، مبرءًا من وساوس الضغينة، وثوران الأحقاد، إذا رأى نعمة تنساق إلى أحد رضي بها، وأحس فضل الله فيها، وفقر عباده إليها، وبذلك يحيا المسلم ناصع الصفحة، راضيًا عن الله وعن الحياة مستريح النفس من نزعات الحقد الأعمى، فإن فساد القلب بالضغائن داء عياء، وما أسرع أن يتسرب الإيمان من القلب المغشوش، كما يتسرب السائل من الإناء المثلوم!.)[٢].

وسلامة صدر المسلم من الحقد على إخوانه المسلمين من الصفات الكريمة النادرة التي تعمر قلب المؤمن بالأمن والطمأنينة والراحة، وتدفعه إلى العمل

---

(١) محمد الغزالي السقا، ولد في البحيرة بمصر عام ١٩١٧م عالم ومؤلف عظيم، وله مؤلفات تزيد على الستين كتابا في مواضيع مختلفة، أهمها (عقيدة المسلم)، (فقه السيرة)، (كيف نتعامل مع القران الكريم)، وتوفي عام ١٩٩٦م بالرياض ودفن بالمدينة المنورة (من أعلام الحركة الإسلامية.. عبدالله العقيل ص١١).

(٢) خلق المسلم – محمد الغزالي – المكتبة الفيصلية مكة المكرمة – ص ٨٦.

والإنتاج بعيدًا عن الأهواء والأحقاد التي تكبل المرء بآسار ثقيلة لا يتخلص منها إلا من هدى الله ورحم.

عن أنس بن مالك قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال: «يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة» فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، وقد علق نعله بيده الشمال، فلما كان الغد قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضًا، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبدالله بن عمر[1] فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت، قال: نعم، قال أنس: فكان عبدالله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي فلم يره يقوم من الليل شيئًا، غير أنه إذا تعار تقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى صلاة الفجر، قال عبدالله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيرًا، فلما مضت الثلاث الليالي وكدت أن أحتقر عمله قلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول لنا ثلاث مرات: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة، فطلعت أنت الثلاث المرات فأردت، أن آوي إليك فأنظر ما عملك فأقتدي بك، فلم أرك عملت كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت، قال فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًا ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه، فقال عبدالله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نطيق»[2].

---

(١) عبد الله بن عمر بن الخطاب، ولد بعد البعثة بثلاث سنوات، وهاجر وهو ابن عشر سنين، وقد كان من أشد الصحابة تتبعا للسنن، ومن أكثرهم عبادة مع زهد وورع، توفي عام ٨٤ هـ (الإصابة، مصدر سابق ٤/ ١٨١).

(٢) رواه احمد ٣/ ١٦٦ برقم: ١٢٧٢٠. والبزار. مجمع الزوائد ٨/ ٧٨ وقال المنذري في الترغيب: رواه أحمد بإسناد على شرط الشيخين ٣/ ٣٤٨.

حين يرتفع الإنسان إلى هذا الأفق، وتطمئن نفسه، وتسكن جوارحه، ويصبح قلبه سمحًا عامرًا بالحب والإشفاق لإخوانه المسلمين، فإنه يستعلي على حظوظ النفس وأهوائها ولا يحتمل قلبه المرهف الآمن، المطمئن بذكر الله، النابض بحلاوة الإيمان أن يحمل بين جنباته حقدًا على أحد من المسلمين......!!

والمؤمن الصادق كلما اقترب من ربه ـ سبحانه وتعالى ـ حسنت سريرته، وسلمت طويته، وكان ظاهره خيرًا، وباطنه خيرًا من ظاهره، ومتى برئ قلب الإنسان من الغل والحقد عاش بأمان وسلام، والله سبحانه وتعالى يعلم خفايا النفوس ومعادنها(١)..!

(وسلامة الصدر فضيلة تجعل المسلم لا يربط بين حظه من الحياة ومشاعره مع الناس، ذلك أنه ربما فشل حيث نجح غيره، وربما تخلف حيث سبق الآخرون. فمن الغباء أو من الوضاعة أن تلتوي الأثرة بالمرء فتجعله يتمنى الخسارة لكل إنسان، لا لشيء، إلا لأنه هو لم يربح!!

هذا الغليان الشيطاني هو الذي يضطرم في نفوس الحاقدين ويفسد قلوبهم. وقد أهاب الإسلام بالناس أن يبتعدوا عن هذا المنكر، وأن يسلكوا في الحيلة نهجًا أرقى وأهدى) (٢).

وأخيرًا يجب على الحكام والمحكومين والأفراد والمجتمعات التحفظ والحيطة من الكذب والكذبة، ومن الإشاعات والمشيعين، ومن الترويج والمروجين، الذين يخطئون وهم لا يشعرون، فكيف بمن يشعرون بخطئهم، بل يتقصدون الخطأ والإشاعة والترويج، فإذا لم يتثبت الناس من هؤلاء وما يحيكونه على الأفراد

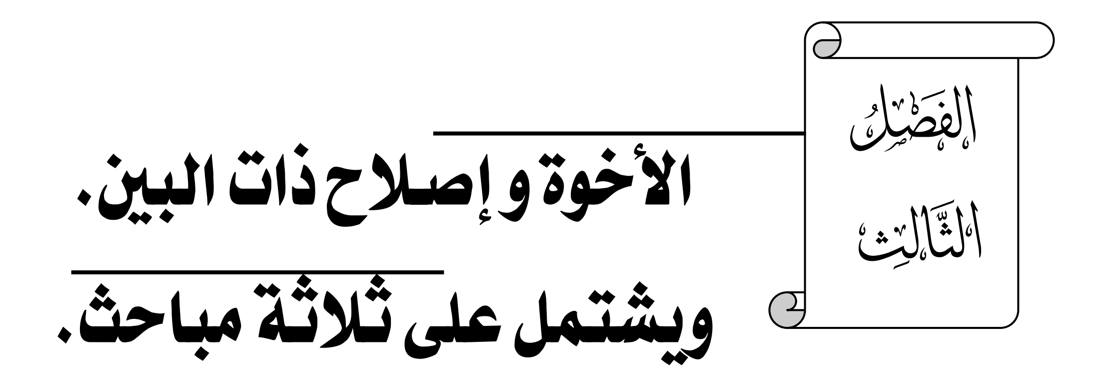
---

(١) نحو منهج شرعي، مصدر سابق، ص ٦٦.

(٢) خلق المسلم، مصدر سابق ص ٩٢.

والمجتمعات فإن الظلم سيطول، الجميع بل قد يصل الأمر إلى تفكيك أواصر المجتمع الإسلامي وروابط الأسرة المؤمنة، ما لم يسر الناس على هذا المنهج القرآني في التثبت من الأخبار، والصدق في الأقوال، واعتبار ذلك جزءًا من الدين الإسلامي الذي آمنوا به، وعلموا يقينا أن الله سبحانه وتعالى سيجازيهم على كل فعل وترك، إن خيرًا فخيرًا، وإن شرًا فشرًا.

وتربية المجتمع المسلم اليوم على الصدق والتثبت في الرواية ونقل الأخبار، يجعل أبناء هذا المجتمع يعيشون في مجتمع سليم من هذه الأمراض التي تعاني منها المجتمعات التي لا تطبق الأحكام القرآنية قولًا وعملًا، ولو كانت مجتمعات إسلامية؛ فهذه الأمراض تنخر في بنيان المجتمع، وتجعله يعيش في تناقضات، وقد ينهار بنيان المجتمع إذا لم يكن المنهج القرآني هو الحاكم في الظاهر والباطن.



المبحث الأول: مفهوم إصلاح ذات البين وفضله وفيه أربعة مطالب.

المبحث الثاني: ضرورة إصلاح ذات البين لحماية المجتمع من التمزق وفيه خمسة مطالب.

المبحث الثالث: الأخـوة الإسلامية وفيه خمسة مطالب.

المبحث الأول: مفهوم إصلاح ذات البين وفضله وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآيات وأسباب النزول.

المطلب الثاني: تعريف إصلاح ذات البين لغة واصطلاحًا.

المطلب الثالث: فضل إصلاح ذات البين.

المطلب الرابع: باب دعوي لإصلاح الأفراد والمجتمعات.

المطلب الأول: **الآيات وأسباب النزول:**

المسألة الأولى / الآيات:

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

[الحُجُرات: ٩ - ١٠]

المسألة الثانية / أسباب النزول:

قال أنس رضي الله عنه: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي[١]، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حمارًا، فانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ قال ابن أُبي: إليك عني، والله لقد آذاني نتن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه فتشاتمًا، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها أنزلت﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾[٢].

---

(١) عبد الله بن أُبى بن مالك بن الحارث بن عبيد الخزرجي، أبو الحباب، المشهور بابن سلول، رأس المنافقين في الإسلام، أظهر الإسلام بعد وقعة بدر تقية، مات بالمدينة سنة تسع من الهجرة. (طبقات ابن سعد ٢/ ٣-٩٠).

(٢) تفسير القرطبي مصدر سابق ٣١٦/١٦ وأخرجه البخاري في كتاب الصلح، باب ما جاء في الإصلاح بين الناس ٩٥٨/٢ برقم: ٢٥٤٥.

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم[١] عن السدي[٢] قال: كان رجل من الأنصار يقال له عمران، تحته امرأة يقال لها أم زيد، وأن المرأة أرادت أن تزور أهلها، فحبسها زوجها وجعلها في علية له، لا يدخل عليها أحد من أهلها، فبعثت المرأة إلى أهلها، فجاءوا وأنزلوها لينطلقوا بها، واستعان الرجل بقومه فجاءوا ليحولوا بين المرأة وأهلها، فتدافعوا وكان بينهم معركة، فنزلت فيهم هذه الآية، فبعث إليهم رسول الله ﷺ فأصلح بينهم، وفاءوا إلى أمر الله تعالى[٣].

وعن سعيد بن جبير[٤] أن الأوس والخزرج كان بينهم على عهد رسول الله ﷺ قتال بالسعف والنعال ونحوه، فأنزل الله هذه الآية فيهم.

وقال قتادة: نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مدارأة في حق بينهما، فقال أحدهما: لآخذن حقي عنوة، لكثرة عشيرته، ودعا الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ فأبى أن يتبعه، فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا، وتناول بعضهم بعضًا بالأيدي والنعال والسيوف، فنزلت هذه الآية[٥].

وقال الكلبي: نزلت في حرب سمير وحاطب، وكان سمير قتل حاطبًا، فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبي ﷺ فنزلت، وأمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أن يصلحوا بينهما[٦].

---

(١) عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر، يكنى أبا محمد، ولد سنة ٢٤٠هـ كان بحرا في العلوم ومعرفة الرجال، توفي سنة ٣٢٧ هـ (طبقات الحفاظ، مصدر سابق ١/ ٣٤٦).

(٢) إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبـي كريمة السدي أبو محمد الكوفي، الإمام المفسر توفي سنة ١٢٧هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٥/ ٢٦٤).

(٣) تفسير الطبري ٢٦/ ١٢٨ والقرطبي ١٦/ ٣١٦.

(٤) سعيد بن جبير الأسدي بالولاء الكوفي، تابعي أخذ العلم من ابن عباس وابن عمر، ثقة ثبت فقيه إمام حجة، قتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٤/ ٣٢١).

(٥) تفسير الطبري ٢٦/ ١٢٦.

(٦) تفسير القرطبي، مصدر سابق ١٦/ ٣١٦.

المطلب الثاني: **تعريف إصلاح ذات البين لغة واصطلاحًا:**

المسألة الأولى: تعريف إصلاح ذات البين لغة:

الإصلاح: نقيض الإفساد، وأَصْلَح الشيءَ بعد فساده أقامه، وأَصْلَحَ الدابة: أَحسن إليها فَصَلَحَتْ، والصُّلْحُ: تَصالحُ القوم بينهم، والصُّلْحُ: السِّلْم، وقد اصْطَلَحُوا وصَالحوا وتَصالحوا واصَّالحوا، مشدّدة الصاد، قلبوا التاء صادًا وأدغموها في الصاد بمعنى واحد، وقوم صُلُوح: مُتَصالِحُون، كأنهم وصفوا بالمصدر، والصِّلاحُ، بكسر الصاد: مصدر المُصالَحة، والعرب تؤنثها، والاسم الصُّلْح، يذكر ويؤنث، وأَصْلَح ما بينهم وصالَحهم مُصالَحة وصِلاحًا[1].

المسألة الثانية: تعريف إصلاح ذات البين اصطلاحًا:

الإصلاح: مأخوذ من الصلح: وهو عقد يرفع النزاع، وهو بمعنى المصالحة، وهو المسالمة خلاف المخاصمة، وأصله من الصلح، وهو ضد الفساد، ومعناه دال على حسنه الذاتي، وكم من فساد انقلب به إلى الصلاح بحسنه، ولهذا أمر الله تعالى به عند حصول الفساد والفتن بقوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

قالوا معناه: جنس الصلح خير.. فيعلم أن جميع أنواع الصلح حسنة، لأن فيه إطفاء الثائرة بين الناس، ورفع المنازعات الموبقات عنهم[2].

ومعنى ذات البين: صاحبة البين، والبين في كلام العرب يأتي على وجهين متضادين: يأتي بمعنى الفراق والفرقة، ويأتي بمعنى الوصل، وإصلاح ذات البين

---

(١) لسان العرب، مصدر سابق ٢/ ٥١٦-٥١٧.

(٢) نضرة النعيم، مصدر سابق ٢/ ٣٦٤.

على المعنى الأول: يكون بمعنى إصلاح صاحبة الفرقة بين المسلمين، وإصلاحها يكون بإزالة أسباب الخصام، أو بالتسامح والعفو، أو بالتراضي على وجه من الوجوه، وبهذا الإصلاح يذهب البين وتنحل عقدة الفرقة، أما إصلاح ذات البين على المعنى الثاني، فيكون بمعنى إصلاح صاحبة الوصل والتحابب والتآلف بين المسلمين، وإصلاحها يكون برأب ما تصدع منها، وإزالة الفساد الذي دب إليها بسبب الخصام والتنازع على أمر من الأمور(١).

المطلب الثالث: **فضل إصلاح ذات البين:**

من صفات المؤمنين المتقين أنهم يصلحون ذات بينهم، فإذا نشأ بينهم وبين إخوانٍ لهم خصام على أمر من الأمور، أسرعوا إلى إصلاحه بأنفسهم، ولو لم يتدخلْ بينهم وبين إخوانهم وسطاء.

قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة» قالوا: بلى، قال ﷺ: «صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم: أفشوا السلام بينكم»(٣).

---

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها -عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني- الطبعة الخامسة ١٩٩٩م دار القلم دمشق ٢/ ٢٣٠.

(٢) رواه الترمذي، مصدر سابق ٤/ ٦٦٤ برقم: ٢٥٠٩ وقال المنذري في الترغيب ٣/ ٣٢٥ رواه أبو داود وابن حبان. وصححه السيوطي في الجامع الصغير بدون الزياده الأخيرة «لاأقول تحلق الشعر..» فيض القدير ٥/ ٢٤١٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٠٦ برقم: ٢٥٩٥.

(٣) المصدر نفسه ٤/ ٦٦٤ برقم: ٢٥٥٩ وقال المنذري في الترغيب ٣/ ٢٨٥ رواه البزار بإسناد حسن، وصححه السيوطي في الجامع الصغير فيض القدير ٦/ ٣٢٢٢. والألباني في صحيح الجامع ٢/ ٦٣٤ برقم: ٣٣٦١.

وقال ﷺ: «كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين صدقة»[١].

وقال ﷺ: «المقسطون عند الله تعالى يوم القيامة على منابر من نور عن يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهاليهم وما ولوا»[٢].

وفي الحديث:«ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس وينمي خيرًا أو يقول خيرًا»[٣].

وقال بعض العلماء بجواز الكذب لقصد الإصلاح، وقالوا: الكذب المذموم إنما هو فيما فيه مضرة أو ليس فيه مصلحة، والذين عارضوا حملوا الكذب هنا على التورية والتعريض[٤] لأن المصلح يحب الخير للآخرين كما يحبه لنفسه، ويكره لهم الشر كما يكرهه لنفسه فلم يصل إلى هذه الدرجة إلا لأنه:

يبذل جهده ويضحي براحته وأمواله في سبيل رأب الصدع وإصلاح فساد القلوب وتنقية النفوس من الضغائن والأحقاد وإطفاء نار العداوة والفتن، ليحل الوئام والحب والوفاق والألفة والإخاء، وهذا كله من ألزم الأشياء اللازمة لقوة المجتمع وصحته.

ويقول ﷺ: «المؤمن إلف مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس»[٥]، وهذه الألفة تجمع الشمل وتمنع الذل[٦].

---

(١) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب الصلح - باب فضل الإصلاح بين الناس ٢/ ٩٦٤ برقم: ٢٥٦٠.

(٢) رواه مسلم، مصدر سابق، كتاب الإمارة – باب فضل الإمام العادل وعقوبة الجائر ١٤٥٨/٣ برقم: ١٨٢٧.

(٣) المصدر نفسه – كتاب البر والصلة - باب تحريم الكذب وبيان المباح منه ٤/ ٢٠١٢ برقم: ٢٦٠٥.

(٤) فتح الباري، مصدر سابق ٥/ ٣٠٠.

(٥) رواه الطبراني، مصدر سابق ٥٨/٦ برقم: ٥٧٨٧ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعلم له علة، ولم يخرجاه، وقال السيوطي: صحيح - فيض القدير ٦٠٨٧/١٢ وحسنه الألباني صحيح الجامع ٢/ ١١٣٠ برقم: ٦٦٦٢.

(٦) سياحة إيمانية في سورة الحجرات د/محمود ماضي، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م - دار الدعوة الإسكندرية ص ٦٥ -٦٦.

وقال رسول الله ﷺ: «إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل، إن الدين بدأ غريبًا ويرجع غريبًا فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي»[١].

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا، انظروا هذين حتى يصطلحا، انظروا هذين حتى يصطلحا»[٢].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بينما رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله بأبي أنت وأمي، فقال ﷺ: «رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة، فقال أحدهما: يا رب خذ لي مظلمتي من أخي، فقال الله تبارك وتعالى للطالب: فكيف تصنع بأخيك ولم يبق من حسناته شيء قال: يا رب فليحمل من أوزاري»، قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: «إن ذاك اليوم عظيم يحتاج الناس أن يحمل عنهم من أوزارهم، فقال الله تعالى للطالب: ارفع بصرك فانظر في الجنان، فرفع رأسه فقال: يا رب أرى مدائن من ذهب وقصورًا من ذهب مكللة باللؤلؤ، لأي نبي هذا؟ أو لأي صدّيق هذا؟ أو لأي شهيد هذا؟ قال: هذا لمن أعطى الثمن؟ قال: يا رب ومن يملك ذلك؟ قال: أنت تملكه، قال: بماذا؟ قال: بعفوك عن أخيك؛ قال: يا رب فإني قد

---

(١) سنن الترمذي، مصدر سابق ٥/١٨برقم: ٢٦٣٠. وقال: هذا حديث حسن صحيح، وذكر الألباني حديث بلفظ: «إن الإسلام بدأ غريب وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء، قيل: منهم يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس» وقال: هذا سند صحيح – الصحيحة ٣/٢٦٧ برقم: ١٢٧٣.

(٢) رواه مسلم، مصدر سابق – كتاب البر والصلة – باب النهي عن الشحناء والتهاجر ٤/١٩٨٧ برقم: ٢٥٦٥.

عفوت عنه، قال الله عز وجل: فخذ بيد أخيك فأدخله الجنة» فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإن الله تعالى يصلح بين المسلمين»[1].

وأي فضل أعظم من هذا الفضل الذي ذكره الله ورسوله للمصلح بين الناس، وهذا من أعظم الدوافع للمؤمنين لإصلاح ما بينهم من شحناء طمعًا في الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى، واتباعًا لمنهج القرآن الكريم في الإصلاح بين الناس.

المطلب الرابع: باب دعوي لإصلاح الأفراد والمجتمعات:

إن الإصلاح بين الناس بالتي هي أحسن بأي أسلوب ووسيلة شرعية يمكن استخدامها لهذا الغرض النبيل، إنما هو جانب من جوانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهما الدعوة الكفيلة لبناء الروابط بين أفراد المجتمع المسلم، وبقائها على أسس يكون من عائدها الطمأنينة والسلام في النفوس، والدعوة من هذه الوجهة واجبة وضرورية في المجتمع المسلم، وهي العلاقة الأساسية النظيفة بين أفراده، ولا تكون سببًا لاحتراف المحترفين، فمنهج القرآن يطالب المجتمع المسلم بهذا المستوى، وأن تكون هناك مجموعة تنبه على الأخطاء والانحرافات التي تقع بين أفراده، سواء كانت الأخطاء من الحاكم أو من المحكوم، تقوم بذلك استشعارًا للواجب، وطلبًا لمثوبة الله سبحانه وتعالى.

ولأن المجتمع الإسلامي مجتمع متكافل متعاون فلا يجوز له أن يرى بعض أبنائه يتخاصمون أو يتقاتلون وهو يقف موقف المتفرج، تاركًا النار تزداد اندلاعًا والخرق يزداد اتساعًا، بل على ذوي الرأي والمقدرة أن يتدخلوا لإصلاح ذات البين، متجردين للحق مبتعدين عن الهوى، فقد حث الإسلام الأمة على أن تتحمل واجبها في الإصلاح والدعوة إلى الله بكل وسيلة ممكنة، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤].

---

(١) المستدرك، مصدر سابق ٤/ ٦٢٠ برقم: ٨٧١٨ وقال: وهذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

ولا شك أن الصلح من أعظم أعمال المعروف والخير، وأن النهي عن الخصومة من النهي عن المنكر، كما أن ذلك كله دعوة إلى الله ووسيلة لكسب القلوب وإبعاد الشيطان عن طريق الناس، باعتبار الأمة الإسلامية متضامنة متكافلة لها دورها الكبير في حماية المجتمع وصيانته من التمزق والخلاف، وتقويمه وإصلاحه ودعوته، وأن ذلك واجب ديني على الأمة جمعاء، بحيث إذا تباطأت عنه حاق بها الإثم وتحملت وزره وتبعاته، وهذا من التقصير الخطير(١) الذي يتنافى مع منهج القرآن في إصلاح الجوانب الاجتماعية.

وإذا قام الدعاة بإصلاح ذات البين، فإن تأثير ذلك سيكون واضحًا في كسب كثير من الناس الذين يؤثر فيهم الإصلاح ويدخلون في هذه الدعوة، ويتحولون إلى مصلحين بعد أن كانوا صالحين أو طالحين، فهي فرصة أولًا لإعادة الناس إلى دينهم حتى ولو قسى عليهم المصلح، ما داموا يعرفون أنه قال الحق وأصلح لله وفي الله.

وهذه نماذج من سعيه ﷺ للإصلاح بين الناس استشعارًا منه ﷺ للواجب وكسبًا للقلوب وتطبيقًا لأحكام الإسلام:

١- جاء في الحديث: «أن ناسًا من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يصلح بينهم، فحضرت الصلاة ولم يأت النبي ﷺ ..... الخ الحديث بطوله»(٢).

---

(١) فن إصلاح ذات البين – إبراهيم بدر الشهاب – الطبعة الأولى ٢٠٠١م مؤسسة الرسالة، بيروت ص ٥٨/ ٥٩.

(٢) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب الصلح - باب ما جاء في الإصلاح بين الناس ٢/ ٩٥٧ برقم: ٢٥٤٤.

٢- عن كعب بن مالك[١] أنه تقاضى ابن أبي حدردٍ[٢] دينًا كان له عليه في عهد رسول الله ﷺ في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله ﷺ وهو في بيته، فخرج إليهما حتى كشف حجرته فنادى كعب بن مالك، فقال: «يا كعب» فقال: لبيك يا رسول الله، فأشار بيده أن ضع الشطر، فقال كعب: قد فعلت يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «قم فاقضه»[٣].

٣- عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت خصوم بالباب عالية أصواتهم، وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء وهو يقول: والله لا أفعل فخرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: «أين المتألي على الله لا يفعل المعروف؟» فقال: أنا يا رسول الله، فله أي ذلك أحب[٤].

٤- عن جابر بن عبد الله[٥]رضي الله عنهما قال: توفي أبي وعليه دين فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه، فأبوا، ولم يروا أن فيه

---

(١) كعب بن مالك الأنصاري الخزرجي، شاعر رسول الله وصاحبه وأحد الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك وأنزل الله توبته في القرآن، مات سنة أربعين للهجرة (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ٢/ ٥٢٣).

(٢) عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، ممن بايع تحت الشجرة وله روايات في غير الكتب الستة، توفي سنة ٧١هـ (شذرات الذهب في أخبار من ذهب – عبد الله بن أحمد الدمشقي – دار الكتب العلمية، بيروت – ١/ ٧٧).

(٣) رواه البخاري – كتاب الصلاة - باب التقاضي والملازمة في المسجد ١/ ١٧٥ برقم: ٤٤٥.

(٤) المصدر نفسه – كتاب الصلح - باب هل يشير الإمام بالصلح ٢/ ٩٦٣ برقم: ٣٥٥٨.

(٥) جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة، الإمام المجتهد صاحب رسول الله ﷺ أبو عبد الرحمن الأنصاري، من أهل بيعة الرضوان وكان آخر من شهد ليلة العقبة الثانية موتا، توفى سنة ٧٨هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ٣/ ١٨٩).

وفاء، فأتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فقال: «إذا جددته فوضعته في المربد آذنت رسول الله ﷺ» فجاء ومعه أبو بكر وعمر والحاصل عليه ودعا بالبركة ثم قال: «ادع غرماءك فأوفهم» فما تركت أحدًا له على أبي دين إلا قضيته وفضل ثلاثة عشر وسقًا: سبعة عجوة وستة لون أو ستة عجوة وسبعة لون، فوافيت مع رسول الله ﷺ المغرب فذكرت ذلك له فضحك فقال: «ائت أبا بكر وعمر فأخبرهما» فقالا: «لقد علمنا إذ صنع رسول الله ما صنع أن سيكون ذلك»[(١)].

٥- عن سهل بن سعد[(٢)] رضي الله عنه أن أهل قباء اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة، فأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «اذهبوا بنا نصلح بينهم»[(٣)].

وهكذا بذل النبي ﷺ وبذل غيره من حكام المسلمين ودعاة الإسلام جهودًا للإصلاح بين الناس لعلمهم بأهمية الإصلاح وتأثيره الدعوي في نفوس الناس ولوجوبه قبل ذلك، فلو قام أبناء المجتمع ووجهاؤه بدورهم في الإصلاح ابتغاء وجه الله تعالى لكسبوا الكثير من النافرين عن هذه الدعوة.

---

(١) رواه البخاري – كتاب الصلح - باب الصلح بين الغرماء ٢/ ٩٦٤ برقم: ٢٥٦٢.

(٢) سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن عمرو بن ساعدة بن حارثة الساعدي،من مشاهير الصحابة، توفي سنة ٨٨هـ (تاريخ مولد العلماء ووفياتهم – محمد بن عبد الله الربعي – دار العاصمة الرياض – الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ١/ ٢١٥ ومعجم الصحابة مصدر سابق١/ ٢٦٩).

(٣) رواه البخاري – كتاب الصلح - باب قول الإمام لأصحابة: إذهبوا بنا نصلح ٢/ ٩٥٨ برقم: ٢٥٤٧.

المبحث الثاني: ضرورة إصلاح ذات البين لحماية المجتمع من التمزق. وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: حكم إصلاح ذات البين.

المطلب الثاني: حاجة المجتمع لإصلاح ذات البين.

المطلب الثالث: وجوب العدل في الإصلاح.

المطلب الرابع: نصائح عامة في الإصلاح بين الناس.

المطلب الخامس: نتائج إهمال الإصلاح.

المطلب الأول: **حكم إصلاح ذات البين:**

لئلا تسفك الدماء المسلمة، وتستحل الأعراض بغير دليل من الله ورسوله ﷺ «لأجل ذلك أمر الله سبحانه بالإصلاح بين الطائفتين المقتتلتين أولاً، فإن بغت إحداهما على الأخرى فحينئذ أمر بقتال الفئة الباغية، لا بالصلح فإنها ظالمة، ففي الإصلاح مع ظلمها هضم لحق الطائفة المظلومة، وكثير من الظلمة يصلح بين القادر الظالم والخصم الضعيف المظلوم بما يرضي به القادر صاحب الجاه، ويكون له فيه الحظ ويكون الإغماض والحيف فيه على الضعيف، ويظن أنه قد أصلح، ولا يمكن المظلوم من أخذ حقه، وهذا ظلم، والواجب تمكين المظلوم من استيفاء حقه ثم يطلب إليه برضاه أن يترك بعض حقه بغير محاباة لصاحب الجاه، ولا يشتبه بالإكراه للآخر بالمحاباة ونحوها...»[1].

وإذا نجم الخلاف بين فريقين من المؤمنين وساءت العلاقات، واشتدت الفرقة وآل الأمر إلى القتال وسفك الدماء، فيأمر الله تعالى المؤمنين: فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم كتاب الله، والرضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم كتاب الله له وعليه، وتعدت ما جعله الله عدلاً بين خلقه، وأجابت الأخرى منهما﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ فقاتلوا التي تعتدي وتأبى الإجابة إلى حكم الله ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ حتى ترجع إلى حكم الله الذي حكم في كتابه بين خلقه ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياهم إلى الرضا بحكم الله في كتابه فأصلحوا بينها وبين الطائفة الأخرى التي قاتلتها

---

(١) إعلام الموقعين مصدر سابق ١/ ١٠٩.

بالعدل، يعني بالإنصاف بينهما، وذلك حكم الله في كتابه الذي جعله عدلاً بين خلقه...

عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

قال: «إن الله سبحانه أمر النبي ﷺ والمؤمنين إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين أن يدعوهم إلى حكم الله وينصف بعضهم من بعض، فإن أجابوا حكم فيهم بكتاب الله حتى ينصف المظلوم من الظالم، فمن أبى منهم أن يجيب فهو باغ، فحق على إمام المؤمنين أن يجاهدهم ويقاتلهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ويقروا بحكم الله..» [1].

والله تبارك وتعالى أمر المؤمنين بأن يصلحوا ذات بينهم، ويطيعوا الله ورسوله إن كانوا مؤمنين حقًا.

فمن صفات المؤمنين المتقين أنهم يصلحون ذات بينهم، فإذا نشأ بينهم وبين إخوان لهم خصام على أمر من الأمور، أسرعوا إلى إصلاحه بأنفسهم، ولو لم يتدخل بينهم وبين إخوانهم وسطاء.

فإذا اشتد أمر الخصام وجب على المسلمين أن يسعوا في الإصلاح بين المتخاصمين بمختلف الوسائل الكفيلة بإزالة أسباب الخلاف ورأب الصدع.

وقد يصل الخلاف إلى حد التقاتل بين طائفتين من المؤمنين، وفي هذه الحال يجب على سائر المؤمنين أن يصلحوا بينهما، ضمن المنهج الذي رسمه القرآن في هذه السورة.

فأوجب الله على المؤمنين أن يصلحوا بين الذين يتخاصمون منهم، فقال لهم:

---

(١) تفسير الطبري مصدر سابق ٢٦/ ١٢٧ وما بعدها.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وجعل ذلك من عناصر التقوى، فقال بعد ذلك: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

فإذا رفضت إحدى الطائفتين المتقاتلين أن تخضع للإصلاح بالعدل، وركبت رأسها باغية ظالمة، وجب على سائر المؤمنين أن يقاتلوا الفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله وهو الإصلاح بالعدل والقسط، فإذا فاءت تم الإصلاح بينها وبين الطائفة التي هي خصمها بالعدل[1].

وعليه فإن حكم إصلاح ذات البين واجب على الحكومة المسلمة، فإذا لم تقم الحكومة بتنفيذ أحكام الله كما هو الحال اليوم في كثير من البلدان، وجب على الجماعة والمجتمع وقياداته بذل ما يستطيعون من جهد للإصلاح بين الناس لحماية المجتمع من التمزق، لأن الإصلاح بين المؤمنين إذا تنازعوا واجب لا بد منه لتستقيم حياة المجتمع ويتجه نحو العمل المثمر.

ومصيبة الأمة اليوم هو التفرق الذي مزقها شذر مذر، والتفرج من قبل الكثير من القادرين على الإصلاح، ولم يقوموا به تكاسلاً، أو عدم تقدير لأهمية الإصلاح ووجوبه.

المطلب الثاني: **حاجة المجتمع لإصلاح ذات البين:**

المجتمع المسلم اليوم بحاجة إلى الإصلاح فيما بينه أشد من حاجته إلى الغذاء والدواء فإن الفساد القائم اليوم بين الأفراد والجماعات والحكومات سبب رئيس في الضعف والذل والهوان والاستكانة التي نعاني منها، وصدق ﷺ إذ يقول:

«ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة»؟ قالوا: بلى يا

---

(١) الأخلاق الإسلامية، مصدر سابق ٢/ ٢٣٠-٢٣١.

رسول الله قال: «صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين»[1] وأي فساد أعظم من أن يقتل اليهود والنصارى المسلمين، والمسلمون يؤيدونهم أو يتفرجون عليهم وكأن الأمر لا يعنيهم.

فلو عمل اليوم المسلمون حكامًا ومحكومين في إصلاح ذات بينهم وجمع شملهم «ولن يتم ذلك إلا بالعودة إلى الكتاب والسنة» لعادوا إلى سالف مجدهم، وحرروا مقدساتهم وبلدانهم وأنفسهم من رق العبودية الجديد الذي تفرضه عليهم أمريكا رأس الشر في هذا العالم.

فأمة الإسلام اليوم بأمس الحاجة إلى تجميع كل القوى الإسلامية والوطنية وغيرها لمواجهة خطر التفكك الذي وصلت الأمة إليه، فمشكلتها هي هذا التفرق الذي خطط له الاستعمار ونفذه، وساعده بعض المسلمين، سواء علموا بخبث المخطط أم لم يعلموا.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

فيترتب على التنازع الفشل وذهاب القوة والوحدة، كما قال ابن كثير رحمه الله: «ولا يتنازعوا فيما بينهم فيختلفوا فيكون ذلك سببًا لتخاذلهم وفشلهم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] أي قوتكم ووحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال»[2].

وقال سيد قطب رحمه الله بعد ذكر الآيات من سورة الأنفال:

«.. فهذه هي عوامل النصر الحقيقية: الثبات عند لقاء العدو، والاتصال بالله بالذكر والطاعة لله والرسول، وتجنب النزاع والشقاق، والصبر على تكاليف

(١) الترمذي، سبق تخريجه ص ١٠٤.

(٢) تفسير ابن كثير، مصدر سابق ٢/ ٣٢٩.

المعركة، والحذر من البطر والرياء والبغي.. وأما طاعة الله ورسوله، فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء؛ فتبطل أسباب النزاع التي أعقبت الأمر بالطاعة:

ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم.. فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه؛ وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار، فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم- مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة - فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق في غيرها! وإنما هو وضع (الذات) في كفة، والحق في كفة؛ وترجيح الذات على الحق ابتداء!..»[1].

وهذا الذي تعاني منه الأمة اليوم من شقاق وعداء واضح وتفرق مذموم سببه هذا التنازع وهذه الأهواء، وحب الرئاسة، وتعدد جهات القيادة والتوجيه، وحرص الأعداء على تمزيق هذه المجتمعات الإسلامية، فكلما لاح بارق أمل لتجميع شمل الأمة، أوجد الأعداء بأيدي أبنائها موانع التقارب والتنسيق، وهاهم اليوم بعد تمزيق أمة الإسلام إلى أكثر من أربعين دولة يخططون لتقسيم اليمن والعراق والسعودية وأندونسيا والسودان وغيرها.

وعليه فالمجتمع بحاجة إلى الإصلاح فيما بينه، لأمر الله له بذلك ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ﴾ ولضرورة الإصلاح لحياة المجتمع المسلم وقوته وتماسكه، وما يحصل اليوم من فرض ما يريده الأعداء من حلول في فلسطين وغيرها من البلدان إلا نتيجة لعدم القيام بهذه الفريضة، ولتشتت العرب والمسلمين وبعدهم عن تحكيم القرآن والسنة، وعدم تطبيق منهج القرآن في ذلك، والله المستعان.

---

(١) في ظلال القران، مصدر سابق ٣/ ١٥٢٨.

المطلب الثالث: **وجوب العدل في الإصلاح:**

قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحُجُرات: ٩].

من خلال الآية يلحظ أن المولى سبحانه ذكر الإصلاح في أول الآية:

﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ﴾ [الحُجُرات: ٩] ولم يقل بالعدل، وفي آخرها قال تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ﴾ فأكد أنه يجب الإصلاح بالعدل والقسط، لأنه بعد القتال أو بعد عرض الآراء على طائفة ورفضها لها، وتعاون الطائفة الأخرى مع المصلحين، كل ذلك يؤدي إلى احتمال ميول الحكام المصلحين إلى الطائفة القريبة منهم بتعاونها في تنفيذ الحلول المطروحة، ولذلك أكد سبحانه بتحري ووجوب العدل في الإصلاح.

وهذه قاعدة تشريعية عملية لصيانة المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك، تحت النزوات والاندفاعات، تأتي تعقيبًا على تبين خبر الفاسق، وعدم العجلة والاندفاع وراء الحمية والحماسة، قبل التثبت والاستيقان.

وسواء كان نزول هذه الآية بسبب حادث معين كما ذكرت الروايات، أم كان تشريعًا لتلافي مثل هذه الحالة، فهو يمثل قاعدة عامة محكمة لصيانة المجتمع المسلم من التفكك والتفرق، ثم لإقرار الحق والعدل والصلاح، والارتكان في هذا كله إلى تقوى الله ورجاء رحمته بإقرار العدل والصلاح[1].

---

(١) في ظلال القرآن، مصدر سابق ٦/ ٣٣٤٣.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» فقال رجل: يا رسول الله، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا، كيف أنصره؟ قال ﷺ: «تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره»[(١)] ودلالة الحديث واضحة ومتطابقة لما تفيده الآية الكريمة في الإصلاح، يوجه الله به المؤمنين الذين يجب عليهم أن ينصروا المظلوم المعتدى عليه بلا حق، ممن ظلمه وأخذ حقه، كما يجب عليهم نصر الظالم من نفسه فيحولون بينه وبين الظلم والعتو، وأسلوب «تحجزه أو تمنعه من الظلم» في الحديث يشير إلى الأخذ بالقوة والاستعلاء، وهذا يدل على وجوب العدل مع القريب والبعيد، بخلاف ما تفعله الجاهلية التي تنتصر لبعضها تعصبًا، وتقف إلى جانب الظالم من أهلها كما تقف إلى جانب المظلوم

كما يقول شاعرهم دريد بن الصمة[(٢)]:

وما أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد[(٣)]

وقد ورد الإصلاح في الآية الأولى والثانية ليكون الإصلاح بالعدل هو البداية والنهاية والهدف المقصود لتدخل المؤمنين سلميًا أو حربيًا في التوفيق بين الفريقين المختلفين، وقد كان الإصلاح جانبًا من جوانب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تؤدي به الجماعة المؤمنة دورًا في كل حالة من الأحوال التي تنشب بين فردين أو جماعتين أو طائفتين أو شعبين أو حكومتين، فهو في الآيتين منهج القران لتسكين الفتنة وإزالة الفرقة وترابط الأخوة وتقوية الوحدة التي يجب أن تبقى فوق كل

---

(١) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب الإكراه – باب يمين الرجل لصاحبه ٦/ ٢٥٥٠ برقم: ٦٥٥٢.

(٢) دريد بن الصمة الجشمي البكري، وهو شاعر هوازن، وفحل من شعرائها، أدرك الإسلام ولم يسلم، وقتل سنة ٨ هـ يوم حنين وهو على دين الجاهلية (الأعلام.. مصدر سابق ٢/ ٣٣٩).

(٣) ديوان الأصمعيات في الرثاء ص ٨٧.

اعتبار لا تنفصل عراها، وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على المصلحين ورغب في الإصلاح فقال: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٤].

فالصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يعتمد فيه رضا الله سبحانه وتعالى ورضا الخصمين، فهذا أعدل الصلح وأحقه، وهو يعتمد العلم والعدل، فيكون المصلح عالمًا بالوقائع عارفًا بالواجب، قاصدًا للعدل، فدرجة هذا أفضل من درجة الصائم القائم، كما قال النبي ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»[(١)][(٢)].

والعدل والقسط في الإصلاح هو المضمون الحقيقي لشعار الإصلاح بين جماعة المؤمنين مع نفسها ومع غيرها، فالعدالة هي الرائد الصدوق واللواء المرفوع لجماعة المؤمنين في كل تصرفاتها، ولقد كان العدل السمة البارزة لمنهج القرآن، والخلق الذي يرغب غير المؤمنين بالانضمام إليهم، وعني به القرآن والسنة في تربيتهما ودعوتهما، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ٨].

---

(١) الترمذي، سبق تخريجه ص ١٠٤.

(٢) إعلام الموقعين، مصدر سابق ١/ ١٠٩-١١٠.

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

ولكي يستطيع المصلح أن يصلح بين أفراد المجتمع يجب أن يكون الإصلاح بالعدل ولذلك بين الله سبحانه وتعالى وجوب العدل بقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجُرات: ٩].

فالعدل مطلوب، بغض النظر عن قرب أو بعد المتخاصمين من الحاكم، ومن هذا يتضح أن نظام الإصلاح بالعدل في منهج القرآن الكريم من النظم التي لها الكمال والبراءة من العيب والنقص، وله صفة الأمانة والعدل المطلق، لأن الاحتكام فيه إلى أمر الله الذي لا يشوبه غرض ولا هوى، ولا يتعلق به نقص أو قصور، ولكن البشرية البائسة تعرج وتكبو وتتعثر، وأمامها الطريق الواضح الممهد المستقيم[1].

والعدل وإن كان مطلوبًا في كل الموضوعات إلا أنه هنا أشد طلبًا، لأنه إذا شعرت فئة بتحيز المصلحين - طمعًا في مغنم أو إرضاء لحاكم - إلى الفئة الأقوى

(١) في ظلال القرآن، مصدر سابق ٦/ ٣٣٤٤. بتصرف.

أو إلى الفئة المنتصرة، فإن ذلك قد يؤدى إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى، فبالعدل إماتة الضغائن وسل الأحقاد، والعدل يدعو إلى الألفة والمحبة، ويبعث على الطاعة.

والخلاصة: إن الإسلام قد أغلى من قيمة الدماء والأنفس، وأغلظ من حرمة العدوان عليها، ونبه إلى أن الحق أولى بالنصرة من الأهل والأقارب «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» فقال رجل: يا رسول الله أنصره إذا كان مظلومًا أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال ﷺ: «تحجزه أو تمنعه من الظلم، فإن ذلك نصره»(١).

كما نبه الله جل وعلا على قضية العدل: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾ [المائدة: ٨].

وأغلظ من حرمة نصرة المرء قريبه لمجرد أنه قريبه دون رعاية لجانب الحق: قال ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»(٢) وفي كل الأحوال يجب العدل في الإصلاح بين الناس، فهو منهج القرآن الكريم في إصلاح الجوانب الاجتماعية، والحرص على قوة المجتمعات وتماسكها.

المطلب الرابع: **نصائح عامة في الإصلاح بين الناس:**

في المجتمع المسلم الذي تقوم فيه العلاقات الاجتماعية بين أفراده على الحب والتعاون والتضامن والتكافل، والذي يحب كل فرد فيه لإخوانه المسلمين ما يحب لنفسه، والذي يعرف كل فرد فيه ما له من حقوق وما عليه من واجبات، ويحرص

---

(١) رواه البخاري، سبق تخريجه ص ١١٢ - ٦/ ٢٥٥٠ برقم: ٦٥٥٢.

(٢) رواه أبو داود مصدر سابق ٤/ ٣٣٢. برقم: ٥١٢١ وقال: هذا ضعيف الإسناد. وحسنه السيوطي في الجامع الصغير فيض القدير ١/ ٥٢٣٠. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ٧١١ برقم: ٤٩٣٥.

كل واحد منهم على أن يخفض جناحه لإخوانه من المسلمين ومن يلي أمرهم، ويعد نفسه مسؤولاً عن أهل بيته وجيرانه وإخوانه من عامة المسلمين، ويحضر في ذهنه هدي الرسول الكريم ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم»[١] والذي يشعر كل فرد فيه أنه عضو من أخيه، وعضو من جماعة المسلمين، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ... مثل هذا المجتمع المترابط المتماسك ليست مسألة إصلاح ذات البين بين أفراده مشكلة تحتاج إلى طول تفكير وجهد كبير، ذلك أن كل فرد فيه حريص على أن يصفح عن زلة أخيه، ويغفر خطاياه، بل ويدعو له بظهر الغيب.

ولكن المشكلة تثور وتصبح مسألة معقدة وتحتاج إلى تفكير طويل وجهد كبير وأساليب شتى وشفاعات وتوسطات لكي يلتئم الجرح اليسير، ويرأب الصدع الصغير، في مجتمع مثل بعض مجتمعاتنا المعاصرة التي خربت فيها الذمم، وتحطمت فيها القيم، وانحسرت فيها الأخلاق، وغابت عن نفوس الأفراد فيها الضمائر الحية، وطالت فيها الألسنة الحداد واسودت القلوب وتقطعت الأرحام ووشائج القربى، ونزغ الشيطان فيهم وأغرى بينهم العداوة والبغضاء، وتكالبوا على الدنيا ونسوا الآخرة.

وإذا كان الأمر كذلك فلابد من الاطلاع على النصائح التالية، لعلها بإذن الله تهيئ أسباب النجاح في مهام الإصلاح، وتساعد المخلصين في الجمع بين المتنافرين:

أولا/ ترك الخصمين (المتشاجرين) فترة من الزمن بعد انفضاض الشجار ريثما تهدأ ثائرتهما وتخف حدة التوتر والاضطراب لديهما، و إعطاؤهما فرصة للتراجع يومًا أو يومين، فإن اصطلحا وإلا فليبادر المصلح في اليوم الثالث للإصلاح بينهما،

---

(١) رواه أحمد ٢/ ٢١١ برقم: ٦٩٧٠. وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١١٣٧ برقم: ٦٧١٢.

فإن الصلح المباشر قلما يفلح، ونادرًا ما يفلح، فالأعصاب ما زالت متوترة والنفوس مضطربة هائجة، وتقديم النصيحة في مثل هذه الحالة يمثل نوعًا من الاستفزاز، ويزيد النار اشتعالاً، لذا ينصح إمهال الطرفين بعض الوقت.

ثانيًا/ من كان طرفًا في خصومة فلا يتردد في المبادرة إلى الصلح مع خصمه، ولا يحدث نفسه حديث الخائف من الفشل فيقول: أخشى أن يردني خائبًا ولا يقبل مصالحتي، وربما يحرجني أمام الناس أو لا يستقبلني في بيته، فالخصم الآخر يدور في نفسه نفس الحديث، ومخاوفه هي ذاتها مخاوف الأول، ومعظم هذه الأحاديث والمخاوف هي وسوسة الشيطان الذي يخوف أولياءه ويغري بالعداوة والبغضاء بين الناس، ويعمل على إطالة أمد الخلاف، لأنه لا يرضى للناس الصلح والوئام، ولذلك فإذا بادر المسلم إلى الصلح وفي نفسه شيء من هذه الوساوس والمخاوف فليصطحب أحد الأصدقاء من المعروفين لدى الخصم المقبولين عنده لتسهيل مهمة الإصلاح بينهما.

ثالثًا/ الحرص والاجتهاد على عدم ترك المتخاصمين متدابرين، وعدم إفساح المجال للقطيعة أن تستشري في أوصال المجتمع، بل المبادرة بالصلح بين الخصوم قبل أن يتطور الخلاف بينهم ويقع ما لا يحمد عقباه.

رابعًا/ من كان وسيطًا في الصلح فليحرص على إخراج ما في نفوس الخصوم من عداوة وبغضاء، لأن بقاء رواسب العداوة والبغضاء في النفوس - وإن كانت ضئيلة - قد تبعث العداوة بينهم من جديد إن تهيأت أسبابها، وهاجت ذكرى الخلاف الأول.

خامسًا/ تفحص نتائج جهود الإصلاح ومراقبة سلوك الخصمين بعد عملية الصلح والتأكد أنهما كما يجب، فبعض المحاولات الناجحة تحتاج إلى جهود لاحقة

لتعزيز الصلح وتثبيته.

سادسًا/ الكلمة الطيبة صدقة، وهي السحر الذي يطفئ نار العداوة، والبلسم الذي بسببه تبرأ الجراح، لذلك يجب الحرص على لين الكلام، ولا سيما عند مباشرة مهمة الإصلاح فإن لين الكلام قيد القلوب ـ كما يقولون- ومن لانت كلمته وجبت محبته، وعدة المصلح اللسان الرطب والكلمة الدافئة المؤثرة.

سابعًا/ عدم المبالغة في مدح الخصم وإطرائه والثناء على كرمه وأخلاقه مما ليس فيه، فإن النفاق المكشوف قد يصد الخصم عن الصلح، ويزرع في نفسه الشك في نية المصلح وأهدافه، وبالتالي فلا يستجيب لجهود الإصلاح التي يقوم بها مهما بذل من جهود.

ثامنًا/ لا يكفي تصافح الخصمين، بل لا بد من إزالة الأسباب التي أدت إلى الخلاف، والعمل على حل المشكلة من جذورها كي لا يتجدد النزاع والخصام مع بقاء بواعث الخلاف ومهيجات النزاع.

تاسعًا/ الحل الودي للخصومات أفضل بكثير من الحل القضائي، وأدوم للأخوة وأبقى للألفة والمودة، ولذلك فمحاولة رأب الصدع وجمع القلوب قبل أن يصل الخصوم إلى المحاكم أفضل، فإن فصل الخصومة بالقضاء يورث الضغائن.

عاشرًا/ إن استطاع أحد الأطراف أن يعفو وإن كان الحق معه ولا يقف في موضع يكون خصمًا لطرف آخر، فذلك أولى وأكرم له ولمكانته ومروءته، كما أنه دليل على سمو أخلاقه وعلو منزلته، إن الإنسان في كثير من الأحيان قد يتنازل عن حقه كاملاً للطرف الآخر إذا شعر أن هذا الطرف قد عفا عنه وحفظ وده وتجنب أن يؤذيه بالمخاصمة والمنازعة[1].

---

(١) فن إصلاح ذات البين، مصدر سابق ص ١٥٦-١٥٧ بتصرف.

حادي عشر/ الاستعانة بأحباء وأقارب المتخاصمين:

ولعل من الأمور الهامة التي تؤثر في المتخاصمين الاستعانة بأحباء المتخاصمين وأقاربهم، وجمع أكبر عدد من هؤلاء لإحراج الخصوم وتنفيذ الصلح المطلوب، فعندما يأتي مجموعة من المصلحين وكل واحد يقدم رأيا أو نصيحة، فإن الخصوم يحرجون وينفذون ما يطلب منهم، بل ويتنازلون عن حقوقهم، وهو ما يسمى في اليمن بالهجَرَ والوصلة، والجاه، وهي أعراف مشهورة يتعامل بها معظم أهل اليمن.

المطلب الخامس: نتائج إهمال الإصلاح:

بنظرة سريعة على المحاكم تجد القضايا الهائلة المتراكمة والمؤجلة وفي النيابات ومراكز الشرطة خصومات لا حصر لها، وفي المستشفيات مرضى ومصابون بسبب المشاجرات والمشاحنات.

لماذا هذا؟ لإهمال الصلح المأمور به شرعًا، ولغيبة الوعي الإسلامي والأخلاقي وانحسار دور المساجد، فنجد بعض الناس قد قست قلوبهم وخبثت نياتهم، يحبون الشر ويعملون على نشره بين الناس، مما يترتب عليه ترك المتخاصمين يتشاجرون ويتشاتمون ويكيد بعضهم لبعض حتى يستفحل الأمر، ويستحكم الخصام وتعم البلوى بالانتقال من الكلام والسباب إلى العصي والسلاح، ثم بعد ذلك إلى (المستشفيات) ومراكز الشرطة والسجون والمقابر أحيانًا.

والناس يتفرجون ويتغامزون، ويتندرون ويتفكهون، على ما يحدث، بل قد يلهبون نار الفتنة والعداوة والبغضاء بين المتخاصمين سواء لأسباب مادية، فالبعض يتكسب من وراء المشاكل، أو لأسباب نفسية خبيثة فالبعض يتلهى بمشاكل الناس ويرتاح لخلافهم، والنتيجة المترتبة على ذلك: ضياع روابط الأخوة، وضياع الأنفس والأموال.

لقد كان يكفي لإزالة ما في النفوس من الضغائن والأحقاد والبغضاء والكراهية، كلمة واحدة أو موقف جدي من عاقل لبيب ناصح أمين مخلص يقضي على الخصومات في مهدها، فيتغلب جانب الخير، ويموت الشر في مهده، ويسلم الإخوان، وتسلم الجماعة من

التصدع والتفرق، والعاقل اللبيب الناصح الأمين المخلص نال بعمله هذا درجة المصلي الصوام المتصدق، كما تقدم في الأحاديث الصحيحة، ومنها حديث أبي داوود المتقدم ذكره «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة...الخ الحديث»[1].

وفي آخر هذا المطلب يجمل الباحث أخطر نتائج إهمال إصلاح ذات البين لتجنبها، والعمل بجد في الإصلاح بين الناس لتقوية الروابط، وغرس المحبة، وحفظ الدماء والأعراض والأموال ونشر الأمن، وظهور المجتمع بقوة لا نظير لها يستطيع بها مواجهة كل المحن والمصائب، وأهم هذه الأخطار هي:

١- تحل القطيعة والكراهية محل المحبة والمودة والوئام، وتكسب العداوات بدل الصداقات.
٢- إهمال الصلح يغرس الشحناء وعدم العفو في نفوس المتخاصمين، ويؤدي إلى استشراء الفساد، وقسوة القلب، وضياع القيم الإنسانية، واستمرار النزاع لأجيال أحيانًا.
٣-إهمال الصلح يؤدي إلى سفك الدماء وانتهاك الأعراض واستحلال الأموال.
٤- يؤدي الخلاف إلى شهادة الزور، وإنكار الحقائق، والتفرق والخصومات، ونسيان الواجبات.
٥- العقاب الأليم عند الله سبحانه وتعالى لمن ارتكب هذه المحرمات في الخصومات، وكذلك لمن سكت ولم يقم بواجب الإصلاح بين الناس وهو قادر.
٦- إشاعة الخوف بين الناس حتى الذين لا علاقة لهم بالخصومات، و قد يضرب أو يقتل جيران وأقارب المتخاصمين ولا ذنب لهم.
٧- الذل والصغار وهيمنة الأعداء علينا وذهاب وحدتنا وقوتنا: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾.
٨- انشغال القلب وتعكر المزاج وتشوش الخاطر، حتى أثناء الصلاة وقراءة القرآن.

(١) رواه الترمذي، سبق تخريجه ص ١٠٤.

٩- الرغبة في الإساءة إلى الخصم والفرح بمساءته والحزن بمسرته.

١٠- اكتساب الإثم وبغض الله (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم) [١].

١١- انفلات اللسان في الذم والتحقير والطعن في الأعراض.

ومن هنا يلاحظ اهتمام منهج القرآن الكريم بوحدة جماعة المسلمين، وحرصه الشديد على أن لا يدب الخلاف بينهم، ولا تقع الفرقة بين صفوفهم، لأن ذلك يوهن قواهم، ويطمع بهم عدوهم، ويقذف بهم إلى الفشل، ويمكن أعداءهم من رقابهم.

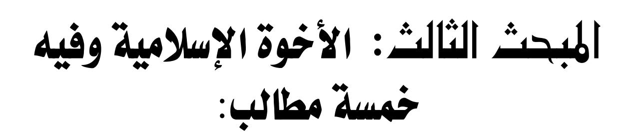
وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول:«دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء، والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده. أو والذي نفس محمد بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم، أفشوا السلام بينكم»[٢] [٣].

---

(١) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب التفسير - باب وهو ألد الخصام ٤/ ١٦٤٤ برقم: ٤٢٥١.

(٢) الترمذي، سبق تخريجه ص ١٠٤.

(٣) فن إصلاح ذات البين، مصدر سابق ص ٤٦-٤٧.



المبحث الثالث: الأخوة الإسلامية وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الأخوة وفضلها.

المطلب الثاني: حقوق الأخوة.

المطلب الثالث: نواقض الأخوة.

المطلب الرابع: وسائل تعميق الأخوة

المطلب الخامس: ثمرات الأخوة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحُجُرات: ١٠].

المطلب الأول/ تعريف الأخوة وفضلها:

المسألة الأولى: التعريف اللغوي والاصطلاحي:

الأخوة في اللغة:

أخا: الأَخُ من النسَب: معروف، وهو من جمعك وإياه صلب أو بطن، وقد يكون الأخ هو الصديقَ والصاحِبَ.

وجمع الأخ إخوة وإخوان، قال أبو حاتم: قال أهل البصرة أجمعون: الإخوة في النسب والإخوان في الصداقة، تقول: قال رجل من إخواني وأصدقائي، فإذا كان أخاه في النسب قالوا: إخوتي، قال: وهذا غلط، يقال للأصدقاء وغير الأصدقاء إخوة وإخوان، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرات: ١٠]. ولم يعنِ النسب. وقال تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

وفي الحديث أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، أي ألف بينهم بأخوة الإسلام والإيمان، والتآخي: اتخاذ الإخوان، وفي صفة أبى بكر الصديق: قال ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام»[١] [٢].

---

(١) أخرجه مسلم، مصدر سابق كتاب الفضائل - باب من فضائل أبي بكر وعمر ٤/ ١٨٥٤ برقم: ٢٣٨٢.

(٢) لسان العرب، مصدر سابق ١٤/ ٢١.

الأخوة في الإصطلاح:

هي مشاركة شخص لآخر في الولادة من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع، ويستعار لكل مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في صنعة أو في مودة أو في المعاملة أو في غير ذلك من المناسبات[١].

قال ابن حجر في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرات: ١٠] يعني: في التوادد وشمول الدعوة[٢].

وقد آخى النبي ﷺ بين الأعلى والأدنى ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلي، لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا من قبل البعثة واستمر، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة لأن زيدًا مولاهم[٣].

والأخوة في الله: منحة قدسية وإشراقة ربانية، ونعمة إلهية.. يقذفها الله في قلوب المخلصين من عباده، والأصفياء من أوليائه والأتقياء من خلقه..

وهي أيضًا قوة إيمانية نفسية تورث الشعور العميق بالعاطفة، والثقة المتبادلة.. مع كل من تربطك وإياه أواصر العقيدة الإسلامية، ووشائج الإيمان والتقوى.. فهذا الشعور الأخوي الصادق يولد في نفس المؤمن أصدق العواطف النبيلة، وأخلص الأحاسيس الصادقة في اتخاذ مواقف إيجابية: من التعاون، والإيثار، والرحمة، والعفو والتنفيس وقت الشدة، والتكافل عند العجز.. وفي اتخاذ مواقف سلبية: من الابتعاد عن كل ما يضر بالأخوة في أنفسهم وأخلاقهم وأعراضهم وأموالهم وكرامتهم[٤]..

---

(١) نضرة النعيم، مصدر سابق ٢/ ٩٢.

(٢) فتح الباري، مصدر سابق ٧/ ٢٧٠.

(٣) المصدر نفسه ٧/ ٢٧١.

(٤) الأخوة الإسلامية – عبد الله ناصح علوان – الطبعة السادسة ١٩٩٧م – دار السلام ص ٥.

المسألة الثانية: فضل الأخوة:

عن أبي مالك الأشعري[١]رضي الله عنه قال: أنه جمع قومه فذكر الحديث إلى أن قال: ثم إن رسول الله ﷺ لما قضى صلاته أقبل علينا بوجهه فقال: «يا أيها الناس اسمعوا واعقلوا واعلموا أن لله عز وجل عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء على منازلهم وقربهم من الله « فجثا رجل من الأعراب من قاصية الناس وألوى بيده إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ناس من المؤمنين ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء على مجالسهم وقربهم؟ أنعتهم لنا، جلّهم لنا - يعني صفهم لنا، شكلهم لنا - فسر وجه النبي ﷺ بسؤال الأعرابي، فقال رسول الله ﷺ: «هم ناس من أفناء الناس ونوازع القبائل، لم تصل بينهم أرحام متقاربة تحابوا في الله وتصافوا، يضع الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجلسهم عليها، فيجعل وجوههم نورًا وثيابهم، نورًا يفزع الناس يوم القيامة ولا يفزعون، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» وفي رواية قال: كنت عند النبي ﷺ فنزلت عليه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ ﴾ [المائدة: ١٠١]. قال: فنحن نسأله إذ قال: إن لله عز وجل عبادًا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء بمقعدهم وقربهم من الله، قال: فذكر الحديث بطوله[٢].

---

(١) كعب بن عاصم الأشعري، يكنى أبو مالك، صحابي جليل، نزل الشام ومصر، وله حديثان، مات في طاعون عمواس سنة ١٨هـ (تقريب التهذيب – ابن حجر العسقلاني – دار الرشيد سوريا – الطبعة الأولى ١٩٨٦م تحقيق: محمد عوامه ٢/ ٤٦٨).

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٣ برقم: ٢٢٩٥٧ والترمذي ٤/ ٥٩٧ برقم: ٢٣٩٠ وقال المنذري: رواه أحمد وأبو يعلى بإسناد حسن والحاكم وقال: صحيح الإسناد ٤/ ١٨٨. الترغيب والترهيب ٤/ ١٣ برقم: ٤٥٨٥.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى، فأرسل الله على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أزور أخًا لي في هذه القرية، فقال: هل له عليك من نعمة تربها؟ قال: لا، إلا أني أحبه في الله، قال: فإني رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[٢].

وهذه النصوص تدل على عظم فضل الأخوة، واهتمام الإسلام بها، وحاجة المجتمع إليها، بل لا يصلح المجتمع بدونها، وهي سبب كل خير فيه، وبها يتراحم أبناء المجتمع فيما بينهم، ويرضون ربهم، ويسعدون مجتمعهم، ويتميزون بها عن غيرهم، والله المستعان على ضعف الأخوة هذه الأيام بين المؤمنين.

المطلب الثاني: **حقوق الأخوة:**

إن هذه الأخوة الإيمانية كما قامت على أساس متين هو الإيمان، وآصرتها بين المتحابين هو الحب والوداد، والألفة والاتحاد، فإنها أيضًا شرع لها من الحقوق والواجبات بين المتآخين ما يجب المحافظة عليها والالتزام بها، والحرص على القيام بها[٣].

---

(١) صحيح البخاري، مصدر سابق – كتاب الجماعة والإمام – باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ١/ ٢٣٥ برقم: ٦٢٩.

(٢) رواه مسلم، مصدر سابق – كتاب البر والصلة والآداب – باب فضل الحب في الله ٤/ ١٩٨٩ برقم: ٢٥٦٧.

(٣) عنصر القوة شرح ركن الأخوة د/ عبد الله قاسم الوشلي، الطبعة الأولى ٢٠٠١م مكتبة خالد بن الوليد، صنعاء ص ٥٩.

وتنقسم هذه الحقوق إلى قسمين: فمنها ما هي عامة: وتشمل كل من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولاً، ومنها ما هي خاصة: إذا أضيف إلى ما سبق تعاقد وتعاهد على نصرة دين الله، أو قرابة أو نسب أو جوار أو علاقة عمل.

المسألة الأولى / حقوق عامة:

من خلال النصوص الشرعية يمكن إجمال الحقوق العامة فيما يلي:

إفشاء السلام ورده، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، وإبرار القسم، ونصرة المظلوم، والتنفيس عن المكروب، وإسداء النصح، والإغضاء عن العيوب، والابتعاد عن الأذى كالحقد، والتباغض، والظلم، والغيبة والنميمة، والتحقير والاستهزاء، إلى غير ذلك.

وقد وردت في السنة النبوية الشريفة أحاديث كثيرة تبين هذه الحقوق منها:

١- عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «حق المسلم على المسلم ست» قيل ما هن يا رسول الله؟ قال: «إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه»[١].

٢- وعن البراء بن عازب[٢]رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ بسبع ونهانا عن سبع، أمرنا بعيادة المريض، واتباع الجنازة، وتشميت العاطس، وإبرار القسم أو المقسم، ونصر المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام......»[٣].

---

(١) رواه مسلم، مصدر سابق – كتاب الآداب – باب حق المسلم على المسلم ٤/ ١٧٠٥ برقم: ٢١٦٢.

(٢) البراء بن عازب بن الحارث، الفقيه الأنصاري الحارثي أبو عمارة، نزيل الكوفة من أعيان الصحابة، توفي سنة ٧٢هـ وقيل ٧١هـ عن بضع وثمانين سنة (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٣/ ١٩٤).

(٣) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب الجنائز – باب الأمر باتباع الجنائز ١/ ٤١٨ برقم: ١١٨٣.

٣- وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى ههنا» ويشير إلى صدره ثلاث مرات «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأشار بأصابعه إلى صدره»[١].

المسألة الثانية / حقوق خاصة:

وتشمل هذه الحقوق كل إنسان أحببته في الله، وكل صديق استخلصته لنفسك، وكل أخ تعمل معه في الدعوة من أجل إعلاء كلمة الإسلام، خاصة إذا أكدت بعقد أو عهد[٢] وتدخل فيها الحقوق العامة السابق ذكرها، ثم يضاف لها الحقوق التي سيتم ذكرها هنا:

الحق الأول:

حق أخيك في مالك، ويكون بالمعاونة والمساعدة بالمال إذا احتاج إليه، وهي على ثلاث حالات: إما أن تساعده بفضل مالك، وإما أن تنزله منزلتك، وإما أن تؤثره على نفسك، وهذا أعلاها، لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[الحشر: ٩].

---

(١) رواه مسلم، مصدر سابق – كتاب البر والصلة - باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ٤/ ١٩٨٦ برقم: ٢٥٦٤.

(٢) عنصر القوة، مصدر سابق ٦٢.

الحق الثاني:

حق أخيك في نفسك، في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات، والقيام بها قبل السؤال، وتقديمها على الحاجة الخاصة.

وأدنى هذا الحق القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة، ولكن مع البشاشة والاستبشار، وأعلاها أن تكون حاجة أخيك أغلى وأهم من حاجتك أو مثلها، لحديث: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»(١).

الحق الثالث:

حق الأخ في لسانك، وذلك بالسكوت مرة، وبالنطق مرة أخرى. وهو يتفرع إلى ثلاثة حقوق:

أ- أن تكف عنه لسانك إلا في خير، أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو في نصيحة.

ب- أن تعطيه من لسانك ما يحبه منك، لما روي عن أنس رضي الله عنه «كان رسول الله ﷺ قلما يواجه الرجل بشي يكرهه في وجهه»(٢).

ج- أن تدعو له ولأولاده في حياته وبعد مماته، وفي الحديث: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك ولك بمثل»(٣).

---

(١) رواه مسلم - كتاب الذكر والدعاء والتوبة – باب فضل الاجتماع على تلاوة القران ٤/ ٢٠٧٤ برقم ٢٦٩٩.

(٢) رواه أبو داود، مصدر سابق ٤/ ٨١ برقم: ٤١٨٢ ورواه النسائي في السنن الكبرى ٦/ ٦٧ وأحمد ٣/ ١٥٤ برقم: ١٢٥٩٥.

(٣) رواه مسلم مصدر سابق –كتاب الذكر والدعاء والتوبة -باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب ٤/ ٢٠٩٤ برقم: ٢٧٣٢.

الحق الرابع:

حق أخيك في قلبك وهو مجموع في كلمتين يتمثل فيهما حقان من حقوق الأخوة: العفو والوفاء، فالعفو: يتمثل في التجاوز عن الزلات والتغاضي عن الهفوات وستر العيب وتحسين الظن. لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠].

وأما الوفاء: فهو الثبات على الحب مع أخيك، وإدامته إلى الموت وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإن الحب إنما يراد به للآخرة، فإذا انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»[(١)].

أي فرق بينهم الموت على الحب في الله.

الحق الخامس:

التخفيف وترك التكلف والتكليف: وذلك بأن لا تكلفه بما يشق عليه، وأن لا تحمله ما لا يرتاح إليه، قال بعض الحكماء: (من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا ومن جعلها في قدره تعب وأتعب، ومن جعل نفسه دون قدره سلم وسلموا. وتمام التخفيف طي بساط التكليف حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي من نفسه)[(٢)].

المطلب الثالث: **نواقض الأخوة:**

وبعد معرفة حقوق الأخوة فهذه بعض الأمور التي تعكر صفو الأخوة،

(١) البخاري، سبق تخريجه ص ١٢٠.

(٢) الأخوة.. محمد حسين يعقوب، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م - دار التقوى - شبرا الخيمة - ص ٢٦٧.

وينقض بسببها هذا الصرح العظيم لتلافي الوقوع فيها، وهي كالتالي:

١- سوء الظن:

فلا بد من التماس الأعذار لسلامة الصدور، لقول الله تعالى:

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ...﴾[الحجُرات: ١٢].

وقول الرسول ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث»[1].

٢- الغيبة:

والغيبة ذكرك أخاك بما يكره ولو كان لأمر فيه، والمغتاب شخص جبان لا يقدر أن يواجه صاحبه فيتكلم من ورائه.

قال تعالى: ﴿...وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ ...﴾ [الحجُرات: ١٢].

٣- السخرية والاحتقار والهمز والنبز واللمز:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجُرات: ١١].

وقد قال الرسول ﷺ: «...... ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم

---

(١) رواه البخاري، مصدر سابق - كتاب الأدب - باب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ٥/ ٢٢٥٣ برقم: ٥٧١٩.

عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا...... »[١] والنيل من أعراض المسلمين يبدأ أولا بالسخرية، وللأسف أصبحت السخرية داءً من أدواء الأمة، والسبب في ذلك الأفلام والتمثيليات والمسرحيات والتفكه بالكلام الفارغ، كله سخرية فلا يضحك الناس الآن إلا بالسخرية من الآخرين.

وقد قال الرسول ﷺ: «بحسب امرئ من الشر، أن يحقر أخاه المسلم»[٢].

٤- الحسد:

هذا الداء العظيم الفتاك ينساب في النفوس البشرية في لحظات الغفلة الإيمانية كما ينساب الماء في أغصان الشجر، فإن لم ينتبه إليه المسلم ويقطع دابره فسيكون سمًا زعافًا يفتك بالجسم الأخوي. قال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤].

٥- المماراة والمنافسة:

من أشد الأسباب لإثارة نار الحقد بين الإخوان المماراة والمنافسة، وهذا بداية التقاطع، لأن التقاطع يقع أولاً بالأقوال ثم بالأبدان.

والتماري والجدال الأخرق يكون فيما لا ينفع، أما ما ينفع في الدين والدنيا والآخرة فيدخل من باب النصيحة لله ورسوله ولعامة المسلمين.

٦- القطيعة والتحامل القلبي:

الأصل في علاقة المسلم مع أخيه المسلم العفو والتسامح، لأن الله تعالى الذي

---

(١) جزء من حديث للبخاري - كتاب العلم - باب قول النبي «رب مبلغ..» مصدر سابق ١/ ٣٧ برقم: ٦٧.

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم ٤/ ١٩٨٦ برقم: ٢٥٦٤ سبق تخريجه ص ١٢١.

يعبدونه يتصف بصفات الكمال التي منها العفو والكرم، قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. فما دمت تعفو فالجزاء من جنس العمل، فإن الله سيعفو عنك، فالعفو من حقوق أخيك عليك، فإن أخاك ليس بمعصوم عن الخطأ، فلا بد له من هنات وسقطات، ومع القرب تبدو هذه السقطات واضحة وجلية، ولو ابتعدت ما رأيت ما رأيت.

٧- معرفة الحقوق ونسيان الواجبات:

كثير من الإخوة يشتكون من هذا السمت السيئ في بعض إخوانهم، فتجد الأخ يعرف ماله جيدًا، ويطالب أخاه أن يصنع كذا وكذا بموجب ماله من حق عليه، وينسى ويتغافل عن حقوق أخيه، والواجبات التي عليه تجاه الآخرين.

وهذه الأثرة آفة الإنسان وغول فضائله، إذا سيطرت نزعتها على المرء محقت خيره ونمت شره، وحاصرته في كل صنائعه، وجعلته محصورًا في نطاق ضيق خسيس ولا يعرف فيه غير شخصه، ولا يشعر بفرح أو حزن إلا لما يحسه من خير أو شر لنفسه.

٨- عدم التحاكم إلى شرع الله في العلاقات:

هذا بلا شك من نواقض الأخوة المهلكة، لأن أساس العلاقة والرابطة هو الإيمان، ومن مقتضيات الإيمان رد النزاع إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، فمن حاد عن هذه الجادة وترك بعض ما أنزل الله، هلك في الخصومات والنزاعات[١].

المطلب الرابع: وسائل تعميق الأخوة:

لابد من معرفة الأمور التي تعمق الأخوة وتحافظ عليها وتزيد روابط الأخوة

---

(١) الأخوة.. يعقوب ص٢٠٥.

قوة ولا تذهبها، وأهمها:

الوسيلة الأولى: إذا أحب الرجل أخاه فليخبره بأنه يحبه:

وذلك لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أحب أحدكم أخاه فليعلمه أنه يحبه»(١).

الوسيلة الثانية: إذا فارق الأخ أخاه فليطلب منه الدعاء في ظهر الغيب:

وذلك لما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: استأذنت النبي ﷺ في العمرة فأذن لي، وقال: «لا تنسنا يا أخي من دعائك»، فقال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا(٢).

قال رسول الله ﷺ: «ما من عبد مسلم يدعو لأخيه في ظهر الغيب إلا قال الملك: ولك بمثل»(٣).

الوسيلة الثالثة: إذا لقي الأخ أخاه فليطلق وجهه عند اللقاء:

قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»(٤) أي بوجه متهلل بالبشر والتلطف والابتسام.

---

(١) رواه أبو داود، مصدر سابق ٤/ ٣٣٢ برقم: ٥١١٩ وقال الألباني: قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهو كما قال.- الصحيحة ١/ ٧٧٧.

(٢) رواه أبو داود ٢/ ٨٠ برقم: ١٤٩٨ ورواه ابن ماجه ٢/ ٩٦٦ برقم: ٢٨٩٤ وأخرجه الترمذي بلفظ قريب، وقال: حديث حسن صحيح ٥/٥٥٩برقم ٣٥٦٢ وضعفه الألباني، ضعيف الجامع ص ٩٠٦ برقم ٦٢٧٨.

(٣) رواه مسلم، سبق تخريجه ١٢٢.

(٤) المصدر نفسه – كتاب البر والصلة – باب استحباب طلاقة الوجه ثم اللقاء ٤/ ٢٠٢٦ برقم: ٢٦٢٦.

الوسيلة الرابعة: إذا لقي الأخ أخاه فليبادر إلى مصافحته:

قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يفترقا»[١].

الوسيلة الخامسة: أن يكثر من زيارة أخيه بين كل فترة وفترة:

قال النبي ﷺ: «قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتباذلين فيّ»[٢].

والحديث المشهور «أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكًا، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في الله في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[٣].

الوسيلة السادسة: أن يهنئه ويدخل السرور عليه عند بزوغ المناسبة:

لقول الرسول الله ﷺ: «من لقي أخاه بما يحب ليسره ذلك سره الله ﷻ يوم القيامة»[٤].

---

(١) رواه أبو داوود مصدر سابق ٤/ ٣٥٤ برقم: ٥٢١٢ ورواه الترمذي في السنن ٥/ ٧٤ برقم: ٢٧٢٧. وقال: حديث حسن غريب، وحسنه السيوطي، فيض القدير ١٠/ ٥٤٦٣ وحسنه الألباني، صحيح الجامع ٢/ ١٠٠٦ برقم ٥٧٧٧.

(٢) المستدرك، مصدر سابق ٤/ ١٨٦برقم: ٧٣١٤ وقال: صحيح على شرط الشيخين. وقال السيوطي: رواه أحمد والطبراني والحاكم والبيهقي وهو صحيح، فيض القدير ٨/ ٤٣٠١ وأنظر صحيح الجامع برقم ٤٣٣١.

(٣) مسلم، سبق تخريجه ص ١٢٠.

(٤) رواه الطبراني، مصدر سابق ٢/ ٢٨٨ برقم: ١١٧٨ وقال المنذري في الترغيب: إسناده حسن ٣/ ٢٦٥.

الوسيلة السابعة: أن يقدم له الهدية إذا وجدت المناسبة:

لقول رسول الله ﷺ: «تهادوا تحابوا»[(١)].

الوسيلة الثامنة: أن يبدي له اهتمامًا بالغًا في قضاء حوائجه:

لقول الرسول ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه»[(٢)].

ويلاحظ أن هذه الوسائل حرية بتعميق الأخوة في نفوس المؤمنين، خاصة إذا طبقت خالصة لله تعالى، واستمر القيام بها، ولا يكون ذلك نادرًا وعرضًا، فقد كثرت وسائل الإفساد بين المؤمنين، ولا يردها إلا وسائل تعميق الأخوة وتطبيق أحكام الإسلام، التي تجعل المؤمنين أكثر قربًا وحبًا، والاستعانة بالله أولاً وآخرًا لتطبيق ذلك.

---

(١) رواه البيهقي، مصدر سابق ٦/ ١٦٩ برقم: ١١٧٢٦ ورواه الطبراني في المعجم الأوسط ٦/ ٥٤ وقال المناوي: قال ابن حجر: سنده حسن وحسنه السيوطي: أنظر فيض القدير ٥/ ٢٧٢٧ وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٧٧ برقم: ٣٠٠٤.

(٢) رواه مسلم، سبق تخريجه ص ١٢٢.. ٤/ ٢٠٧٤ برقم ٢٦٩٩.

المطلب الخامس: ثمرات الأخوة:

إن الثمار والفوائد التي يجنيها الأخ المسلم من خلال تحقيقه لمضامين الأخوة والمؤاخاة كثيرة ومتنوعة، فمنها فوائد خاصة بالمؤاخي وحده، ومنها بمن آخاه، ومنها ما يشملهما، ومنها ما يكون نفعها عامًا يتناول مجموع المؤمنين، بل وكيانهم وقوتهم وثقلهم في هذه الحياة والغلبة على الأعداء، ومنها ما يعود على الدعوة وانتشارها في ربوع الأرض، وفي هذا الشرح توضيح لمجمل الفوائد والثمار الناتجة عن هذه الأخوة[١].

المسألة الأولى / الفوائد الخاصة:

الفوائد الخاصة: تخص المؤاخي في الله ومن آخاه أيضًا إذا كان له نفس المقصد، وهي:

١- تذوق حلاوة الإيمان، قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله... الحديث»[٢].

٢- يحاط برحمة الله ويوقى شدائد يوم القيامة، لقوله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء..»[٣].

---

(١) عنصر القوة، مصدر سابق ص ٩١.

(٢) أخرجه البخاري، مصدر سابق – كتاب الإيمان – باب من كره أن يعود في الكفر ١/ ١٦ برقم: ٢١.

(٣) رواه أحمد، مصدر سابق ٢/ ١٦٠ برقم:٦٤٩٤ ورواه الحاكم ٤/ ١٧٨ وقال: حديث صحيح، وقد صححه الذهبي والألباني، صحيح الجامع (١/ ٢١٦ برقم: ٨٩٦) والسيوطي بلفظ «ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء» انظر فيض القدير ٢/ ٩٣١.

ولقوله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.. »[١].

٣- ينال الأمن والسرور، ويعد في صفوف السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا يظلهم ظل إلا ظله، كما في حديث السبعة، وقد سبق ذكره.

٤- تتوثق بالأخوة عرى الإيمان، كما في الحديث: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»[٢].

٥- بالأخوة يتحقق للمؤاخي مظهر التوفيق في الدنيا ورضوان الله في الآخرة.

٦- وجود الأخوة من بشائر الأعمال الصالحة الموصلة إلى قبول الله الدالة على الهداية والنجاح.

٧- الأخوة في الله تعين على طاعة الله وعلى اجتناب معاصيه.

٨- بها يتحقق للمؤاخي العون في الدنيا والنصرة عند الضيم، والمساعدة عند الحاجة وتفريج الكربة عند وقوعها، والنصح عند الاعوجاج[٣].

---

(١) رواه مسلم، سبق تخريجه ص ١٢٢.

(٢) رواه أبو داود، مصدر سابق ١/ ١٠١ برقم: ٧٤٧ وذكره المنذري في الترغيب والترهيب ٤/ ١٤، وذكره السيوطي بألفاظ متقاربة، قال: رواه الطبراني، ولم يخرجه، فيض القدير ٥/ ٢٣٤٧. وذكره الألباني في صحيح الجامع بزيادة «الموالاة في الله والمعاداة في الله» وقال: صحيح ١/ ٤٩٧ برقم: ٢٥٣٩.

(٣) عنصر القوة، مصدر سابق، ص ٩٣.

المسألة الثانية/ الفوائد العامة[(١)]:

هناك فوائد عامة تجنيها أمة الإسلام عندما تحقق فيما بينها أخوة الإسلام وتشيع في مجتمعاتها، وحين تتحقق هذه الأخوة في مجتمع من المجتمعات الإسلامية يتحقق له كل خير وعز ومجد.

وأهم تلك الفوائد هي:

١- تحقيق الوحدة الإسلامية المتماسكة:

من أهم فوائد الأخوة الوحدة المتماسكة للأمة الإسلامية، رغم تباينها في اللغات والأجناس، وتباعدها في الأمكنة والأزمنة، فالأخوة الإسلامية مرتبطة بالعقيدة الربانية وقائمة على آصرة التقوى، ولا دخل للقومية والسلالية والعنصرية فيها.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

وقال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجُرات: ١٣].

وقال ﷺ: «الناس سواسية كأسنان المشط»[(٢)].

وما أحسن قول الشاعر:

لعمـــرك مـــا الإنســـان إلا بدينـــه فلا تترك التقوى اتكالاً على النسـب

(١) الأخوة.. علوان، مصدر سابق ص ٦٦ وما بعدها بتصرف.

(٢) مسند الشهاب - محمد بن سلامة القضاعي- مؤسسة الرسالة، بيروت - الطبعة الثانية ١٩٨٦م- تحقيق / حمدي بن عبد المجيد السلفي ١/ ١٤٥ وضعفه الألباني - الضعيفة ٢ / ٥٩٦.

فقـد رفـع الإسـلام سـلمان فـارس وقد وضع الشرك الشريف أبا لهب[١]

وكم يكون ظلمًا للإسلام، ونكرانًا للأخوة، ومحادة لله والرسول أن يقول القوميون: إن المسلم الهندي أو الكردي أو الفارسي أو البربري أو الأندونيسي أو التركي.. ليسوا من قومنا، ولا يعتبرون من إخواننا.. لأنهم لا ينتسبون للعرب، ولا ينتمون إليهم؟ والإسلام جعل المؤمنين إخوة متحابين مهما تباعدت أقطارهم، وتباينت أجناسهم واختلفت لغاتهم.. للشعار الذي لا يتبدل: إنما المؤمنون إخوة، وللمبدأ الذي لا يتغير: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ وما أعظم الوحدة وما أقواها حينما تضم في ثناياها الملايين من غير العرب لكونهم يؤمنون جميعًا بإله واحد، وبنبي واحد، وبشريعة واحدة وينضوون جميعًا تحت راية واحدة، وخلافة راشدة، وبقعة من الأرض متصلة..» والأخوة في الله حققت الوحدة بين المسلمين سابقًا، ولن تتحقق اليوم إلا بها.

٢- تحقيق نعمة الله التي أمتن بها على عباده، المتمثلة في الألفة بين القلوب في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران: ١٠٣].

٣- انتشار الإسلام في أرجاء الأرض. لا شك أن الأخوة الإسلامية حينما تقوم على مفهوم العقيدة الربانية ورابطة الإسلام.. فإن أصحابها حينها ينطلقون في مواكب التحرير وفي كتائب الجهاد. ينطلقون بهمم عالية، وعزائم متوثبة، وطموحات متفائلة.. لينشروا رسالة الإسلام في الأرض، ونور الحق في العالمين، وقد وضعوا نصب أعينهم إحدى الحسنيين: إما

(١) ديوان علي بن أبي طالب، قصيدة بعنوان (بين الدين والنسب) صدر الإسلام في الوعظ، ص ٢٨.

النصر، وإما الشهادة.

وهذا ما حدا بالرعيل الأول من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان أن يخرجوا من محيطهم الضيق، ومن بيئتهم المحدودة إلى آفاق الأرض يمدنون الأمم، ويكرمون الإنسان، ويفرضون المعرفة، ويدكون عروش البغي والظلم، ويرسون في العالم قواعد المدنية والحضارة، ويطبعون في ضمير الزمن مبادئ الحرية والعدالة والمساواة.. ويخرجون الناس من عبادة العباد إلى عدل الإسلام..

٤- انبثاق حضارة إسلامية شاملة متنوعة، يسهم في بنائها كل كفء من المسلمين في تولي المناصب العلمية والدينية والسياسية.. وحري أن يشترك الجميع في بناء الحضارة الإسلامية الشاملة المتنوعة.. فالعربي والعجمي أخوان بأخوة الإسلام، تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم، وليس للأول على الثاني فضل إلا بالتقوى.. والرسول ﷺ أعطى لأصحابه وللأجيال المسلمة المتعاقبة.. القدوة العملية في مؤاخاة العرب مع غير العرب تحت ظلال العقيدة الإسلامية، ليسهم الأكفاء في تولي المناصب، ويشترك الجميع في بناء الحضارة وإظهار عظمة الإسلام..

فآخى عليه الصلاة والسلام بين بلال بن رباح الحبشي[١] وخالد بن رويحة[٢] وآخى بين مولاه زيد بن حارثة وعمه حمزة بن عبد المطلب القرشي: وآخى بين

(١) بلال بن رباح الحبشي المؤذن، وأمه حمامة، اشتراه أبو بكر الصديق من المشركين لما كانوا يعذبونه على التوحيد، فأعتقه، فلزم النبي ﷺ وأذن له، وشهد معه جميع المشاهد، وآخى النبي ﷺ بينه وبين أبو رويحة، ثم خرج بلال بعد النبي ﷺ مجاهدا إلى أن مات بالشام سنة ٢٠هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ١/ ٣٤٧).

(٢) خالد بن رويحة، ويقال ابن رباح الحبشي، أخو بلال المؤذن، يكنى أبا رويحة، أخو بلال في الإسلام لا في النسب، ولم يذكر تاريخ وفاته (أسد الغابة مرجع سابق ٢/ ٧٩).

خارجة بن زيد[١] وأبي بكر الصديق، وآخى بين عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان.. وقد أشرك عليه السلام كثيرًا من أولئك الموالي الأكفاء بعض الإدارات والمناصب الكبيرة.. فهو الذي عين بلالاً رضي الله عنه – وهو حبشي – واليًا على المدينة وفيها من وجوه القوم من لا ينكر أحد فضلهم ومآثرهم، وهو الذي سلم أسامة بن زيد وهو ابن مولى قيادة الجيش العامة، وفي الجيش كبار الصحابة كأمثال أبي بكر وعمر..

وهو الذي قال لأبي ذر[٢] وهو الحسيب النسيب - حين جاء يطلب الإمارة: «يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها»[٣].

فتبين من مواقفه هذه عليه الصلاة والسلام: أنه كان يسعى في أن يتفاعل المسلمون جميعًا على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم.. في بناء دولة الإسلام، وحضارة الإسلام، ومجد الإسلام.. دون أن يكون بين المسلمين استعلاء جنس على جنس، أو تطاول لون على لون، أو تميز لغة على لغة.

فانطلاقًا من هذه المساواة التي فرضها الإسلام على الأمة الإسلامية انصرف كثير من الموالي غير العرب إلى العلم والفقه، فبرعوا فيها حتى أصبحوا فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار.. بلا منازع، بل تولوا أعلى المناصب العلمية والدينية في الدولة الإسلامية.

---

(١) خارجة بن زيد بن ثابت، الفقيه الإمام، وأحد الفقهاء السبعة الأعلام، تابعي جليل - توفي سنة ٩٩هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٤/ ٤٣٧).

(٢) جندب بن جنادة الغفاري، أحد السابقين الأولين، من نجباء أصحاب محمد ﷺ قيل: كان خامس خمسة في الإسلام، مات سنة ٣٢هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ١/ ٤٦).

(٣) رواه مسلم، مصدر سابق – كتاب الإمارة – باب كراهة الإمارة بغير ضرورة ٣/ ١٤٥٧ برقم: ١٨٢٥.

٥- تحقيق التكافل الاجتماعي بين المسلمين، وذلك عندما يشعر المسلم أنه أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يتخلى عنه، وحين يستشعر أنه لا يؤمن حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه، وحين يستشعر أنه لا يؤمن إذا بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به، وحين يستشعر أنه مع الإخوة المؤمنين كالجسم الواحد في الآلام والآمال.

المسلم حين يستشعر في نفسه، ومن أعماق وجدانه كل هذه المعاني الأخوية الخالصة فإنه يندفع بكليته إلى تحقيق التعاون، والتكافل، والتراحم، والإيثار.. تجاه كل من تربطه بهم أخوة الإسلام، ومن تجمعه وإياهم آصرة الإيمان، ولا سيما إن كانوا بحاجة إلى من يكفكف لهم أحزانهم، ويواسيهم في ضرائهم، ويرعاهم في مصابهم، ويكفلهم في وقت عجزهم وافتقارهم. وهذا من أبسط حقوق الأخوة، ومن أظهر مقتضيات الإيمان.

٦- تحقيق مشاعر الأنس والمحبة، والتكاتف بين إخوة الإسلام والإيمان في كل مكان، بها تتحقق النصرة والموالاة والمواساة بالمال والنفس، فما أعظم هذه الفوائد، وما أحوج المجتمع المسلم اليوم إليها، لإصلاح حاله ولم شمله، والخروج من الفرقة والشتات، إلى الأخوة ولم الشمل، وجمع الكلمة، والحياة السعيدة بالأخوة لا بغيرها.

وهذا هو منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمعات، وإذا التزم الناس بالأخوة الإسلامية فإن الخلافات ستذوب وتنتهي، ويحل محلها الأمن والطمأنينة بين الإخوة، وتغيب الأثرة، ويظهر الإيثار، وما ذلك على الله بعزيز.



التربية الوقائية لحماية المجتمع من التمزق ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: حماية المجتمع المسلم من السخرية وعواملها وفيه خمسة مطالب.

المبحث الثاني: حماية المجتمع من سوء الظن والتجسس وفيه ستة مطالب.

المبحث الثالث: حماية المجتمع من الغيبة وفيه خمسة مطالب.

المبحث الأول: حماية المجتمع المسلم من السخرية وعواملها. وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الآيات وتمهيد وأسباب النزول.

المطلب الثاني: تعريف السخرية وبيان حكمها.

المطلب الثالث: أنواع السخرية وبواعثها .

المطلب الرابع: عوامل السخرية.

المطلب الخامس: مضار السخرية وعلاجها.

المطلب الأول: **الآيات وتمهيد وأسباب النزول:**

المسألة الأولى: الآيات:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

[الحُجُرات: ١١- ١٢]

المسألة الثانية: تمهيد:

لما أمر الله سبحانه وتعالى في الآيات السابقة بإصلاح ذات البين، ونهى عن التفرق، وأخبر عن عقد الأخوة الذي ربطه الله برباط الإيمان الوثيق، عقب في هذه الآيات الكريمات بالنهي عن أسباب الفرقة التي تؤدي إلى الشقاق والمشاحنات والبغضاء.

فالسخرية بالخلق، والازدراء بالناس، والهمز واللمز، والتنابز بالألقاب، وسوء الظن، والتجسس، والغيبة، ما هي إلا عوامل للفساد، ومعاول لهدم الأخوة بين المؤمنين البررة، لذا نهى الله عز وجل في هذه الآيات الكريمات عن هذه العوامل

المهلكة المكدرة لصفو المجتمع، والتي تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب[1]، وهذه القبائح الاجتماعية الست، من شأنها بذر بذور الفرقة والعداوة والبغضاء، لما فيها من إيذاء وإضرار بالآخرين، وهي قبائح تشتمل على ظلم من الإنسان لأخيه الإنسان، وكل ظلم من شأنه أن يورث العداوة والبغضاء، ويوقع الفرقة بين الجماعة الواحدة، ومنهج القرآن الكريم ينهى عن هذه القبائح بصور مختلفة لخطورتها على المجتمع المسلم.

ويلاحظ أن كل نهي في هذا النص قد انفرد بلون تعبيري ذي دلالة خاصة قابلة لأن تكون شاملة للمنهيات الأخرى:

١- **فالسخرية:** تغلب فيها المشاركة الجماعية، إذ الساخر يضحك بسخريته الآخرين ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾.

٢- **واللمز:** يغلب فيه الطابع الفردي الخفي الذي يدركه أهل النباهة: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾.

٣- **والنبز باللقب:** تغلب فيه المشاركة، فمن نُبزَ نَبزَ، كالتقاتل: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾.

٤- **وظن السوء بالناس:** حركة نفسية يكون لها آثار مادية في الاتهام: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟﴾.

٥- **والتجسس:** يغلب فيه العمل الفردي ضد فرد أو جماعة فجاء النهي عامًا ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾.

---

(١) الصواف.. مصدر سابق ص ١٠٨.

٦- **والغيبة ظاهرة** جماعية يؤذي الناس بها بعضهم بعضًا في غيبتهم، فهي كالتنابز ولكنها حركة جماعية مختلطة لا مواجهة فيها﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[١].

وسيكون الكلام عن هذه الأمراض الست بالتفصيل في هذا الفصل إن شاء الله.

المسألة الثالثة: أسباب النزول:

قال الضحاك: نزلت في وفد بني تميم الذي تقدم ذكرهم في أول البحث، استهزؤوا بفقراء الصحابة؛ مثل عمار[٢] وخباب[٣] وبلال وصهيب[٤] وسلمان[٥] وسالم[٦] مولى أبي حذيفة وغيرهم؛ لما رأوا من رثاثة حالهم؛ فنزلت في الذين آمنوا

(١) الأخلاق الإسلامية - مصدر سابق ٢/ ٢٣٢.

(٢) عمار بن ياسر بن عامر بن مالك العنسي أبو اليقظان، مولى بني مخزوم، صحابي جليل مشهور، من السابقين الأولين، ممن عذبوا في مكة مع أبيه وأمه سمية، فكان النبي ﷺ يمر عليهم فيقول: صبرا آل ياسر موعدكم الجنة، بدري، قتل بصفين سنة ٣٧هـ. (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٤٠٦).

(٣) خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد التميمي، سبي في الجاهلية فبيع بمكة، فكان مولى أم نمار الخزاعية، وكان من السابقين الأولين، وقيل أنه أسلم - سادس ستة - وهو أول من أظهر إسلامه وعذب عذابا شديدا، لأجل ذلك توفي سنة ٣٧ هـ (الإصابة مصدر سابق ٢/ ٩٨).

(٤) صهيب بن سنان الرومي أبو يحيى، أصله من النمر، يقال كان اسمه عبد الملك، وكان أبوه أو عمه عاملا لكسرى على الأيلة، فسبت الروم صهيبا وهو غلام، فنشأ بينهم، وهو صحابي شهير، مات بالمدينة سنة ٣٨هـ في خلافة علي، وقيل قبل ذلك (المصدر نفسه ٣/ ٤٤٩).

(٥) سلمان الفارسي أبو عبد الله، أصله من رامهرمز وكان قد سمع بأن النبي ﷺ سيبعث فخرج في طلب ذلك، فأسر وبيع بالمدينة، فأشتغل بالرق حتى كان أول مشاهده الخندق وشهد بقية المشاهد، عن أبي بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ قال إن الله يحب من أصحابي أربعة، فذكره فيهم، توفي سنة ٣٥ هـ (المصدر نفسه ٢/ ٣٢٨).

(٦) سالم بن معقل مولى أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة واسم أبي حذيفة هشيم، وكان سالم لبثينة بنت يعار الأنصارية فأعتقته، وكانت تحت أبي حذيفة فتولى أبا حذيفة وتبناه أبو حذيفة، شهد بدرا، وأمر النبي أصحابه أن يستقرئوا القرآن من أربعة هو أحدهم، وكان سالم يؤم المهاجرين بقباء قبل أن يقدم النبي ﷺ وفيهم عمر بن الخطاب (المصدر نفسه ٣/ ١٣).

منهم. وقال مجاهد: هو سخرية الغني من الفقير.

وقيل: لا يسخر من ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله؛ فلعل إظهار ذنوبه في الدنياخير له في الآخرة.

وقيل: نزلت في عكرمة بن أبي جهل[1] حين قدم المدينة مسلمًا؛ وكان المسلمون إذا رأوه قالوا ابن فرعون هذه الأمة، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت.

وقيل نزلت في امرأتين من أزواج النبي ﷺ سخرتا من أم سلمة، وذلك أنها ربطت خصريها بسبيبة ـ وهو ثوب أبيض- وسدلت طرفيها خلفها فكانت تجرها؛ فقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما: انظري! ما تجر خلفها كأنه لسان كلب؛ فهذه كانت سخريتهما.

وقال أنس وابن زيد: نزلت في نساء النبي ﷺ عيرن أم سلمة بالقصر.

وقيل: نزلت في عائشة، أشارت بيدها إلى أم سلمة: يا نبي الله إنها لقصيرة.

وقال عكرمة عن ابن عباس: إن صفية بنت حيي بن أخطب أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء يعيرنني، ويقلن لي يا يهودية بنت يهوديين!

فقال رسول الله ﷺ: «هلا قلت إن أبي هارون وإن عمي موسى وإن زوجي محمد»[2] فأنزل الله هذه الآية[3].

---

(١) عكرمة بن عمرو بن هشام القرشي المخزومي، أبو عثمان المكي اسلم وحسن إسلامه، واستشهد يوم اليرموك سنة ١٥هـ وفيه بضعٌ وسبعون طعنة، بين ضربة بسيف ورمية برمح (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ١/ ٣٢٣)

(٢) رواه الترمذي وأبو يعلى والحاكم، وقال الترمذي: حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي، وليس إسناده بذلك القوي، سنن الترمذي ٥/ ٧٠٨ برقم: ٣٨٩٢.

(٣) أنظر هذه الأقوال في تفسير القرطبي، مصدر سابق ١٦/ ٣٢٥/ ٣٢٦.

وعن أبى جبيرة[1] قال: فينا نزلت هذه الآية، في بني سلمة ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ﴾ قال: قدم رسول الله ﷺ وليس منا رجل إلا وله اسمان أو ثلاثة؛ فجعل رسول الله ﷺ يقول يا فلان فيقولون مه يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم[2] فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ﴾. فهذا قول.

وقال الحسن ومجاهد: كان الرجل يعير بعد إسلامه بكفره، يا يهودي يا نصراني؛ فنزلت[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ﴾ قيل إنها نزلت في رجلين من أصحاب النبي ﷺ اغتابا رفيقهما، وذلك أن النبي ﷺ كان إذا سافر ضم الرجل المحتاج إلى الرجلين الموسرين فيخدمهما، فضم سلمان إلى رجلين، فتقدم سلمان إلى المنزل فغلبته عيناه فنام ولم يهيىء لهما شيئًا، فجاءا فلم يجدا طعامًا وإدامًا، فقالا له: انطلق فاطلب لنا من النبي ﷺ طعامًا وإدامًا؛ فذهب فقال له النبي ﷺ: «اذهب إلى أسامة بن زيد، فقل له إن كان عندك فضل من طعام فليعطك» وكان أسامة خازن النبي ﷺ فذهب إليه، فقال أسامة: ما عندي شيء؛ فرجع إليهما فأخبرهما؛ فقالا: قد كان عنده ولكنه بخل، ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة فلم يجد عندهم شيئًا؛ فقالا: لو بعثنا سلمان إلى بئر سميحة لغار ماؤها ثم انطلقا يتجسسان هل عند

---

(١) أبو جبيرة بن الضحاك بن خليفة الأنصاري الأشهلي لا يعرف اسمه، وقيل هو أخو ثابت بن الضحاك، له صحبة، وقال بعضهم: لا صحبة له روى عن النبي عدة أحاديث، ولم يذكر تاريخ وفاته (الإصابة، مصدر سابق ٧/ ٦٣).

(٢) رواه أحمد، مصدر سابق ٤/ ٦٩ برقم: ١٦٦٩٣ورواه الحاكم ٤/ ٣١٤ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه الترمذي والذهبي، انظر الصحيحة ٢/ ٤٤٩.

(٣) القرطبي، مصدر سابق ١٦/ ٣٢٨.

أسامة شيء؛ فرآهما النبي ﷺ فقال: «ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما» فقالا: يا نبي الله، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحمًا ولا غيره، فقال: «ولكنكما ظللتما تأكلان لحم سلمان وأسامة»[(١)] فنزلت[(٢)].

المطلب الثاني: **تعريف السخرية وحكمها:**

المسألة الأولى: تعريف السخرية لغة واصطلاحًا:

السخرية في اللغة:

هي الاسم من الفعل «سَخَرَ» والمصدر من ذلك هو «السخر، والمسخر والسخر بالضم».

قال أعشى بأهله:

إنـــي أتـــتني لســـان لا أســـر بهـــا   من علو لا عجـب منـه ولا سـخرُ[(٣)]

وكل ذلك مأخوذ من مادة «سَ خَ رَ» التي تدل على «احتقار واستذلال»، ومن ذلك أيضا قولهم: سخر الله- ﷻ- الشيء، وذلك إذا ذلله لأمره وإرادته. ومن الباب سخرت منه: إذا هزئت به، وفي كتاب الله ﷻ: ﴿فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]. ويقال: سخرت منه وسخرت به، كما يقال: ضحكت منه، وبه وهزئت منه، وبه[(٤)].

---

(١) المصدر نفسه ١٦/ ٣٣٠ وقال ذكره الثعلبي وهو ضعيف.

(٢) المصدر نفسه ١٦/ ٣٣٦.

(٣) بغية الطلب في تاريخ حلب – كمال الدين عمر بن أبي جراده – دار الفكر بيروت – الطبعة الأولى ١٩٨٨م – ٤/ ١٨٩٩.

(٤) لسان العرب، مصدر سابق ٤/ ٣٥٢- ٣٥٣.

السخرية في الاصطلاح:

السخرية هي استزراء العقل معنىً، بمنزلة التسخير في الفعل حسّا. والسخرية تكون من شيء يحق عند صاحبه ولا يحق عند الساخر[1].

ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة[2].

وقد تكون السخرية بالضحك على كلام المسخور منه إذا تخبط فيه أو غلط أو على صنعته أو قبح صورته، حتى ولو كان الساخر أيا كان شأنه ولو كان أجمل خلق الله، أو أكبر رأس في البلد، أو أجمل أو أغنى رجل أو امرأة، فلا يجوز له أن يسخر من المؤمنين بأي شكل من الأشكال.

المسألة الثانية/حكم السخرية:

هي محرمة مهما كانت مؤذية، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: ١١]. وقالت عائشة - رضي الله عنها -: حاكيت إنسانًا فقال النبي ﷺ: «والله ما أحب أنى حاكيت إنسانًا ولي كذا وكذا»[3].

وقال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا

---

(١) نضرة النعيم، مصدر سابق ١٠/ ٤٦٠٣.

(٢) إحياء علوم الدين.. حجة الإسلام أبي حامد الغزالي – عالم الكتب – بدون طبعة ٣/ ١١٢.

(٣) رواه الترمذي، مصدر سابق ٤/ ٦٦٠ برقم ٢٥٠٢ وقال: حديث حسن صحيح، وقال الألباني: هذا سند صحيح على شرط مسلم، أنظر الصحيحة ٢/ ٥٦٩ برقم: ٩٠١.

ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف: ٤٩]. قال: «الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن، والكبيرة القهقهة بذلك»[١] وهذا إشارة إلى الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر.

وعن عبد الله بن زمعة[٢] رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي ﷺ وهو يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال: «لم يضحك أحدكم مما يفعل»[٣].

وقال ﷺ: «من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله»[٤].

وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه، استهانة به واستصغارًا له وعليه نبه تعالى بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ أي لا تستحقره استصغارًا، فلعله خيرٌ منك وهذا إنما يحرم في حق من تأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة، وربما فرح من أن يسخر به، كانت السخرية في حقه من جملة المزاح، وإنما المحرم استصغارًا يتأذى به المستهزأ به، لما فيه من التحقير والتهاون، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم أو على أفعاله إذا كانت مشوهة، كالضحك على خطه وعلى صنعته، أو على صورته وخلقته، إذا كان قصيرًا أو ناقصًا لعيب من العيوب، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها[٥].

---

(١) الدر المنثور، مصدر سابق ٥/ ٤٠١.

(٢) عبد الله بن زمعة بن أسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزي القرشي الأسدي، صحابي له أحاديث في الصحيح، توفي سنة ٣٥هـ (الإصابة مصدر سابق ٤/ ٩٥).

(٣) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب التفسير – باب تفسير لا أقسم بهذا البلد ٤/ ١٨٨٨ برقم ٤٦٥٨.

(٤) رواه الترمذي، مصدر سابق ٤/ ٦٦١ برقم ٢٥٠٥ وقال: حديث حسن غريب. وقال السيوطي: موضوع، فيض القدير ١١/ ٥٩١٩، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص ٨٢٣ - برقم: ٥٧١٠.

(٥) إحياء علوم الدين ... مصدر سابق ص ٣/ ١١٣.

وقال ابن كثير في تفسير الآية: «ينهى الله تعالى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «.. الكبر بطر الحق وغمط الناس»[(١)] والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المحتقر أعظم قدرًا عند الله تعالى وأحب إليه من الساخر منه المحتقر له، ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: ١١] [(٢)].

المطلب الثالث: أنواع السخرية وبواعثها:

إن السخرية قد ورد بيانها في كتاب الله تعالى، كما وردت أوصاف الساخرين والمسخور منهم، وسبب السخرية، اثنتين وأربعين مرة في إحدى وعشرين سورة وكل ذلك يدور في القرآن الكريم ويقصد به أربعة معانٍ[(٣)]:

الأول: التذليل: وهو معنى التسخير، كقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ﴾ [الجاثية: ١٣].

الثاني: التسليط: وهو من معاني التسخير، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ [الحاقة: ٦ - ٧].

الثالث: الاستهزاء: وهو معنى ما في سورة الحجرات، وكقوله تعالى: ﴿وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [البقرة: ٢١٢].

---

(١) رواه مسلم مصدر سابق – كتاب الإيمان – باب تحريم الكبر وبيانه ١/ ٩٣ برقم: ٩١.

(٢) تفسير ابن كثير مصدر سابق ٤/ ٢٢٧.

(٣) منهج الدعوة ...... مصدر سابق ص ٣٨٦.

الرابع: الاستخدام: كقوله تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزُّخرُف: ٣٢].

فكل الصيغ الواردة في القرآن تعود إلى تلك المعاني الأربعة، وإليها يعود معنى مادة «سخر».

وأخطر هذه المعاني: السخرية بمعنى الاستهزاء، وهو المقصود في سورة الحجرات.

إن السخرية تنافي ما يوجبه الحق، وهي ظلم قبيح من الإنسان لأخيه الإنسان وعدوان على كرامته، وإيذاء لنفسه وقلبه، ومن آثارها أنها تقطع الروابط الاجتماعية القائمة على الأخوة والتوادد والتراحم، وتبذر بذور العداوة والبغضاء وتولد الرغبة بالانتقام، ثم أعمال الانتقام، ما استطاع المظلوم بها إلى ذلك سبيلا.

وإذا بحثنا في دوافع الإنسان من السخرية من أخيه الإنسان، وجدناها ترجع إلى الكبر الذي يلازمه، بطر الحق وغمط الناس، وإلى الرغبة بتحطيم مكانة الآخرين استئثارًا بالمكانة، أو مقاومة أفكارهم وأعمالهم بالباطل، لصد الناس عن تقديرها أو الأخذ بها، أو ترجع إلى الرغبة بالتسلية والضحك على حساب آلام الآخرين الناشئة عن احتقارهم، واستصغارهم، وازدرائهم، والاستهانة بأقوالهم، أو أعمالهم، أو خلقهم أو طبائعهم، أو أسرارهم، أو أنسابهم، أو قومياتهم، وعناصرهم وأصولهم، أو لغاتهم وعاداتهم، وأزيائهم إلى أشباه ذلك.

وهذا التحقير والاستصغار الذي تعبر عنه السخرية إما أن يكون له من ظاهر ما يسخر منه مبرر، وإما أن لا يكون له مبرر مطلقًا، وإنما كانت السخرية لونًا من ألوان المقاومة العدوانية لذات الشخص المسخور منه، أو لفكرته، أو لعمله، وكلا الأمرين ظلم قبيح، وعدوان منكر[1].

---

(١) الأخلاق الإسلامية.. مصدر سابق ٢/ ٢٣٣.

وإذا كان الساخر يسخر من خلقة أخيه الجسدية أو الطبيعية، فإنه يسخر من أمر لا يملك المسخور منه تعديله، ولو أن الله ﷻ خلق هذا الساخر كذلك لما كان ملك من أمره شيئًا، ولو أن الله ابتلى هذا الساخر بمصيبة جعلت عنده عيبًا يسخر منه السالمون لما ملك من أمره شيئًا، فالسخرية من عيب في أصل الخلقة يحمل في مضمونه الاعتراض على الخالق، وللخالق في ابتلائه لعباده ألوان.

ثم إن المسخور منه للعيب الذي ابتلاه الله به في أصل التكوين، أو في عوارض المصائب، وربما يكون في دخيلة نفسه، أو في خلقه وعمله خيرًا وأفضل من الساخر بكثير، فليست ميز الإنسان وفضائله محصورة في حدود جسده، أو بعض أعماله، بل توجد فيه أمور أعظم من ذلك، هي عقله، وإيمانه، وطهارة قلبه، وتقواه وابتغاؤه الخير وجوده، وإحسانه، إلى غير ذلك من أمور كثيرة ......

وهذا ما دل عليه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: ١١].

وإذا كان الساخر يسخر من أسرة أخيه، أو من نسبه، أو قوميته، أو عنصره، أو لغته، أو عادات قومه، أو أزيائهم، فهو يسخر أيضًا من أمر لا يملكه المسخور منه، لأنها تدخل ضمن سلطة القدر الجبري، وهو أيضا يحمل في مضمونه الاعتراض على الخالق في مقاديره، وما يبتلي به عباده[1].

وإذا كان الساخر يسخر من عمل أخيه، وإنتاجه لما فيه من نقص أو عيب، فهو إما أن يسخر من ملكات فطرية لا يملك المسخور منه تعديلها، وإما أن يسخر من تقصيره وإهماله. أما السخرية من الملكات الفطرية فهي اعتراض على المقادير،

---

(١) المصدر نفسه.. ٢/ ٢٣٤.

وأما السخرية من الإهمال والتقصير في العمل ففيها ادعاء ضمني أن الساخر لا يقع بمثل هذا التقصير أو الإهمال، مع أن الواقع قد يشهد بأن الساخر الذي سخر منه ربما لا يستطيع الساخر عمل مثله، لأنه أعجز من ذلك، وعلى فرض قدرته على ما هو أحسن، فإن سخريته ذات تأثير سيء على روابط الأخوة الإيمانية، وعلى حق الإنسان على أخيه الإنسان، والسخرية هي التعيير، وقد جاء في الحديث:« من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله»[1].

وفي الحديث الآخر: «ما أحب أني حكيت أحدا، وأن لي كذا وكذا»[2].

وإذا كانت السخرية لا مبرر لها مطلقا، كسخرية الكافرين من المؤمنين، وكسخرية العصاة من المتقين، وكسخرية الناقصين من الكاملين لتغطية نقصهم وغمط كمال أهل الكمال، فهي سخرية غاية في القبح والظلم والعدوان والشناعة.

ومن كل هذا يظهر لنا أن أخف أنواع السخرية يقال فيها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [**الحجرات: ١١**].

ونتساءل عن الحكمة من النهي عن سخرية الرجال من الرجال والنساء من النساء، دون أن يأتي النص عاما كأن يقول: لا يسخر بعضكم من بعض!! كما جاء في الغيبة:

﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾؟[3].

---

(١) الترمذي، سبق تخريجه ص ١٣٦.

(٢) المصدر نفسه، سبق تخريجه ص ١٣٦.

(٣) الأخلاق الإسلامية، مصدر سابق ٢/ ٢٣٥.

ويمكن أن نجيب بأن السبب في ذلك يرجع إلى نقطتين إحداهما نفسية، والأخرى اجتماعية خاصة بالمجتمع الإسلامي:

أما الناحية النفسية: فترجع إلى الغالب في النساء أنهن لا يسخرن من الرجال، وأن الرجال لا يسخرون من النساء، فدافع السخرية النفسي يكون من الرجال للرجال، ومن النساء للنساء، وإن حصل شيء على خلاف هذا فهو نادر، إذ عامل التعاطف بين الجنسين يمنع السخرية من أحدهما بالآخر، وأيضا فهو يعف الرجل عن أن يسخر بالمرأة لأنه لا يعتبرها عنصرًا منافسًا له اجتماعيًا، وتأبى المرأة أن تسخر من الرجل لأنها تعطف عليه، وتشعر فيه معنى القوة والقوامة، ولا ترى فيه منافسا لها مهما كان شأنه.

وأما الناحية الاجتماعية الخاصة بالمجتمع الإسلامي: فالأصل في هذا المجتمع أن لا يكون مجتمعا مختلطا بين الجنسين، والسخرية في الغالب تكون مع المواجهة والمخالطة[1].

المطلب الرابع: عوامل السخرية:

المسألة الأولى: الهمز واللمز من السخرية:

قال سفيان: الهمزة: الذي يهمز بلسانه، واللمزة: الذي يلمز بعينيه، وقال ابن كيسان: الهمزة: الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة: الذي يكسر عينه على جليسه ويشير بعينيه ورأسه وبحاجبيه «سخرية به»[2].

وقيل: الهمز هو السخرية من الناس بالإشارة كتحريك اليد قرب الرأس

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٢٣٦.

(٢) القرطبي، مصدر سابق ٢٠/ ١٨٢.

إشارة إلى الوصف بالجنون، أو الوغض بالعين رمزًا للاستخفاف، ونحو ذلك من الحركات، واللمز: هو السخرية من الناس بالقول، كتسمية الشخص باسم يدل على عاهة فيه أو مرض، أو اتهامه بخليقة سيئة، أو التعريض بذلك.

ورب لمز خفي هو أشد من طعن صريح، وأعمق جرحًا في داخل النفس، لأن فيه بالإضافة إلى الطعن والتجريح بالعيب معنى استغباء الملموز واستغفاله، فكأن اللآمز يشعر الذين في المجلس أن الملموز غبي لا ينتبه إلى الطعن الذي يوجه ضده في رمز الكلام، واللمز قبيحة اجتماعية تورث الأحقاد والأضغان، وتقطع أواصر الأخوة الإيمانية، وهو ظلم من الإنسان لأخيه الإنسان، وعدوان على حقه عليه.

ومن حق المؤمن على أخيه المؤمن أن يستر عيوبه، وإذا كان العيب نقيصة إرادية فدور المؤمن أن يكون ناصحًا في السر لأخيه، لا فاضحًا له ولا ناشرًا لعيوبه، لا بصريح اللفظ ولا برمزه ومعار يضه ودلا لته المغلفة.

وكم يقع في مجالس الناس هذا اللمز، وكم يؤذي الناس بعضهم بعضًا به، وكم يوّلد فيهم أحقادا ورغبات انتقام، وكم يثير بينهم غضبا وعداوات.

من أجل ذلك نهى الله عنه نهي تحريم، واعتبر ارتكابه من الفسوق، وجعل الإصرار عليه وعدم التوبة منه ظلما، فقال تعالى في آخر الآية: ﴿بِئْسَ ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١]. أي: بئس أن يرتكبوا عملا يطلق عليهم بسببه اسم الفسوق، بعد أن تحلوا باسم الإيمان الذي هو أشرف الأسماء وأكملها بالنسبة لهم.

وفي النهي عن اللمز قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ ونتساءل هنا فنقول: لم لم يقل: ولا يلمز بعضكم بعضًا؟ وإنما قال: ولا تلمزوا أنفسكم؟

ويمكن أن نجيب بأمرين:

الأول: لما كان المجتمع الإسلامي في مفهوم الإسلام بمثابة الجسد الواحد، كان من يلمز أخاه المسلم بمثابة من يلمز نفسه.

الثاني: من يلمز غيره يعرض نفسه للانتقام منه باللمز، فهو إذ يلمز الناس يتسبب في أن يلمزوه، فكأنه لمز نفسه.

واقتصر النص على هذه الجملة في أداء هذين المعنيين ضمن ما نهى عنه من السخرية والتنابز بالألقاب والغيبة، ليقاس الباقي عليها، ولتؤدي كل جملة نهت عن أمر معنى يصلح لأن يعمم على الجميع عن طريق القياس، ويستغني بهذا عن تكرير كل فكرة مع كل منهي عنه[١].

المسألة الثانية: التنابز بالألقاب من السخرية:

التنابز بالألقاب هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة، وعم الله بنهيه ذلك، ولم يخصص بعض الألقاب دون بعض، وغير جائز لأحد من المسلمين أن ينبز أخاه باسم يكرهه أو صفة يكرهها[٢].

ولما كانت آية السخرية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ ....﴾ [الحجرات: ١١].

فيما يقوله أنس وابن زيد نزلت في نساء النبي ﷺ عيرن صفية بالقصر، وقيل نزلت في عائشة - رضي الله عنها - أشارة بيدها إلى صفية قائلة: يا نبي الله إنها لقصيرة، وقال عكرمة وابن عباس إن صفية بنت حيي قالت: يا رسول الله إن

(١) الأخلاق الإسلامية مصدر سابق ٢/ ٢٣٦.

(٢) تفسير الطبري مصدر سابق ٢٦/ ٣٩٢.

النساء يعيرنني ويقلن لي: يا يهودية ....الخ الحديث.

كل ذلك يدل على أن التنابز بالألقاب إنما هو داخل في مفهوم السخرية، كما دخل فيها مفهوم الهمز واللمز، ومن ثم يكون ذكر اللمز والتنابز بعد ذكر السخرية من قبيل ذكر الخاص بعد العام اهتمامًا به، ونظير ذلك قوله تعالى:

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]. إذ النخل والرمان من الفاكهة أيضًا.

والتنابز بالألقاب هو التداعي بالألقاب، والمراد من ذلك الألقاب التي فيها ذم أو هزء أو تحقير أو شيء مما يكره الإنسان أن ينبز به.

وجاء في الحديث: «أن رجلاً يُنبزُ قرقورًا، أي يلقب بقرقور»[1].

ولما كان التنابز بالألقاب التي من هذا القبيل مما يؤذي الناس، إذ يحمل معنى التحقير والإهانة، نهى الله عنه، وجعله من المحرمات، وجعله من الفسوق ومن الظلم، وربما يصل التنابز بالألقاب إلى مستوى الشتيمة، كالنبز بالحمار والثور والكلب ونحو ذلك، ومن شأن التنابز بالألقاب أنه يقطع أواصر الأخوة الإيمانية، ويفسد المودات ويولد العداوات والأحقاد، وربما يوصل إلى التقاتل مع ثوران الغضب وهيجان الحماقات[2].

وهذا مما يعارض منهج القرآن الكريم في إصلاح الجوانب الاجتماعية حيث إنه يؤدي إلى الفرقة والشتات، وتقسيم المجتمع إلى طوائف متحاربة متناحرة بعيدة عن المنهج الإسلامي الذي يرغب في كل ما يجمع ويوحد، ويحذر من كل ما يفرق ويشتت.

---

(١) رواه أحمد، مصدر سابق٤/ ٢٧٥ برقم: ١٨٤٤٨. ورواه الدارمي ٢/ ٢٣٨ وضعفه الألباني، ضعيف سنن النسائي ص ٢١٦.

(٢) الأخلاق الإسلامية.. مصدر سابق ٢/ ٢٣٧.

المطلب الخامس: مضار السخرية وعلاجها:

المسألة الأولى: مضار السخرية وعواملها:

١- السخرية مخالفة صريحة لأمر الله ﷻ، وجالبة لسخطه، ومستوجبة لعذابه، ونذير شؤم للساخرين، فقد كان الغرق عاقبة قوم نوح الذين كفروا بالله وسخروا من نوح.

٢- السخرية تفكك عرى المجتمع، وتجعل المستسخر به ناقمًا على الساخر متربصا به يحاول الانتقام لنفسه.

٣- الساخر يظلم نفسه بتحقير من وقره الله ﷻ، واستصغار من عظمه، وهو إنما يسخر ويلمز نفسه لأن المؤمنين كرجل واحد.

٤- السخرية انتهاك صريح لحقوق الإنسان عامة، ومخلة لمبدأ تكريم الإنسان على وجه الخصوص، وسبب لسخرية الله ﷻ وأنبيائه الكرام من الساخر.

٥- السخرية تميت القلب وتورثه الغفلة، وتنسي الإنسان ذكر الله، وبذلك يخسر نفسه، ويلقي بها في النار يوم القيامة، ويندم حيث لا ينفع الندم.

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزُّمَر: ٥٦].

٦- السخرية وما في معناها من الاستهزاء بالضعفاء والمساكين، والتحقير لهم، والازراء عليهم، كل ذلك مبعد من الله ﷻ، وداء من أدواء الجاهلية يجب تجنبه، والابتعاد عنه.

٧- في ارتكاب السخرية اقتراف أمر محرم نهى عنه الشرع الحنيف، على الساخر أن يتوقع عقوبته في الدار العاجلة بأن يحدث له مثل ما حدث للمسخور منه[1].

---

(١) نضرة النعيم مصدر سابق.. بتصرف ١٠/ ٤٦١٤.

المسألة الثانية: علاج السخرية وعواملها:

علاج معظم الأمراض الاجتماعية ومنها السخرية وعواملها يتوقف على مراقبة الله تعالى، واستعداد الفرد المسلم لقبول الحق، مهما كان المرض محببا إلى نفسه أو متعودا عليه، وأهم نقاط العلاج هي:

١- تربية ملكة التقوى لدى الناس، الساخر منهم والمستمع، ومراقبة الله تعالى في النفس، فان هذه الملكة لها دور كبير في التخلص من هذه العيوب والآفات، والتحلي بالفضائل والمنجيات والاستعانة واللجوء إلى الله: أن يأخذ بيده، وأن يطهره من هذه الآفة، وأن يقيه شر الوقوع فيها مرة أخرى.

٢- المبادرة بعدم السكوت على الساخر، والضحك معه كما يفعل الكثير.

٣- تنقية المجتمع من السخرية وعواملها، ويعتبر ذلك جزءًا من الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

٤- دوام النظر في سير السلف، وطريقتهم في مواجهة المعاصي، ومنها السخرية وعواملها، والاقتداء والتشبه بهم في ذلك.

٥- أن يضع الساخر نفسه مقام المسخور به.

وتنفيرًا من هذه القبائح الاجتماعية (السخرية - واللمز - والتنابز بالألقاب) أبان الله أن من يتصف بها من المؤمنين يحمل وصف الفسوق بعد وصف الإيمان، وبئس هذا الوصف، فقال تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾، إن من آمن، فحمل وصف الإيمان الشريف، من القبيح به جدا أن يدنس نفسه بوصف الفسوق بعد ذلك، إنه هبوط قبيح بعد ارتقاء جميل، وتسفل دنيء بعد اعتلاء قمة مجدٍ عالية، وتدنيس فاحش لأعظم رداء هو رداء الإيمان.

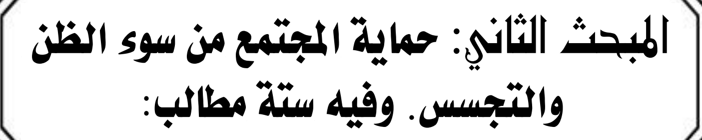
ولما كانت هذه القبائح التي تقذف مرتكبيها إلى دركة الفسوق تدخل في دائرة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

ظالمون لإخوانهم في العدوان عليهم، وظالمون لأنفسهم بتعريضها لعقاب الله في جزائه العادل[1].

هذا الترهيب والتحذير من الوقوع في هذه المنكرات، لأن المجتمع الإسلامي ينبغي أن يكون مجتمعًا الغالب فيه قيام الأخلاق الفاضلة التي تدعو إلى التماسك والترابط، وهذا منهج القرآن الكريم في التحذير من كل ما يمزق روابط المجتمع، والترغيب في كل ما يقوي عرى المحبة والأخوة، ولا يعني هذا عدم ظهور هذه الأمراض فقد ظهرت في أصلح المجتمعات، وعند خير القرون، لأن الناس بشر يخطئون ويذنبون، ولكن إذا وقعت وقف لها الناصحون والمصلحون يعالجونها بكل ما يستطيعون، ويردون الناس إلى الصواب حتى يصبح المجتمع الإسلامي خير المجتمعات البشرية على الإطلاق.

---

(١) الأخلاق الإسلامية.. مصدر سابق ٢/ ٢٣٨.



المبحث الثاني: حماية المجتمع من سوء الظن والتجسس. وفيه ستة مطالب:

المطلب الأول: تمهيد.

المطلب الثاني: تعريف الظن لغة واصطلاحًا.

المطلب الثالث: أنواع الظن.

المطلب الرابع: تعريف التجسس لغة واصطلاحًا.

المطلب الخامس: التجسس المشروع وغير المشروع .

المطلب السادس: توعية المجتمع من خطر التجسس.

المطلب الأول: **تمهيد:**

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ١٢].

هذه الآية تقيم سياجًا آخر لهذا المجتمع الفاضل الكريم، حول حرمات الأشخاص وكراماتهم وحرياتهم، بينما هي تعلم الناس كيف ينظفون مشاعرهم وضمائرهم، في أسلوب مؤثر عجيب.

ولكن الأمر لا يقف في الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضيء في تربية الضمائر والقلوب، بل إن هذا النص يقيم مبدءًا في التعامل، وسياجًا حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف، فلا يؤخذون بظنة، ولا يحاكمون بريبة؛ ولا يصبح الظن أساسًا لمحاكمتهم. بل لا يصح أن يكون أساسًا للتحقيق معهم، ولا للتحقيق حولهم والرسول ﷺ يقول: «إذا ظننت فلا تحقق»[1] ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء مصونة حقوقهم، وحرياتهم، واعتبارهم، حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه. ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم ثم يستطرد في ضمانات المجتمع إلى مبدأ آخر يتصل باجتناب الظنون: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ ...﴾.

والتجسس قد يكون هو الحركة التالية للظن؛ وقد يكون حركة ابتدائية

(١) أخرجه الطبراني، مصدر سابق ٣/ ٣٢٨ برقم: ٣٢٢٧ وقال ابن حجر في فتح الباري: هذا مرسل أو معضل ١٠/ ٢١٣ وضعفه السيوطي وقال المناوي لكن له شواهد، أنظر فيض القدير، مصدر سابق ١/ ٧٨٣-٧٨٤.

لكشف العورات، والاطلاع على السوءات.

والقرآن يقاوم هذا العمل الدنيء من الناحية الأخلاقية، لتطهير القلب من مثل هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين، وكشف سوءاتهم، تمشيًا مع أهدافه في نظافة الأخلاق والقلوب.

إن للناس حرياتهم وحرماتهم وكراماتهم التي لا يجوز أن تنتهك في صورة من الصور، ولا أن تمس بحال من الأحوال.

ففي المجتمع الإسلامي الرفيع الكريم يعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم. ولا يوجد مبرر - مهما يكن - لانتهاك حرمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات. حتى ذريعة تتبع الجريمة وتحقيقها لا تصلح في النظام الإسلامي ذريعة للتجسس على الناس. فالناس على ظواهرهم، وليس لأحد أن يتعقب بواطنهم. وليس لأحد أن يأخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم وليس لأحد أن يظن أو يتوقع، أو حتى يعرف أنهم يزاولون في الخفاء مخالفة ما، فيتجسس عليهم ليضبطهم! وكل ما له عليهم أن يأخذهم بالجريمة عند وقوعها وانكشافها مع الضمانات الأخرى التي ينص عليها بالنسبة لكل جريمة.

أُتي ابن مسعود فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا، فقال عبد الله: إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ به[1].

---

(١) رواه أبو داود، مصدر سابق ٤/ ٢٧٢ برقم:٤٨٩٠ ورواه الطبراني في المعجم الكبير ٩/ ٣٥٠.. وذكره ابن أبي شيبة في مصنفه ٥/ ٣٢٧ برقم: ٢٦٥٦٨ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، المستدرك ٤/ ٤١٨برقم ٨١٣٥.

عن معاوية بن أبي سفيان[١] قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم»[٢] فقال أبو الدرداء - رضي الله عنه - كلمة سمعها معاوية - رضي الله عنه - من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها.

فهكذا أخذ النص طريقه في النظام العملي للمجتمع الإسلامي! ولم يعد مجرد تهذيب للضمير وتنظيف للقلب، بل صار سياجًا حول حرمات الناس وحقوقهم وحرياتهم، فلا تمس من قريب أو بعيد، تحت أي ذريعة أو ستار.

فأين هذا المدى البعيد؟ وأين هذا الأفق السامق؟ وأين ما يتعاجب به أشد الأمم ديمقراطية وحرية وحفظًا لحقوق الإنسان، بعد ما يزيد على ألف وأربع مائة عام[٣] من ظهور هذا الدين. ولا تزال تعاليمه سابقة لكل تعاليم البشر، لأنها من عند من لا يحابي أحدًا ويعلم ما يُصلح الناس في كل عصر ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[المُلك: ١٤].

المطلب الثاني: **تعريف الظن لغة واصطلاحًا:**

المسألة الأولى: الظن في اللغة:

الظن في اللغة مصدر قولهم ظن يظن ظنًا، مأخوذ من مادة (ظ ن ن) التي تدل على معنيين: أحدهما اليقين والآخر الشك.

---

(١) معاوية بن صخر بن حرب بن أمية القرشي أبو عبد الرحمن أمير المؤمنين، تولى الخلافة بعد الإمام علي ابن أبى طالب، توفي سنة ٦٠هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ٣/ ١١٩).

(٢) رواه أبو داود، مصدر سابق ٤/ ٢٧٢ برقم: ٤٨٨٨ ورواه الطبراني في المعجم الكبير ١٩/ ٣٧٩. وقال المنذري رواه ابن حبان في صحيحه الترغيب والترهيب ٣/ ١٦٩ برقم: ٣٥٣٠ وصححه الألباني صحيح الجامع ١/ ٤٥٥ برقم ٢٢٩٥.

(٣) في ظلال القرآن، مصدر سابق ٦/ ٣٣٤٥ - ٣٣٤٦.

والظَّن: شك ويقين إلاَّ أنه ليس بيَقينِ عِيانٍ، إنّما هو يقينُ تَدَبُّرٍ وجمعُ الظَّنِّ الذي هو الاسم ظُنُون.

أما الظن اليقين ففي التنزيل العزيز: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٠]. أي علمت، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي يوقنون.

قال الشاعر العربي:

فقلت لهم: ظنوا بألفي مدجج سراتهم في الفارسيّ المسرد[١]

والظن الآخر الشك: يقال ظننت الشيء إذا لم تتيقنه، والدين الظنون الذي لا يدري صاحبه أيقضى أم لا، قال تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠][٢].

المسألة الثانية: الظن اصطلاحا:

الظن: أخذ طرفي الشك بصفة الرجحان، والرجحان إذا قاربه إمكان المرجوح يسمى ظنا، أو هو التردد الراجح بين طرفي الاعتقاد غير الجازم[٣].

وفي الحديث: «إياكم والظَّنَّ فإنّ الظَّنَّ أكذب الحديث ......»[٤] أراد الشكَّ يَعْرِضُ لك في الشيء فتحققه وتحكم به، وقيل: أراد إياكم وسوء الظَّن وتحقيقه دون مبادي الظُّنُون التي لا تُمْلَكُ، وخواطر القلوب التي لا تُدْفع،

---

(١) ديوان الأصمعيات ص ٨٧.

(٢) لسان العرب، مصدر سابق ١٣/ ٢٧٢.

(٣) نضرة النعيم، مصدر سابق ٥/ ١٥٩٧.

(٤) البخاري، سبق تخريجه ص٧٣ - ٥/ ١٩٧٦ برقم: ٤٨٤٩.

ومنه الحديث: «وإذا ظَنَنْتَ فلا تُحَقِّق»(١) وقد يجيء الظَّن بمعنى العلم، وفي حديث أُسَيْد بن حُضَيْر(٢): «وظَنَنَّا أن لم يَجُدْ عليهما،أيعَلِمْنا» وفي حديث عُبَيدة: قال أنس: سألته عن قوله تعالى:﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [النساء: ٤٣]. فأشار بيده، فظَنَنْتُ ما قال، أي علمت(٣).

المطلب الثالث: أنواع الظن:

والمعنى الأصلي لهذه المادة «ظن»: يدل على عدم الثقة وقلة الحصول على المطلوب سواء كانت هذه الكلمة «الظن» وصفًا لذات أو وصفًا لتفكير وبحث عن شيء يطلبه الظان، والظن في القرآن الكريم بوجوه من المعاني(٤):

الوجه الأول/العلم.. كقوله تعالى:﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٠]. بل الظن في هذه الآية وصل إلى أعلى درجة اليقين.

الوجه الثاني/الشك.. كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢].

الوجه الثالث/ظن بمعنى الحسبان.. كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤ بَلَىٰٓۚ إِنَّ

(١) الطبراني، سبق تخريجه ص ١٤٤.

(٢) أسيد بن الحضير بن سماك بن عتيك بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل الأنصاري، كان من السابقين إلى الإسلام، وهو أحد النقباء ليلة العقبة، وكان إسلامه على يد مصعب بن عمير قبل سعد بن معاذ، توفي سنة ٢٠هـ (الإصابة، مصدر سابق ١/ ٨٣).

(٣) لسان العرب، مصدر سابق بتصرف ١٣/ ٢٧٢ -٢٧٣.

(٤) منهج الدعوة.. مصدر سابق ص ٤٠٧.

رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ [الانشقاق: ١٤ - ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [فُصِّلَت: ٢٢ - ٢٣].

الوجه الرابع/الظن بمعنى التهمة.. كقوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

والوجوه الثلاثة الأخيرة يتضمنها الظن الذي معنا في هذه الآية من سورة الحجرات، ومن ظن هكذا فإنه يساوره الشك ويحسب ما ليس بواقع، والظن بهذا الوصف ينهى الله سبحانه وتعالى عنه المؤمنين ويوجههم إلى تبني الحقائق واستكشاف الوقائع والأحداث بمنهج علمي بعيد عن الحدس والظن، ويتخذ من العلم واليقين واسطة ويحسن الظن بالآخرين ولا يجوز للمؤمنين أن يتبعوا منهج المشركين والمنافقين الذين كان الظن السيئ معلمًا يعرفون به.

قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

«إن حقيقة الظن: تجويز أمرين في النفس لأحدهما ترجيح على الآخر، والشك عبارة عن استوائهما، والعلم هو حذف أحدهما وتعيين الآخر»[١].

وكما تحرم الغيبة باللسان تحرم بالقلب، قال الغزالي: «اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوئ الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء، فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه، بل الشك أيضًا معفو عنه ولكن المنهي عنه أن يظن، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب.. وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته، وأما ما لم تشاهد بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق»[٢].

وخلاصة القول إن أنواع الظن من خلال الآية السابقة هي أربعة أنواع[٣]:

الأول: الظن المحرم: وهو سوء الظن بالله تعالى، ويقابله حسن الظن بالله، وكذلك سوء الظن بالمسلمين الذين ظاهرهم العدالة.

الثاني: الظن المأمور به: وهو ما لم ينصب عليه دليل يوصل إلى العلم به، وقد تعبدنا بتنفيذ الحكم فيه والاقتصار على غالب الظن وإجراء الحكم عليه واجب، وذلك مثل قبول شهادة العدول، وتحري القبلة، وتقويم المستهلكات، وأروش

---

(١) أحكام القرآن، مصدر سابق ٤/ ١٤٢.

(٢) إحياء علوم الدين، مصدر سابق ٣/ ١٣١.

(٣) زاد المسير في علم التفسير.. ابن الجوزي - الطبعة الثالثة - المكتب الإسلامي ٧/ ٤٦٩ بتصرف.

الجنايات التي لم يرد بمقاديرها توقيف.

الثالث: الظن المباح: مثل الشاك في الصلاة إذا كان إماما، أمره النبي □ بالتحري والعمل على ما يغلب في ظنه، وإن فعله كان مباحا، وإن عدل عنه إلى البناء على اليقين كان جائزًا.

الرابع: الظن المندوب إليه: وهو حسن الظن بالأخ المسلم ويثاب عليه.

المطلب الرابع: تعريف التجسس لغة واصطلاحا:

المسألة الأولى: التجسس في اللغة:

تتبع الأخبار، يقال جس الأخبار وتجسسها إذا تتبعها[1].

والتَّـجَسُّسُ: وجَسَّ الـخَبَرَ و تَـجَسَّسه: بحث عنه وفَحَصَ، و تَـجَسَّسْتُ فلانًا ومن فلان بحثت عنه كتَـحَسَّسْتُ، ومن الشاذ قراءة من قرأ: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾[يوسف: ٨٧]، والـمَـجَسُّ والـمَـجَسَّة: مَـمَسَّةُ مـا جَسَسْـتَه بـيدك. وتَـجَسَّسْتُ الـخبر وتَـحَسَّسْته بمعنى واحـد، وفـي الـحديث: «لا تَــجَسَّسُوا..» التَّـجَسُّسُ، بالـجيم: التفتـيش عـن بـواطن الأُمـور، وأَكثـر مـا يقـال فـي الشـر. والـجاسُوسُ: صـاحب سِـرِّ الشَّـر، والنـاموسُ: صـاحب سـرِّ الـخير، وقـيل: التَّـجَسُّسُ، بالـجيم، أَن يطلبه لغيره، وبالـحاء، أَن يطلبه لنفسـه، وقـيل بالـجيم: البحث عن العورات، وبالـحاء الاستماع، وقـيل: معناهما واحد فـي تطلب معرفة الأَخبار. والعرب تقول: فلان ضَيِّقُ الـمَـجَسِّ إِذا لـم يكـن واسـع السِّـرْبِ ولـم يكن رَحيب الصدر. ويقال: فـي مَـجَسِّكَ ضِيقٌ. وَجَسَّ إِذا اختبر.

والـمَـجَسَّةُ: الـموضع الذي يَجُسُّه الطبـيب. والـجاسُوسُ: العَيْنُ يَتَـجَسَّسُ

---

(١) الموسوعة الفقهية، مصدر سابق ١٠/ ١٦١.

الأخبار ثم يأتـي بها[١].

المسألة الثانية: التجسس في الاصطلاح:

قال ابن الأثير[٢]: التجسس: التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، وهو السؤال عن العورات من غيره[٣].

والتجسس: هو أن تتبع عيب أخيك فتطلع على سره[٤].

والتجسس بالجيم هو: البحث عما يكتم عنك، والتحسس بالحاء طلب الأخبار والبحث عنها، وقيل أن التجسس بالجيم هو البحث، ومنه قيل رجل جاسوس، إذا كان يبحث عن الأمور. وبالحاء هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسه. وقول ثان في الفرق: أنه بالحاء تتطلبه لنفسه، وبالجيم أن يكون رسولاً لغيره، والمعنى: خذوا ما ظهر ولا تتبعوا عورات المسلمين[٥].

وقد ورد في الحديث الشريف الذي ذكره صراحة في معرض النهي عنه قال ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا..»[٦].

وقد أفرد البخاري بابا للجاسوس، وأورد الآية الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ لَا

---

(١) لسان العرب، مصدر سابق - بتصرف ص ٧/ ٣٣٧.

(٢) عز الدين علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني أبو الحسن، عالم ومؤرخ كبير، له عدد من المؤلفات من أشهرها (الكامل في التاريخ) توفي ٦٣٠ هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ٢٢/ ٣٥٣).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم- أبو زكريا يحي بن شرف النووي -الطبعة الثانية – دار إحياء التراث بيروت ١٣٩٢هـ-١٦/ ١١٩..

(٤) الدر المنثور، مصدر سابق ٧/ ٥٦٧.

(٥) تفسير القرطبي، مصدر سابق ١٦/ ٣٣٣.

(٦) البخاري، سبق تخريجه ٧٣.

تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال: التجسس: التبحث[١].

والتجسس: هو البحث، هكذا فسره أبو عبيدة. والتبحث من باب التفعل من البحث وهو: التفتيش، ومنه بحث الفقيه، لأنه يفتش عن أصل المسائل[٢].

والجاسوس على وزن فاعول من التجسس، والعين هو الجاسوس.والجاسوس يسمى عينا لأن عمله بعينه، أو لشدة اهتمامه بالرؤية واستغراقه فيها، فكأن جميع بدنه صار عينًا[٣].

والجاسوس: كلمة تدل على المعنى المعروف، وهي ترد ملازمة مع كلمة عين بمعنى الرقيب، ومن ثم فإنه لا يمكن في جميع الأحوال أن نميز بين الكلمتين، ولا يكاد المرء يستطيع أن يناقش إحداهما دون الرجوع إلى الأخرى، على أن الظاهر أن كلمة جاسوس تستعمل بصفة أخص للدلالة على العين يرسل بين صفوف العدو[٤].

المطلب الخامس: **التجسس المشروع وغير المشروع:**

المسألة الأولى / التجسس المشروع:

١- تجسس الدولة على الأفراد والجماعات ومعرفة طاقاتهم للاستفادة منها:

تتقصى الدولة الأخبار عن سيرة بعض الأشخاص أو الهيئات من أجل الاستفادة من خبراتهم والاستعانة بهم، والأخذ بمشورتهم وآرائهم في تصريف

(١) المصدر نفسه – كتاب الجهاد والسير – باب الجاسوس٣/ ١٠٩٤.

(٢) فتح الباري، مصدر سابق ٦/ ١٣٨.

(٣) المصدر نفسه ٦/ ١٦٨.

(٤) التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية.. محمد راكان الدغمي، الطبعة الثانية ١٩٨٥م دار السلام ص ٢٩.

شئون الدولة. وما تقوم به من أعمال إدارية، واقتصادية للمصلحة العامة في البلاد.

فمن واجب الدولة أن تتعرف على المواطنين وطاقاتهم فتحسن استغلالها لتضع الرجل المناسب في المكان المناسب، واليوم لأن كثيرًا من الدول الإسلامية خاصة تتجسس على مواطنيها لكشف عوراتهم، وكبت حرياتهم، وقتل إبداعهم، ولذلك أصبح المسؤولون هم أكثر الناس غباء، لأن المسؤولين الكبار لا يعرفون من هم أهل للمناصب، فولوا الرويبضة الذي لا يرد لهم طلبًا، وتركوا أهل القدرة والعلم، وقدموا الفساق و أهل الريب والمجون واللصوص.

وقد تجد مسؤولاً كبيرًا في بعض البلدان لا يعرف أن يقرأ خطابًا مكتوبًا ولا يجيد أن يقرأ آية صحيحة من كتاب الله، ومع ذلك يعتبر نفسه أعلم من العلماء في كل مجال فهو مفت، وطبيب، ومهندس، وسياسي، واقتصادي، وغير ذلك.

ولذلك نجد الكفاءات خارج البلاد العربية والإسلامية تخدم أعداء الأمة الذين يقدرون قيمة العلم والإبداع.

وإن علاقة رئيس الدولة بالمواطنين تشبه علاقة رب الأسرة بأبنائه فيتعرف على أحوالهم، ويعين ضعيفهم على مجابهة الحياة، ويأخذ بيد العالم منهم والمفكر لما فيه الخير وتحقيق المصلحة العامة.

٢- تجسس الدولة على أهل الريب والمجرمين وتعقبهم والوقوف على حال الرعية:

إن الدولة مكلفة بحماية أفرادها، والمقيمين فيها، انطلاقًا من أهداف الإسلام السامية في إقرار المبادئ الإنسانية والسلام في العلاقات الاجتماعية، وعلى الدولة أن تحقق العدالة الاجتماعية، وأن تتعقب المجرمين، وتدرأ شرهم وخطرهم وأذاهم ليعيش الناس آمنين من إفسادهم، وذلك ليصفو المجتمع من كل كدر يعكر حياة

الأفراد والجماعات.

إن رعاية المجتمع وتحقيق حماية الأفراد لا بد لها من مراقبة دقيقة تقوم بها الدولة لتهيئة جو من الأمن والاستقرار في المجتمع، ولا يجوز للدولة ابتداء بالتجسس على مواطنيها إلا بعد ثبوت تهم مخلة بالأمن والآداب الشرعية حقيقة لا وهما، ولا بناء على خبر الفساق وما أكثرهم اليوم، كما لا يجوز للدولة أن تتجسس على المعارضة السياسية لأنها مكفولة الحرية بموجب الدستور والقوانين والذي يجوز لها متابعة أهل الريب من القتلة والمفسدين وناهبي المال العام وقطاع الطرق ومهربي المخدرات وغيرها ممن يشيعون الرعب والقلق في المجتمع.

٣- التجسس على العدو:

التجسس على الحربيين جائز شرعًا، بل مفروض على إمام المسلمين في حالة قيام حرب بين المسلمين وغيرهم، لأن التخطيط السليم للمعركة يتوقف على معرفة أسرار العدو وتحركاته وكشف مخططاته، قال الحافظ في حديث صلح الحديبية الطويل: فيه استحباب تقديم الطلائع، والعيون بين يدي الجيش، والأخذ بالحزم في أمر العدو لئلا ينالوا غرة بالمسلمين[١]. فالتجسس على العدو عمل مشروع لحماية الدولة من الاعتداء ولتكون الدولة على اطلاع تام بتحركات الأعداء ومخططاتهم.

ومن لا يملك المعلومات عن بلده وشعبه لا يستطيع نفعه ولا توظيف طاقاته والاستفادة منه، ومن لا يعرف عدوه ويتجسس عليه لا يأمن غدره ومكره واجتياحه أو ضربه في أي لحظة، وهذا الذي أدى إلى هزيمة العرب في معاركهم مع اليهود.

إن دولة العدو الصهيوني تملك معظم أسرار الدول العربية، وقد لا نملك عنها

---

(١) فتح الباري مصدر سابق ٥/ ٣٥٢.

شيئًا من أسرارها، ولذلك فزمام المبادرة بيدها، نتيجة لما تملكه من أسرار عن جيوشنا وأسلحتنا ومكامن القوة والضعف فينا، وهذا معظمه بسبب خيانة كثير من المسؤولين والمواطنين، ويكفي أن نشير إلى أن إحصائية أخيرة تقول إن عدد الفلسطينيين العملاء لإسرائيل يزيد على مائة ألف جاسوس.

المسألة الثانية / التجسس غير المشروع:

١- **التجسس المؤدي إلى الوقوف على العورات:**

إن التجسس المؤدي إلى فضح العورات لا تسمح به الشريعة الإسلامية بحال من الأحوال، بل نهت عنه. فتجسس المسلم على أخيه المسلم حرام بالإجماع، كما أن التجسس على الذميين حرام أيضًا.

وذلك لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

ففي هذه الآية الكريمة النهي صراحة عن التجسس وتتبع عورات المسلمين والبحث عن معايبهم والكشف عما ستره الله تعالى، وتناول الذميين بحرمة التجسس عليهم أيضًا.

والآية أيضًا قد نهت عن التجسس نهيًا عامًا، فيدخل في ذلك كل أنواع التجسس سواءً أكان ذلك من الحاكم أم من المحكوم، لأن الخطاب للجميع، أما إن غلب على الظن استمرار قوم بالمحظورات لأمارة دلت، وآثار ظهرت، فذلك ضربان:

الأول: أن يكون في ترك التجسس انتهاك حرمة يفوت استدراكها، مثل أن

يخبره من يثق بصدقه أن رجلاً خلى برجل ليقتله، أو بامرأة ليزني بها، فيجوز له في مثل هذه الحالة أن يتجسس ويقدم على الكشف والبحث حذرًا من فوات ما لا يستدرك من انتهاك المحارم وارتكاب المحظورات.

الثاني: ما كان دون ذلك في الريبة، فلا يجوز التجسس عليه ولا كشف الأستار عنه.

ومن هنا فالتجسس على المسلمين حرام، إلا إذا اقتضت الضرورة ذلك، كتتبع أهل الريب لأمارات تدل على ذلك، ويكون في ترك التجسس انتهاك حرمة، أو قتل نفس، أو حدوث زنا، فإن ذلك يجيز التجسس، ولو بأمارة دالة عليه أو خبر صادق من ثقة. وأما ما كان دون ذلك من الريب فلا يجوز كشف الأسرار عنه، فعن معاوية بن أبي سفيان، قال: قال رسول الله ﷺ:«إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم»[1].

ولذا لا يجوز للدولة أن تتجسس على الحياة الخاصة لأفراد المجتمع من رجال الفكر والسياسة في البلد بحجة حماية الأمن والنظام، فتطلع على خصوصيات الأفراد بغية الحصول على معلومات خاصة بوجهة نظر سياسة معينة، أو أن يكون هدفها من ذلك استعمالها وسيلة للتهديد أو التأثير على مجرى الانتخابات مثلاً، أو غير ذلك من الأعمال السياسية التي تنظم بموجب قانون البلاد فكيف تجيز هذه التنظيمات ثم تتجسس عليها، فهذا مخالف للقانون وهو عقد بين الدولة ورعاياها، خاصة والقانون مستمدٌ من الشريعة الإسلامية، ومن التجسس الممنوع: التجسس على الاتصالات والمراسلات وغيرها فهي محرمة شرعا كما تحرمها القوانين، لكن كثير من البلدان تنتهك الحرمة وتتجسس على مواطنيها في ذلك.

---

(١) أبو داود، سبق تخريجه ص ١٤٥.

٢- **التجسس لمصلحة العدو:**

والتجسس لمصلحة العدو ذو خطورة بالغة على البلاد، إذ أن الجاسوس يعيش في كنف المسلمين، ويطلع على ما لا يطلع عليه غيره، فخطره عظيم لأنه ليس مكشوفًا للمسلمين.

ومثل هؤلاء خارجون عن طاعة الله، وهم كثيرون في صفوف المسلمين، ولم يغفل عنهم المسلمون في يوم من الأيام، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالاستعداد للعدو ولمثل هؤلاء الأعداء وغيرهم قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولعل أخطر أنواع التجسس هو التجسس لمصلحة العدو، بل لعله أكثرها وقوعا اليوم، خاصة في الدول الإسلامية (والنامية)، فقد راج بشكل كبير، حتى لا تكاد تسلم منه دولة، وأكثر الجواسيس يشترون المعلومات من الأفراد أو الدول، نظرا للحاجة إلى المعلومة والمال لكلا الطرفين، ولا يمكن أن نحفظ بلادنا من خطر التجسس إلا بزرع الإيمان في نفوس الناس، وتربيتهم على عدم نشر الأسرار، خاصة ما لها تأثير سلبي على المجتمع والأفراد والدولة.

٣- **التجسس المزدوج:**

التجسس لحساب دولتين مختلفتين هو أبشع أنواع التجسس وأضرها، وهو ما يعرف بالتجسس المزدوج.

وإن الفئة التي تقوم به من أخطر الفئات، والقائمون بمثل هذا العمل محترفون،

إما رغبة في التجسس، أي أنهم يتجسسون من أجل التجسس ويمارسونه هواية، ويجدون في ذلك اللذة والراحة النفسية، وقد يكون لهثًا وراء المطامع والمغانم المادية، يبيعون الأخبار لمن يدفع لهم الثمن، وقد يصدقون وقد يكذبون، وقد يصدقون مع دولة ويخدعون أخرى.

وهذا الجاسوس المحترف الذي يبيع الأسرار، ويعمل لكلا الدولتين، غالبًا ما يكون جامد الإحساس، بارد العاطفة، لا يعترف بعقيدة ولا حب لوطنه، وله عدة وجوه.

ولكن المسلم ولاؤه لا يكون إلا لله رب العالمين، وإذا ما أعطى الولاء لغير المسلمين فإنما يكون منافقًا له عقوبة صارمة، والإيمان مكانه واحد في قلب المؤمن، والعداوة والبغضاء والكراهية، والصداقة والود لا تجتمع في قلب واحد، في زمان واحد، لجهتين مختلفتين، وإن في التجسس خيانة للمسلمين، وحربًا على الدين الإسلامي.

المطلب السادس: **توعية المجتمع من خطر التجسس:**

إن أهم الركائز الأساسية في مقاومة جواسيس الأعداء وحرمانهم من الحصول على المعلومات، أن تتخذ الدولة الإسلامية الإجراءات الوقائية الدائمة لتوعية أفراد المجتمع من خطر جواسيس الأعداء الذين ينفذون إلى صفوف المسلمين[1] بصور مختلفة، وما لم تكن علاقة الدول بشعوبها علاقة حب وولاء، وشعور الجميع بالمسؤولية الدينية والوطنية، فلا نستطيع مواجهة الجاسوسية المنظمة على بلداننا، وهنا مسألتان لتوعية المجتمع من خطر التجسس:

---

(١) التجسس وأحكامه، مصدر سابق ص ١٨٣.

المسألة الأولى: النهي عن مكاشفة الأعداء ونقل الأخبار لهم:

تقضي التعاليم الإسلامية بأن يكون المؤمن حذرًا فطنًا يقظًا، وكل هذا يدعو إلى كتمان الأسرار التي جعلها الله سبحانه وتعالى أمانة من الأمانات يجب المحافظة عليها.

يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فقد نهى الله المسلمين جميعًا عن مكاشفة الأعداء، والمشكوك فيهم من المنافقين وغيرهم، من ضعفاء النفوس خاصة في أوقات الحرب والأزمات، ويشمل ذلك عدم مكاشفتهم بالأسرار الخاصة التي تضر بمصلحة المسلمين العامة في دينهم ودنياهم.

وإن إفشاء الأخبار إلى العدو، أو إعطاءها إلى من قد يوصلها إليه من المنافقين والجواسيس وغيرهم، إنما تدل على معنى الإهمال، وعدم تقدير للموقف، وهي تدل على النفاق، وفيها خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين.

فعلى المسلم أن لا يخون المسلمين أو أولياء أمورهم خاصة فيما يتعلق بالشؤون السياسية والحربية، وقد نبه الله سبحانه وتعالى إلى ذلك، في كتابه الكريم، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١].

وهنا يُلحظ أن كثيرًا من الأسرار يحصل عليها أعداؤنا من بعض السذج في المجتمعات العربية والإسلامية، ولذلك يجب أن نحذر المجتمع من كل الأعداء، سواء

جاءوا بصفة سياح، أو تجار، أو أطباء، أو غير ذلك، وكلما كان أفراد المجتمع والدولة متيقظين كان خروج الأسرار ونجاح جواسيس الأعداء أقل، وكلما تعاملنا بطيبة وسذاجة وثقة بأعدائنا وهم كثر، كلما فشت أسرارنا واستفاد عدونا.

ولذلك فإن واجب الدولة كبير في توعية المجتمع من خطر التجسس، والجواسيس بكل الوسائل الإعلامية والتعليمية وغيرها.

المسألة الثانية: تماسك الجبهة الداخلية ومحاربة الإشاعات:

إن الحرب وإن كانت تتعلق بالجنود المقاتلين في ساحة المعركة في الدرجة الأولى إلا أنه لابد من ارتباط وثيق بين الجيش والأمة، فلا يستطيع الجيش أن يحرز النصر إذا كانت الجبهة الداخلية في المجتمع مهزوزة معنويًا.

فالروح الجهادية للمواطنين عامل من عوامل النصر، وإن لم يشتركوا في القتال، فقوة المجتمع وإرادة القتال إذا وجدت عند أبنائه تقوي الجيش وهو في أرض المعركة.

والمسلمون معنيون جميعًا بمجاهدة العدو، بحيث يسهم كل مسلم في المعركة قدر طاقته، وإمكاناته، والمجتمع المسلم يقف أمام العدو وحدة واحدة، قال تعالى:

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ [آل عمران: ١٠٣][(١)].

وهكذا إذا حزم المجتمع الإسلامي أمره، وعرف عدوه، واعتصم بحبل الله مهما كانت قوته وعدده قليلة، فإنه منصور بإذن الله، وكلما تخاذل وتمزق صفه وأخرج أخباره و أخبار جيشه، كان الخذلان نتيجة طبيعية لذلك.

وإن من أخطر الأمور التي توهن عزائم الأمم والمجتمعات والأفراد انتشار

---

(١) التجسس وأحكامه، مصدر سابق ص ١٩٢.

الإشاعة، والأعداء اليوم يجيدون هذه الحرب، ويعرفون كيف يوظفونها، ومتى وبواسطة من؟

ونحن أيضًا نجيد ترويجها ضد أنفسنا، ولعل من أعظم الإشاعات التي اتفق على ترويجها الأعداء والأصدقاء اليوم، التهويل من قوة العدو الغاصب لفلسطين حتى باتت كل الجيوش والحكام وكثير من الشعوب تخشى قوتها، ولا تفكر في مقاومتها أو طردها من أرضنا، بل أصبح السلام هو خيارنا، وهم يضربوننا ويقتلوننا وخيارنا السلام.

ولم نصل إلى ذلك إلا بتصديق إشاعة أن إسرائيل قوة لا تقهر، مع أن الواقع قد أبان لنا أن مجموعة المقاومة الفلسطينية واللبنانية قد قهروا هذه القوة مع الفارق الذي لا يقارن في العتاد والسلاح والإمكانات، فكيف لو اجتمعت قوة الشعوب مع جيوشها وحكامها؟؟

وما تملكه اليوم الأمة العربية من أسلحة وجيوش وأموال وأرض وغير ذلك لا تساوي قوة العدو الغاصب معها شيئًا، لكننا لا نملك الإيمان الكامل بالله، ولا نثق أن النصر من عنده سبحانه، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وقال تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وهذا بالتأكيد يأتي بعد إعداد ما نستطيع من قوة كما أمر الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولا شك أن أول القوة قوة العقيدة، ثم قوة الوحدة والأخوة، ثم قوة الساعد

والسلاح والتدريب على الرمي، كما فسر القوة ﷺ بقوله: «ألا إن القوة الرمي»[(١)].

ولعل سقوط أفغانستان والعراق تحت الاستعمار الأمريكي بهذه السهولة يبين خطورة عدم توعية المجتمع بآثار التجسس، فلم تدخل أمريكا إلا بتعاون أصحاب البلاد سواء كانوا من عملائها، أو المتضررين من الأنظمة التي كانت قائمة، ومع كل ذلك فلا بد من العمل على تقوية الجبهة الداخلية لكل بلد مسلم للحفاظ على وحدته وأمنه ودينه.

وهذا هو منج القرآن الكريم في حرصه على وحدة المجتمع من خلال إلزام أبنائه بقيامهم بواجباتهم، ومنها أن يكون كل فرد لبنة صالحة في المجتمع يشد بعضهم بعضًا، ومنها عدم التجسس لصالح العدو، وعدم نشر الإشاعات، وبهذا تتماسك الجبهة الداخلية، ولا يستطيع الأعداء النفاذ إليها مهما بذلوا من أموال ومغريات، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»[(٢)].

---

(١) رواه مسلم، مصدر سابق – كتاب الامارة – باب فضل الرمي والحث عليه ٣/ ١٥٢٢ برقم: ١٩١٧.

(٢) رواه البخاري – مصدر سابق – كتاب الأدب – باب رحمة الناس والبهائم ٥/ ٢٢٣٨ برقم: ٥٦٦٥.



المبحث الثالث: حماية المجتمع من الغيبة.

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: تمهيد وتعريف الغيبة لغة واصطلاحًا

المطلب الثاني: حكم الغيبة والترهيب من الوقوع فيها.

المطلب الثالث: الأسباب الباعثة على الغيبة.

المطلب الرابع: ما يباح من الغيبة.

المطلب الخامس: علاج الغيبة، وطريق التوبة منها وكفارتها.

المطلب الأول: **تمهيد وتعريف الغيبة:**

المسألة الأولى: تمهيد:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ [الحجرات: ١١].

ويجيء النهي عن الغيبة في تعبير عجيب، يبدعه القرآن إبداعًا:

﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ ...﴾.

لا يغتب بعضكم بعضًا. ثم يعرض مشهدًا تتأذى له أشد النفوس كثافة وأقل الأرواح حساسية. مشهد الأخ يأكل لحم أخيه.. ميتًا..! ثم يبادر فيعلن عنهم أنهم كرهوا هذا الفعل المثير للاشمئزاز، وأنهم إذن كرهوا الاغتياب!

ثم يعقب على كل ما نهاهم عنه في الآية من ظن وتجسس وغيبة باستجاشة شعور التقوى والتلويح لمن اقترف من هذا شيئا أن يبادر بالتوبة تطلعا للرحمة:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ..﴾.

ويسري هذا النص في حياة الجماعة المسلمة فيتحول إلى سياج حول كرامة الناس وإلى أدب عميق في النفوس والقلوب. ويشتد فيه قول الرسول ﷺ متمشيًا مع الأسلوب القرآني العجيب في إثارة الاشمئزاز والفزع من شبح الغيبة البغيض.

عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إن كان فيه ما تقول فقد

اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته..»[١][٢].

المسألة الثانية: تعريف الغيبة لغة:

الغَيْبَةُ: من الغَيْبُوبة، والغِيبةُ: من الاغْتِـيابِ. واغْتابَ الرجلُ صاحبَه اغْتِـيابًا إذا وَقَعَ فـيه، وهو أن يتكلـم خَـلْفَ إنسان مستور بسوء، أَو بما يَغُمُّه لو سمعه وإن كان فـيه، فإن كان صدقًا، فهو غِيبةٌ؛ وإن كان كذبًا، فهو البَهْتُ والبُهْتانُ، كذلك جاء عن النبـي ﷺ في الحديث، ولا يكون ذلك إلا من ورائه، والاسم: الغِيبةُ وفـي التنزيل العزيز: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾، أَي لا يَتَنَاول رَجُلاً بظَهْرِ الغَيْب بما يَسُوءُه مـما هو فـيه وإذا تناوله بما لـيس فـيه، فهو بَهْتٌ وبُهْتانٌ[٣].

المسألة الثالثة: تعريف الغيبة اصطلاحًا:

قال الجرجاني[٤]: الغيبة ذكر مساوئ الإنسان في غيبته وهي فيه، وإن لم تكن فيه فهي بهتان وإن واجهه فهو شتم[٥].

وقيل الغيبة: أن تذكر أخاك بما يكرهه، فإن كان فيه فقد اغتبته...، ومن أحسن تعاريفها «ذكر العيب بظهر الغيب»[٦] وقيل: أن يتكلم خلف إنسان مستور

---

(١) أخرجه مسلم، مصدر سابق – كتاب البر والصلة – باب تحريم الغيبة ٤/ ٢٠٠١ برقم: ٢٥٨٩.

(٢) في ظلال القرآن، مصدر سابق ٦/ ٣٣٤٧.

(٣) لسان العرب، مصدر سابق ١/ ٦٥٦.

(٤) علي بن محمد بن علي الجرجاني من كبار علماء العربية، ولد سنة ٧٤٠هـ وتوفي سنة ٨١٦ هـ (الأعلام- خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين بيروت – الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٩م ٥/ ٧).

(٥) التعريفات- الجرجاني- تحقيق إبراهيم الابياري، طبعة دار الديان للتراث، بدون تاريخ. ص ١٦٩.

(٦) التوقيف على مهمات التعريف، مصدر سابق، ص ٥٤٣.

بكلام هو فيه[١].

وقيل الغيبة: أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرت نقصانًا في بدنه أو في لبسه، أو في خلقه، أو في فعله، أوفي قوله، أو في دينه، أو في دنياه، أو في ولده أو في بيته، أو في دابته. قال: ولا تقتصر الغيبة على القول، بل تجري أيضًا على الفعل كالحركة والإشارة والكناية[٢]. لما ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها أشارت بيدها إلى امرأة أنها قصيرة، فقال ﷺ: «اغتبتها» والتصديق بالغيبة غيبة.

قال ابن حجر: الغيبة: ذكر المرء بما يكرهه، سواء كان ذلك في بدن الشخص أوفي دينه أو في دنياه، أو في نفسه أو خلقه أو ماله[٣].

وقد عرف النبي ﷺ الغيبة بقوله في حديث أبي هريرة: «أتدرون ما الغيبة؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته. وإن لم يكن فيه، فقد بهته»[٤].

وخلاصة القول أن الغيبة ذكرك أخاك بما يكره سواء ذكرته بلفظك أو بكتابتك، أو رمزت إليه بعينيك أو يدك أو رأسك وضابط ذلك: كل ما أفهمت به غيرك نقصان مسلم فهو غيبة محرمة، ومن ذلك: المحاكاة، بأن يمشي متعارجًا أو مطأطئًا، أو غير ذلك من الهيئات مريدًا بذلك حكاية هيئة من ينتقصه بذلك، فهو حرام[٥].

---

(١) نضرة النعيم، مصدر سابق١١/ ٥١٦٣.

(٢) المصدر نفسه١١/ ٥١٦٣.

(٣) فتح الباري، مصدر سابق ١/ ٤٦٩.

(٤) أخرجه مسلم، سبق تخريجه ص١٥٦.

(٥) البينات.. مصدر سابق ص١٥١.

المطلب الثاني: **حكم الغيبة والترهيب من الوقوع فيها:**

لا شك ولا ريب أن الغيبة محرمة بإجماع المسلمين، وقد تظاهرت على تحريمها الأدلة الصريحة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة:

قال تعالى: ﴿....وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[الحجرات: ١١].

وقال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾[النساء: ١٤٨].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾[الهمزة: ١].

وقال عز وجل: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[ق: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء: ٣٦]. والغيبة آفة خطيرة من آفات اللسان.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا - تعني قصيرة - فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»، قالت: وحكيت له إنسانًا فقال: «ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا»[١].

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس، يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل، قال:

---

(١) الترمذي، سبق تخريجه ص١٣٦.

هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا. المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه»[٢].

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: «إن من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق»[٣].

أي باحتقاره، والترفع عليه والوقيعة به في القذف، أو السب والغيبة، ونحو ذلك فإن ذلك أكثر الربا، وأشده تحريمًا، لأن العرض أعز على النفس من المال.

وفي الحديث الآخر: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته»[٤].

---

(١) رواه أبو داوود، مصدر سابق ٤/ ٢٧٠ برقم: ٤٨٧٨. وقال: رواه بعضهم مرسلا. وصححه السيوطي، انظر فيض القدير ١٠/ ٥٠٥١ وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٩٢٦ برقم: ٥٢١٣.

(٢) رواه مسلم، سبق تخريجه ص ١٢١.

(٣) رواه أبو داود، مصدر سابق ٤/ ٢٦٩ برقم: ٤٨٧٥. وقال الحاكم:صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ٢/ ٤٣، وحسنه السيوطي، أنظر فيض القدير ٤/ ٢١٢٧، وصححه الأ لباني في صحيح الجامع ١/ ٤٣٩ برقم ٢٢٠٣.

(٤) رواه الطبراني، مصدر سابق١١/ ١٨٦ برقم: ١١٤٤٤. وقال المنذري في الترغيب: رواه أبو يعلى بإسناد حسن ٣/ ١٦٩ وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٣٢٢ برقم ٧٩٨٤.

وفي الحديث بيان على أن غيبة المسلم من شعار النفاق، لا الإيمان، وفيه الوعيد بفضح الله عيوب الذين يتبعون عورات المسلمين ومجازاتهم بصنيعهم، وكشف مساوئهم، ولو كانوا متخفين في بيوتهم.

وفي الحديث أن النبي ﷺ مر بقبرين، فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فيعذب في البول، وأما الآخر فيعذب في الغيبة»[١].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا مع النبي ﷺ فارتفعت ريح منتنة فقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين»[٢].

وقال الحسن البصري: ذكر الغير ثلاثة: الغيبة والبهتان والإفك، وكل في كتاب الله، فالغيبة أن تقول ما فيه، والبهتان أن تقول ما ليس فيه، والإفك أن تقول ما بلغك[٣].

وقال النووي[٤] رحمه الله تعالى: اعلم أنه ينبغي لمن سمع غيبة مسلم أن يردها ويزجر قائلها، فإن لم ينزجر بالكلام زجره بيده، فإن لم يستطع باليد ولا باللسان، فارق ذلك المجلس، فإن سمع غيبة شيخه أو غيره ممن له عليه حق، أو كان من أهل الفضل والصلاح كان الاعتناء بما ذكرناه أكثر..

(١) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب الجنائز - باب الجريد على القبر ١/ ٤٥٨ برقم: ١٢٩٥..

(٢) رواه احمد، مصدر سابق ٣/ ٣٥١ برقم: ١٤٨٢. قال المنذري في الترغيب ورجال أحمد ثقات ٣/ ٣٣١ وذكره ابن حجر في الفتح بسند حسن وقال: ذكره البخاري في الأدب المفرد، أنظر الفتح: ١٠/ ٤٧٠.

(٣) إحياء علوم الدين، مصدر سابق ٣/ ١٢٦.

(٤) يحي بن شرف بن مري الحزامي الحوراني النووي الدمشقي الشافعي، علامة في الفقه والحديث، وله مصنفات كثيرة، ولد سنة ٦٣١هـ وتوفي سنة ٦٧٦هـ. (طبقات الحفاظ، مصدر سابق. ١/ ٥١٣).

وكما تحرم الغيبة يحرم استماعها وإقرارها ويجب النهي عنها.

فإنها من الكبائر: قال القرطبي: «لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحدًا عليه أن يتوب إلى الله عز وجل»[١] وقال ابن حجر: «الذي دلت عليه الدلائل الكثيرة الصحيحة الظاهرة أنها من الكبائر، لأن حد الكبيرة صادق عليها، لأنها من ما ثبت الوعيد الشديد فيه بقوله ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه»[٢] والغصب والقتل كبيرتان إجماعًا، فكذا ثلم العرض (الغيبة)[٣].

صورة مفزعة:

وهذا تمثيل وتصوير مفزع على أفحش وجه وأشنع طبع، مع مبالغات من فنون شتى، الاستفهام التقريري، وإسناد الفعل إلى أحد الأخوين، (لحم أخيه) وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، وكونه ميتًا، وتعقيب ذلك بقوله تعالى ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ تقريرًا وتحقيقًا لذلك، فتحققت كراهتكم له باستقامة العقل، فليتحقق أيضًا ما هو نظيره من الغيبة باستقامة الدين، وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان كلحمه ودمه، لأن قلبه يتألم إذا ذكر بسوء، كما يتألم جسده إذا قطع لحمه، والعرض أشرف من اللحم: انظر - أخي المسلم - إلى هذا التمثيل المفزع، والذي فاق في أسلوبه وبيانه كل تصوير وبيان، فقد مثل تعالى لقبح الغيبة وشناعتها، بمن جلس أمام جثة أخ له ميت، ينهش منها، ويأكل من لحمها، ولقد صوره بصورة ينفر منها الطبع:

أولا: إنه لحم إنسان وليس لحم حيوان.

---

(١) تفسير القرطبي، مصدر سابق ١٦/ ٣٣٧.

(٢) مسلم سبق، تخريجه ص١٢١.

(٣) فتح الباري، مصدر سابق ١٠/ ٤٧٠ بتصرف.

ثانيا: إن هذا الإنسان الذي ينهش لحمه هو أخ له مسلم.

ثالثا: إن هذا اللحم لحم ميت وليس لحم حي.

ويا له من تمثيل مريع بلغ الذروة في القبح والشناعة والفضاعة، يقطع أعناق المغتابين لو كانوا يعقلون[١].

وأخيرًا: ليس هناك ما هو أبلغ من ترهيب النبي ﷺ من الغيبة والتحذير منها فقد نهى عنها بصور مختلفة، فمرة بأنها تمزج ماء البحر مع كثرته، ومرة بتصوير المغتاب بأظفار من نحاس يخمش وجهه، ومرة بظهور الغيبة كريح نتنة، ومرة أنها أبشع من الربا، ومرة بتصوير المغتاب منافق وأنه يعذب في القبر، وهكذا لخطورة الغيبة وتأثيرها على المجتمع وتمزيقه، ومنهج القرآن يريد أن يصلح المجتمع بتطهيره من هذه الأمراض بكل الصور حتى يبقى المجتمع نقيا نظيفًا، آمرًا بالخير ناهيًا عن الشر.

وكما اتضح أن غيبة المسلم الحي حرام، فإن غيبة الميت أفحش من غيبة الحي وأشد، لأن عفو الحي واستحلاله ممكن بخلاف الميت.

فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «**إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه**»[٢].

---

(١) قبس من نور القرآن.. الصابوني.. الطبعة الأولى ١٩٩٧م- لدار السلام.. ١٢،١١/ ٢١٩. ومقتطف من عيون التفاسير مصطفى الخيري المنصوري- الطبعة الأولى ١٩٩٦م-دار السلام القاهرة - تحقيق: الصابوني ٥/ ٦٣.

(٢) رواه الترمذي، مصدر سابق ٥/ ٧٠٩ برقم: ٣٨٩٥، ورواه أبو داود في سننه ٤/ ٢٧٥، وقال السيوطي، صحيح، انظر فيض القدير ٢/ ٨٦٢، وذكره الألباني بلفظ «وإذا مات صاحبكم فدعوه» وقال: هذا سند صحيح على شرط البخاري، الصحيحة ٣/ ١٦٩.

المطلب الثالث: **الأسباب الباعثة على الغيبة:**

لعل مصيبة المصائب، وعلة العلل في الأمراض النفسية والاجتماعية سببها الرئيس داء الكبر، فهو علة مشتركة لكثير من الأمراض، وهو سبب تضخم الذات، وتأليه النفس، وعبودية الهوى، وهو أول ما عصي الله به، وهو مصدر الشر على الإنسان، وقلما يسلم منه الإنسان إلا من رحم الله سبحانه وتعالى، وقد حذر منه ﷺ أشد تحذير بقوله: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[1].

ولا يمنع ذلك أن تكون هناك أسباب أخرى باعثة على الغيبة نوجزها فيما يلي:

السبب الأول / الغضب وإشفاء الغيظ:

فقد يكون الغضب من بين الأسباب أو البواعث التي تدفع إلى الوقوع في الغيبة، وذلك أن الإنسان إذا غضب من إنسان وهيجه هذا الغضب، ولم يكن هناك وازع من دين أو خلق، فإن لسانه يسبق إلى غيبة هذا الإنسان من باب التشفي وإراحة النفس.

السبب الثاني / تزكية النفس:

ذلك أن الإنسان قد تعجبه نفسه إلى حد الغرور والتكبر، فيحاول وصفها بالرفعة وعلو المنزلة والمكانة على حساب غيره، فيتناول هذا الغير بالانتقاص والطعن فيقول: فلان جاهل، وفهمه ركيك، وفلان ضعيف البيان، وهو بهذا يهدف إلى تزكية نفسه بالطعن في الآخرين.

السبب الثالث / الحسد:

يحسد المغتاب من يثني عليه الناس ويحبونه، فيحاول المغتاب الحسود قليل

---

(١) رواه مسلم – كتاب الإيمان – باب تحريم الكبر ١/ ٩٣ برقم: ٩٢.

الدين والعقل أن يزيل هذه النعمة، فلا يجد طريقًا إلى ذلك إلا بغيبته والوقوع في عرضه حتى يزيل نعمته أو يقلل من شأنه عند من يثنون عليه، وهذا من أقبح الناس عقلا وأخبثهم نفسًا.

السبب الرابع / الهزل والتفكه:

يجلس المغتاب فيذكر عيوب غيره مما يضحك به الناس فيضحك الناس، فعند ذلك يرتاح ويزيد في الكذب والغيبة على سبيل الهزل والنكت والإعجاب بالنفس. وهذا ينطبق عليه حديث النبي ﷺ الذي قال فيه: «ويل للذي يحدث بالحديث ليضحك به القوم فيكذب، ويل له، ويل له»[1].

وغالب الغيبة اليوم من هذا الباب، فكم من كذب على الناس من خلال الأفلام والمجالس والمنتديات، ولا يحاسب أحد نفسه أن هذا من الغيبة المحرمة، إلا من رحم الله تعالى مع أن في المباح متسعًا لإدخال السرور على الناس بما لا يخالف الشريعة السمحة ولا يضر بالمجتمع، بل يكون سببًا في إصلاحه، كما هو منهج القرآن الكريم وسنة الرسول العظيم ﷺ في الالتزام بالحق والصدق في الجد والهزل.

السبب الخامس / السخرية والاستهزاء:

هو أن يسخر من شخص استحقارًا له، فإن ذلك قد يجري في الحضور، ويجري أيضًا في الغيبة، ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به.

السبب السادس / عدم التثبت والتبين:

ذلك أن الحكم على الأمور والأشخاص بالسوء دون طلب للدليل، وفحص

---

(١) رواه الترمذي، مصدر سابق ٤/ ٥٥٧ برقم: ٢٣١٥ وقال المنذري في الترغيب: رواه أبو داود والترمذي وحسنه ٣/ ٣٧٠ وحسنه السيوطي، انظر فيض القدير ١٢/ ٦٣٤١، وحسنه الألباني، صحيح الجامع ٢/ ١١٩٩ برقم ٧١٣٦.

له والتأكد من صحته، والموازنة بينه وبين الظروف المحيطة والواقع المعاش - وهو ما يعرف بعدم التثبت أو التبين- قد يكون من بين الأسباب أو البواعث التي تدفع بالمسلم إلى أن يقع في الغيبة.

السبب السابع / البيئة المحيطة:

وقد تكون البيئة المحيطة قريبة كانت - ونعني بها البيت - أو بعيدة - ونعني بها مجتمع الأصدقاء - هي السبب في وقوع الغيبة. ذلك لأن الإنسان شديد التأثر ببيئته، ولا سيما إذا كان في مرحلة الإعداد والبناء، وعليه فإنه إذا وجد بيئة لا ترعى للغائب حقه فإنه يحاكيها في ما هي عليه من الباطل لكي يكسب رضاهم حتى ولو كان يغضب الله ﷻ، وهذا من ضعف الإيمان وعدم مراقبة الله ﷻ.

السبب الثامن / عدم تقدير العواقب المترتبة على الغيبة:

وقد يكون عدم تقدير العواقب المترتبة على عدم الغيبة هو السبب في الوقوع في آفة الغيبة. إذ أن الإنسان إذا نسي عواقب الشيء الضارة، وآثاره المهلكة تجرأ عليه وواقعه، بل ربما لا يستطيع الانفكاك والتحول عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

السبب التاسع / العمل لصالح أفراد أو جهات مشبوهة:

وقد يكون العمل لحساب أفراد أو جهات مشبوهة معروفة بالحقد على الإسلام والمسلمين طمعًا في عرض زائل من أعراض الدنيا، هو السبب في الوقوع في آفة الغيبة، على النحو الذي نشهده الآن من الطعن في أبناء الحركة الإسلامية،

ومحاولة إلصاق التهم والعيوب بهم، لا لشيء إلا لأنهم باعوا أنفسهم وما تملك هذه النفوس لله ﷻ.

السبب العاشر / إظهار التعجب من أصحاب المعاصي:

كأن يقول الإنسان ما رأيت أعجب من فلان، كيف يخطئ وهو رجل عاقل أو كبير أو عالم، أو غير ذلك، وكان من حقه عدم ذكر اسمه.

السبب الحادي عشر / الظهور بمظهر الغضب لله على من يرتكب المنكر:

فيظهر غضبه ويذكر اسمه مثل أن يقول: فلان لا يستحي من الله يفعل كذا وكذا، ويقع في عرضه بالغيبة.

السبب الثاني عشر / إظهار الرحمة والتصنع بمواساة الآخرين:

كأن يقول لغيره من الناس: مسكين فلان قد غمني أمره، وما هو فيه من المعاصي. وفي بعض الأسباب الأخيرة يمكن الخروج من أثم الغيبة بعدم ذكر الأسماء والإخلاص لله تعالى في النصح والتعود على استشعار رقابة الله عند كل كلام والاستعانة بالله، وإلا فلا أتصور أن ينجو أحد من الغيبة، فمن سلم منها في موضع وقع في موضع آخر، ومن سلم من سبب وقع في سبب آخر[١].

المطلب الرابع: ما يباح من الغيبة:

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح صحيح مسلم: تباح الغيبة لغرض شرعي، وذلك لستة أسباب[٢]:

الأول: التظلم: فيجوز للمظلوم أن يتظلم إلى السلطان والقاضي وغيرهما ممن

---

(١) انظر الإحياء ٣/ ١٢٧، وآفات على الطريق ٣/ ١٨.

(٢) شرح النووي، مصدر سابق ١٦ / ١٤٢-١٤٣.

له ولاية أو قدرة على إنصافه من ظالمه، فيقول ظلمني فلان، أو فعل بي كذا.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب، فيقول لمن يرجو قدرته فلان يعمل كذا فازجره عنه ونحو ذلك.

الثالث: الاستفتاء، بأن يقول للمفتي: ظلمني فلان أو أبي أو أخي أو زوجي بكذا فهل له ذلك، وما طريقي في الخلاص منه، ودفع ظلمه عني، ونحو ذلك، فهذا جائز للحاجة، والأجود أن يقول في رجل أو زوج أو والد وولد كان من أمره كذا، ومع ذلك فالتعيين جائز لحديث هند[1] امرأة أبي سفيان، أتت رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، وإنه لا يعطيني ما يكفيني وبني إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فهل علي في ذلك جناح، فقال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[2].

الرابع: تحذير المسلمين من الشر، وذلك من وجوه: منها جرح المجروحين من الرواة والشهود والمصنفين والإعلاميين والسياسيين، وذلك جائز بالإجماع، بل واجب صونا للشريعة، ومنها الإخبار بعيب شخص عند المشاورة في مواصلته أو تزويجه أو توظيفه. ومنها إذا رأيت من يشتري شيئًا معيبًا أو يوظف موظفًا غير أمين أو نحو ذلك تذكره للمنتفع إذا لم يعلمه نصيحة لا بقصد الإيذاء والإفساد، ومنها إذا رأيت متفقهًا يتردد إلى فاسق أو مبتدع يأخذ عنه علمًا وخفت عليه ضرره فعليك نصيحته ببيان حاله قاصدًا النصيحة، ومنها أن يكون له ولاية لا يقوم بها

---

(١) هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أم معاوية، أسلمت عام الفتح بعد إسلام زوجها أبي سفيان بن حرب، توفت في خلافة عمر، وقيل في خلافة عثمان (الإصابة، مصدر سابق ٨/ ١٥٥).

(٢) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب النفقات – باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ ما يكفيها وولدها بالمعروف ٥/ ٢٠٥٢ برقم: ٥٠٤٩.

على وجهها لعدم أهليته أو لفسقه فيذكره لمن له عليه ولاية ليستدل به على حاله فلا يغتر به ويلزم الاستقامة.

وفي الحديث أن فاطمة بنت قيس جاءت تستشير الرسول ﷺ في رجلين خطباها، هما معاوية بن أبي سفيان وأبو جهم، فقال رسول الله ﷺ: «أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، أنكحي أسامة بن زيد» فكرهته، ثم قال: «أنكحي أسامة» فنكحته، فجعل الله فيه خيرًا، واغتبطت[١].

ولا جرم أن يشار هنا إلى أنه ليس من هذا الباب: جرح الثقات المجاهدين المخلصين من العلماء والدعاة المصلحين، الذين باعوا أنفسهم وما يملكون لله ﷻ، وتعرضوا في سبيل ذلك لأصناف شتى من المحن والابتلاءات، حتى كان منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلاً. ومنهم-الشيخ محمد عبد الوهاب[٢] داعية التوحيد في هذا العصر، والشيخ حسن البنا[٣] مجدد الإسلام في القرن الرابع عشر، والشهيد سيد قطب الذي تحولت كلماته التي قالها في ظلال القرآن الكريم - بعد أن مات في سبيلها- إلى أحرف من نور تضيء للسالكين الطريق، وتحملهم على التضحية بالنفس والنفيس، والغالي والرخيص، ليس ذلك كله من هذا الباب بدعوى أنهم منافقون، أو مبتدعون، أو ذيول وأذناب للمستعمرين إذ المنافق أو المبتدع أو الذنب لا يقدم رقبته للموت، أو على الأقل لا يظل ماضيًا في الطريق،

---

(١) رواه مسلم، مصدر سابق - كتاب الطلاق - باب المطلقة ثلاثا لارجعة لها ٢/ ١١١٤ برقم: ١٤٨٠.

(٢) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي داعية التوحيد وزعيم النهضة الإصلاحية الحديثة في الجزيرة العربية ولد سنة ١١١٥هـ وتوفي سنة ١٢٠٦هـ (الأعلام للزركلي مصدر سابق ٦/ ٢٥٧).

(٣) حسن بن أحمد بن عبد الرحمن البنا مؤسس جماعة الأخوان المسلمين بمصر وصاحب دعوتهم ومنظم جماعتهم ولد عام ١٩٠٦م واستشهد عام ١٩٤٩م (المصدر نفسه ٢/ ١٨٣).

وإن لحقه من العنت والأذى ما لحقه[١] مع أن المذكورين بشر غير معصومين.

الخامس: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته، كالخمر، ومصادرة أموال الناس، وأخذ الرشوة وتولي الأمور الباطلة، فيجوز ذكره بما يجاهر به، ولا يجوز بغيره إلا بسبب آخر.

إذ يقول رسول الله ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»[٢].

السادس: التعريف، فإذا كان معروفًا بلقب كالأعمش والأعرج والأزرق والقصير والأعمى والأقطع ونحوها جاز تعريفه به، ويحرم ذكره به تنقصًا ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى.

وقد جمع بعضهم هذه الأمور الستة في قوله:

القدح ليس بغيبة في ستة ... متظلم، ومعرف، ومحذر

ومجاهرٍ فسقا ومستفت ومن ... طلب الإعانة في إزالة منكر[٣]

تنبيه مهم: في جميع الأعذار المرخصة للغيبة العبرة بالنية، فكل نصح يوجهه الإنسان يجب أن يقصد من وراء ذلك النصح وجه الله سبحانه لا لأمر في نفسه، فإن الله يعلم كل شيء، ويعلم ما في نفس الإنسان.

---

(١) آفات على الطريق.. مصدر سابق ٣/ ١٦.

(٢) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب الآداب – باب ستر المسلم على نفسه ٥/ ٢٢٥٤ برقم: ٥٧٢١.

(٣) سبل السلام – محمد بن إسماعيل الصنعاني – دار إحياء التراث، بيروت – الطبعة الرابعة – ١٣٧٩هـ ٤/ ١٩٤. وآفات اللسان في ضوء الكتاب والسنة – سعيد بن علي القحطاني – مكتبة العلم، القاهرة ص ٣٨.

المطلب الخامس: **علاج الغيبة وطريق التوبة منها وكفارتها:**

المسألة الأولى / علاجها:

وإذا أردنا علاج الغيبة فلا بد من معرفة الأسباب الباعثة عليها، وأن نتذكر أننا محاسبون على أعمالنا، وأن الله سيجازينا بكل فعل.

وعلى كل حال فعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين[(١)].

أحدهما/على الجملة: أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التي سبق ذكرها، وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلاً عما استباحه من عرضه فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه وهو مع ذلك متعرض لمقت الله ﷻ ومشبه عنده بآكل الميتة.

قال رجل للحسن: بلغني أنك تغتابني! فقال الحسن: ما بلغ من قدرك عندي أني أحكمك في حسناتي.

الوجه الثاني/على التفصيل: وهو أن ينظر إلى الأسباب الباعثة على الغيبة، فإن علاج العلة بقطع سببها.

فإذا كان سبب الغيبة الغضب: فعليه أن يقول: إن أمضيت غضبي عليه فأنا أخشى الله أن يمضي غضبه علي بسبب الغيبة، فإن الله قد نهاني عنها فعصيته واستخففت بنهيه.

وإذا كان سبب الغيبة موافقة الآخرين وطلب رضاهم: فعليك أن تعلم أن الله يغضب عليك إذا طلبت سخطه برضا المخلوقين، فكيف ترضى لنفسك أن تسخط مولاك من أجل إرضاء المخلوقين الذين لا ينفعون ولا يضرون.

---

(١) إحياء علوم الدين، مصدر سابق ٣/ ١٢٩-١٣٠.

وإذا كان سبب الغيبة: الغضب لله فلا تذكر المغضوب عليه بسوء لغير ضرورة بل ينبغي أن تغضب على من اغتابه، إلا إذا كان من باب تحذير المسلمين عن الشر.

وإذا كان سبب الغيبة: هو تنزيه النفس ونسبة الخيانة إلى غيرك. فاعلم أن التعرض لمقت الله أشد من التعرض لمقت الخلق، وأنت بالغيبة قد تعرضت لسخط الله يقينا، ولا تدري هل تسلم من سخط الناس أم لا.

وإذا كان سبب الغيبة: هو الرغبة في أن تزكي نفسك بزيادة الفضل، وذلك بقدحك في غيرك، حتى تشعر الناس أنك تتصف بخلاف ما يتصف به من اغتبته، فاعلم انك بما ذكرته أبطلت فضلك عند الله تعالى إن كان لك فضل، وأنت من اعتقاد الناس فضلك لست على يقين.

وإذا كان سبب الغيبة: هو الحسد، فأنت قد جمعت بين عذابين، لأنك حسدته على نعمة الدنيا فكنت معذبا بالحسد، وذلك لأن الحاسد يجد الهم والغم وضيق الصدر، ثم لا يقنع بذلك حتى يضاف إليه عذاب آخر يوم القيامة.

وإذا كان سبب الغيبة: هو الاستهزاء والسخرية، فينبغي للحاسد أن يعلم أنه متى استهزأ بغيره عند الناس فإن ذلك يكون مخزيًا لنفسه عند الله ثم عند خلقه، وهذه هي الخسارة بعينها.

وإذا كان سبب الغيبة: الرحمة بغيره، فهذا مقصود فاسد، لأنه أراد الرحمة فوقع في الغيبة المحرمة، فلو كان صادقًا له في رحمته لنصح له ووجهه وأرشده.

وإذا كان سبب الغيبة: هو التعجب والضحك، فإنه ينبغي للمغتاب أن يتعجب من نفسه كيف أهلك نفسه بنفس غيره، وكيف نقص دينه بكمال دين غيره أو دنياه.

وإذا كان سبب الغيبة البيئة المحيطة، فعليه أن لا يبقى في هذه البيئة، ويبحث عن بيئة صالحة تعينه على الخير وتحذره من الشر، وإذا كان سبب الغيبة عدم التثبت، حرص على تحري الحق في كل ما يقول ويسمع، وأن يصاحب أهل الحق والصدق، وأن يتثبت من كل خبر يصل إليه.

وأخيرًا نذكر بقول الرسول ﷺ:«طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»[(١)][(٢)].

المسألة الثانية: طريق التوبة من الغيبة وكفارتها:

وطريق التوبة بالنسبة لمن اغتاب المسلمين هو أن يتحلله ويطلب منه العفو إذا أمن الفتنة، أما إذا كان هذا يسبب الشحناء أو يسبب منكرًا آخر أو فتنة فإن المغتاب يذكره بالخير الذي فيه في المجالس التي ذكره فيها بسوء، ويرد عنه الغيبة بجهده وطاقته، فتكون تلك بتلك إن شاء الله، مع مراعاة شروط التوبة[(٣)]..

ويذكر عن النبي ﷺ أن كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته، تقول: (اللهم اغفر لنا وله)[(٤)].

وهذه المسالة فيها قولان للعلماء:

هل يكفي التوبة من الغيبة والاستغفار للمغتاب؟ أم لابد من إعلامه وتحلله؟ والصحيح أنه لا يحتاج إلى إعلامه، بل يكفيه الاستغفار، وذكره بمحاسن ما فيه في

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان، مصدر سابق ٧/ ٣٥٥ برقم: ١٠٥٦٣. ورواه القضاعي في مسند الشهاب ١/ ٣٥٨ وحسنه السيوطي، وقال المناوي: روايات الحديث كلها ضعيفة، انظر فيض القدير ٨/ ٣٨٩١ وقال الألباني في ضعيف الجامع: ضعيف جدا ٥٣٣ برقم: ٣٦٤٤.

(٢) أحياء علوم الدين، مصدر سابق ٣/ ١٢٩-١٣٠. بتصرف.

(٣) آفات اللسان، مصدر سابق ص ٣٣.

(٤) رواه البيهقي في الشعب، مصدر سابق ٥/ ٣١٧ برقم: ٦٧٨٦ وقال الألباني: موضوع، أنظر ضعيف الجامع برقم ٤١٩٠.

المواطن التي اغتابه فيها، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

والذين قالوا: لا بد من إعلامه، جعلوا الغيبة كالحقوق المالية، والفرق بينهما ظاهر فإن الحقوق المالية ينتفع المظلوم بها نظير مظلمته، فإن شاء أخذها وإن شاء تصدق بها وأما في الغيبة فلا يمكن ذلك ولا يحصل له بإعلامه إلا عكس مقصود الشارع، فإنه يوغر صدره ويؤذيه إذا سمع ما رمي به، ولعله يهيج عداوته ولا يصفو له أبدًا وما كان هذا سبيله فان الشارع الحكيم لا يبيحه ولا يجوزه، فضلاً عن أن يوجبه ويأمر به ومدار الشريعة على تعطيل المفاسد وتقليلها لا على تحصيلها وتكميلها، قال الحسن البصري: كفارة الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته، والله تعالى أعلم[1].

وقال رسول الله ﷺ: «أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضمضم؟ كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك»[2].

والخلاصة: أن الغيبة مرض فتاك قد أبتلي به كثير من العامة، بل والدعاة وطلبة العلم والمشايخ، ولا بد من وقفة جادة من كل من له تأثير لمحاربة هذه الرذيلة، وتقليلها في المجتمع، فقد أصبحت فاكهة المجتمعات، ولا يخلو منها مجتمع إلا من رحم الله، ومن سلم منها بطريق لبس عليه الشيطان بطريق آخر، فهناك من يغتاب المسلمين ويتصور أنه يؤدي واجب النصح، أو قول الحق، وهو بعيد كل البعد عن ذلك.

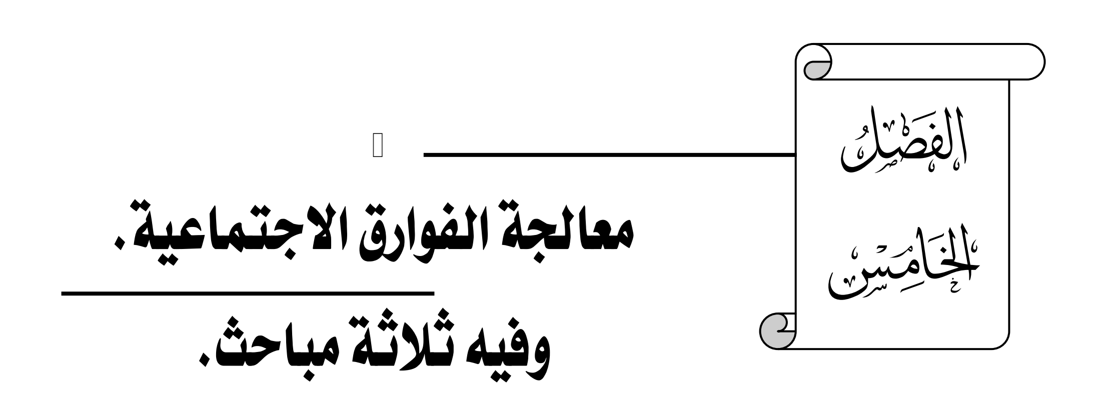
فمن يتكلم في أعراض العلماء والدعاة والصالحين من الأمة، ويصنفهم إلى

---

(١) أنظر مجموع الفتاوى، مصدر سابق ٣/ ٢٩١ بتصرف.

(٢) أخرجه أبو داوود، مصدر سابق ٤/ ٢٧٢ برقم: ٤٨٨٦. وقال: رجاله ثقاة، وإرساله أصح. وقال الألباني: ضعيف،أنظر ضعيف الجامع ص ٣٢٢ رقم: ٦٧٢.

مبتدع وصوفي وأشعري وقدري ومتهاون ومنحرف ومشرك وضال مضل دون أي سند شرعي، وأحيانًا دون معرفة أو لقاء بالشخص المتهم البريء، وإنما بنقل الكذبة الذين هم ثقات عند آكل لحوم الناس، دون تورع أو خوف من الله تعالى وعقابه، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وإذا كان هذا بين أهل العلم وطلابه فكيف بعامة الناس.



معالجة الفوارق الاجتماعية.

وفيه ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: وحدة الأصل والنشأة. وفيه أربعة مطالب.

المبحث الثاني: العصبية وأثرها في تمزيق المجتمعات. وفيه خمسة مطالب.

المبحث الثالث: أساس التفاضل في الإسلام. وفيه أربعة مطالب.





المبحث الأول: وحدة الأصل والنشأة.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الآية وتمهيد وأسباب النزول

المطلب الثاني: أصل البشرية.

المطلب الثالث: التنوع للتعارف.

المطلب الرابع: التنوع يدعو للأخوة.

المطلب الأول: **الآية و تمهيد وأسباب النزول:**

المسألة الأولى / الآية:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ .

[الحُجُرات: ١٣]

المسألة الثانية / تمهيد:

«بعد هذه النداءات المتكررة للذين آمنوا؛ وأخذهم إلى ذلك الأفق السامي الوضيء من الآداب النفسية والاجتماعية؛ وإقامة تلك السياجات القوية من الضمانات حول كرامتهم وحريتهم وحرماتهم، وضمان هذا كله بتلك الحساسية التي يثيرها في أرواحهم، بالتطلع إلى الله وتقواه..

بعد هذه المدارج إلى ذلك الأفق السامق، يهتف بالإنسانية جميعها على اختلاف أجناسها وألوانها، ليردها إلى أصل واحد، وإلى ميزان واحد، هو الذي تقوم به تلك الجماعة المختارة الصاعدة إلى ذلك الأفق السامق.

إن منهج القرآن الكريم واضح في المساواة بين الناس مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم وتعددت أعراقهم، فهم يعودون إلى أب واحد وأصل واحد ومن يفتخر منهم على غيره فإنما ذلك بسبب الجهل أو الكبر، وقد حدد الله سبحانه وتعالى الكرم والتكريم بوضوح في هذه الآية: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ﴾، وهو بالالتزام بالتقوى التي أمر الله بها الأولين والآخرين، وجعلها وصية لهم أجمعين، وبها الفوز والفلاح في الدنيا والآخرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾.

يا أيها الناس، يا أيها المختلفون أجناسًا وألوانًا، المتفرقون شعوبًا وقبائل، إنكم من أصل واحد، فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بددا.

يا أيها الناس، إن الذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم.. من ذكر وأنثى.. وهو يطلعكم على الغاية من جعلكم شعوبًا وقبائل. إنها ليست التناحر والخصام، إنما هي التعارف والوئام. فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات، وليس للون والجنس واللغة والوطن وسائر هذه المعاني من حساب في ميزان الله، إنما هنالك ميزان واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ .. والكريم حقًا هو الكريم عند الله. وهو يزنكم عن علم وعن خبرة بالقيم والموازين: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[(١)]..

المسألة الثالثة / أسباب النزول:

قال السيوطي[(٢)]: لما كان يوم الفتح رقى بلال على ظهر الكعبة فأذن، فقال بعض الناس: أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة؟ فقال بعضهم: إن يسخط

---

(١) في ظلال القرآن.. مصدر سابق ٦/ ٣٣٤٨. بتصرف.

(٢) عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، الإمام الحافظ المحدث، ولد سنة ٨٤٩ هـ بالقاهرة، حفظ القرآن وعدة متون في صغره، وقرأ على مشايخ كثيرين، وله مصنفات كثيرة جدا، توفي سنة ٩١١ هـ (الأعلام للزركلي ٣/ ٣٠١).

الله هذا يغيره، فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾.

وقيل: إنها نزلت في أبي هند[١]، أمر رسول الله ﷺ بني بياضة أن يزوجوه امرأة منهم قالوا: يا رسول الله نزوج بناتنا موالينا، فنزلت[٢].

وقيل: نزلت في ثابت بن قيس وقوله في الرجل الذي لم يفسح له: أنت ابن فلانة.

وقيل: إن عبدًا أسود مرض فعاده النبي ﷺ ثم قُبض فتولى غسله وتكفينه ودفنه، فأثر ذلك عند الصحابة، فنزلت[٣].

ولا يعقل أن الصحابة يتأثرون بعد التربية الإيمانية لماذا غسل النبي ﷺ عبدًا أسود فالناس عند الله ورسوله والمؤمنين سواء، كما في الآية، ليس الفضل إلا بالتقوى لا باللون والجنس وغير ذلك.

المطلب الثاني: أصل البشرية:

المسألة الأولى / آدم أصل البشرية:

بين القرآن الكريم بوضوح أن أصل الإنسان آدم عليه السلام، وأن آدم خلق من التراب وأن حواء خلقت من آدم، ومنهما خلق الله بني آدم كما هو واضح في كثير من الآيات ومنها هذه الآية: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾، وقد أجمع المفسرون

---

(١) قيل اسمه عبد الله، ويقال اسمه يسار، ويقال سالم بن أبي سالم الحجام، يقال له أبو هند، قال ابن إسحاق:هو مولى فروة بن عمرو البياضي تخلف أبو هند عن بدر، ثم شهد سائر المشاهد، وكان يحجم رسول الله ﷺ وقال فيه النبي ﷺ إنما أبو هند امرؤ من الأنصار فأنكحوه وأنكحوا إليه يا بني بياضة. (الاستيعاب.. لأبن عبد البر ٤/ ١٧٧٢).

(٢) لباب النقول، مصدر سابق ١٩٤. والدر المنثور ٧/ ٥٧٨ وقد ذكره الألباني بلفظ «يابني بياضه، أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه» وكان حجاما وقال إسناده حسن،الصحيحة ٥/ ٥٧٤ برقم: ٢٤٤٦.

(٣) زاد المسير مصدر سابق ٧/ ٤٧٣.

أن المقصود بالذكر والأنثى آدم وحواء أو ماء الرجل وماء المرأة[١]، فبين سبحانه أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، ولو شاء لخلقه دونهما كخلقه لآدم عليه السلام، أو دون ذكر كخلقه لعيسى عليه السلام، أو دون أنثى كخلقه حواء[٢] ومما يؤيد أن آدم أصل البشرية قوله تعالى في أول سورة النساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

وقوله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وما تبينه الآية ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ هو حقيقة المرحلة الثانية للإنسانية والتي ربطت قدرة الله الخلاق العظيم بها إيجاد الإنسان من العدم إلى الوجود، بسبب لقاء ماء الرجل وماء المرأة في الرحم فمنهما يخلق الولد جميعًا[٣].

وهذه هي وحدة البشرية في أصل نشأتها ومادتها، التي خلقها الله على تلك الصورة الكريمة التي تتجلى فيها قدرته وحكمته ورحمته، فالإنسانية كلها ما ظهر منها وما سيظهر هي ثمرة بذرة واحدة أنبتها الله بحكمته ونفخ فيها من روحه، ومن هذه النفس خلق الله البشرية جمعاء، وما أجمل كلمة البث ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا

(١) انظر القرطبي ١٦/ ٣٤٠، والطبري ٢٦/ ١٣٨، والأساس ٩/ ٥٤١٧.

(٢) القرطبي مصدر سابق ١٦/ ٣٤٢.

(٣) الطبري، مصدر سابق ٢٦/ ١٣٨.

وَنِسَآءً﴾ فإنها دلالة على انتشار بني آدم في الأرض كلها، وليس هذا في خلق الإنسان وحده، بل هو التدبير الذي قدره الله في خلق الكائنات الحية كلها من حيوان ونبات ومن يدري فربما كان ذلك في عالم الجماد أيضًا، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩][١].

والذكر والأنثى فيه وجهان:

أحدهما/من آدم وحواء.

ثانيهما/كل واحد منكم أيها الموجودون وقت النداء خلقناه من أب وأم، فإن قلنا أن المراد هو الأول (آدم وحواء)، فذلك إشارة إلى أن لا يتفاخر البعض على البعض لكونهم أبناء رجل واحد و امرأة واحدة، وإن قلنا أن المراد هو الثاني (أب وأم)، فذلك إشارة إلى أن الجنس واحد، فإن كل واحد خلق كما خلق الآخر من أب وأم[٢].

ونصت الآيتان على خلق زوجه منه، وهي حواء التي خلقت من ضلع آدم الأيسر فوجدها في جانبه، وأعجبته فأنس إليها وأنست إليه، ولم تقف الآيتان عند هذا الحد من البيان والإشارة إلى آدم وحواء، بل نصت آية النساء زيادة في التوضيح على نشر الرجال والنساء منهما، وبث منهما رجالاً كثيرًا ونساء، أي وذرأ منهما، أي من آدم وحواء رجالاً كثيرًا ونساءً، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاد والمحشر[٣].

---

(١) التفسير القرآني للقران..لعبد الكريم الخطيب - دار الفكر العربي بيروت – ٢/ ٦٨٢.

(٢) التفسير الكبير للرازي ٢٨/ ١٣٧.

(٣) تفسير ابن كثير، مصدر سابق ١/ ٤٥٩.

فالله تعالى إنما خلق آدم وحواء ليكونا أصل البشر، وليبث منهما رجالاً كثيرًا ونساءً، فكيف كانت حواء لا يعيش لها ولد كما ذكر حديث: «لما حملت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش، فسموه عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»[١]. قد كان آدم وحواء أتقى لله مما ذكر عنهما في هذا، فإن آدم أبو البشر الذي خلقه الله تعالى بيده ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء وأسكنه جنته وتاب الله عليه وذكره بالهداية وقال عنه الرسول ﷺ: بأنه نبي مرسل، كما في حديث أبي ذر قال: قلت يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا»، قلت: يا رسول الله،كم الرسل منهم. قال: «ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير، قلت يا رسول الله من كان أولهم. قال: «آدم»، قلت:يا رسول الله، نبي مرسل؟ قال: «نعم خلقه الله بيده، ثم نفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلاً»[٢].

المسألة الثانية / في القرآن الناس جميعا لآدم:

بعد أن ذكر ابن كثير معظم الآيات التي تتكلم عن خلق آدم واستخلافه وسجود الملائكة وتكبر إبليس، قال: (فهذا ذكر هذه القصة من مواضع متفرقة من القرآن، وخلاصتها أن الله جاعل في الأرض خليفة هو آدم، وذريته الذين يخلف بعضهم بعضا وذكر جملة من الأحاديث تؤيد الآيات في أن آدم أبو البشر جميعًا،

---

(١) ذكره ابن كثير أنظر البداية والنهاية ١/ ٩٦ وقال: والمظنون، بل المقطوع به أن رفعه إلى النبي ﷺ خطأ، والصواب وقفه، والظاهر أن هذا متلقى عن كعب الأحبار. وضعفه الألباني، أنظر ضعيف الجامع ٦٨٧ برقم: ٤٧٦٩.

(٢) البداية والنهاية لأبن كثير١/ ٩٧ ومسند الحارث (زوائد الهيثمي ١/ ١٩٥، وابن تيمية في الفتاوى ١٢/ ٥٨ وذكره الألباني بلفظ « كان آدم نبيا مكلما» وقال: إسناده حسن، الصحيحة ٦/ ٣٥٨ برقم: ٢٦٦٨.

ومنها حديث الشفاعة «يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو البشر..»[١]. وقد جاء في القرآن الكريم آيات تبين أن الناس جميعًا لآدم ومنها:-

١- قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

٢- وقال تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

٣- وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣].

وقد أجمع المفسرون المعتبرون، بأن المقصود في هذه الآيات الثلاث بالذكر والأنثى والنفس الواحدة وزوجها، إنما هو آدم وحواء، وحتى الذين يؤولون النفس والذكر والأنثى بالجنس، يجمعون على أن البشرية كلها من آدم عليه السلام.

قال الرازي[٢]: أجمع المسلمون على أن المراد بالنفس الواحدة ههنا آدم عليه

---

(١) المصدر نفسه١/ ٦٨ -٧١ والحديث في البخاري، كتاب التفسير، باب وعلم أدم الأسماء ٤/ ١٦٢٤ برقم ٤٢٠٦.

(٢) محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري المعروف بالفخر الرازي، الإمام المفسر، ولد سنة ٥٤٤هـ، توفي سنة ٦٠٦هـ (الأعلام مصدر سابق ٦/ ٣١٣).

السلام وقال: أحتج جمع من الطبائعيين بهذه الآية، فقالوا: قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ يدل على أن الخلق كلهم مخلوقون من النفس الواحدة، وقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يدل على أن زوجها مخلوقة منها[1].

وقال القرطبي: قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم وجعل منها زوجها يعني حواء[2].

وفي القرآن آيات أخرى غير ما ذكر يفهم من أساليبها أن البشرية جميعًا من آدم وحواء مثل قوله تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

فهو يخاطب البشرية جمعاء بأنه سبحانه خلقهم من الأرض (من الطين) ويعيدهم فيها ثم يبعثهم بعد الموت، وفي موضع آخر يمتن على البشرية بأنه سبحانه أسجد ملائكته للإنسان الأول وأحسن تصويره، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[الأعراف: ١١]. والخطاب للناس جميعًا والقصة لأبيهم آدم عليه السلام يلفت نظرهم إليها.

وإبليس يهدد آدم وذريته بأخذ الثأر من بني آدم لتكريم الله لهم عليه، ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

---

(١) التفسير الكبير للرازي ٩/ ١٦٠-١٦١.

(٢) تفسير القرطبي، مصدر سابق ٧/ ٣٣٧.

وهذا يعني أنه لم يكن أمام إبليس من ينافسه غير آدم وذريته، وكل ما حكاه القرآن من الصراع بين آدم وإبليس، وما سبق من ذلك من حوار بين الملائكة وربنا جل وعلا وخطابه لهم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣١].

كل ذلك يدل على أن آدم هو الإنسان الأول ولا أب للبشرية سواه.

وكلما سمعنا في القرآن النداء بيا بني آدم زاد يقيننا بأن آدم أصل البشرية ومن ذلك نداؤه سبحانه لبني آدم قبل أن يعرفوا الملابس ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦ - ٢٧]. وهي دعوة للستر والحياء واستخدام الملابس لستر أجسادهم المادية، والعمل بأمره واتباع رسله ليلبسوهم لباس التقوى وهو خير، ويحذروهم من إبليس الذي ينزع بمكره عنهم الحياء والملابس، كما كان سببًا في نزعهما عن أبيهم وأمهم آدم وحواء في الجنة ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾.

إن الأبناء عليهم أن يتذكروا تاريخ آبائهم والمخاطر التي مروا بها حتى لا يقعوا فيها، وفي هذه النداءات في سورة الأعراف بعد قصة آدم وزوجه حواء كفاية في صحة النسبة وثبات الأبوة من آدم للجميع.

«هذا النداء يجيء في ظل المشهد الذي سبق عرضه من القصة.. مشهد العري وتكشف السوءآت والخصف من ورق الجنة.. لقد كان هذا ثمرة للخطيئة.. والخطيئة كانت في معصية أمر الله، وتناول المحظور الذي نهى عنه الله.

إنه النداء الثاني لبني آدم، في وقفة التعقيب على قصة أبويهم، وما جرى لهما مع الشيطان؛ وعلى مشهد العري الذي أوقفهما فيه عدوهما، بسبب نسيانهما أمر ربهما والاستماع إلى وسوسة عدوهما.

لقد كان النداء الأول تذكيرًا لبني آدم بذلك المشهد الذي عاناه أبواهم؛ وبنعمة الله في إنزال اللباس الذي يستر العورة والرياش الذي يتجمل به.. أما هذا النداء الثاني فهو التحذير لبني آدم عامة وللمشركين الذين يواجههم الإسلام في الطليعة. أن يستسلموا للشيطان، فيما يتخذونه لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد؛ فيسلمهم إلى الفتنة - كما فعل مع أبويهم من قبل، إذ أخرجهما من الجنة ونزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما- فالعري والتكشف الذي يزاولونه - والذي هو طابع كل جاهلية قديمًا وحديثًا - هو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية، وتنفيذًا لخطة عدوهم العنيدة في إغواء آدم وبنيه؛ وهو طرف من المعركة التي لا تهدأ بين الإنسان وعدوه. فلا يدع بنو آدم لعدوهم أن يفتنهم؛ وأن ينتصر في هذه المعركة، وأن يملأ منهم جهنم في نهاية المطاف!»[1].

المسألة الثالثة / السنة تؤكد أن جميع الناس لآدم:

وأما السنة التي هي تفسير للقرآن، وتوضيح لدعوته، فقد جاءت فيها نصوص صحيحة، لا لبس فيها ولا مطعن، في مختلف الأبواب، وكلها تساند نسبة الرسول ﷺ البشر جميعًا إلى آدم عليه السلام. وهذه الأخبار تساند وتقرر ما جاء في كتاب

(١) في ظلال القران، مصدر سابق ٣/ ١٢٧٨-١٢٧٩.

الله تعالى. وما كان الرسول ﷺ في حاجة لبيان ذلك على وجه الخصوص، رغم دوران كلمة بني آدم في أخباره إفرادًا وجمعًا فمن الإفراد قوله ﷺ: «لا يأتي ابن آدم النذر بشيء لم يكن قدر له، ولكن يلقيه النذر إلى قدر قد قدر له، فيستخرج الله به من البخيل فيؤتى عليه من قبل»[1].

وقوله ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»[2]، ومن ذكر الجمع قولـه ﷺ: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء»، ثم قال ﷺ: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»[3] بل إن هذه الأبوة يذكرها في معرض حديثه عن الأخوة لأنها تستلزمها وأن الناس سواسية، ليس مراده في ذكر هذه البنوة إقناع الناس أنهم بنو الإنسان الأول، وهو من التراب، لأن ذلك بدهي، ومعرفته ضرورية.

وما كان الناس الذين يسألون عن كل شيء رسول الله ﷺ حرصًا منهم في التعلم ومعرفة ما غاب عنهم وخفي، ما كانوا يشكون في أبوة آدم لبني البشر جميعًا، ولو تلجلج في صدر أحدهم لسأل وهم يعلمون أن الحكمة ضالة المؤمن، وأن دواء العي السؤال، وأن الله لا يستحي من الحق، وأن الساكت عن الحق شيطان أخرس... ولا كان أحد من المشركين وأهل الكتاب يشك في هذه الأبوة مطلقًا،

---

(١) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب الإيمان والنذور – باب الوفاء بالنذر وقوله يوفون بالنذر٦/ ٢٤٦٣ برقم: ٦٣١٦.

(٢) رواه مسلم، مصدر سابق – كتاب القدر - باب قدر على ابن آدم قدر من الزنى وغيره – ٤/ ٢٠٤٧ برقم: ٢٦٥٧.

(٣) المصدر نفسه – كتاب القدر– باب تصريف الله تعالى القلوب ٤/ ٢٠٤٥ برقم:٢٦٥٤.

ولو وجدوا بسببها منفذا للطعن في الوحي ورسالة الرسول ﷺ لفعلوا ولا يقصرون في ذلك.. وهل نقل أنهم عارضوا القرآن والرسول ﷺ بسبب ذلك ونطقوا بنقدهم كما كان في غير هذا؟[١].

وخلاصة القول: إن السنة المطهرة سلكت في قصة آدم وأبوته وبنوة البشر جميعا له نفس المسلك الذي جاء في أساليب القرآن، وقد جاء في السنة قصص ثابتة متواترة تتعلق بأحوال البشر جميعًا في بدايتهم ومحنتهم في نهايتهم كالقصة الصحيحة في حوار آدم مع موسى عليهم السلام[٢] ومفهوم القصة أن موسى ينسب البشرية إلى آدم عليهما السلام. وكحديث الشفاعة الذي يبين مطلب بني آدم من أبيهم آدم الشفاعة لأنه أبوهم الذي خلقه الله بيده وقد ترددت كلمة بني آدم في أحاديث كثيرة بشكل ملحوظ، ولم يستشكل أحد من الأمة ذلك لقناعة الجميع وإيمانهم أن آدم أبو البشر، ولم يحصل خلاف في ذلك قديمًا[٣].

المطلب الثالث: **التنوع للتعارف:**

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ﴾.. وهو بهذا سبحانه يبين أن الحكمة من جعل الناس شعوبًا وقبائل لها فوائد وأهداف هامة في حياتهم، منها حكمة التعارف والتعاون ومعرفة، أنهم من أصل واحد، فلا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد.

---

(١) أنظر منهج الدعوة، مصدر سابق ص ١١٠.

(٢) جاء في الصحيحين: «أحتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم، أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا..» الخ الحديث. البخاري ٦/ ٢٤٣٩ كتاب القدر– باب تحاج آدم وموسى برقم: ٦٢٤٠ – ومسلم – كتاب القدر – باب حجاج آدم وموسى ٤/ ٢٠٤٢.

(٣) أنظر منهج الدعوة مصدر سابق ص ١١٢.

والشعوب: جمع شعب بفتح الشين، وهو مجمع القبائل التي ترجع إلى جد واحد من أمة مخصوصة، فالأمة العربية تنقسم إلى شعوب كثيرة، فمضر شعب، وربيعه شعب وأنمار شعب، وأياد شعب، وتجمعها الأمة العربية المستعربة، وهي عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، وحمير وسبأ، والأزد شعوب من أمة- قحطان. وكنانة وقيس وتميم قبائل من شعب مضر، ومذحج وكندة قبائل من شعب سبأ، والأوس والخزرج قبيلتان من شعب الأزد.

وتحت القبيلة العمارة مثل قريش من كنانة، وتحت العمارة البطن مثل قصي من قريش، وتحت البطن الفخذ مثل هاشم وأمية من قصي، وتحت الفخذ الفصيلة مثل أبي طالب والعباس وأبي سفيان.

واقتصر القرآن على ذكر الشعوب والقبائل لأن ما تحتها داخل بطريق لحن الخطاب.

وتجاوز عن ذكر الأمم جريًا على المتداول في كلام العرب في تقسيم طبقات الأنساب إذ لا يدركون إلا أنسابهم.

وجعلت علة جعل الله إياهم شعوبًا وقبائل وحكمته من هذا الجعل أن يتعارف الناس، أي يعرف بعضهم بعضًا.

والتعارف يحصل طبقة بعد طبقة متدرجًا إلى الأعلى، فالعائلة الواحدة متعارفون والعشيرة متعارفون من عائلات، إذ لا يخلون عن أنساب ومصاهرة، وهكذا تتعارف العشائر مع البطون، والبطون مع العمائر، والعمائر مع القبائل، والقبائل مع الشعوب، لأن كل درجة تأتلف من مجموع الدرجات التي دونها[1].

وقيل: إن الشعوب عرب اليمن من قحطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر

(١) انظر التحرير والتنوير، مصدر سابق ٢١٦/٢٦.

عدنان. وقيل: إن الشعوب بطون العجم، والقبائل بطون العرب.

وقال ابن عباس: إن الشعوب الموالي والقبائل العرب.

وقيل: الشعوب من لا يعرف لهم أصل نسب، كالهند والجبل والترك، والقبائل من العرب[١].

﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ..﴾.

وجعلناكم متناسبين، فبعضكم يناسب بعضًا نسبًا بعيدًا، وبعضكم يناسب بعضا نسبًا قريبًا، فالمناسب النسب البعيد من لم ينسبه أهل الشعوب، وذلك إذا قيل للرجل من العرب: من أي شعب أنت؟ قال: أنا من مضر، أو من ربيعة. وأما أهل المناسبة القريبة أهل القبائل وهي كتميم من مضر، وبكر من ربيعة، وأقرب القبائل الأفخاذ، وهما كشيبان من بكر، ودارم من تميم، ونحو ذلك.

﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ليعرف بعضكم بعضًا في النسب، يقول تعالى ذكره: إنما جعلنا هذه الشعوب والقبائل لكم أيها الناس، ليعرف بعضكم بعضًا في قرب القرابة منه وبعده، لا لفضيلة لكم في ذلك، وقربة تقربكم إلى الله، بل أكرمكم عند الله أتقاكم[٢].

فقد علل الله سبحانه وتعالى هنا جعل العباد شعوبًا وقبائل للتعارف لا للفخر، والجعل هذا إضافة جديدة بعد خلق البشرية ومنحهم مميزات، لأن الخلق أصل تفرع منه الجعل وكان ذكر الأعم وهو الشعوب والقبائل أبعد عن الافتخار، لأن في الأعم الضعفاء، والأقوياء والأغنياء، والفقراء، والعلماء، والجهال، وكل

---

(١) أنظر القرطبي، مصدر سابق ١٦/ ٣٤٤.

(٢) أنظر الطبري، مصدر سابق ٢٦/ ١٣٨-١٤٠.

ذلك يدعو إلى أمرين:

التناصر لا التفاخر والتعارف لا التناكر[١].

إن سنة الله في الحياة اقتضت وجود متقابلين في الوجود، ودعت إلى لقاء بينهما وتكوين الوحدة بسبب الميل الطبيعي في اللقاء، ولكي يتم ذلك، ويبقى بين وحدات الوجود الإنساني، خلق الله بينهما الذكر والأنثى، وخلق بين النوعين تقابلا في التكوين ليكون دافعًا إلى التقارب، وجعل في كل مجموعة منها ما يحرك إلى اللقاء، بمجموعة أخرى، فالذكورة والأنوثة عامل للتقابل بين الأفراد، والاختلاف بين المجموعات أو الشعوب في أصلها وعُرفها هو نفسه الدافع للتقارب والألفة، ومعنى هذا أن أفراد الإنسان لو كانوا جميعا ذكورا أو إناثا، أو كان الناس شعبًا واحدًا أو قبيلة واحدة لكان ذلك دافعًا للنفرة وعدم الوئام..!! وإذا تأملنا الموجودات نجدها خلقها الله على أساس الزوجية وهو التقابل، والاختلاف بين أفراد النوع:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١]. وقال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

المطلب الرابع: **التنوع يدعو للأخوة:**

إن منهج القرآن الكريم يدعو إلى الألفة والمحبة بين أبناء المجتمع، بل بين الناس جميعا وقد سبق الكلام عن الأخوة الإسلامية بشيء من التفصيل، وهنا لا بد من

---

(١) انظر الرازي، مصدر سابق ٢٨/ ١٣٨.

الإشارة أن توزع الناس إلى شعوب وقبائل لا يعني هدم الأخوة الإنسانية وبناء العداوات، بل إن منهج القرآن يستغل هذا التباعد والتعدد في الألوان والتنوع في الأجناس والبلدان ليقرب الناس بعضهم من بعض.

فتوزع الناس إلى شعوب وقبائل ليس أمرًا ذاتيًا تتغير بـه حقيقـة الإنسـانية في الناس، إنهم مهما اختلفوا شعوبًا وأوطانًا فإنهم إخوة قرابة ونسـبًا، وقولـه تعـالى: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ تعليل لهذا التقسيم الذي وقع في محيط الناس فكـانوا شـعوبًا، وقبائـل وذلك ليتعارفوا، وليكون لهم في مجتمع الشعب أو القبيلة تماسك وترابط، لأنهـم في هذا المحيط الضيق نسبيًا أقدر على أن يتعارفوا ويتآخوا، الأمر الذي لا يقع إن وقـع إلا باهتًا، لا يكاد يحس لو أن الإنسان كان فردًا في الإنسانية كلـها، فلمـا جعـل الله سبحانه وتعالى لنا من أنفسنا أزواجًا نسكن إليها وأولادًا تقر بهـم أعيننـا، وتصـب فيهم روافد عواطفنا جعل الله لنا المجتمعات التي ننتمـي إليهـا والأمـم الـتي نـرتبط بالحياة معها، وكما أن الأسرة لا تعزلنا عن الأمة، ولا تقطعنا عن مجتمعنا، كـذلك ينبغي أن لا تعزلنا أمتنا عن الأمم، ولا يقطعنـا مجتمعنـا عـن المجتمعـات الأخـرى، فـالاختلاف الواقـع بـين النـاس، وتمـايزهم شـعوبًا وأممًـا هـو في الواقـع سـبب تعارفهم[1].

فالتعارف لا التنافر أساس العلائق بين البشر، وقد تطرأ عوائق تمنع من التعارف الواجب المضي في مجراه، وإمداد الحياة بآثاره الصالحة في زحام البشر على موارد الرزق، وفي اختلافهم على فهم الحق وتحديد الخير، قد يثور نزاع، ويقع صدام، بيد أن هذه الأحداث السيئة لا ينبغي أن تنسي الحكمة المنشودة من خلق الناس وتعمير الأرض بجهودهم المتناسقة.

---

(١) التفسير القرآني..مصدر سابق ٢٦/ ٤٥٣..

وكل رابطة توطد هذا التعارف، وتزيح من طريقه العوائق، فهي رابطة يجب تدعيمها، والانتفاع بخصائصها، وليس الإسلام رابطة تجمع بين عدد قل أو كثر من الناس فحسب. ولكنه جملة الحقائق التي تقرر الأوضاع الصحيحة بين الناس وربهم، ثم بين الناس أجمعين، ومن ثم فأصحاب الإسلام وحملة رسالته يجب أن يستشعروا جلال العقيدة التي شرح الله بها صدورهم، وجمع عليها أمرهم، وأن يولوا التعارف عليها ما هو جدير به من عناية وإعزاز.. إنه تعارف يجدد ما درس من قرابة مشتركة بين الخلق، ويؤكد الأبوة المادية المنتهية إلى آدم بأبوة روحية ترجع إلى تعاليم الأديان الملخصة في رسالة الإسلام، وبذلك يصير الدين الخالص أساس أخوة وثيقة العرى، تؤلف بين أتباعه في مشارق الأرض ومغاربها، وتجعل منهم على اختلاف الأزمنة والأمكنة، وحدة راسخة الدعامة سامقة البناء، لا تنال منها العواصف الهوج.

وهذه الأخوة هي روح الإيمان الحي، ولباب المشاعر الرقيقة التي يكنها المسلم لإخوانه، حتى أنه ليحيا بهم ويحيا لهم، فكأنهم أغصان انبثقت من دوحة واحدة، أو روح واحد حل في أجسام متعددة[1].

ورابطة الأخوة لا تقتصر فيما بين المسلمين وحدهم فقط، لكنها تشمل الأخوة الإنسانية بشكلها الواسع، مهما ابتعدت الديار فيما بين الناس، أو اختلفت الألوان والأصول وهذا منهج القرآن الكريم في تجميع شمل الناس جميعا بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾، والنبي ﷺ يقول: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود

(١) خلق المسلم.. محمد الغزالي ص ١٦٥-١٦٦.

على أحمر إلا بالتقوى، أبلغت» قالوا بلغ رسول الله ﷺ[1].

ولعل المسلمين اليوم يستطيعون إعادة الناس إلى الأخوة الإنسانية من خلال سلوكهم ومعاملاتهم لغيرهم، حيث إن معظم من يدعو من الغربيين إلى هذه الأخوة يطبق في واقع تصرفاته ما ينقضها، وبعض المسلمين كذلك، ولكن التعويل على من فهم منهج القرآن الوسطي، ويتعامل مع بني البشر على أنهم بحاجة إلى رحمة الإسلام ومنهجه لإنقاذ حياتهم في الدنيا وسعادتهم في الآخرة من خلال تطبيق هذا المنهج القرآني قولاً وعملاً.

(١) رواه أحمد، مصدر سابق ٥/ ٤١١ برقم: ٢٣٥٣٦ وقال المنذري: رواه البيهقي، وقال: في إسناده بعض من يجهل الترغيب والترهيب ٣/ ٣٧٥ برقم:٤٤٩٤ وذكره الشوكاني من حديث أبي نضرة، وقال عنه: قال في مجمع الزوائد:رجاله رجال الصحيح، نيل الاوطار ٥/ ١٦٤.



المبحث الثاني: العصبية وأثرها في تمزيق المجتمعات وفيه خمسة مطالب.

المطلب الأول: تعريف العصبية لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: منشأ العصبية وسببها.

المطلب الثالث: أنواع العصبية.

المطلب الرابع: أثر العصبية في تمزيق المجتمعات.

المطلب الخامس: كيف عالج الإسلام العصبية.

العصبية بالباطل من أبغض الأمور إلى منهج القرآن الكريم، حيث إنها تفتت المجتمع وتقطع أوصاله، وتثير نيران الفتن والبغضاء بين أفراده، ولذلك فإن منهج القرآن الكريم حذر منها وشدد على محاربتها والبعد عنها، لما لها من خطر على المجتمعات والأفراد، ولأنها تنافي قيام الأخوة الإسلامية العالمية على منهج التسامح والمحبة وتمنع زوال الفوارق والطبقات، وسيحاول الباحث ذكر أهم عناصر العصبية وبيانها، مع علاجها في خمسة مطالب، مستمدًا العون من الله تعالى.

المطلب الأول: **تعريف العصبية لغة واصطلاحا:**

المسألة الأولى / العصبية لغة:

العصب: عصب الإنسان والدابة، وتعصب: أي شد العصابة. والعصابة: العمامة، والعصبي: هو الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم، والعصبة: الأقارب من جهة الأب، لأنهم يعصبونه، و يعتصب بهم: أي يحيطون به ويشتد بهم، وفي الحديث: «ليس منا من دعا إلى عصبية، أو قاتل عصبية»[(١)]، وتعصبنا له ومعه: نصرناه[(٢)].

المسألة الثانية / العصبية اصطلاحا:

العصبية أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين، وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا، فإذا تجمعوا على فريق آخر قيل: تعصبوا[(٣)].

وقال ابن حجر: «دعوة الجاهلية الإستغاثة عند إرادة الحرب، كانوا يقولون: يا

---

(١) أبو داود سبق تخريجه ص ١١٤.

(٢) لسان العرب، مصدر سابق، بتصرف ١/ ٦٠٧.

(٣) المصدر نفسه ١/ ٦٠٧.

آل فلان، فيجتمعون فينصرون القاتل ولو كان ظالما، فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك»[١].

ويقول الأستاذ: عبد الملك الشيباني[٢]:

«لا يجوز للمسلم أن يقف موقفًا يعين أو يقاتل أو يغضب أو يدعو، أو ينصر بالباطل من ينتسب أو ينتمي إليهم أو يرتبط بهم بأي آصرة، ويجب أن تكون آصرة العقيدة هي وحدها منطلقه الأول والأخير، ابتداء ومسيرًا وانتهاء، في كل أعماله وأفعاله وأقواله وحركاته وسكناته، بل وحتى في مشاعره وعواطفه ووجدانه».

وإن أي موقف لا يحقق هذا ولا ينطلق منه فهو باطل آثم دون شك ولا ريب، «فماذا بعد الحق إلا الضلال»[٣].

وسئل النبي ﷺ: ما العصبية؟ قال: «أن تعين قومك على الظلم»[٤].

وفي الحديث الآخر، سئل النبي ﷺ: أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: «لا، ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم»[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من خرج من

---

(١) فتح الباري، مصدر سابق ٦/ ٥٤٦.

(٢) عبد الملك محمد مرشد الشيباني، من مواليد اليمن ١٩٥٢م رئيس الرابطة اليمنية للثقافة والفنون (طيف) وعضو مجلس شورى الإصلاح.

(٣) العصبية أضرارها ومخاطرها، تحذير الإسلام منها..عبد الملك الشيباني، بدون طبعه – طباعة دار المجد، صنعاء ص ٨ .

(٤) رواه البيهقي في سننه الكبرى، مصدر سابق ١٠/ ٢٣٤ برقم: ٢٠٨٦٥. ورواه أبو داود في سننه ٤/ ٣٣١ وضعفه الألباني، ضعيف الجامع ص ٥٦٣ برقم ٢٨٦٣.

(٥) رواه أحمد، مصدر سابق ٤/ ١٦٠. والطبراني في المعجم الكبير ٢٢/ ٣٨٣ وضعفه الألباني، سنن ابن ماجه ١/ ٨٥٥ برقم: ٣٩٤٩.

الطاعة وفارق الجماعة، ثم مات، مات ميتة جاهلية، ومن قتل تحت راية عمية يغضب للعصبية، ويقاتل للعصبية، فليس من أمتي، ومن خرج من أمتي على أمتي يضرب برها وفاجرها لا يتحاشى من مؤمنها ولا يفي بذي عهدها فليس مني»[(١)].

وفي الحديث: أن رسول الله ﷺ قال: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية»[(٢)].

المطلب الثاني: **منشأ العصبية وسببها:**

المسألة الأولى / منشأ العصبية:

الإنسان بطبيعته يميل إلى قرابته وأهله وذويه وقبيلته وهو ميل فطري طبعي، لأن الإنسان إنما هو فرع منهم، ولأنه يتجانس ويتشابه غاية التشابه معهم بكل صفة من صفاته وطباعه وتقاليده، وعاداته الجسدية منها والنفسية، بل إن النفس الإنسانية جبلت على الميل لكل من يتشابه معها ولو بخصلة أو صفة.

إن الله تعالى جبل بني آدم بل سائر المخلوقات على التفاعل بين الشيئين المتشابهين، وكلما كانت المشابهة أكثر كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم، حتى يؤول الأمر إلى أن لا يتميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط، ولما كان بين الإنسان مشاركة في الجنس الخاص كان التفاعل فيه أشد، فالمشابهة والمشاكلة في الأمور الظاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة، على وجه المسارقة والتدريج.

إن المشابهة في الظاهر تورث نوع مودة ومحبة وموالاة في الباطن، كما إن المحبة

---

(١) رواه مسلم، مصدر سابق – كتاب الامارة – باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين ٣/ ١٤٧٧ برقم: ١٨٤٨.

(٢) أبو داود سبق تخريجه ص ١١٤.

في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمر يشهد به الحس والتجربة، حتى إن الرجلين إذا كانا من بلد واحد ثم اجتمعا في دار غربة كان بينهما من المودة والموالاة والائتلاف أمر عظيم، وإن كانا في مصرهما لم يكونا متعارفين أو كانا متهاجرين، بل لو اجتمع رجلان في سفر أو بلد غريب وكانت بينهما مشابهة في العمامة أو الثياب أو الشعر أو المركوب ونحو ذلك لكان بينهما من الائتلاف أكثر مما بين غيرهما، وكذلك تجد أرباب الصناعات الدنيوية يألف بعضهم بعضًا ما لا يألفون غيرهم، حتى إن ذلك يكون مع المعاداة والمحاربة، إما على الملك وإما على الدين، وكذلك تجد الملوك ونحوهم من الرؤساء وإن تباعدت ديارهم وممالكهم بينهم مناسبة تورث مشابهة ورعاية من بعضهم لبعض، وهذا كله بموجب الطباع ومقتضاها، إلا أن يمنع عن ذلك دين أو غرض خاص[1].

ومن هنا كان منشأ تلك الروابط الاجتماعية أو ما ينتج عنها من روابط سياسية أو اقتصادية بشتى صورها وأشكالها بين البشر جميعًا.

فكانت الروابط الوطنية والقبلية والأسرية والعشائرية والقومية ونحو ذلك، وتنمو هذه الروابط وتقوى أو تضعف وتتلاشى تبعًا لوجود وبقاء مؤثراتها وروافدها، أو لضعفها وتلاشيها.

ولكن هذه الروابط ليست كلها بدرجة واحدة من القوة أو الضعف، بل تختلف في ذلك كثيرًا، ولكن تبقى الروابط الدينية - وخاصة الإسلامية منها- هي الأقوى والأمتن والأشمل والأعظم، وهي قائدة التأثيرات الإيجابية الفعالة المهيمنة على كل الروابط الأخرى.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم – أحمد بن عبد الحليم بن تيمية – مطبعة السنة المحمدية، القاهرة –الطبعة الثانية ١٣٦٩هـ تحقيق/ محمد حامد الفقي ١/ ٢١٩.

والإسلام لم يحارب الشعور والميل الفطري للإنسان تجاه أهله وذويه وقرابته وقومه، وكيف يحارب الإسلام الفطرة وهو نفسه دين الفطرة.

لكن الإسلام حارب بضراوة، وما يزال يحارب ما يمكن أن يؤدي إليه الشعور أو الميل من مواقف باطلة أو آثمة أو ظالمة، وهو ما يسمى بالعصبية بالباطل، ومن ذلك تنشأ العصبية المقيتة.

وجعل الإسلام من العقيدة رابطة شاملة جامعة لكل المسلمين، وسمى آصرته بـ (الأخوة) وأقامها على العدل والتوازن والتكافل والتراحم والحقوق والواجبات، بحيث تقوم قاعدة (لا ضرر ولا ضرار) قياما صحيحا قويًا[1] فيتعصب المسلم للحق وحده.

المسألة الثانية / أسباب العصبية[2]:

والمقصود بأسباب العصبية الطرق والسبل التي تفضي أو تؤدي إلى العصبية، وهي كثيرة أهمها باختصار، من باب الذكرى التي تنفع المؤمنين، ومن هذه الأسباب:

أولا/ الجهل: وهو الأصل والأساس الذي تتفرع منه معظم الضلالات والانحرافات والمعاصي.

ثانيا/ ضعف الوازع الإيماني الصحيح: أو غيابه بالكلية في بعض الأحيان

ثالثا/ اختلال ميزان العدل الاجتماعي: وهو من أهم شروط قيام المجتمعات الصالحة قيامًا صحيحًا سليمًا معافى.

رابعا/ حب العلو على الناس بالباطل: سواء كان على مستوى الفرد أو الأسرة أو القبيلة أو الطائفة أو العشيرة أو غير ذلك.

---

(١) العصبية ... مصدر سابق ص ١٣.

(٢) المصدر نفسه ص ١٧-١٨.

خامسا/ الكبر وغمط الناس وبطر الحق وأنفة المرء من أن ينتصف منه فتأخذه العزة بالإثم.

سادسا/ الانتصار للقريب أو الحليف أو الجنس أو القوم ونحوهم بالباطل، والوقوف إلى جانب من ينتصر له معاونًا ومساندًا لباطله وطغيانه وظلمه.

سابعا/ المخالفة في المعتقد أو المذهب أو اللغة أو الجنس أو اللون أو الأرض أو المستوى الاجتماعي.

ثم إن مرد العصبية بأسبابها ومؤثراتها وعواملها إجمالاً يعود إلى التعامل والاحتكام إلى الموازين البشرية التي قامت على مبادئ الترذيل البشرية الهابطة التي ظهرت بها الأهواء البشرية، وطفحت بها الشهوات الآدمية، وهي تمثل الأباطيل.

والضمان الأكيد لعدم وقوع العصبية أو حتى تداعي أسبابها، إنما هو بالتعامل والاحتكام إلى مبادئ التفضيل الربانية العالية، التي تنزلت به الكتب من ذي الخلق سبحانه على ذي العصمة من رسله لهداية العقلاء من عباده[1].

ومنهج القرآن الكريم وهو ينهى عن هذه الأسباب، فإنه يريد من أبناء المجتمع التخلق بالأخلاق الفاضلة التي تبعدهم عن هذه الرذائل، وتصبح الأخلاق الإسلامية سلوكًا يوميًا يتعاملون به مع كل الناس، والتعصب بالباطل خلق مذموم تمقته الأغلبية منهم، ومن وقع فيه بسبب ضعفه أعانوه على تركه.

المطلب الثالث: **أنواع العصبية:**

المسألة الأولى / العصبية العنصرية:

هي عصبية قاتلة مدمرة تسحق الإنسان وتهد كيانه ومقوماته هدًّا، وتهدر حقوقه وقيمه حتى لا تصبح له قيمة ما، وتجعل الحيوان أفضل منه درجة ومستوى

---

(١) أضواء على حقيقة المساواة.. للأستاذ يايسين عبد العزيز ص ٢٢. بتصرف يسير.

في التعامل والرعاية والحقوق والتكريم ونحو ذلك، بل لا تصح المقارنة بكل المقاييس، وأبشع أشكال هذه العصبية (العنصرية) تتجسد واقعًا معاشًا في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أضحت سياسة جثمت بكلكلها على كل جوانب الحياة، وطبعتها بطابعها الكئيب الأسود، وصبغتها بصبغتها القاتمة.

قال أحد رجال السياسة البيض في أمريكا: «ليس لأي رجل ملون يغمر قلبه الرغبة في المساواة السياسية عملٌ في ولايات الجنوب، أن هذه البلاد ملك للرجل الأبيض، ويجب أن تظل كذلك».

لا تزال المدارس في معظم الولايات المتحدة تقوم على الانفصال بين البيض والسود.

ويفرض على القطارات الحديدية والسيارات العامة والمستشفيات أن تقيم عربات أو غرف خاصة بالزنوج، وتقضي قوانين بعض الولايات بأن لا يسمح للعمال الزنوج- أي السود - أن يقيموا مع العمال البيض في المصانع أو الدخول من الأبواب المخصصة للبيض- أما في ميدان الزواج فإن معظم الولايات تمنع الزنجي من الزواج بالبيضاء والأبيض من الزواج بالزنجية، وتنص على بطلان مثل هذا الزواج، وحتى ممارسة الشعائر الدينية تقوم على الانفصال أيضًا[1]، ومع ذلك فقد بدأت هذه العصبية بالذوبان في الغرب فيما بينهم خاصة بعد انتخاب أوباما رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية فهو تطور غير مسبوق عندهم يجب أن نعترف به.

وبالمقابل فإن تلك العنصرية أو الطبقية المتطرفة المغالية نادرة الوجود في مجتمعات الإسلام، وهذا أحد علماء الغرب المنصفين - وما أقل المنصفين بينهم -

---

(١) معالم الثقافة الإسلامية..د / عبد الكريم عثمان - الطبعة الأولى ٢٠٠١م - مؤسسة الرسالة بيروت ص ١٢٦-١٢٧.

يشهد بهذا فيقول: إنه لا عهد للمسلمين بتلك الطبقات الاجتماعية التي أدى وجودها إلى أعنف الثورات في الغرب ولا يزال يؤدي، وأنه ليس من الصعب أن ترى في الشرق خادمًا زوجًا لابنة سيده، وأن ترى منهم أجراء أصبحوا من الأعيان[1].

ولا بد من الإشارة إلى أن العصبية العنصرية السلالية كانت قد ذابت أو اختفت في اليمن لكنها بدأت تظهر شيئًا فشيئًا بعد الثورة الإيرانية وقد عادت التصنيفات على أساس سيد وعبد وظهرت بوضوح بعد صعود الحركة الحوثية في اليمن وأصبحنا نسمع في وسائل إعلامهم السيد والسادة والناس يتكلمون عن قنديل أو زنبيل والعنصرية أصبحت مرض في المجتمع تحتاج الى وقفة جادة من المصلحين ليعود الناس الى شريعة الله ومنهج القرآن في المساواة بين الناس.

المسألة الثانية / العصبية المذهبية:

وهي عداوة وتجمع وتناصر أهل مذهب ما بالباطل في مقابلة مذهب أو مذاهب أخرى.

والتعصب إطلاقًا أمر مشين وغول المجتمعات، فكيف إذا اقترن التعصب بأن يؤدي إلى ظلم المخالفين، وأسوأ من ذلك وأشد ضررًا إذا اقترن بمذهب أو بمذاهب إسلامية لأن الإسلام دين التسامح، ولم تكن المذاهب الإسلامية التي نشأت في صدر الإسلام إلا عبارة عن فهوم العلماء الأفذاذ حسبما أوصلهم إليه اجتهادهم، فظهرت بعض المذاهب لأسباب لا مجال هنا لذكرها، وتوارى الأكثر فلم يكن له شأن يذكر، ومهما بلغ فهم أولئك الرجال وأمثالهم وعلى جلالة قدرهم فلا ينبغي أن يتخذ ما قالوه دينًا يتعبد به، ما لم يكن مستمدًا من الكتاب والسنة، إذ لسنا

---

(١) البحوث الإسلامية ص ١٢٧-١٢٨. نقلا عن العصبية ..... الشيباني.

بمتعبدين بكل ذلك ولا حتى ببعضه ولو بمقدار قلامة ظفر، ولكننا متعبدون بما قاله الله تعالى وقاله رسوله ﷺ.

ومن أخذ بفهم أحد أولئك العلماء بعد أن عرف صدق دليل مفهومه من الكتاب والسنة في مسألة خلافية، فاطمأنت نفسه إليه وتكونت لديه قناعة، يتبعها بالعمل والتطبيق فلا غبار عليه ولا بأس به، ولكن يجب أن يعرف بأن هذا إنما هو فهم ذلك العالم من الكتاب والسنة، كما يجب أن يعرف أن غيره من العلماء قد يفهم فهما آخر يغايره، مع أن الجميع يستقي من الكتاب والسنة، وهذا هو الخلاف، ومن هنا سمي خلافًا.

وعلى ذلك فلا ينبغي اعتبار أقوال بعض العلماء هي الحق الصريح، وما عداه فباطل، ثم يتعصب لذلك ويتمسك به كتمسكه بالكتاب والسنة، ويناصب غيره العداء والخصومة، فيكون الأمر الجلل والخطب الفادح والخطأ الجسيم، ثم إن اختلاف هؤلاء العلماء إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، فلماذا يجعل منه حقا نهائيًا مطلقًا لا يلتفت لغيره. ويتخذه دينًا ينافح عنه ويتعصب له وينصره في كل ميدان[1].

وعلى أي حال فإن هذا الخلاف إنما هو في المسائل الفرعية، وما أضيق دائرتها في دين الإسلام، أما الكليات والأصول فهي مع اتساع دائرتها مجمع عليها، ومن أعظم جنايات التعصب المذهبي في القرون الأخيرة أنها شغلت المسلمين على اختلاف مذاهبهم ردحًا من الزمان بالردود على بعضهم البعض، ولم يقدموا للفقه الإسلامي أي جديد، ولا لدينهم أي عمل يحسب لهم، كالتأثير على شعوب وأمم أخرى، مثل دعوتهم للإسلام، وفي حين انشغالهم بذاك خلا الجو لأعداء الإسلام،

(١) العصبية – مصدر سابق – ص ٢٥.

فعاثوا فسادًا، وعملوا ما عملوه مما نجني ثماره اليوم مرًا وعلقمًا وسمًا زعافًا. وما يقال في باب العصبية المذهبية يقال في باب الجماعات الإسلامية..

المسألة الثالثة/ العصبية الدينية:

أما العصبية الدينية: فهي عصبية أهل دين باطل- فيتناصرون ويلتقون ويتجمعون على دينهم الباطل ضد غيرهم من الأديان والأمم والشعوب، وضد كل من يخالفهم، ولو كان في الأصل من بني جلدتهم، أو من أهل دينهم. وخير شاهد على هذه العصبية الدينية هو ما نراه ونلمسه اليوم في عالمنا المعاصر متمثلاً في عصبية النصارى وحلفائهم اليهود، وهم أصحاب الديانتين صاحبتي النفوذ القوي في عالمنا المعاصر، وهؤلاء يفرضون معتقداتهم بالقوة، ويجعلون منها الحكم في مواقفهم وأعمالهم، ويحاكمون غيرهم إليها، ويخضعونهم لمقتضياتها رغم بطلانها وفسادها وانحرافها..

ورأينا وقد بلغت عصبية النصارى أوجها في عهود محاكم التفتيش، إذ أبادوا شعوبا بأكملها، وفتكوا بالآلاف المؤلفة من العلماء والأدباء والشعراء والمتنورين والمثقفين من بني جلدتهم. وهذا فضلاً عما صنعوه بالمسلمين من جرائم يعجز القلم أن يخط حرفًا منها لبشاعتها وهولها، حتى أنهم لم يبقوا مسلمًا واحدًا في الأندلس من تعدادهم البالغ خمسة ملايين نفس.

والأمر في الإسلام يختلف كل الاختلاف، فلا مناص لأحد إلا أن يسلم بحقيقة تضافرت عليها الأدلة والبراهين في كل جوانب الزمان والمكان، وهي أن الإسلام وحده من قبل ألف وأربعمائة عام هو الحق الوحيد على هذه الأرض، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومن مقتضيات ولوازم هذه القاعدة أن لا تكون عصبية من أي نوع في الإسلام، ولا حتى ذرة منها، لأن طبيعة الإسلام القائمة على الحق والعدل تمنع المسلم وتحجزه عن العصبية. ولهذا قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[البقرة: ٢٥٦].

فطبيعة الإسلام عدم التعصب أو إكراه الناس على اعتناق دين ولو كان الإسلام نفسه إلا أن يكون ذلك عن قناعة ورضى تامين، والشواهد على ذلك كثيرة.

ومن الشواهد التي لا تحصى أن الإسلام دخل الشام ومصر والعراق وغيرها منذ حوالي أربعة عشر قرنًا، وكان فيها نصارى، وحكمها طوال هذه القرون، وهاهم النصارى ما يزالون فيها إلى يومنا هذا، فمن يجرؤ على نكران هذا؟[1].

المسألة الرابعة: العصبية القبلية والأسرية:

وهي أن قبيلة ما يتناصر أفرادها ويتجمعون ويتعاونون بالباطل ضد غيرهم - إما قبيلة أو قبائل، أو جماعات، أو نحو ذلك.

ويؤدي هذا إلى استئثار القبيلة المتعصبة بكل حقوق وضروريات غيرهم.

ومن نافلة القول الإشارة بأن التناصر والتجمع والتعاضد ولو كان على مستوى قبيلة واحدة إن كان قام للحق وبالحق ونحو الحق، فهذا أمر طيب بل إن فيه الأجر العظيم والثواب الجزيل إن شاء الله تعالى، لأن الأمور بمقاصدها.

والقبيلة هنا لن تكون إلا وعاء للحق، أو شكلا من أشكاله، ظهر في صورة قبيلة متجمعة متآلفة متناصرة.

---

(١) العصبية - مصدر سابق ص ٣٤.

والعصبية الأسرية هي التي يستغل أصحابها مكانتهم بين قومهم التي اكتسبوها من موقع كبير الأسرة بين قومه ومكانته منهم، والعصبية الأسرية تجعل من المحيط الذي تظهر فيه بشرًا وأرضًا ملكًا خاصًا، يتصرف فيه أصحابها كما يشاءون، وكما يتصرف المالك فيما يملكه.

وعصبية البيت الواحد ممكن أن تظهر في محيط عشيرة أو طائفة أو نحو ذلك(١).

المسألة الخامسة: العصبية الحزبية:

وهي عصبية مجموعات الناس من قبائل وبطون وعشائر وأسر شتى، يلتقون ويتجمعون ويتناصرون على آصرة قطباها الرئيسان المبادئ والأفكار، ثم الزعماء والقادة، ويكون التقاؤهم هذا بالباطل وعلى الباطل، وضد كل من ليس منهم من الناس، فيعملون أعمالاً يجلبون بها المصالح والمنافع لحزبهم، وبنفس الوقت وبتلك الأعمال نفسها يوقعون غيرهم في الشرور والمصائب، والعصبية إذا أصابت حزبًا ما فإنها تنسي أصحابها ما قد يحمله غيرهم من حق.

ومن الأخطار الناجمة عن العصبية الحزبية أن الفكرة والالتفاف لها وعليها تنسى في العادة، ويصير الالتفاف والتأييد لشخصيات قيادية تفرض هيمنتها على قواعد الحزب، ومع كر الليالي والأيام تتكون شلل حزبية، ومراكز قوى داخلية، تكاد تتميز بعضها عن البعض الآخر، في الجملة، وربما في التفاصيل أيضا.

ولكن قيام أي حزب أو جماعة على أسس متينة من الإسلام يكون الولاء فيها للمؤمنين، وبمقاصد شرعية صحيحة صادقة، وعلى أنماط تجمعية إسلامية؛ فإن مثل هذا الحزب أو الجماعة تكون موفقة في مواقفها، صالحة في أعمالها، مسددة في أقوالها و آرائها مهدية في سيرها، ومحفوظة من تلك الانحرافات.

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٧.

المسألة السادسة: العصبية الوطنية:

الإنسان بفطرته يحب وطنه ومسقط رأسه، ويظل يحن إليه كلما ابتعد عنه، ولا يمكن أن يفارقه إلا لأمر قاهر أو ظرف طارئ عصيب يجبره على مفارقته، أو أن يكون صاحب عقيدة تدفعه بالتضحية بالغالي والنفيس.

وحب الأوطان عاطفة فطرية في أعماق النفس الإنسانية وقد عبر عنها رسول الله ﷺ بقوله لمكة: «ما أطيبك من بلد وأحبك إلي، ولولا أن قومي أخرجوني ما سكنت غيرك»[1]. وعبر عنها عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: «لولا حب الأوطان لخربت البلدان».

ولشدة حب الأوطان في نفس الإنسان فقد قرن في القرآن الكريم بالقتل في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[النساء: ٦٦].

والعصبية الوطنية لا تعني حب الوطن والدفاع عنه، فذلك أمر مشروع، بل وواجب، إنما العصبية الوطنية هي التي تجعل من سكان بقعة ما في الأرض يلتقون ويتناصرون ويتعاضدون بالباطل، ويتجمعون على آصرة الأرض ضد أوطان أخرى، أو شعوب أخرى، أو قوم سواهم.

المطلب الرابع: **أثر العصبية في تمزيق المجتمعات:**

تتعرض البيئات التي يكون بها أي نوع من أنواع العصبيات المذمومة إلى أخطار جسيمة ماحقة، تؤدي إلى اختلال التوازن الاجتماعي، وانحلال الفضائل

---

(١) المستدرك، مصدر سابق ١/ ٦٦١ برقم: ١٧٨٧. وقال: حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٩٧١ برقم ٥٥٣٦.

والقيم الإنسانية النبيلة، والوشائج والعلاقات الاجتماعية الصالحة، ومن ثم موتها وتلاشيها واندثارها، لتحل محلها علاقات إجرامية مدمرة، وتنشأ مجموعات شللية على شكل عصابات وفرق تسعى كل منها على حدة من جانب، كما يسعى كل فرد فيها من جانب آخر لترتيب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ونحوها، وتوجيهها وتوجيه المصالح لأنفسهم، واجتلاب المنافع، وتوظيف كل ذلك لصالحهم، وتنمو الأنانية والحقد والحسد والبغضاء والكراهية، وتظهر العداوات والمشاكل المستعصية في جنبات المجتمع، ومن ثم يؤدي هذا إلى الانفجار وتدمير البنية والكيان الاجتماعي ولو بعد حين.

وفي أحسن الأحوال إذا لم يختل التوازن الاجتماعي بسبب العصبيات، فإن العلاقات الاجتماعية الصالحة تضعف إلى حد كبير، مما يجعل المجتمعات لا تقوى على الصمود أمام أعاصير السنين ورياح الأحداث وزلازل الفتن، وعوامل نحت الزمان، فتراها عند أدنى حركة تهتز وتترنح على حافة الهاوية والمنحدر السحيق والعياذ بالله.

ولقد عبر أبو هريرة رضي الله عنه عن أضرار العصبيات حين قال: إذا قالت نزار: يا نزار، وقالت أهل اليمن: يا قحطان، نزل الضر، ورفع النصر، وسلط عليهم الحديد.

وما أكثر الشواهد والأمثلة التي تبرهن على الأضرار العظيمة لإفرازات العصبية حيثما وقعت أو كانت.

وفي هذا الإطار نجد فرعون هذه الأمة (أبو جهل) الذي تولى كبر المواجهة ضد رسول الله ﷺ ورسالته، وأججها نيرانًا حاقدة ضد كل المسلمين، مع أنه يعلم يقينًا بصدق الرسول ﷺ وصدق ما جاء به، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا

يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[الأنعام: ٣٣]. وبسبب هذا التعصب تمزق مجتمع قريش ومن وقف معهم، وخسروا الدنيا والآخرة.

والعصبية هي التي أردت يهود الجزيرة العربية - وخاصة يهود يثرب - وهوت بهم إلى أسفل سافلين في الدنيا والآخرة، وقادتهم إلى النار والعياذ بالله تعالى، مع أنهم كانوا يعلمون يقينًا صدق الرسالة والرسول، وكانوا يستنصرون بالنبي ﷺ قبل البعثة، فلما جاءهم، وتأكدوا أنه هو بنفسه الصادق المصدوق، وكانوا يظنونه من بني جلدتهم، فلما عرفوه كفروا به عصبية، فاستحقوا اللعنة، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة: ٨٩].

والأمر نفسه مع النصارى في جزيرة العرب وخاصة في نجران، فقد عرفوا صدق رسول الله ﷺ ورغم هذا فإنهم تعصبوا لباطلهم وأديانهم الفاسدة المحرفة الضالة، فكان مصيرهم مصير اليهود ونحوهم.

وفي العصور الحديثة رأينا العصبية (الجرمانية) وعلى رأسها (هتلر)[1]، حيث أوحت إليهم عصبيتهم أن يقسموا العالم إلى عدة أجناس، وجعلوا من أنفسهم سادة على رأس الجميع وأنهم سادة الجنس الأبيض الذي هو سيد العالم كله كما زعموا، وبناءً على هذه العصبية أدخلوا العالم كله في أتون حرب عالمية، ومن أراد أن يتعرف على آثار الحرب الرهيبة فليقرأ تاريخ الحرب العالمية الثانية.

---

(١) هو أدولف هتلر، سياسي ألماني، ولد في النمسا، وكان عنصريا نازيا دكتاتوريا في الحكم، أحتل عدة دول، وأشعل الحرب العالمية الثانية، هزم وأنتحر في برلين عام ١٩٤٥م (المنجد، مصدر سابق ص ٥٩٣).

واليوم وفي عالمنا المعاصر نرى نفس الصورة ونفس المفاهيم، حيث حلت الولايات المتحدة الأمريكية محل ألمانيا، والجنس الأبيض هو نفسه، وإن كان يسمى (الغرب بمعناه السياسي والعقائدي)، وعصبية هؤلاء لا تقل هولاً عن عصبية الألمان، وها هي آثار عصبيتهم وإفرازاتها السامة تغرق بها جنبات العالم، وهم لم يقيموا حربًا عالمية فحسب، بل جعلوها حربًا شاملة مستمرة على كل المستويات، وفي جميع أنحاء العالم، وجعلوها حربًا عنصرية على من عداهم في السياسة والاقتصاد والفكر والثقافة والدين والعلم والتاريخ، وفي الجوانب الاجتماعية والعسكرية والمدنية، وهكذا تفعل العصبية إذا صدرت من مجتمع كالولايات المتحدة - يمتلك إمكانات هائلة في العلم والثروة والقوة.

فإننا نراهم في بلدانهم يتعاملون مع بني جلدتهم مثلاً بصورة من الحرية واسعة المجال بعيدة المدى وبلا حدود، ولكن الحرية نفسها غيبت تمامًا أصلاً وشكلاً وصورة ليحل محلها الاستبداد والظلم والقهر والعبودية، خاصة حينما يتعامل الغربيون مع غيرهم من شعوب الأرض، وبالذات بلدان العالم النامي (ومنها العالم الإسلامي).

وهذه الولايات المتحدة الأمريكية سيدة الجنس الأبيض ورأسه اليوم تتبنى وتدعم الظلم والاستبداد والاستعباد والقهر في جميع بلدان العالم تقريبًا من غير شعوب الجنس الأبيض، وقس الأمر نفسه على الديمقراطية والمساواة والكرامة والعدل وكافة الحقوق الإنسانية، مع العلم أن هذا الدور المزدوج ورثته الولايات المتحدة الأمريكية من السياسة الأوروبية التي خفت حدتها اليوم كثيرًا، لا لقناعات عندهم، بل لأنهم ليسوا بمحل من القوة كما كانوا[1].

---

(١) العصبية، مصدر سابق ص ٥٩ / ٦٦. بتصرف.

وهذا ذكر لأبرز آثار العصبية المدمرة للمجتمعات:

أولا/ اختلال التوازن الاجتماعي، وانحلال الأخلاق والفضائل في المجتمع.

ثانيا/ الاختلاف والتناحر والحياة النكدة في المجتمع الذي تشيع فيه العصبية.

ثالثا/ اختلال النظر السليم في تقييم الناس والحكم عليهم.

رابعا/ تمزيق المجتمع إلى طوائف وأحزاب ومذاهب متباينة ومتناحرة.

خامسا/ الانحراف عن الطريق المستقيم، وانتشار الحقد والكراهية في مجتمعات العصبية.

سادسا/ انتشار الخوف والفزع بين أفراد المجتمع المتعصب.

المطلب الخامس: **كيف عالج الإسلام العصبية:**

إن من عظمة هذا الدين أنه جعل حلاً لكل مشكلات الحياة، وجعل هذه الحلول متأصلة في نفس الإنسان، في عقيدته وإيمانه، في عبادته وأخلاقه، وجعله ينفر من كل ما يخالف هذا الدين، ومن ذلك العصبية، لأن منهج القرآن الكريم يزرع في نفس الإنسان خلق التواضع، والرحمة، والتعاون، والحب، لبني البشر جميعا، بل الرحمة بالحيوان، فكيف بمثل من تربى على مثل هذه الأخلاق أن يتعصب لجنس، أو لون، أو أرض، أو مذهب، أو غيره، ومع ذلك فإذا أخطأ الإنسان ووقع في العصبية المقيتة، فإن الإسلام عالج هذه العصبية بأمرين اثنين:

المسألة الأولى: التذكير بأصل الإنسان:

الإسلام يذكر الناس ببدهية يسلمون بها جميعًا في كل زمان ومكان، وهي أن البشرية كلها أصل واحد (ذكر وأنثى) وعن هذا الأصل تفرعت كل الشعوب والأمم والقبائل والعشائر والأقوام والبطون والأفخاذ..الخ مما يمكن أن يتعصب له

متعصب، ويتخذ منه أحد تكئة يتكئ عليها في عصبيته، فكأن الإسلام يقول لهؤلاء المتعصبين: إن أنسابكم وأحسابكم التي تفتخرون بها وتتعصبون لها، كما أن أنساب وأحساب أولئك الذين تفتخرون وتتعصبون ضدهم، أصلها كلها واحد (ذكر وأنثى)، فلا معنى أن يفتخر مفتخر أو يتعصب متعصب، لأن ما عند هذا هو عند ذاك، ولأن ما يفخر به هذا هو نفسه مفخرة لذاك تمامًا، وحجة هذا هي نفسها حجة ذاك.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، والمقصود أنهم متساوون لاتصالهم بنسب واحد، يجمعهم أب واحد، وأم واحدة، وأنه لا موضع للتفاخر بينهم بالأنساب، فالكل سواء، (لتعارفوا): أي لتتعارفوا، والمقصود: أن الله سبحانه خلقهم كذلك لأجل التعارف لا التفاخر بأنسابهم[(١)].

«وهكذا تتوارى جميع أسباب النزاع والخصومات في الأرض؛ وترخص جميع القيم التي يتكالب عليها الناس، ويظهر سبب ضخم واضح للألفة والتعاون وهو: ألوهية الله للجميع، وخلقهم من أصل واحد، كما يرتفع لواء واحد يتسابق الجميع ليقفوا تحته هو: لواء التقوى في ظل الله، وهذا هو اللواء الذي رفعه الإسلام لينقذ البشرية من مساوئ العصبية للجنس، والعصبية للأرض، والعصبية للقبيلة، والعصبية للبيت، وكلها من الجاهلية وإليها، تتزيا بشتى الأزياء، وتسمى بشتى الأسماء، وكلها جاهلية عارية من الإسلام!».

وقد حارب الإسلام هذه العصبية الجاهلية في كل صورها وأشكالها، ليقيم نظامه الإنساني العالمي في ظل راية واحدة هي: راية الله.. لا راية الوطنية، ولا راية

---

(١) فتح القدير.. مصدر سابق ٥/ ٩٥.

القومية ولا راية البيت، ولا راية الجنس، فكلها رايات زائفة لا يعرفها الإسلام.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقي، وفاجر شقي، أنتم بنو آدم وآدم من تراب، ليدعن رجال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع بأنفها النتن»(١).

وقال ﷺ عن العصبية الجاهلية: «دعوها فإنها منتنة»(٢).

«وهذه هي القاعدة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي. المجتمع الإنساني العالمي الذي تحاول البشرية في خيالها المحلق أن تحقق لونًا من ألوانه فتخفق، لأنها لا تسلك إليه الطريق الواحد الواصل المستقيم.. الطريق إلى الله.. ولأنها لا تقف تحت الراية الواحدة المجمعة.. راية الله..» (٣).

وإذا ما آمن الإنسان في أي مكان أن أصل البشرية واحد، وهو آدم، وخالقهم واحد، ومرجعهم إلى رب واحد، فلا يمكن أن يتعصب، وما الذي يجعله يتفاخر على غيره، لكنه البعد عن منهج الله. منهج القرآن الكريم.

المسألة الثانية / ذم العصبية:

رافق التحذير من العصبية الذم لها في أكثر من حديث، ويكفي في التحذير منها أن الأحاديث دمغتها بالجاهلية، ونسبتها إليها نسبة حق وصدق، وما العصبية

---

(١) رواه أبو داود، مصدر سابق٤/ ٣٣١ برقم: ٥١١٦ قال المنذري في الترغيب: رواه الترمذي والبيهقي بإسناد حسن ٣/ ٣٧٦ وحسنه الألباني في صحيح الجامع بلفظ قريب ٢/ ١٢٩٩ برقم: ٧٨٦٧.

(٢) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب التفسير – باب قوله: «سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم» ٤/ ١٨٦١ برقم:٤٦٢٢.

(٣) في ظلال القران.. مصدر سابق ٦ / ٣٣٤٨ -٣٣٤٩.

إلا فرع من فروع الجاهلية وشكل ذميم لها، ومن جانب آخر وفي نفس الوقت نجد أن الأحاديث تشرِّح العصبية تشريحًا يوضحها ويجليها لمن يبصر ويرى، إذ وصفتها بما تستحق من أوصاف تدل على قبحها وبشاعة من يأتيها، ومن هذه الأحاديث:

أولا/أن النبي ﷺ قال عنها: «ما بال دعوى أهل الجاهلية»[(١)].

ثانيا/قال ﷺ: «دعوها فإنها خبيثة»[(٢)]وقال: «دعوها فإنها منتنة»[(٣)]، فشبهها وكأنها قطعة لحم قطعت من أصل، وأبعدت عنه فتعفنت، لأنها حين تقطع من أصلها تتعفن و تتخبث، فإن ما قطع من حي فهو ميت، وهكذا حين يفصل الشيء من أصله، ويوضع في غير موضعه، يتغير عندئذ طبعه، فيتغير حكمه إلى الضد من أصله) [(٤)].

ثالثا/قال النبي ﷺ: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن، الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»[(٥)].

فذم ﷺ في هذا الحديث من دعا بدعوى الجاهلية، وأخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس، وهذا كله يقتضي أن ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها[(٦)].

---

(١) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب المناقب – باب: ما ينهى من دعوى الجاهلية ٣/ ١٢٩٦ برقم: ٣٣٣٠.

(٢) المصدر نفسه سبق تخريجه ص ١٨٩.

(٣) المصدر نفسه – كتاب التفسير – باب قوله: وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ٤/ ١٨٦٢ برقم:٤٦٢١.

(٤) أضواء على حقيقة المساواة، مصدر سابق ص ٤٩.

(٥) رواه مسلم، مصدر سابق – كتاب الجنائز – باب التشديد في النياحة ٢/ ٦٤٤ برقم: ٩٣٤.

(٦) اقتضاء الصراط، مصدر سابق ص ٦٩.

رابعا/قال ﷺ: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطلب دم امرئ بغير حق ليريق دمه»[١].

وسنة الجاهلية كل عادة كانوا عليها في الجاهلية، وهذا نص عام يوجب تحريم متابعة كل شيء كان من سنن الجاهلية[٢].

خامسا/قال ﷺ: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع»[٣].

سادسا/قال ﷺ: «لا تفتخروا بآبائكم في الجاهلية، فو الذى نفس محمد بيده لما يهدهده الجعل بمنخريه خير من آبائكم الذين ماتوا في الجاهلية»[٤].

وهكذا عالج منهج القرآن الكريم العصبية، بل صورها بصورة بشعة ينفر منها الأفراد والمجتمعات، ولا يقع فيها إلا من فسدت فطرته، وسقطت آدميته، فتعصب على إخوانه من بني آدم، وكيف يتصور المسلم أن يتحول من إنسان سوي بدون تعصب إلى جعل (حشرة قذرة) تقلب القذارة بمنخرها، إذا تعصب للباطل.

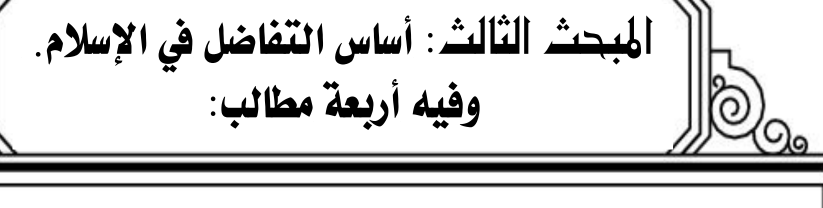
---

(١) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب الديات – باب من طلب دم امرئ بغير حق ٦/ ٢٥٢٣ برقم: ٦٤٨٨.

(٢) اقتضاء الصراط، مصدر سابق ص ٧٦.

(٣) رواه مسلم، مصدر سابق – كتاب الحج – باب حجة النبي ﷺ ٢/ ٨٨٩ برقم: ١٢١٨.

(٤) رواه ابن حبان، مصدر سابق ١٣/ ٩٢ برقم: ٥٧٧٥. ورواه أحمد في مسنده ١/ ٣٠١ ورواه الترمذي وقال حسن غريب ٥/ ٧٣٤ برقم: ٣٩٥٥.



المبحث الثالث: أساس التفاضل في الإسلام.
وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف التقوى لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: التقوى في الكتاب والسنة.

المطلب الثالث: طرق الوصول إلى التقوى.

المطلب الرابع: ثمرات التقوى.

إذا كان أصل الناس واحدًا وهو آدم، وآدم خلق من تراب، فليس هناك مجال لفخر أحد على أحد، والله سبحانه وتعالى يعلم أن الإنسان يحتاج إلى التنافس، فجعل تنافسه المشروع في تحصيل الخيور، ومن أهمها التزود بالتقوى التي بها صلاح الدين والدنيا والآخرة، وبها يتفاضل الناس ويكرمون، ولعل أهم وسائل القرآن في إصلاح المجتمعات هي التقوى التي بها يسعد المجتمع، وبها يتراحم، وبها تعطى الحقوق، وبها يبتعد الناس عن المحرمات والشبهات، وبها تستقيم جميع أمور الحياة وتصلح، فما هي التقوى وما هي الطرق الموصلة إليها، وما هي ثمارها، هذا ما سيوضحه الكاتب في هذا المبحث بعون الله تعالى.

المطلب الأول: **تعريف التقوى لغة واصطلاحا:**

المسألة الأولى / التقوى في اللغة:

التقوى: هي الاسم من قولهم اتقى، والمصدر: الإتقاء، وكلاهما مأخوذ من مادة (و ق ى) التي تدل على دفع شيء عن شيء بغيره، والثلاثي من هذه المادة (وقى) يقال: وقيت الشيء أقيه وقيا، والوقاية ما يقي الشيء، والاتقاء اتخاذ الوقاية، وهو بمعنى التوقي، يقال: توقيت الشيء واتقيته بمعنى واحد، ومعنى قولهم: اتق الله: توقه أي اجعل بينك وبينه كالوقاية، وقول المصطفى ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[1] كأنه أراد اجعلوها (أي شق التمرة) وقاية بينكم وبين النار. والتقوى والتقى واحد والتقي: المتقي. وقد قالوا: ما اتقاه لله[2].

---

(١) رواه البخاري، مصدر سابق – كتاب الزكاه – باب: اتقوا النار ولو بشق تمرة ٢/ ٥١٤. برقم: ١٣٥١.

(٢) أنظر معجم مقاييس اللغة – لأبي الحسين أحمد بن فارس – الطبعة الأولى ٢٠٠١م – دار إحياء التراث، بيروت ص١٠٦١ ولسان العرب مصدر سابق ١٥/ ٤٠٤. بتصرف.

المسألة الثانية / التقوى اصطلاحا:

التقوى في تعاريف الشرع: حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور، وترك بعض المباحات، لما روي عن الرسول ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة. فمن ترك ما شبه عليه من الإثم كان لما استبان أترك، ومن اجترأ على ما يشك فيه من الإثم أوشك أن يواقع ما استبان. والمعاصي حمى الله، من يرتع حول الحمى يوشك أن يواقعه»[(١)].

والتقوى أيضًا.. حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق لأشواك الطريق.. طريق الحياة.. الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح، وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعًا ولا ضرا وعشرات غيرها من الأشواك!»[(٢)].

«كما أن البدن لا يكون صحيحًا إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الرديئة التي متى غلبت عليه أفسدته جميعه، وحمية يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخشى ضرره، فكذلك القلب، لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحة تحفظ قوته، واستفراغ بالتوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الرديئة منه، وحمية توجب له حفظ صحته ويجتنب ما يضادها، وهي عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة، والتقوى اسم يتناول هذه الأمور الثلاثة فما فات منها فات من التقوى بقدره»[(٣)].

وسأل رجل أبا هريرة رضي الله عنه: ما التقوى؟ قال: هل أخذت طريقًا ذا

---

(١) رواه البخاري، مصدر سابق- كتاب البيوع - باب الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات ٢/ ٧٢٣ برقم: ١٩٤٦.

(٢) في ظلال القران، مصدر سابق ١/ ٣٩.

(٣) الجواب الكافي.. ابن القيم ١/ ٧٥.

شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟، قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى[١].

وقال أبو الدر داء[٢]رضي الله عنه: «تمام التقوى أن يتقي الله العبد حتى يتقيه من مثقال ذرة، وحتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حرامًا، يكون حجابا بينه وبين الحرام»[٣].

وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: «آخ الإخوان على قدر التقوى، ولا تشاور إلا من تثق بدينه»[٤].

ويروى عن علي بن أبي طالب[٥] رضي الله عنه قوله: «التقوى هي: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل».

المطلب الثاني: التقوى في الكتاب والسنة:

المسألة الأولى / التقوى في الكتاب:

أولا/ صفات المتقين:

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ

---

(١) الدر المنثور، مصدر سابق ١/ ٦١.

(٢) عويمر بن قيس بن زيد بن قيس بي أمية الأنصاري، حكيم هذه الأمة، ويقال اسمه عامر بن مالك، صاحب رسول الله ﷺ روى عنه أحاديث كثيرة، توفى سنة ٣٢هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ٢/ ٣٣٥).

(٣) الدر المنثور، مصدر سابق ١/ ٦١.

(٤) المصدر نفسه ٧/ ٥٦٦.

(٥) علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، ويكنى أبا الحسن، رابع الخلفاء الراشدين، وقد شهد بدرا والمشاهد كلها، قتله ابن ملجم المرادي سنة ٤٠هـ وهو ابن ثلاث وستين سنة، ودفن بالكوفة (الطبقات الكبرى، مصدر سابق ٦/ ١٢).

ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١ - ٥].

وقال تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٨].

ثانيا/ التقوى بمعنى تنزيه القلب عن المعاصي:

قال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة: ٩٣].

ثالثا/ التقوى بمعنى الخوف والخشية:

قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٧ – ٤٨].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[البقرة: ٢٧٨ – ٢٧٩].

رابعا / التقوى بمعنى الطاعة:

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ

وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

خامسا / التقوى بمعنى العبادة:

قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠ – ٤١].

وقال تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ [النحل: ٥١ – ٥٢].

سادسا/ بمعنى التوحيد والإيمان:

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧ – ١٣٨].

سابعا/جزاء المتقين:

قال تعالى: ﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [الرعد: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٨].

وقال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥].

المسألة الثانية: التقوى في السنة:

قال رسول الله ﷺ وهو يخطب في حجة الوداع: «اتقوا الله ربكم، وصلوا خمسكم وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم، تدخلوا جنة ربكم»(١).

وعن أبي سعيد الخدري(٢) رضي الله عنه أن رجلاً جاءه، فقال: أوصني، فقال: سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك، فقال: «أوصيك بتقوى الله، فإنها رأس كل شيء، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء وذكرك في الأرض»(٣).

---

(١) رواه الترمذي، مصدر سابق ٣/ ١٢ برقم ٦١٦. وأخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٥٢ برقم: ١٩. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، قال الألباني: ووافقه الذهبي، وهو كما قالا، أي صحيح– الصحيحة –٢/ ٥٢٥..

(٢) سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن عبيد بن الأبجر أبو سعيد الخدري، الإمام المجاهد مفتي المدينة، شهد الخندق وبيعة الرضوان، مات سنة ٧٤هـ (سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ٣/ ١٦٨).

(٣) رواه احمد، مصدر سابق ٣/ ٨٢ برقم:١١٧٩١ وقال السيوطي في الجامع الصغير: حسن. فيض القدير ٥/ ٢٣٥٧ وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٤٩٨ برقم: ٢٥٤٣.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال: أحدهم أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم، له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

وسئل رسول الله ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله بن نبي الله بن نبي الله بن خليل الله» قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: «فعن معادن العرب تسألونني» قالوا: نعم، قال: «فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[3].

وقال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[4].

---

(١) رواه البخاري، مصدر سابق -كتاب النكاح - باب الترغيب في النكاح ٥/ ١٩٤٩ برقم ٤٧٧٦.

(٢) المصدر نفسه – كتاب التفسير - باب قول الله تعالى واتخذ الله إبراهيم خليلا ٣/ ١٢٢٤. برقم: ٣١٧٥.

(٣) المصدر نفسه سبق تخريجه ص ١٩٣.

(٤) رواه الترمذي، مصدر سابق ٤/ ٣٥٦ برقم: ١٩٨٦ وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ١/ ١٢١ وقال الألباني وجملة القول: أن الحديث صحيح بمجموع طرقه – السلسلة الصحيحة ٣/ ٣٦٢.

المطلب الثالث: **طرق الوصول إلى التقوى:**

الوصول إلى التقوى ليس بالأمر السهل، لكنه يسير على من يسره الله له، وهناك طرق كثيرة توصل إلى التقوى، سيذكر الكاتب أهمها، وهي:

المسألة الأولى: العبادة:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين، ومن كان من المتقين، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه[١].

والعبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين، وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضى بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك من العبادة.

وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن السعدي، الطبعة السادسة ١٩٩٧م مؤسسة الرسالة ص ٢٨.

المسألة الثانية: الصيام:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٣].

الصيام طريق من طرق التحقق بالتقوى، وذلك لأن التقوى طريق الجنة، والجنة محفوفة بالمكاره، والشهوات طريق النار، والصيام هو رمز السيطرة على الشهوة.

وفي الحديث: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»[١].

وفي الحديث الآخر: «كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله ﷻ: إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي»[٢].

إن أصعب شهوات الإنسان شهوة البطن وشهوة الفرج، فإذا ما سيطر الإنسان عليهما سهل عليه بعد ذلك أن يسيطر على شهوات نفسه كلها، والصوم هو أداة السيطرة على هاتين الشهوتين: «يدع شهوته وطعامه من أجلي»، والهدف هو التقوى، فمن لم تظهر عليه ثمرة الصيام لم يحقق الحكمة منه.

فينبغي أن يتحفظ الصائم من الأشياء التي تخدش صومه، حتى ينتفع بالصيام، وتحصل له التقوى التي ذكرها الله في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٣].

---

(١) رواه مسلم مصدر سابق – كتاب الجنة ووصف نعيمها ٤/ ٢١٧٤ برقم: ٢٨٢٢.

(٢) المصدر نفسه – كتاب الصيام – باب فضل الصيام ٢/ ٨٠٧ برقم: ١١٥١.

المسألة الثالثة: قراءة القرآن بتدبر:

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ [طه: ١١٣].

ومن خلال هذه الآية يتبين لنا أن تلاوة كتاب الله ﷻ أكبر سبب، وأعظم داع للتقوى، والعمل الصالح.

فالقرآن العظيم يوصل إلى أجل المطالب، وأفضل الرغائب، وليس للمتقين الذين هم أشرف الخلق وراءه غاية، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم وأسمائه وصفاته وأفعاله، وبالإخبار بالغيوب الصادقة، وبالدعوة لحقائق الإيمان، وشواهد الإيقان، المبين للمأمورات كلها، والمنهيات جميعًا، المعرف بعيوب النفس والعمل، والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليلة، والتحذير من طرق الشيطان وبيان مداخله على الإنسان(١).

فمن لم يغنه الله بالقرآن فلا أغناه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله.

لقد شغل كثير من المسلمين عن القرآن في الغالب، فلا تلاوة ولا فهم، ولا تدبر، فماذا وراء ذلك إلا قسوة القلب، وضعف اليقين وقلة التقوى!!

المسألة الرابعة: الهداية:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

هذه الآية تبين أن التقوى هبة من الله وزيادة الهداية كذلك، ولا تكون التقوى وزيادة الهداية إلا بعد الهداية، والهداية تحتاج إلى جهد شخصي، هذا الجهد

---

(١) في ظلال التقوى.. عبد الهادي وهبي الطبعة الأولي - مكتبة الدليل - السعودية ص ١٣٠.

الشخصي ذكرته الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد جهاد النفس وجهاد الشيطان وجهاد الكفار وجهاد المنافقين، فمن جاهد هذه الأربعة في الله هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

وجهاد النفس أربع مراتب(١):

الأولى/ أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح له ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به.

الثانية/ أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة/ أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة/ أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربانيين الهداة المتقين.

المسألة الخامسة: سلوك الصراط المستقيم:

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد - ابن القيم - مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة الرابعة عشر ١٩٨٦م ٣/ ١٠.

عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الصراط المستقيم موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهو معتدل سهل مختصر، فمن اتبعه نال الفوز والفلاح، وأدرك الآمال والأفراح، وصار من المتقين، وعباد الله المفلحين، ووحد الله الصراط، وأضافه إليه سبحانه، لأنه السبيل الوحيد الموصل إليه، والله هو المعين للسالكين على سلوكه[1].

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطًا ثم قال: «هذا سبيل الله»، ثم خط خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾[2].

«وحقيقة الصراط: شيء واحد وهو طريق الله الذي نصه لعباده على ألسن رسله وجعله موصلاً لعباده إليه، ولا طريق لهم إليه سواه بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا، وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحدًا في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحدًا في طاعته، فيجرد التوحيد ويجرد متابعة الرسول، وهذا معنى قول بعض العارفين: إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين صدق محبته وحسن معاملته، وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فأي شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين»[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، مصدر سابق ص ٢٤٣ بتصرف.

(٢) صحيح ابن حبان، مصدر سابق ١/ ١٨٠ برقم: ٦ وأخرجه الحاكم ٢/ ٣٤٨ برقم: ٣٢٤١. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال السيوطي: أخرجه احمد وعبد بن حميد والنسائي والحاكم وصححه الدر المنثور ٣/ ٣٨٥.

(٣) بدائع الفوائد –ابن القيم – مكتبة الباز، مكة المكرمة – الطبعة الأولى ١٩٩٦م ٢/ ٢٧٦.

والأمر الهام في السير في الصراط المستقيم أن ترضي الله تعالى وتتبع الرسول ﷺ: فالأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله، والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمدًا رسول الله، وهذا هو الهدى ودين الحق، وهو معرفة الحق والعمل له، ومعرفة ما بعث الله به رسله والقيام به، فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها، وهي معنى قول من قال: علوم وأعمال ظاهرة وباطنة مستفادة من مشكاة النبوة، ومعنى قول من قال: متابعة رسول الله ظاهرًا وباطنًا علمًا وعملاً، ومعنى قول من قال: الإقرار لله بالوحدانية والاستقامة على أمره، وهذا معناه متابعة صراط الله والسير على هداه[1].

المطلب الرابع: ثمرات التقوى[2]:

المسألة الأولى: معية الله ومحبته للعبد:

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦].

فمن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية.

ومن كان الله معه فلا شيء إذًا ضده. ومهما يكن ضده من شيء فهو هباء لا وجود في الحقيقة له.

ومن كان الله معه فلن يضل طريقه، فإن معية الله - سبحانه - تهديه كما أنها تكفيه.

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٢٧٦ بتصرف.

(٢) في ظلال التقوى.. مصدر سابق ص ١٤٨.

ومن كان الله معه فلن يقلق ولن يشقى. فإن قربه من الله يطمئنه ويسعده.

وعلى الجملة، فمن كان الله معه فقد ضمن، وقد وصل، وما له زيادة يستزيدها على هذا المقام الكريم.

ومن لم يلزم التقوى، تخلى عنه وليه، وخذله، فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد[1] وهذه منقبة عظيمة للمتقين، ولو لم يكن في تقوى الله تعالى إلا هاتان الخصلتان (معية الله ومحبته) لكفتا عما عداهما.

المسألة الثانية: ولاية الله ورضوانه للمتقين:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩].

وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

يتولاهم الله بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم، فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه فيها من نور الوحي والإيمان، وييسر لهم اليسرى ويجنبهم العسرى[2].

أما رضوان الله تعالى فهي الغاية التي شمر لها المشمرون وتنافس فيها المتنافسون، وتسابق إليها المتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، مصدر سابق ص ٧٢ بتصرف.

(٢) في ظلال التقوى، ص ١٥١.

(٣) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح - ابن القيم - دار الكتب العلمية بيروت ص٣٦١.

المسألة الثالثة: الانتفاع والهداية بالقرآن:

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

خص الله سبحانه وتعالى المتقين بهدايته، وإن كان هدى للخلق جميعًا لأنهم أتوا بالسبب الأكبر، لحصول الهداية، وهو التقوى التي حقيقتها: اتخاذ ما يقي سخط الله وعذابه، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع.. فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الكونية، لأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق.

فالمتقون حصلت لهم الهدايتان. وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق.

وهداية البيان بدون هداية العمل ليست هداية حقيقية تامة[1].

المسألة الرابعة: التيسير في كل الأمور:

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥- ٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

ومن يسره الله لليسرى فقد وصل.. وصل في يسر وفي رفق وفي هوادة.. وصل وهو بعد في هذه الأرض، وعاش في يسر، يفيض اليسر من نفسه إلى كل من حوله وكل ما حوله، اليسر في خطوه، واليسر في طريقه، واليسر في تناوله للأمور كلها، والتوفيق الهادئ المطمئن في كلياتها وجزئياتها، وهي درجة تتضمن خير كل شيء في طياتها.

واليسر في الأمر غاية ما يرجوه الإنسان، وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله

(١) تيسير الكريم الرحمن، مصدر سابق ص ٢٣.

الأمور ميسرة لعبد من عباده، فلا عنت ولا مشقة، ولا عسر ولا ضيق، يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره، وينالها بيسر في حركته وعمله، ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها، ويعيش من هذا في يسر رخي ندي حتى يلقى الله[1].

المسألة الخامسة: قبول العمل وصلاحه:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

عند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه، فعمله خالصًا لله موافقًا لأمره ومتبعًا لنبيه ﷺ، (خالصًا صوابًا).

فمن اتقاه في عمل تقبل منه، وإن كان عاصيًا في غيره.

ومن لم يتقه فيه لم يتقبل منه، وإن كان مطيعًا في غيره.

المسألة السادسة: الفوز والفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦١].

(١) أنظر في ظلال القرآن، مصدر سابق ٦/ ٣٦٠٢.

وقال تعالى: ﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزُّخرُف: ٣٥].

والفوز والفلاح هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب.

فلا سبيل للفوز والفلاح إلا بسلوك سبيل التقوى، وما عدا تلك السبيل فهي سبل الشقاء والهلاك والخسارة، التي تفضي بسالكها إلى الهلاك[1].

وهناك كثير من الثمار التي لم تذكر هنا حيث اكتفى الباحث بأهم الثمار.

وبالجملة؛ فالتقوى من أنجح وأهم الأمور لإصلاح المجتمعات وتزكيتها وفلاح الناس في الدنيا قبل الآخرة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]. ولقد كان حرص النبي ﷺ واضحا في تحقيقها وتربية أمته عليها، لعلمه ﷺ أنها إذا صلحت صلح الفرد كله، وإذا غابت لا خير في الأعمال بدونها، وقد كان من دعائه ﷺ: «اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»[2].

(١) في ظلال التقوى.. مصدر سابق ص

(٢) رواه مسلم، مصدر سابق – كتاب الذكر والدعاء - باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ٤/ ٢٠٨٧ برقم:٢٧٢١.



الإيمان بالله أساس صلاح المجتمعات

وفيه ثلاثة مباحث.

المبحث الأول: حقيقة الإيمان بالله وحاجة الناس إليه وفيه خمسة مطالب.

المبحث الثاني: أثر الإيمان في إصلاح الفرد والمجتمع وفيه أربعة مطالب.

المبحث الثالث: الإيمان بالله تعالى كبرى المنن على عباده وفيه أربعة مطالب.

المبحث الأول: حقيقة الإيمان بالله وحاجة الناس إليه وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الآيات وتمهيد وأسباب النزول.

المطلب الثاني: مفهوم الإيمان.

المطلب الثالث: حقيقة الإيمان.

المطلب الرابع: زيادة الإيمان ونقصانه.

المطلب الخامس: حاجة الناس للإيمان بالله.

المطلب الأول: **الآيات وتمهيد وأسباب النزول:**

المسألة الأولى / الآيات:

قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

[الحُجُرات: ١٤ - ١٨]

المسألة الثانية / تمهيد:

إن قضية الإيمان بالله تعالى ليست أمرًا على هامش الوجود، يجوز لنا أن نغفله أو نستخف به، أو ندعه في زوايا النسيان، كيف وهي أمر يتعلق بوجود الإنسان

ومصيره إنها سعادة الأبد أو شقوته، إنها لجنة أبدًا أو لنار أبدًا[١].

إنه الوعد الصادق، بل القرار الأكيد بفلاح المؤمنين، وعد الله لا يخلف الله وعده؛ وقرار الله لا يملك أحد رده، الفلاح في الدنيا والفلاح في الآخرة، فلاح الفرد المؤمن وفلاح الجماعة المؤمنة، الفلاح الذي يحسه المؤمن بقلبه ويجد مصداقه في واقع حياته، والذي يشمل ما يعرفه الناس من معاني الفلاح، وما لا يعرفونه مما يدخره الله لعباده المؤمنين.

فمن هم المؤمنون الذين كتب الله لهم هذه الوثيقة؟ ووعدهم هذا الوعد؟ وأعلن عن فلاحهم هذا الإعلان؟

من هم المؤمنون المكتوب لهم الخير والنصر والسعادة والتوفيق والمتاع الطيب في الأرض؟ والمكتوب لهم الفوز والنجاة، والثواب والرضوان في الآخرة؟ ثم ما شاء الله غير هذا وذلك في الدارين مما لا يعلمه إلا الله؟[٢].

ما الإيمان؟ وما حقيقته؟ وهل يزيد وينقص؟ وهل المجتمع بحاجة إليه؟ هذا ما سيتم توضيحه في هذا الفصل إن شاء الله.

المسألة الثالثة / أسباب النزول:

نزلت هذه الآيات في أعراب من بني أسد بن خزيمة، قدموا على رسول الله ﷺ في سنة جدبة، وأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا مؤمنين في السر، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات، وأغلوا أسعارها، وكانوا يقولون للرسول ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنون عليه،

---

(١) الإيمان والحياة.. د/ يوسف القرضاوي.. الطبعة السادسة عشر ١٩٩٣م.. ص ٥.

(٢) في ظلال القران مصدر سابق ٤/ ٢٤٥٣.

فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية[١]. وقال ابن عباس: نزلت في أعراب أرادوا أن يتسموا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا فأعلم الله أن لهم أسماء الأعراب لا أسماء المهاجرين[٢].

وقيل: نزلت في أعراب مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وهم الذين ذكرهم الله سبحانه وتعالى في سورة الفتح وكانوا يقولون: آمنا بالله، ليأمنوا على أنفسهم - فلما استنفروا إلى الحديبية تخلفوا. فنزلت فيهم هذه الآية[٣].

وقيل: كانت منازلهم بين مكة والمدينة، فكانوا إذا مرت بهم سرية من سرايا رسول الله ﷺ قالوا: آمنا، ليأمنوا على دمائهم وأموالهم، فلما سار رسول الله ﷺ إلى الحديبية استنفرهم فلم ينفروا معه، فنزلت هذه الآية[٤].

المطلب الثاني: **مفهوم الإيمان:**

المسألة الأولى / تعريف الإيمان والإسلام:

تعريف الإيمان والإسلام لغة:

الإيمان ضد الكفر والإيمان بمعنى التصديق ضده التكذيب يقال آمن به قوم وكذب به قوم والأمن نقيض الخوف، والإيمان له في لغة العرب استعمالان، لأنه تارة يتعدى بنفسه، فيكون معناه التأمين أي إعطاء الأمان. تقول: آمنت فلانًا إيمانًا وأمنته تأمينًا بمعنى واحد قال تعالى: ﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]. ومنه اسم الله تعالى «المؤمن» لأنه أمن عباده من أن يظلمهم وتارة يتعدى بالباء أو اللام

---

(١) تفسير القرطبي مصدر سابق ١٦/ ٣٤٨.

(٢) المصدر نفسه ١٦/ ٣٤٨.

(٣) المصدر نفسه ١٦/ ٣٤٨.

(٤) زاد المسير مصدر سابق ٧/ ٤٧٦.

فيكون معناه التصديق ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة الآية: ١٣٦] ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ ﴾ [البقرة الآية: ٧٥].

قال علماء الاشتقاق: وهذا المعنى الثاني راجع إلى الأول، لأن من صدقك فقد أمنك من التكذيب والمخالفة.

وكذلك الإسلام له في اللغة استعمالان: «يستعمل متعديًا» فيكون معناه التسليم أي الإعطاء، تقول أسلمت درهمًا في ثوب أي أعطيت، وتقول أسلمت فلانًا إذا خذلته، كأنك سلمته لعدوه وتركته وتقول: أسلمت أمري إلى الله أي: سلمته إليه «ويستعمل لازمًا» فيكون معناه الإنقياد والدخول في السلم أي الاستسلام، وكما أن الإصباح هو الدخول في الصباح، والإحرام هو الدخول في الحرمة والإسلام الدخول في السلم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة الآية: ٢٠٨]، وعلى هذا فمعنى الإسلام لغة أعم من الإيمان عمومًا مطلقًا[1].

التعريف الاصطلاحي للإيمان والإسلام:

قال الإمام ابن أبى العز الحنفي[2]: اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان، اختلافًا كثيرًا: فذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي[3] وإسحاق بن

---

(١) لسان العرب ١٣/ ٢١ والمختار من كنوز السنة النبوية.. د/ محمد عبدالله دراز ص ٦٩ - ٧٠. بتصرف.

(٢) هو العلامة صدر الدين محمد بن علاء الدين علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي ولد سنة ٧٣١ هـ توفي سنة ٧٩٢هـ (شرح العقيدة الطحاوية ص١٦).

(٣) عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي أبو عمرو ولد سنة ٨٨هـ وتوفي سنة ١٥٧هـ رحمه الله (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٧/ ١٠٧).

راهويه[1]وسائر أهل الحديث وأهل المدينة رحمهم الله وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين: إلى أنه تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان، وذهب كثير من أصحابنا (يعني الحنفية) إلى ما ذكره الإمام الطحاوي[2] رحمه الله: أنه الإقرار باللسان والتصديق بالجنان. ومنهم من يقول إلى أن الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي، وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدي[3] رحمه الله وهو ما يروى عن أبي حنيفة رحمه الله، وذهب الكرامية[4] إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط! فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الإيمان، ولكنهم يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به! وقولهم ظاهر الفساد، وذهب الجهم بن صفوان[5] وأبو الحسن الصالحي[6] أحد رؤساء القدرية - إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب! وهذا القول أظهر فسادًا مما قبله! فإن لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين، فإنهم عرفوا صدق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، ولم يؤمنوا بهما، ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾

---

(١) إسحاق بن إبراهيم بن مخلد التميمي الحنظلي المرزوي أبو يعقوب شيخ المشرق وسيد الحفاظ ولد سنة ١٦٦ هـ وتوفي سنة ٢٣٨ هـ (طبقات الحفاظ مصدر سابق ١/ ١٩١).

(٢) جعفر بن محمد بن سلامه بن سلمه بن عبد الملك بن جواب الأزدي الطحاوي ولد سنة ٢٣٩ هـ وتوفي سنة ٣٢١ هـ رحمه الله (شرح العقيدة الطحاوية ص ١٧ ترجمة المؤلف).

(٣) محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي من أئمة علماء الكلام نسبته إلى ماتريد بسمرقند مات فيها عام ٣٣٣هـ (الأعلام مصدر سابق ٧/ ١٩).

(٤) أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام المتوفي سنة ٢٥٥هـ (انظر: التدمرية لابن تيمية ص ١٩٢).

(٥) جهم بن صفوان الراسبي السمرقندي أبو محرز الكاتب المتكلم، الضال المبتدع، رأس الجهمية، كان ينكر الصفات وينزه الباري عنها بزعمه، ويقول بخلق القرآن، قتل سنة ١٢٨هـ (سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٦ ـ ٢٧، ميزان الاعتدال ١/ ٤٢٦).

(٦) الحسن بن صالح بن صالح بن حي كان من العباد الزهاد وقال الذهبي: هو من أئمة الإسلام لولا تلبسه ببدعة – توفي سنة ١٦٩هـ، (سير أعلام النبلاء ٧ / ٣٦١).

[الإسراء: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[النمل: ١٤][١].

أما في القرآن «فكثيرًا» ما يراد بهما (الإيمان والإسلام) ذلك المعنى اللغوي نفسه بدون تصرف فيه، فيراد من الإيمان مطلق التصديق بحق أو باطل ويراد من الإسلام مطلق الإنقياد لأي أمر «وكثيرًا» ما يراد بهما معنى أخص من ذلك صار في العرف الشرعي حقيقة جديدة فيراد من الإيمان خصوص التصديق بخبر السماء المنزل على الأنبياء ويراد من الإسلام خصوص الانقياد لله رب العالمين[٢].

ويقول الشيخ سعيد حوى[٣] رحمه الله:

«إن الإسلام الكامل هو الإيمان الكامل ولا فرق، لأن الإيمان الكامل يدخل فيه تصديق القلب وتصديق الجوارح بالعمل، والإسلام الكامل يدخل فيه إسلام القلب لله بالإيمان وإسلام الجوارح بالعمل»[٤]والتحقيق في الإيمان والإسلام أن يقال إنهما إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا[٥]. وحاله اقتران الإسلام بالإيمان غير حاله إفراد أحدهما عن الآخر، وكل منهما مرتبط بالآخر في الحكم والمعنى، فلا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلوا المؤمن من إسلام

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية للإمام ابن أبي العز الحنفي.. الطبعة التاسعة ١٩٨٨م المكتب الإسلامي ... ص ٣٣٢.

(٢) المختار من كنوز.. مصدر سابق ص ٧٢.

(٣) سعيد بن محمد ديب حوى، ولد في مدينة حماة بسورية عام ١٩٣٥م ألف كتابه الأساس في التفسير وهو في السجن ١٢ مجلدا توفي في المستشفى الإسلامي بالأردن عام ١٩٨٩م. (من أعلام الحركة الإسلامية العقيل ص ١٩٧).

(٤) الأساس في التفسير.. الشيخ / سعيد حوى - الطبعة الأولى - دار السلام ٩/ ٥٤٣٧.

(٥) تفسير القاسمي ١٥/ ١٤٠.

به يحقق إيمانه، ولا يخلوا المسلم من إيمان به يصح إسلامه[١].

المسألة الثانية / ورود لفظ الإيمان في سورة الحجرات:

والسورة تحدد معالم الإيمان، الذي باسمه دعي المؤمنون إلى إقامة ذلك العالم وباسمه هتف لهم ليلبوا دعوة الله الذي يدعوهم إلى تكاليفه بهذا الوصف الجميل، الحافز إلى التلبية والتسليم: يا أيها الذين آمنوا.. ذلك النداء الحبيب الذي يخجل من يدعى به من الله أن لا يجيب؛ والذي ييسر كل تكليف ويهون كل مشقة، ويشوق كل قلب فيسمع ويستجيب[٢].

وقد جاء ذكر الإيمان في معظم آيات السورة بصور مختلفة مبتدأ بنداء حبيب إلى نفوس المؤمنين ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ..﴾ وفي كل آية بدأت بهذا النداء يحذر من خصلة لا يليق أن يفعلها المؤمن.

ففي المرة الأولى: ينهاهم عن التقدم بين يدي الله ورسوله والتقدم قد يكون محبطا للعمل ومذهبا للإيمان.

وفي الثانية: ينهى عن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ ويبين أن هذا خطير على إيمان صاحبه ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحُجُرات: ٢].

وفي الثالثة: يأمر بالتثبت فإن العجلة تضعف الإيمان وتؤثر فيه ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَـٰدِمِينَ ..﴾ [الحُجُرات: ٦] ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ [الحُجُرات: ٧].

وفي الرابعة والخامسة: ينهى عن بعض الخصال التي لا يليق أن تصدر من المؤمن

(١) انظر العقيدة الطحاويه ص ٣٩٢.

(٢) في ظلال القران مصدر سابق ٦/ ٣٣٣٧.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجُرات: ١١]..

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ [الحجُرات: ١٢] وهل يجتمع كمال الإيمان وأكل لحم الميتة إلا في الضرورة فكيف إذا كان هذا الميت إنسانًا وأبشع من ذلك أنه أخوه[1].

وهكذا جاء هذا النداء باسم الإيمان وسيلة لتصحيح مساره وتقويم اعوجاجه، وإكمال نقصه في نفوس بعض أولئك الذين ناداهم باسم الإيمان، وكأنه يقول: يا مؤمنون هل هذا من الإيمان، ومنهج القرآن يغرس الإيمان في نفوس الناس بصور شتى ومنها تصحيح الأخطاء.

وبناء الإيمان في هذه السورة يأتي بأسلوب آخر أيضًا، بل بأساليب أخر فمن ذلك:

أولا: أنه لما دعاهم باسم الإيمان إلى التثبت ونهاهم عن العجلة يبين لهم مكانة وأثر رسول الله ﷺ فيهم ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ بعد ذلك كله يلفت لفتة إيمانية عجيبة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي دعوة للإيمان أقوى من هذه الدعوة؟ أن يعرض الإيمان مزينًا محببًا؟ هل يستطيع مؤمن أن يقاوم هذا الإغراء؟ وينصرف عن هذا التحبب، ولا يستجيب لهذا المنهج المبارك المستقيم؟[2].

ثم ينقل المتابع نقلة أخرى عميقة في مدلولها، مجلجلة في إيقاعها ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ

(١) العمر مصدر سابق ١٠٦.

(٢) العمر مصدر سابق ١٠٧.

﴿ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ واستخدم فيها الإشارة للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ والراشدون هم المؤمنون، والإشارة للبعيد لها مغزاها وأثرها في النفس، وخلجات الضمير، وكأنه يعرض الإيمان بالسهل الممتنع، وكأنه قريب بعيد.

ثانيا: يستمر في عرض الإيمان وبنائه بالأساليب المتعددة المؤثرة، فبعد أن ذكر ما يجب في حال اقتتال طائفتين من المؤمنين، أستأنف فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٌ﴾ وهل يليق بالمؤمن أن يقاتل أخاه المؤمن، بل هل يليق بالمؤمن أن يرى اقتتال إخوته ويقف موقفا سلبيًا ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ وفي هذه الآية ليس مجرد الدعوة للقيام بالصلح، بل وتصحيح لمسار الإيمان ومفهومه عند كثير من المسلمين، وكأن السلبية والإيمان لا يجتمعان، فتأمل.

ثالثا: يأتي في ختام هذه السورة، مصرحًا بالحقيقة التي بدأها، بل ومحددًا لهذا المفهوم، ومستنكرًا وضع الأمور في غير مواضعها، وتسمية الأشياء بغير مسمياتها ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ ثم يحسم القضية حسمًا لا جدال بعده ولا لبس فيه ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ حصر وتأكيد ثم إزالة لأي لبس أو تشكيك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ فهم الصادقون وحدهم[1] ومنهج القرآن الكريم يريد أن يكون الناس صادقين في إيمانهم وأن يحصروا النفاق في نطاق ضيق ويبين أن للإيمان علامات واضحة وأهمها عدم الشك في الله وفي أحكامه والالتزام بها قولاً وعملاً

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠٨.

والجهاد في سبيله بالمال والنفس وذلك أعلا درجات الإيمان وأوضح صور الصدق مع الله سبحانه وتعالى.

رابعا: ورد لفظ الإيمان بتصاريفه المتعددة في هذه السورة خمس عشرة مرة مع أن آياتها لا تتجاوز ثماني عشرة آية، فعلام يدل ذلك؟ وحاشا لله أن يأتي حرف في كتابه عبثًا أو حشوًا.

خامسا: وأخيرًا فإن آخر آية ورد فيها لفظ الإيمان، وهي الآية قبل الأخيرة من هذه السورة جاءت بدلالة مؤثرة ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ أليست هذه السورة من أولها إلى آخرها هداية للإيمان، بل إن ختام السورة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾..

ومن حقيقة الإيمان أن يعلم ويؤمن ويوقن المؤمنون أن الله يعلم غيب السماوات والأرض، وأنه بصير بما يعلمون وما يعملون، فكل آية في هذه السورة تضع لبنة في بناء الإيمان في قلب المسلم، وهنالك يصبح مسلمًا مؤمنًا، بل ومحسنًا تقيًا[١].

المطلب الثالث: حقيقة الإيمان:

ما الإيمان الذي نعنيه؟ إنه ليس مجرد إعلان المرء بلسانه أنه مؤمن، فما أكثر المنافقين الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨ - ٩].

---

(١) أنظر ... ناصر العمر مصدر سابق ص ١٠٩.

وليس هو مجرد قيام الإنسان بأعمال وشعائر اعتيد أن يقوم بها المؤمنون، فما أكثر الدجالين الذين يتظاهرون بالصالحات، وأعمال الخير، وشعائر التعبد، وقلوبهم خراب من الخير والصلاح والإخلاص لله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وليس هو مجرد معرفة ذهنية بحقائق الإيمان، ولم يؤمنوا: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. وحال الكبر أو الحسد أو حب الدنيا بينهم وبين الإيمان بما علموه من بعد ما تبين لهم الحق: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

إن الإيمان في حقيقته ليس مجرد عمل لساني ولا عمل بدني، ولا عمل ذهني[1]، إن الإيمان بالله تعالى أبلغ من هذا كله وفوق ذلك كله إنه في حقيقته عمل نفسي يبلغ أغوار النفس، ويحيط بجوانبها كلها من إدراك وإرادة ووجدان.

فلا بد من إدراك ذهني تنكشف به حقائق الوجود على ما هي عليه في الواقع، وهذا الانكشاف لا يتم إلا عن طريق الوحي الإلهي المعصوم.

ولا بد أن يبلغ هذا الإدراك العقلي حد الجزم الموقن، واليقين الجازم، الذي لا يزلزله شك ولا شبهة: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ ولا بد أن يصحب هذه المعرفة الجازمة إذعان قلبي وانقياد إرادي، يتمثل في الخضوع والطاعة لحكم من آمن به مع الرضا والتسليم: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ

---

(١) الإيمان والحياة.. مصدر سابق ص ١٦.

حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥] ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦](١).

والله سبحانه يطالب عباده بالإيمان به قولاً وعملاً وذلك سبب النجاة كما جاء في سورة العصر ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ الناس كلهم في خسارة إلا من آمن وعمل صالحًا... الخ.

وقد أجمع أهل السنة على أن الإيمان اعتقاد بالقلب وقول باللسان واختلفوا في عمل الجوارح هل هي جزء من أصل الإيمان أم من مقتضياته وثماره، وهذا الخلاف لا يؤثر لأنه خلاف نظري لا يترتب عليه أثر عملي(٢)، والمهم أن يتبع تلك المعرفة، وهذا الإذعان حرارة وجدانية قلبية، تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة، والالتزام بمبادئها الخلقية والسلوكية والجهاد في سبيلها بالمال والنفس، ولهذا نجد القرآن الكريم يصف المؤمنين فيقول:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ

---

(١) المصدر نفسه ص ١٦.

(٢) الإيمان أركانه – حقيقته – نواقضه – د/ محمد نعيم ياسين – الطبعة الأولى ٢٠٠١م- دار الوفاء مصر المنصورة ص ١١١ بتصرف.

رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

والقرآن الكريم يعرض دائمًا الإيمان في أخلاق حية، وأعمال ناصعة، يتميز بها المؤمنون من الكفرة والمنافقين: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ....﴾ [المؤمنون: ١ - ٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وهنا الإيمان بمعنى العمل الصالح.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ [يوسف: ١٧]. أي بمصدق لنا(١).

وقال تعالى في وصف المؤمنين الصادقين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]..

فالإيمان الحق عند الله تعالى الذي يستحق أهله عليه الحمد والثناء، وحسن الجزاء، إنما هو التصديق لا أثر فيه للريب والشك، بل هو الذي يملأ القلب، فتظهر ثمراته على الجوارح بالطاعة وأداء ما فرضه ﷻ من التكاليف البدنية كالصلاة والصوم والتكاليف المالية كالزكاة والحج، والتضحية بالنفس والمال في سبيل الله من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، وتمكين الحق، ودفع البغي، وعمارة الأرض، وتطهيرها من الفساد فهؤلاء المتصفون بهذه الخصال العاملون لها هم الصادقون إذا قالوا آمنا(٢).

---

(١) انظر الإيمان والحياة.. مصدر سابق ص١٥.

(٢) انظر الصواف.. مصدر سابق ص ١٧٠.

إن الإيمان الحق هو الذي تشرق شمسه على جوانب النفس كلها، فتنفذ إليها أشعتها حاملة الضوء والحرارة والحياة، أجل تنفذ هذه العقيدة إلى العقل فتقنعه وتطمئنه، وإلى القلب فتهزه وتحركه، والى الإرادة فتدفعها وتوجهها، وإذا افتتح العقل، وتحرك القلب، واتجهت الإرادة استجابت الجوارح، واندفعت للعمل استجابة الرعية للراعي المطاع[1].

«فرق كبير بين أن ترى الرأي وأن تعتقده، إذا رأيت الرأي فقد أدخلته في دائرة معلوماتك، وإذا اعتقدته جرى في دمك، وسرى في مخ عظامك وتغلغل في أعماق قلبك»[2].

فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب، ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور، والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان واطمأن إليه وثبت عليه، لا بد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب، في واقع الحياة، في دنيا الناس، يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة، ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه، والصورة الواقعية من حوله[3].

إذن حقيقة الإيمان بالله تعالى تصديق بالقلب، وعمل بالجوارح، وقول باللسان، وما أجمل عبارة الحسن البصري رحمه الله حين قال: (الإيمان ما وقر في

---

(١) انظر الإيمان والحياة.. مصدر سابق ص ١٨.

(٢) فيض الخاطر لأحمد أمين نقلاً عن رسائل العاملين.. الشيخ / جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – مؤسسة الكلمة للنشر- تاريخ النشر ١٩٩٧م.. ١/ ٣٧٢.

(٣) في ظلال القرآن مصدر سابق ٦/ ٣٣٤٩.

القلب وصدقه العمل)[١].

فالمؤمن الحق يصدق قلبه بالله وبرسوله فيخشع ويخضع، ويندفع ليحقق بسلوكه وعمله ما استقر في قلبه، فيكون للإيمان أثر طيب في واقع الحياة يزيل منها المكر، ويغرس في أرضها البر والخير والحب والتعاون والرحمة بين المؤمنين، والشدة والغلظة على الكافرين الجاحدين، فينقشع الشر، ويعم الخير، وعلى هذا فليس الإيمان فكرًا نظريًا ولا ترديدًا لسانيًا، أو إعلانًا قوليًا، ولا عملاً بدنيا، وإنما هو مزيج يصب في القلب فيحركه، فيندفع المؤمن به مغيرًا واقع الأرض من حوله، ليظهر فيها دين الله على الدين كله ولو كره المشركون[٢].

والإيمان بالله تعالى يتضمن توحيده سبحانه في ربوبيته وفي ألوهيته وفي أسمائه وصفاته وذلك باعتقاد تفرده سبحانه وأنه رب كل شيء ولا رب سواه وأنه إله كل شيء ولا إله سواه وأنه له الكمال في الصفات والأسماء ولا كامل سواه.

المطلب الرابع: **زيادة الإيمان ونقصانه:**

ظواهر النصوص القرآنية الكريمة، والسنة النبوية الشريفة تدل على أن الإيمان يزيد وينقص، من هذه النصوص قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ

---

(١) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود - دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الثانية ١٤١٥هـ ١٢/ ٢٩٤.

(٢) رسائل العاملين مصدر سابق ١/ ٣٧٢.

أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْۗ ﴾[الفتح: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[التوبة: ١٢٤- ١٢٥]..

ومن الأحاديث الدالة على ذلك قول النبي ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا»[١].

وقوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبه، أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»[٢].

وقال رسول الله ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف، يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس

(١) رواه ابن حبان مصدر سابق ٢/ ٢٢٨ برقم: ٤٧٩. وقال حديث حسن صحيح. وقال الألباني أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وإنما هو حسن فقط. الصحيحة ١/ ٥٧٣.

(٢) رواه مسلم مصدر سابق – كتاب الإيمان – باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان ١/ ٦٣ برقم: ٣٥.

(٣) المصدر نفسه – كتاب الإيمان – باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان ١/ ٦٩ برقم: ٤٩.

وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[١].

وإذا كان ظاهر هذه النصوص يدل على زيادة الإيمان ونقصه بجلاء ووضوح، فلا داعي للخروج عن هذا الظاهر، خاصة وإنه لا فائدة من التأويل، ولا ثمرة في الخلاف.

على أن الأمر الأهم من كل ذلك أن يتعهد المؤمن إيمانه ويحاسب نفسه فيه إن كان زاد أم نقص، وأن ينظر في أسباب الزيادة والنماء وصلاح القلب، كما كان يفعل الصحابة رضوان الله عليهم[٢].

فمن علامة إيمان المؤمن أنه إذا سمع آيات الله تتلى ووحيه يقرأ ازداد إيمانًا إلى إيمانه ويقينا إلى يقينه، وعلمًا إلى علمه، فالمؤمن قلبه دائمًا حاضر ونفسه متيقظة بذكر الله ﷻ تداوي به عللها، وتصلح به ما اختل من شؤونها، ومتى ما قرع نداء الله تعالى أذنيه لبى نداء خالقه.

والإيمان يزيد وينقص ويزهر ويذبل، ويتقدم ويتأخر، ويحيا ويموت، وعلى هذا فيجب على المسلم المؤمن أن يسعى دائمًا إلى تنمية إيمانه والمحافظة على دينه فهو كالنبتة المزهرة إن لم ترعها بالري والسقاية وتدفع عنها الأذى والعدوان اعتراها الذبول فالموت[٣].

وبعد أن أتضح بالأدلة الشرعية أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، ويزيد وينقص لعل من المهم ذكر بعض أسباب زيادة الإيمان ليزيد بها المؤمن إيمانه ويرضي ربه وأهم هذه الأسباب هي:

---

(١) المصدر نفسه – كتاب الإيمان – باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان ١/ ٧٠ برقم: ٥٠.

(٢) الإيمان حقيقته مصدر سابق ص ١١٥.

(٣) الصواف مصدر سابق ص ١٦٢-١٦٤.

أسباب زيادة الإيمان:

أولا/العلم: فإن الاستزادة منه سبب في زيادة اليقين والمعرفة، قال جندب بن عبد الله[١] وابن عمر وغيرهما: «تعلمنا الإيمان، تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا»[٢]والمقصود في هذا المقام العلم بالله، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وآياته سبحانه وتعالى، والعلم برسول الله ﷺ، وما جاء به من الأخلاق، والمناهج والتشريعات، وسيرته في عبادته وجهاده ومعاملته، والعلم بكتاب الله، وما فيه من الأخبار والأمثال والحكم والعبر والفرقان[٣].

ذلك أن أصل الإيمان هو الإقرار بألوهية الله وما يليق به من الصفات، والاعتراف برسالة محمد ﷺ وبكل ما جاء به من عند الله، بصورة إجمالية وهي المتمثلة بالشهادتين، فمن قالهما معتقدًا بهما فقد حاز أصل الإيمان ولكنه لا يستوي مع من علم معناهما ومقتضياتهما بالتفصيل، فلا يستوي من علم بالتفصيل ما أخبر به الرسول ﷺ مما يكون بعد الموت، من السؤال والعذاب والنعيم ومن لم يعلم بذلك، وإن كان هذا يدخل بصورة إجمالية في شهادة أن محمدًا رسول الله، وكذلك لا يستوي من علم أحوال الآخرة بما يكون فيها من بعث ونشور وعرض وقراءة الصحف وحساب وأهوال وحوض وصراط وجنة ونار، مع من آمن باليوم الآخر إجمالاً من غير تفصيل، وكذلك من علم بالتفصيل سيرة المصطفى ﷺ وما فيها من كمال، لا يستوي معه من لم يعرفها إلا بالإجمال، ولذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ

---

(١) جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي صحابي جليل لم يذكر تاريخ وفاته (أسد الغابة مصدر سابق ١/ ٣٠٤).

(٢) توضيح المقاصد في شرح قصيدة ابن القيم – أحمد بن إبراهيم بن عيسى – المكتب الإسلامي بيروت – الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ تحقيق/ زهير الشاويش ٢/ ٢٤١.

(٣) الإيمان حقيقته مصدر سابق ص ١١٦.

مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وكلما ازداد الإنسان علمًا بالله وصفاته وكتابه وأحكامه وسيرة نبيه وأخلاقه ﷺ كلما أزداد إيمانًا، ولا يستوي مع من لا يعلم إلا القليل.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزُّمَر: ٩].

ثانيا/العمل: فإنه بالإكثار من العمل الصالح والطاعة يزداد اليقين، ويقوى الإيمان، وبالإقلال من العمل، والإغراق في الشهوات والمعاصي يضعف الإيمان، وقد يصل الحد ببعض الناس من كثرة معاصيهم إلى الإنكار، والاستحلال وتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام تبريرًا لفجورهم وفسوقهم، فيدخلون بالكفر والعياذ بالله.

ذلك أن أساس الإيمان بالله هو الإقرار له بالألوهية والإخلاص له بالعبودية وهذا الإقرار والاعتراف في الواقع نوعان: اعتراف نظري بالتصديق واعتراف عملي بالطاعة والتطبيق، فمن اقتصر على الأول كان إيمانه بالله ناقصًا، وبقدر ما يزداد من الطاعة يزداد من الإيمان، ولا بد لتمام الإيمان من النوعين كليهما.

ثالثا/الذكر: والمقصود بالذكر ذكر الله بصفاته وما يليق بجلاله وعظمته، وتلاوة كلامه وآياته، فانه يديم اتصال القلب بالخالق، وقلته تورث النسيان والغفلة عن الله عز وجل، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لإخوانه من الصحابة: «هلموا نزدد إيمانًا» فيذكرون الله عز وجل. وقد روي عن عمير بن حبيب[1] وهو من أصحاب النبي ﷺ قال: «الإيمان يزيد وينقص، قيل ما زيادته

(١) عمير بن حبيب بن حباشه بن جويبر الأنصاري.. ممن بايع تحت الشجرة ة ولم يذكر تاريخ وفاته (أسد الغابة مصدر سابق ٤/ ٧١٤).

ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته وإذا غفلنا ونسينا فذلك نقصانه» وكان عبد الله بن رواحه[١] يأخذ بيد الرجل من أصحابه ويقول: «قم بنا نؤمن ساعة فنجلس في مجلس ذكر»[٢].

وكما أخبر سبحانه وتعالى أن من صفات المؤمنين أنهم يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾[آل عمران: ١٩١].

رابعا/الفكر: والمقصود بالفكر العمل على إدامة رؤية صنع الله بالتفكير في مخلوقاته، والنظر إلى آياته ومعجزاته، ذلك أن من الإيمان بالله استشعار عظمته وقدرته وجليل صفاته وعظمة أفعاله، وهذا الاستشعار متفرع من دوام النظر إلى ملكوت الله ﷻ، ووسيلة هذا النظر هو التفكير والاعتبار. ألا ترى لو أنك أُخبرت بمهارة شخص في صناعة من الصناعات، وأخبرك كثيرون عن قدرته في مضماره، فإن إحساسك بمهارته يزداد إذا رأيت بعينك نموذجًا من صناعته ولو بصورة إجمالية، فإذا شاهدت نماذج أكثر من صناعته ازداد ذلك الإحساس، ويزداد أكثر وأكثر إذا أتيحت لك الفرصة بتفحص هذه الصناعات والتدقيق فيها، وصفات الله ﷻ وأفعاله العظيمة متجلية للجميع في هذا الكون العظيم، ومن الناس من يخرون عليها صمًا وعميانًا ولا يتجاوزون ما فيها من المتع والشهوات، وهؤلاء هم الكافرون وربما قريب منهم ضعاف الإيمان، ومنهم من يقرأ فيها عظمة الله وعظمة سلطانه، وقدرته وتدبيره فيزدادون إيمانًا ويقينًا، وهؤلاء الذين وصفهم الباري عز

---

(١) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي البدري النقيب أبو عمرو الشاعر شهد معظم الغزوات مع النبي ﷺ قتل يوم مؤته سنة ٨ هـ وكان قائد المسلمين بعد أن قتل زيد وجعفر (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ١/ ٢٣٥).

(٢) شرح قصيدة بن القيم مصدر سابق ٢/ ٢٤١.

وجل بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[آل عمران: ١٩١].

وقال عنهم سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ [الفرقان: ٧٣].

وأما أولئك فقال عنهم: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٧ - ١٨][١].

قال عمر بن عبد العزيز[٢] رحمه الله: «إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننا فمن استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان»[٣].

وقال البخاري رحمه الله: «لقيت أكثر من ألف من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدًا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص»[٤].

المطلب الخامس: حاجة الناس للإيمان بالله:

لا شك ولا ريب أن حاجة الناس للإيمان بالله لا تساويها حاجة أخرى مهما كانت، وهذا من الأمور البدهية التي يعترف بها المؤمن وغيره، وإن كان بعض

---

(١) الإيمان - حقيقته - مصدر سابق ص ١٣٠ -١٣٤.

(٢) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أميه الإمام العلامة المجتهد الزاهد أمير المؤمنين خامس الخلفاء الراشدين ولد سنة ٦٣هـ وتوفي سنة ١٠١هـ (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٥/ ١١٤).

(٣) فتح الباري مصدر سابق ١/ ٦٧.

(٤) المصدر نفسه ١/ ٦٩.

الناس يجادلون في الله بغير علم ولا كتاب منير، وفي قرارت أنفسهم يعترفون بضعفهم وحاجتهم إلى الله وإلى الإيمان به، وإن كان هناك فئة قليلة شاذة لا تشعر بحاجتها إلى الله تعالى، فإن السبب الرئيس هو عدم إيمانهم بالله ﷻ، وعدم قيامهم بحقوق عبوديتهم له، وامتلاكهم لبعض حظوظ الدنيا.

يقول تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦ - ٧].

ففي ظنهم أنهم يمتلكون من أسباب القوة ما يجعلهم في غنى عنه - سبحانه وتعالى - وعندما يستبدل حالهم من اليسر إلى العسر، ومن السعة إلى الضيق، ومن الأمن إلى الخوف والكرب، فإنهم يتجهون بكليتهم إلى الله ﷻ بعد أن زالت عنهم عوارض القوة، وعاشوا في حقيقة فقرهم وضعفهم، واستشعروا حاجتهم الماسة إليه سبحانه.. فتراهم يعودون إليه متضرعين منكسرين مخلصين له الدين يقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

ولقد كان الرسل جميعًا يركزون في دعوتهم للناس على إشعارهم بحاجتهم إلى الله، فيذكرونهم بحجم النعم التي أنعمها الله عليهم ويخوفونهم من سوء مآلهم يقول تعالى على لسان هود – عليه السلام– وهو يخاطب قومه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[الشعراء: ١٣٤- ١٣٥]. فأي توجيه أو نصح لا يقع موقعه الصحيح في نفس مستمعه إلا إذا استشعر حاجته إليه، يقول تعالى: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا

يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١] [(١)].

والإيمان بالله يشكل لدى الإنسان حاجة أساسية سواء من الناحية العقلية أو من الناحية الفطرية أو الناحية العاطفية، فإن الإنسان منذ وجد على سطح البسيطة، وهو في كل مجتمع وفي كل زمان ومكان يتساءل من أين جاء وإلى أين يذهب، ومتى يذهب، وكيف وجد، وهذه الأسئلة تبقي موضوع الإيمان حيًا في النفس على الدوام، ثم إن مظاهر الطبيعة المفردة أو الشاذة، والسنن المستمرة، والحوادث المفردة التي لا تتكرر تشعر الإنسان بضعفه أمام الكون فتلجئه إلى الإيمان بالله يستمد منه القوة في الحياة، وقد تخفف العادة من حدة هذا الشعور، ولكن وقفة من وقفات التأمل سرعان ما تعود بالإنسان إلى الطريق السوي، ثم إن أوقات النوائب تتيح للإنسان فرصا كبيرة للعودة إلى النفس وإحكام الصلة بالله وتوثيق الإيمان به تماما، كما تفعل النعم السابغة المستمرة[(٢)].

وتأتي حاجة الناس للإيمان بالله تعالى، من كون الإنسان يحتاج للسعادة والرضا والطمأنينة في الحياة، ولا يوجد ذلك إلا في إيمان العبد بربه إيمانا صادقًا، فهو سبحانه الذي يحقق له تلك الأشياء، وهو سبحانه الذي يحميه من كل قوى المجتمع الشريرة المخيفة للإنسان، فكم من أناس يخشون على أنفسهم من أوهام وأشباح ومن بشر لا يقدمون ولا يؤخرون ومن بشر كذلك بيدهم بعض الأمور.

لكن المؤمن الحق لا يخشى ذلك لأنه يؤمن أن الله هو الذي خلقه ورزقه وبيده كل مقاليد الأمور، فلا يقع في الكون إلا ما يريده الله سبحانه (واعلم أن الأمة لو

---

(١) الإيمان أولا.. د/ مجدي الهلالي - الطبعة الأولى ٢٠٠٠م - دار التوزيع والنشر الإسلامية. ص ١٨-١٩.

(٢) معالم الثقافة مصدر سابق ص ٣٦.

اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إ لا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليكم)[١].

والإنسان بحاجة للإيمان ليعيش راضيًا عن حياته راضيًا بما قسم الله له من رزق في المال والولد وغيره.

راضيا بما وضعه الله فيه من جمال في الصورة ووضع في المجتمع سواء كان جميلاً أو قبيحًا أبيض أو أسود، غنيًا أو فقيرًا آمرًا أو مأمورًا.

والناس بحاجة للإيمان لأنه السبب الوحيد الذي ينير لهم طريق الحق، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وإلا سيتخبطون في ظلمات لا صبح لها.

وهم بحاجة إلى الإيمان ليعيشوا آمنين مطمئنين على أنفسهم وأهليهم وأموالهم، لأن الإيمان يجعل كل فرد مسؤول عن حماية إخوانه وأموالهم، بل حريصًا عليهم كحرصه على نفسه (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه)[٢].

(١) رواه احمد ١/ ٢٩٣ برقم ٢٦٦٩ والترمذي ٤/ ٦٦٧ برقم ٢٥١٦ وصححه الألباني صحيح الجامع ٢/ ١٣١٨ برقم ٧٩٥٧.

(٢) البخاري سبق تخريجه ص ٦ - ١/ ١٤ برقم: ١٣.



المبحث الثاني: أثر الإيمان في إصلاح الفرد والمجتمع وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الإنسان بين المادية والإيمان.

المطلب الثاني: نماذج إيمانية.

المطلب الثالث: أثر الإيمان في إصلاح الفرد.

المطلب الرابع: أثر الإيمان في إصلاح المجتمعات.

المطلب الأول: الإنسان بين المادية والإيمان:

المسألة الأولى / الإنسان في نظر الماديين:

الإنسان في نظر الماديين قبضة من تراب هذه الأرض، من الأرض نشأ وعلى الأرض يمشي، ومن الأرض يأكل، وإلى الأرض يعود!!

هو كتلة من اللحم والدم والعظام والأعصاب والأجهزة والغدد والخلايا، وما العقل والتفكير إلا مادة يفرزها المخ، كما تفرز الكبد الصفراء، أو كما تفرز الكلية البول!.

وهو كائن ليس له أهمية ولا امتياز على غيره. إنه أحد الأحياء الكثيرة المتنوعة على هذه الأرض، بل هو من جنس هذه الهوام والحشرات والزواحف والقرود، غاية أمره أنه تطور بمرور الزمن فأصبح هذا الإنسان!!.

والأرض التي يحيا عليها الإنسان، إن هي إلا كوكب صغير ضمن مجموعة من مجاميع ضخمة كبيرة كثيرة يضمها عالم الأفلاك، تعد بمئات الملايين.

أما من حيث الزمان فقد جاء (داروين)[1]وجاء الجيولوجيون فأرادوا أن يثبتوا لنا أن الإنسان شيء تافه أيضًا من حيث الزمان، فإن عمر الأرض يمتد إلى مئات الملايين من السنين، فما قيمة أي مائة أو حتى مئات من الأعوام يعيشها الإنسان؟.

تلك هي قيمة الإنسان بالنسبة إلى المكان والزمان في نظر الماديين.. إنهم لا يميزونه بما يسميه غيرهم (الروح الإلهي) أو (النفس الناطقة) إنه ليس إلا هذا

---

(١) هو داروين تشارلس ولد عام ١٨٠٩م وتوفي عام ١٨٨٢م إنكليزي عالم بالطبيعة، صاحب نظرية التطور في الأجناس الحية قال إن ذلك نتيجة اختيار طبيعي لصالح الأجناس الأكثر أهلية للبقاء (وهي نظرية غير صحيحة قد نقضها العلم التجريبي إضافة إلى كونها منافية للأديان خاصة الإسلام).(المنجد.. مصدر سابق ٢/ ٢٣٨)

الهيكل المادي وهذا الجسم الحيواني.

وما قيمة هذا الجسم، وهذا الهيكل الذي هو الإنسان؟

فأي إيحاء للنفس الإنسانية أسوأ من هذا الإيحاء أثرًا؟ أن يرى الإنسان نفسه مخلوقا هابطًا.. حيوانًا.. طينًا وحمأ!! إنه لا يستغرب من نفسه الانحدار والتلوث والإسفاف، ولا يستنكف من القذارة والأوحال أن يتمرغ فيها، ويتلطخ بها، بل المستغرب منه أن يتعفف ويتطهر، وأن يحيا نظيفًا مستعليًا عن الشهوات، والمطامع المادية، باذلاً النفس والمال في سبيل الحق، إبتغاء رضوان الله تعالى[1]!. بل الإنسان بدون إيمان يعيش في نكد وخوف مهما ملك من لذائذ الحياة.

وهذا نموذج ممن جاءتهم الدنيا وملذاتها، لكنهم عاشوا في خوف ووجل ونكد رغم ذلك لنعلم أن لا سعادة إلا بالإيمان فقد ذكر الدكتور القرضاوي هذه القصة التي يرويها شخص عن نفسه فيقول:

«إنني أعيش في خوف دائم، في رعب من الناس والأشياء، ورعب من نفسي، لا الثروة أعطتني الطمأنينة، ولا المركز الممتاز أعطانيها ولا الصحة، ولا الرجولة، ولا المرأة، ولا الحب، ولا السهرات الحمراء، ...... ضقت بكل شيء، بعد أن جربت كل شيء.

إنني أكره نفسي، أخاف من نفسي، ألا ترى الأشباح من حولي؟ ألا تحس بالخوف يفتح فمه لكي يلتهمني؟ مم هذه الهموم؟ ليست لي هموم، إن همي الأكبر هو هذه الدنيا، المال عندي، المركز والجاه عندي، والصحة، والمرأة والجمال، و... كل شيء بين يدي، كل شيء ملكي، لماذا أنا خائف إذًا؟ مما أخاف؟؟.

من الله؟ كلا، فالله لا وجود له في حياتي، مم إذن أخاف؟ من المجتمع؟ إنني

---

(١) الإيمان والحياة.. مصدر سابق ص ٤٩- ٥١ بتصرف.

أكرهه وأحتقره وأهزأ به، من أين يأتيني الخوف إذن؟ من الموت؟ ربما، ولكني لا أبالي به، لا أشعر إنني أخافه، إنه عندي مجرد ظاهرة؟ من أين يأتي الخوف إذن؟؟

ربما كنت خائفًا لأنه لا يوجد شيء أخاف منه، ربما كنت خائفًا لأن كل شيء بين يدي، محضر لي، إن الامتلاء والجوع كلاهما يخيف! لو كان المال ليس حاضرًا لدي لتمنيته ولسعيت من أجله، وأنفقت يومي وليلي أسعى من أجله... لو كان المركز المحترم بعيدًا عني لبذلت كل جهدي لكي أبلغه، ولكن كل شيء موجود: المال، المرأة، الأصدقاء، الاحترام، كل ما يسعى الناس إليه ويفكرون فيه ميسر لي: ليس لي ما يشغلني أو يتعبني الحصول عليه ... حياتي فضاء.... همومي؟ لا هموم لي... إذن لا بد أن أخاف، لأنني لا أجد ما أخاف منه، لا بد أن أخاف من المجهول الذي لا أعرفه....

إنني تائه في الحياة لأنني بلغت قمة الحياة.. إن الحياة الآن هي عدوي.. ليس ما في الحياة فكله ملكته.. إنني أشعر أنها تسخر مني، وتقف في وجهي كالغول.. عرفت الآن مما أخاف.. إني أخاف من الحياة ذاتها».

هذا نموذج واضح لنفسية أولئك المحرومين من حلاوة الإيمان، وبرد اليقين، وهو يصور لنا ما يعانيه هؤلاء من رعب وخوف وقلق وتعب نفس لم يخفف وطأته عليهم وفرة المال والجاه ونعيم الدنيا كله»[١].

المسألة الثانية / الإنسان في نظر المؤمنين:

أما الإنسان في نظر المؤمنين فهو مخلوق كريم على الله، خلقه ربه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، خلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وميزه بالعلم والإرادة، وجعله خليفة في الأرض، ومحور النشاط في

---

(١) الإيمان والحياة.. مصدر سابق ص ١٢٧ - ١٢٨.

الكون، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعا وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، فكل ما في الكون له ولخدمته، أما هو فجعله تعالى لنفسه.

تحدث القرآن عن الإنسان في عشرات بل مئات من آياته، وحسبنا أن أول فوج من آيات الوحي الإلهي نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ وكانت خمس آيات لم تغفل شأن الإنسان وعلاقته بربه علاقة الخلق والتكريم، وعلاقة الهداية والتعليم، واختارت الآيات لفظ (الرب) لما يشعر به من التربية والرعاية والترقية في مدارج الكمال، هذه الآيات الأولى في القرآن هي قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

اقتراب الخالق من عبيده:

وفي آيات كثيرة من سور شتى، بين القرآن قرب الإنسان من الله، وقرب الله من الإنسان، ذلك القرب القريب الذي حطم أسطورة الوسطاء والسماسرة المرتزقين بالأديان الذين جعلوا من أنفسهم حجابًا على أبواب رحمة الله الواسعة، والله يعلم أنهم لكاذبون[1] قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ﴾ [المجادلة: ٧].

---

(١) الإيمان والحياة.. مصدر سابق ص ٥٢ - ٥٣. بتصرف.

وهذا المنهج القرآني في قرب العبد من ربه هو منهج السنة أيضًا، فقد أكد الرسول ﷺ هذا المعنى في أحاديثه ومنها: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم وإن تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[١].

المطلب الثاني: **نماذج إيمانية:**

إن إصلاح الجماعات والشعوب لا يأتي جزافًا ولا يتحقق عفوًا.

إن الأمم لا تنهض من كبوة، ولا تقوى من ضعف، ولا ترقى من هبوط، إلا بعد تربية أصيلة حقة، وإن شئت فقل: بعد تغير نفسي عميق الجذور يحول الهمود فيها إلى حركة والغفوة إلى صحوة، والركود إلى يقظة، والفتور إلى عزيمة، والعقم إلى إنتاج والموت إلى حياة ... تغير في عالم النفس أشبه ما يكون (بثورة أو انقلاب) في عالم المادة، تغير يحول الوجهة والأخلاق والميول والعادات، تغير نفسي لا بد أن يصاحب كل حركة أو نهضة أو ثورة سياسية أو اجتماعية - ومن غيره تكون النهضة أو الثورة حبرًا على ورق أو كلامًا أجوفًا يتبدد في الهواء.

سنة قائمة من سنن الله تعالى في الكون، قررها القرآن الكريم في عبارة وجيزة بليغة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وهذه النماذج تبين كيف استطاع الإيمان تغيير أفراد وجماعات كانت في أسفل السافلين إلى نماذج حية غيرت سير التاريخ وأذهلت الناس من حولها وما غيرها إلا الإيمان الحق[٢]:

---

(١) رواه البخاري مصدر سابق – كتاب التوحيد - باب في قوله تعالى «تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك» ٦/ ٢٦٩٤ برقم: ٦٩٧٠.

(٢) الإيمان والحياة مصدر سابق ص ٢٦٥.

النموذج الأول / سحرة فرعون:

هذا النموذج يبين قصة مجموعة أمسوا كفرة وأصبحوا مؤمنين بررة بالحجة والبرهان رغم الإغراء بالمال والتهديد والوعيد لكنهم اختاروا الآخرة بعد وضوح الصورة الحقة لهم إنهم سحرة فرعون، الذين قص القرآن قصتهم؟.....

من خلال هذه الآيات ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣٢ – ٥١].

كيف تغيرت شخصياتهم؟ كيف انقلبت موازينهم؟

كانت هممهم مشدودة إلى المال ﴿لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾؟

وكانت آمالهم منوطة بفرعون﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾.

هذا منطقهم قبل أن يؤمنوا ... فلما ذاقوا حلاوة الإيمان كان جوابهم على التهديد والوعيد في بساطة ويقين: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [طه: ٧٢].

بعد أن كان همهم الدنيا صار همهم الآخرة ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ وبعد أن كانوا يحلفون بعزة فرعون صاروا يقولون﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾.

تغير الاتجاه.. تغير المنطق.. تغير السلوك.. تغيرت الألفاظ.. أصبح القوم غير القوم.. وما ذاك إلا من صنع الإيمان[١].

وعلى السياق نفسه لقد حار المؤرخون من الغربيين والمستغربين، في فهم السر العجيب الذي حول هذه الأمة من رعاة غنم إلى رعاة أمم، ومن قبائل بداوة إلى أمة حضارة، وهيأ لها سبيل النصر على كسرى وقيصر، وفتح لها باب السيادة على معظم الدنيا القديمة في عشرات من السنين لا عشرات من القرون.

ولكن العارفين لا يدهشون ولا يحارون، فالسر معروف، والسبب معلوم وإذا عرف السبب بطل العجب، إن مرده هو «إكسير» الإيمان الذي تربوا عليه، فنقلهم من حال إلى حال، من وثنية إلى توحيد، ومن جاهلية إلى إسلام[٢].

النموذج الثاني: عمر بن الخطاب

(عمر بن الخطاب) الذي رووا أنه بلغ في جاهليته من انحراف العقل، أنه عبد إلهًا من الحلوى ثم جاع يوما فأكله، ومن انحراف العاطفة، أن وأد بنتًا له صغيرة كانت تمسح الغبار عن لحيته وهو يحفر لها مكانها في التراب.

---

(١) الإيمان والحياة مصدر سابق ص ٢٦٦.

(٢) الإيمان والحياة.. مصدر سابق ص ٢٦٧-٢٦٨.

عمر هذا ينتقل من الجاهلية إلى الإسلام، فيتحرر عقله حتى يقطع شجرة الرضوان التي بايع النبي ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحتها خشية أن يطول الزمن بالناس فيقدسوها، ويقف أمام الحجر الأسود بالكعبة فيقول: أيها الحجر، إني أقبلك وأنا أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

وعمر هذا .. يبلغ من سمو عاطفته، ورقة قلبه، وخشيته لله، ما ملأ صفحات التاريخ بآيات الرحمة الشاملة للمسلم وغير المسلم، بل للإنسان والحيوان، حتى قال: لو عثرت بغلة بشط الفرات لرأيتني مسؤولاً عنها أمام الله .. لمَ لمْ أسوِّ لها الطريق أو قال شاة ضائعة؟[1].

النموذج الثالث: الخنساء

الخنساء[2]... التي فقدت في جاهليتها أخاها لأبيها (صخرًا) فملأت الآفاق عليه بكاء وعويلاً، وشعرًا حزينًا، ترك الزمان لنا منه ديوانًا كان الأول من نوعه في شعر المراثي والدموع:

يـذكرني طلـوع الشـمس صـخرًا   وأذكـره بكـل غـروب شمـس
ولـولا كثـرة البـاكين حـولي   علـى إخـوانهم لقتلـت نفسـي[3]

لكنها بعد إسلامها أصبحت امرأة أخرى .. فهي أم تقدم فلذات أكبادها إلى

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٥٣.

(٢) تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمية الشاعرة من أشهر شواعر العرب وأشهرهن على الإطلاق من أهل نجد صحابية جليلة أسلمت فحسن إسلامها وكانت مثالا للمرأة المؤمنة توفيت سنة ٢٤هـ (الإصابة مصدر سابق ٧/ ٥٤٤ و الأعلام مصدر سابق ٢/ ٨٦).

(٣) ديوان الخنساء قصيدة بعنوان (يذكرني) في الرثاء عصر صدر الإسلام ص ٨٤.

الميدان، أي إلى الموت، راضية مطمئنة، بل محرضة دافعة ...

روى المؤرخون أنها شهدت حرب القادسية بين المسلمين والفرس تحت راية القائد (سعد بن أبي وقاص) وكان معها بنوها الأربعة، فجلست إليهم في ليلة من الليالي الحاسمة، تعظهم وتحثهم على القتال والثبات، وكان من قولها لهم:

«أي بني لقد أسلمتم طائعين، وهاجرتم راغبين، وجئتم بأمكم عجوزًا كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس، فقاتلوا عن دينكم وأمكم، فوالله إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم ولا فضحت خالكم، ولا غيرت نسبكم، يا بني قد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية، فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، واضطرمت لظاها على سباقها، وجللت نارًا على أرواقها، فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها ......»

فلما أ صبحوا باشروا القتال بقلوب فتية، وأنوف حمية، إذا فتر أحدهم ذكره إخوته وصية الأم العجوز، فزأر كالليث، وانطلق كالسهم، وانقض كالصاعقة، ونزل كقضاء الله على أعداء الله، وظلوا كذلك حتى استشهدوا واحدًا بعد واحد..

وبلغ الأم نعي الأربعة الأبطال في يوم واحد، فلم تلطم خدًا، ولم تشق جيبًا، ولكنها استقبلت النبأ بإيمان الصابرين، وصبر المؤمنين، وقالت: «الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته»[1].

ما الذي غير عمر القديم وصنع عمر الجديد؟

---

(١) تاريخ الأمم والملوك - محمد بن جرير الطبري - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - دار الكتب العلمية بيروت ٢/ ٤١٢ - ٤١٥.

وما الذي غير خنساء النواح والبكاء إلى خنساء التضحية والفداء؟

إنه صانع المعجزات .... إنه الإيمان!![1].

النموذج الرابع: غلام وفد تجيب اليمن

هذه القصة من السيرة ناطقة بما يصنعه الإيمان بقلوب المؤمنين، وكيف حول طموحهم من الدنيا ومتعها ومادتها إلى الله والدار الآخرة ...

فقد قدم وفد تجيب وهم من السكون باليمن ثلاثة عشر رجلاً مسلمًا قد ساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم فسر رسول الله ﷺ بهم وأكرم منزلهم وقالوا يا رسول الله سقنا إليك حق الله في أموالنا فقال رسول الله ﷺ: «ردوها فاقسموها على فقرائكم» قالوا يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا فقال أبو بكر يا رسول الله ما وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحي من تجيب فقال رسول الله ﷺ: «إن الهدى بيد الله عز وجل فمن أراد به خيرًا شرح صدره للإيمان» وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن فازداد رسول الله بهم رغبة وأمر بلالاً أن يحسن ضيافتهم فأقاموا أيامًا ولم يطيلوا اللبث فقيل لهم ما يعجبكم فقالوا نرجع إلى من وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ﷺ وكلامنا إياه وما رد علينا ثم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يودعونه.

فأرسل إليهم بلالا فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود قال هل بقي منكم أحد قالوا نعم غلام خلفناه على رحالنا هو أحدثنا سنًا قال أرسلوه إلينا فلما رجعوا إلى رحالهم قالوا للغلام انطلق إلى رسول الله ﷺ فاقض حاجتك منه فإنا قد قضينا حوائجنا منه وودعناه، فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

---

(١) الإيمان والحياة.. مصدر سابق ص ٢٦٩.

الله إني امرؤ من بني أبذى يقول من الرهط الذين أتوك آنفا فقضيت حوائجهم فاقض حاجتي يا رسول الله قال ﷺ: «وما حاجتك» قال إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي وإن كانوا قدموا راغبين في الإسلام، وساقوا ما ساقوا من صدقاتهم، وإني والله ما أقد مني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني، وأن يجعل غناي في قلبي فقال رسول الله ﷺ وأقبل إلى الغلام: «اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه» ثم أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهليهم ثم وافوا رسول الله ﷺ في الموسم بمنى سنة عشر فقالوا نحن بنو أبذى فقال رسول الله ﷺ ما فعل الغلام الذي أتاني معكم قالوا يا رسول الله ما رأينا مثله قط، ولا حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها، ولا التفت إليها فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله إني لأرجو أن يموت جميعًا» فقال رجل منهم أو ليس يموت الرجل جميعًا يا رسول الله فقال رسول الله ﷺ: مبينًا لهم أن من الناس من يموت مشتتًا موزعًا: «تشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا فلعل أجله أن يدركه في بعض تلك الأودية فلا يبالي الله ﷻ في أيها هلك» قالوا فعاش ذلك الغلام فينا على أفضل حال، وأزهده في الدنيا وأقنعه بما رزق، فلما توفي رسول الله ﷺ ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام، قام في قومه فذكرهم الله والإسلام، فلم يرجع منهم أحد، وجعل أبو بكر الصديق يذكره ويسأل عنه حتى بلغه حاله، وما قام به فكتب إلى زياد بن لبيد[(١)] يوصيه به خيرا[(٢)].

هذه قصة غلام عمر الإيمان قلبه، فلم يجعل همه ما يشغل كثيرًا من الناس من زهرة الحياة الدنيا، بل تعلقت همته بما عند الله، مما هو خير وأبقى.

حين طلب حاجته من رسول الله ﷺ كانت حاجته غير حوائج رفاقه - بل

---

(١) زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر الأنصاري البياضي شهد العقبة وبدرا، كان عامل النبي ﷺ على حضرموت ولم يذكر تاريخ وفاته (الإصابة مصدر سابق ٢/ ٥٨٦).

(٢) زاد المعاد مصدر سابق ٣/ ٦٥٠.

غير حوائج أكثر الناس... كانت حاجته دينه قبل دنياه، حاجته روحه قبل جسده، حاجة معنى الإنسان، لا صورة الإنسان فيه.

هذا ولا يجد الإنسان غير المؤمن الحق هو الذي يعيش جميعًا ويموت جميعًا![(١)].

المطلب الثالث: **أثر الإيمان في إصلاح الأفراد:**

ماذا يريد الإنسان أن يحقق لنفسه في هذه الحياة وفي المستقبل إن الإنسان السوي يريد أن يحيى إنسانًا آمنًا على نفسه وعرضه وعلى عيش رغيد وأن يعيش بكرامته قويًا منتصرًا على الأحداث والشهوات والأعداء.

ويريد أن يحقق السعادة التي يلهث الناس جميعًا لتحقيقها فهل للإيمان أثر في تحقيق هذه الأهداف والمعاني في حياة الفرد؟

إن الإيمان إذا تمكن من قلب فرد غيَّرهُ تغييرًا شاملاً وهذا ما كان واضحًا في النماذج الإيمانية في هذا المبحث كيف تحولت هذه النماذج بسبب رسوخ الإيمان فيها ...

إن هذه المعاني الكبيرة، والمشاعر الرفيعة، إذا سرت في كيان فرد، جعلت منه إنسانًا عزيزًا كريمًا، كبير النفس، كبير الآمال، إنسانًا لا يحني رأسه لمخلوق، ولا يطأطئ رقبته لجبروت، أو طغيان أو مال أو جاه. إن شعاره هذه الكلمة: سيد في الكون، عبدا لله وحده.

لا عجب بعد هذا، إذا وجد رجل أسود كبلال بن رباح، حين يشرب قلبه الإيمان، يتيه على السادة المستكبرين فخرًا، ويرفع رأسه عاليًا، فقد صار بالإيمان أرفع عند الله ذكرًا، وأسمى مقامًا، ينظر إلى زعماء قريش وصناديد مكة، نظرة

---

(١) الإيمان والحياة.. مصدر سابق ص ١٢٢.

البصير للأعمى، نظرة السائر في النور إلى المتخبط في الدجى.

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]. ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

ولا غرو بعد ذلك إذا خرج أعرابي أمي من البداة الجفاة، مثل ربعي بن عامر[١] حين باشرت قلبه عقيدة الإسلام، وأضاءت فكره آيات القرآن، يقف أمام رستم قائد قواد الفرس وهو في هيله وهيلمانه، وأبهته وسلطانه، غير مكترث له، ولا عابئ به، وبما حوله من خدم وحشم، وما يتوهج بجواره من فضة وذهب، حتى إذا سأله رستم: من أنتم؟ أجابه هذا الأعرابي في عزة مؤمنة، وإيمان عزيز، إجابة خلدها التاريخ، قال: «نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[٢].

ولا عجب أن يقول شاعر مؤمن يناجي ربه في عبودية عزيزة بالله، متذللة إليه، غنية بالله فقيرة إليه، قائلاً:

ومما زادني شرفا وعزًا وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك «يا عبادي» وأن صيرت أحمد لي نبيا[٣]

هل السعادة في المال أو الولد أو المناصب أو العلم والاختراع هل السعادة في

---

(١) ربعي بن عامر بن خالد بن عمرو، صحابي جليل، وكان من أشراف العرب ولم يذكر تاريخ وفاته (الإصابة مصدر سابق ٢/ ٤٥٤).

(٢) البداية والنهاية ٧/ ٣٩.

(٣) خلاصة الأثر مصدر سابق ١/ ١٦١..

النعيم المادي لا شك أن هذه المتع لها دور في السعادة لا ينكر ولكنها ليست كل شيء وليست إلا أمورًا مساعدة إن جاءت بجانب أصل السعادة وهو الإيمان وإن كانت بدون إيمان فقد تكون سببًا في زيادة الشقاء والاضطراب.

السعادة إذا ليست في وفرة المال، ولا سطوة الجاه، ولا كثرة الولد، ولا نيل المنفعة، ولا في العلم المادي.

السعادة شيء معنوي لا يرى بالعين، ولا يقاس بالكم، ولا تحتويه الخزائن، ولا يشترى بالدينار، أو بالجنيه أو الروبل أو الدولار.

السعادة شيء يشعر به الإنسان بين جوانحه.... صفاء نفس، وطمأنينة قلب، وانشراح صدر، وراحة ضمير.

السعادة شيء ينبع من داخل الإنسان ولا يستورد من خارجه[(١)].

حدثوا أن زوجًا غاضب زوجته فقال لها متوعدًا: لأشقينك. فقالت الزوجة في هدوء: لا تستطيع أن تشقيني، كما لا تملك أن تسعدني.

فقال الزوج في حنق: وكيف لا أستطيع؟

فقالت الزوجة في ثقة: لو كانت السعادة في راتب لقطعته عني، أو زينة من الحلي والحلل لحرمتني منها، ولكنها في شيء لا تملكه أنت ولا الناس أجمعون.

فقال الزوج في دهشة: وما هو؟

فقالت الزوجة في يقين: إني أجد سعادتي في إيماني، وإيماني في قلبي، وقلبي لا سلطان لأحد عليه غير ربي![(٢)].

---

(١) الإيمان والحياة مصدر سابق ص ٧٢.

(٢) الإيمان والحياة مصدر سابق ص ٧٢.

هذه هي السعادة الحقة، السعادة التي لا يملك بشر أن يعطيها، ولا يملك أن ينتزعها ممن أوتيها، السعادة التي شعر بنشوتها أحد المؤمنين الصالحين فقال: «إننا نعيش في سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف»[١].

وقال آخر وهو ثمل بتلك اللذة الروحية التي تغمر جوانبه: «إنه لتمر عليّ ساعات أقول فيها: لو كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه الآن لكانوا إذًا في عيش طيب!»[٢] والذين رزقوا هذه النعمة يسخرون من الأحداث وإن برقت ورعدت، ويبتسمون للحياة وإن هي كشرت عن نابها، ويفلسفون الألم، فإذا هو يستحيل عندهم إلى نعمة تستحق الشكر، على حين هو عند غيرهم مصيبة تستوجب الصراخ والشكوى. كأنما عندهم غدد روحيه خاصة، مهمتها أن تفرز مادة معينة تتحول بها كوارث الحياة إلى نعم[٣].

والإيمان هو الذي يحقق للمؤمن سكينة النفس وطمأنينة القلب:

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤]. ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

لا مراء أن سكينة النفس ورضاها وطمأنينة القلب تشكل ركنًا هامًا وأساسيًا من أركان سعادة الإنسان، بل هي الينبوع الأول للسعادة. ولا مراء كذلك أن السبيل إليها لا يكمن في الذكاء ولا العلم، ولا الصحة، ولا القوة، ولا المال والغنى، ولا الشهرة والجاه ولا غير ذلك من نعم الحياة المادية وحدها.

(١) البداية والنهاية ١٠/ ١٣٨.
(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٥٤.
(٣) الإيمان والحياة.. مصدر سابق ص٧٣.

إن للسكينة والطمأنينة مصدرًا واحدًا هو الإيمان بالله إيمانًا صادقًا عميقًا لا يكدره شك، ولا يفسده نفاق. وهذا يشهد به الواقع الماثل، وما أيده التاريخ الحافل، وما يلمسه كل إنسان بصير منصف في نفسه أن أكثر الناس قلقًا وضيقًا واضطرابًا وشعورًا بالتفاهة والضياع هم المحرومون من نعمة الإيمان، وبرد اليقين(١).

وصدق ابن القيم حيث يقول:

إن في القلب شعث لا يلمه إلا الإقبال على الله.

وفيه وحشة لا يزيلها إلا الأنس به في خلوته.

وفيه حزن لا يذهبه إلا السرور بمعرفته وصدق معاملته.

وفيه قلق لا يسكنه إلا الاجتماع عليه والفرار منه إليه.

وفيه نيران حسرات لا يطفئها إلا الرضى بأمره ونهيه وقضائه ومعانقة الصبر على ذلك إلى وقت لقائه.

وفيه فاقة لا يسدها إلا محبته والإنابة إليه ودوام ذكره وصدق الإخلاص له ولو أعطي الدنيا وما فيها لم تسد تلك الفاقة منه أبدًا(٢).

أي أثر للإيمان أعظم من أن يجعل الفرد سعيد بإيمانه راضيًا عن ربه قانعًا بما قسم الله له من خلقٍ ورزقٍ ولونٍ، باذلا ما يستطيع من جهد لنفع نفسه ومجتمعه من حوله.

فأي سعادة أعظم من هذه السعادة التي يعيشها الفرد المؤمن الحق سواء كان رجلاً أو امرأة كان غنيًا أو فقيرًا صحيحًا أو سقيمًا وقد عبر عن ذلك المصطفى ﷺ

---

(١) الإيمان.. د/ محمد عبدالله الشرقاوي..الطبعة الثانية.. دار الجيل بيروت ص ٢٧-٢٨.

(٢) مدارج السالكين مصدر سابق ٣/ ١٦٤.

«عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[(١)].

إن الذي ينعم بعقيدة الإيمان يعيش آمنًا مطمئنًا لأنه يعلم أن كل أمر قد كتب قبل خروجه إلى الدنيا.

إنه وحده الذي يتحرر من عبودية غير الله وهو أيضًا الذي لا يتطرق الخوف والجبن إلى قلبه ونفسه.

إنه وحده الذي ينعم بنعمة الرضاء التي لا تعتدلها نعمة في الحياة كلها لأنه يعلم أن المقادير تجري بحكمة الله وأمره ومشيئته وتدبيره، ويعلم أن الخير فيما اختاره الله له.

﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

المطلب الرابع: **أثر الإيمان في إصلاح المجتمعات:**

الحدود بين الفرد والمجتمع متداخلة متشابكة، وليس من المستطاع بسهولة أن يقال: هذا أمر يؤثر في الفرد، وهذا أمر يؤثر في المجتمع، فما المجتمع في واقع أمره إلا أفراد ربطت بينهم روابط مشتركة.. وكل جهد يبذل لتكوين الفرد الصالح، هو عمل أصيل لتكوين المجتمع الصالح.

ومثل المجتمع البشري كمثل البنيان المرصوص، ومثل الأفراد فيه كمثل اللبنات للبنيان فإذا كانت اللبنات قوية متينة، وكانت المادة التي تربط بينهما قوية الربط وأحكم الالتحام والتماسك بينها، قام منها بناء قوي مكين، فالعمل الأول في

---

(١) رواه مسلم مصدر سابق – كتاب الزهد والرقائق – باب المؤمن أمره كله خير ٤/ ٢٢٩٥ برقم ٢٩٩٩..

البناء يجب أن يتجه إلى اللبنات وإعدادها.

ولقد كان لعقيدة الإيمان أجل الأثر في نفوس السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم وهو كذلك إلى اليوم في نفوس من صدقوا الله في إيمانهم.

فقد انطلق الصحابة بهذا الإيمان كما علمهم رسول الله ﷺ إنه لا ينفعهم إلا ما كتب الله لهم ولا يضرهم إلا ما كتب سبحانه وتعالى عليهم «**احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك وإذا سألت فلتسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف**»[1].

وأخص ما يميز المجتمع الراقي، المجتمع الفاضل، المجتمع السعيد هو التماسك والترابط، والمجتمع الفاضل هو الذي يتعارف أبناؤه فلا يتناكرون، ويتحابون فلا يتباغضون، ويتعاونون فلا يتخاذلون، ويتعاملون فيما بينهم بالعدل والرحمة فلا يبغي بعضهم على بعض، ولا يقسو بعضهم على بعض، فلا ينسى الواجد المحروم، ولا يهمل القادر العاجز، ولا يأكل الكبير الصغير كالسمك، ولا يعدو القوي على الضعيف كسكان الغابة، ومنهج القرآن الكريم يطالب المجتمعات بهذا المستوى من التميز وبه تسعد وتعز.

وشر ما يصيب المجتمع هو التفكك وضعف الروابط بين أبنائه، وذلك بغلبة الأنانية على أنفسهم، فيذكر المرء نفسه وينسى أخاه ويقول كل واحد: نفسي نفسي، ولا يبالي أن يجعل من الناس قرابين تقدم لإله أطماعه وشهواته.

---

(١) رواه أحمد مصدر سابق ١/ ٢٩٣ برقم: ٢٦٦٩ وصححه الألباني – صحيح الجامع ٢/ ١٣١٧ برقم: ٧٩٥٧.

شر ما يصيب المجتمع: أن يقول كل فرد فيه: لي، ولا يقول: علي.. أن تتضخم أنا في نفسه على حساب غيره، فينظر إلى نفسه نظرة استعلاء واستكبار، و إلى الناس نظرة الإزدراء والاستحقار[١].

وهذا ما حذر منه منهج القرآن الكريم وبه تفككت مجتمعات اليوم وسادت الأنانية وغلبت المادية ولا يتعامل الكثير من الناس إلا بمفهوم الربح المادي العاجل ونسوا التعاون والتضحية التي يبينها منهج القرآن في المجتمعات ولا بد من مجتمع نموذجي يرى الناس فيه هذه المعاملة الفاضلة واقعًا معاشًا لا شعارات فارغة.

إننا إذا أردنا أن نصلح أفرادنا ومجتمعاتنا اليوم فليس من شيء يصلحها سوى الإيمان وهو الطريق الصحيح والوحيد لذلك.

إنه طريق واحد يتعين على أمتنا أن تسلكه، ولا خيار لها في ذلك إنه طريق الإيمان، إنه الطريق الفذ لتحقيق كل ما نريد من أهداف، وما نصبوا إليه من آمال..

إن كنا نريد الآخرة.. فطريقها هو الإيمان.

وإن كنا نريد الدنيا.. فطريقها هو الإيمان.

وإن كنا نريدهما معًا.. فطريقهما هو الإيمان.

وسيكون الحديث على دور الإيمان في إصلاح المجتمعات في الحياة الدنيا.

فإن كنا نريد السعادة الشخصية، فلا سعادة بغير سكينة النفس، ولا سكينة بغير إيمان.

وإن كنا نريد الحياة النظيفة، فلا نظافة بغير استقامة، ولا استقامة بغير إيمان.

وإن كنا نريد التماسك الاجتماعي، فلا تماسك بغير إخاء. ولا إخاء بغير إيمان

---

(١) الإيمان والحياة مصدر سابق ص ١٦٧-١٦٨ بتصرف.

وإن كنا نريد النصر العسكري على عدونا الجاثم على صدورنا، فلا نصر بغير أبطال ولا بطولة بغير تضحية ولا تضحية بغير إيمان.

وإن كنا نريد الرخاء الاقتصادي، فلا رخاء بغير إنتاج، ولا إنتاج بغير أخلاق، ولا أخلاق بغير إيمان.

وإن كنا نريد التقدم التكنولوجي فلا تقدم بغير إخلاص، ولا إخلاص بغير هدف، ولا هدف للحياة بغير إيمان.

وإن كنا نريد الإصلاح الجذري لحياتنا، فلا إصلاح إلا بتغيير نفسي، ولا تغيير نفسي إلا بتصميم، ولا تصميم إلا بالإيمان.

وإن كنا نريد الحكم العادل، فلا عدل بغير قانون، ولا فائدة في قانون بغير ضمائر، ولا أمل في ضمائر بغير إيمان.

الإيمان هو قوة الخلق، وخلق القوة، وروح الحياة وحياة الروح، وسر العالم وعالم الأسرار، وجمال الدنيا، ودنيا الجمال ونور الطريق وطريق النور

الإيمان هو واحة المسافر، ونجم الملاح، ودليل الحيران، وعدة المحارب، ورفيق الغريب وأنيس المستوحش، ولجام القوى، وقوة الضعيف.

الإيمان هو مصنع البطولات، ومحقق المعجزات، ومفتاح المغاليق، ومنارة الهدى في كل طريق.

الإيمان -في كلمة واحدة- ضرورة للحياة الإنسانية: ضرورة للفرد ليطمئن ويسعد ويرقى، وضرورة للمجتمع ليستقر ويتماسك ويبقى.

والإيمان الذي نعنيه هو إيمان الإسلام، في شموله وتوازنه وعمقه وإيجابيته، إيمان القرآن والسنة، إيمان الصحابة والتابعين لهم بإحسان: لا الإيمان العقلي الخالص الذي أراده المتكلمون، ولا الروحي المحض الذي أراده المتصوفون، ولا

الشكلي الجاف الذي عني به المتفقهون الجامدون.

إنه الإيمان الذي ربا عليه النبي ﷺ أصحابه فسكب في قلوبهم السكينة، وأفاض على نفوسهم الطمأنينة، ورباهم على العزة فارتاحت أعصابهم وهم منطلقون لتبليغ هذا الدين إلى البشرية، وكان من أثر هذا الإيمان استصفاء قوى الأرض جميعًا لا احتقارًا لهم ولا كبرًا وتغطرسًا من المسلمين لكنه الإيمان بأن كل شيء بيد الله فهو أكبر من كل قوه في الوجود فهل الأمة اليوم تؤمن هذا الإيمان في واقع حياتها.

هذا الإيمان ليس مجرد شعار يرفع، أو دعوة تدعى، إنه أسلوب حياة متكامل، للفرد والأمة، إنه ضياء ثاقب، ينفذ إلى الفكر والعاطفة والإرادة في دنيا الفرد، فيجري في كيانه عصارة الحياة، وينشأه من جديد ويحوله من مخلوق تافه إلى إنسان ذي رسالة وهدف، ومن حيوان أو سبع إلى كائن أشبه بالملاك ويمتد إلى المجتمع بأشعته الوهاجة المشرقة، فإذا دم الحياة قد جرى في عروقه، والعافية قد سرت في أوصاله، فيشفيه وهو سقيم، بل يحييه وهو رميم، أليس فيه نفحة من سر الألوهية التي تقول للشيء «كن» فيكون؟..

الإيمان الحق هو الذي يخط آثاره في الحياة كلها، ويصبغها بصبغة الربانية: في الأفكار والمفاهيم، والعواطف والمشاعر، والأخلاق والعادات، والنظم والقوانين ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾ [البقرة: ١٣٨].

والأمة التي تريد أن تحيا بالإيمان لا بد أن (تكيف) حياتها ومناهج تفكيرها وسلوكها وفقًا لما يوجبه عليها منطق الإيمان، وأن تحرر وجودها من كل ما يعوق هذا الإيمان، أو يحجب نوره أو سناه، وإلا كان إيمانها حبرًا على ورق، ودعوى بلا برهان(١).

---

(١) الإيمان والحياة.. مصدر سابق.. ص ٣٠٦-٣٠٨.

وبنظرة سريعة على واقع أمة العرب قبل الإسلام والإيمان، كيف كانت مجتمعاتها تعيش وكيف أصبحت بعد استقرار الإيمان وتطبيقه في واقع الحياة.

يجد المتأمل أن المجتمعات تحولت تحولاً كاملاً، من مجتمعات ممزقة القوى مشتت العقيدة ومفككة الأوصال، من مجتمعات تسري فيها كل نوازع الشر، من عبادة غير الله والإشراك به، وقتل النفس، بل ودفن البنات وهن أحياء، وشرب الخمر، وقطع الطريق، ونهب الأموال.

وارتكاب الزنا بل والزنا مع زوجة الأب واعتبار المرأة جزءًا من المتاع، تورث كما يورث غيرها من الأمتعة.

مجتمعات تسري فيها العصبية القبلية بالحق والباطل، مجتمعات ضعيفة تابعة لأعدائها تحولت هذه المجتمعات بعد سريان الإيمان في روحها، إلى مجتمعات تضرب بها الأمثال في كل مجالات الحياة، وانتقلت من الشرك إلى الإيمان، ومن الشر إلى الخير، ومن الضعف إلى القوة، ومن الفرقة إلى الوحدة، ومن الأنانية إلى الإيثار، ومن الشذوذ إلى العفة، ومن الطمع والبخل إلى الإنفاق والتضحية، ومن العصبية للأرض والجنس إلى التعصب للإسلام وحده، ومن الظلم إلى العدل، ومن القسوة إلى الرحمة.

ما الذي غير هذا المجتمعات بهذه الصورة، إلا الإيمان بالله تعالى وتوحيده إنه أثر الإيمان ومنهج القرآن الذي أصلح المجتمعات الأولى وسيصلح مجتمعات اليوم إن سارت على نفس المنهج إيمانا وفهمًا وسلوكًا.

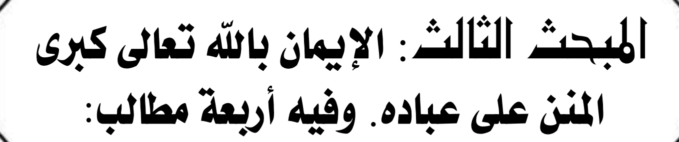
وقد جربت أمة الإسلام مناهج أرضية متعددة للنهوض من كبوتها ولإصلاح أوضاعها ففشلت.

فهل آن لها أن تسير مع منهج الله تعالى والإيمان به؟! فلا سبيل اليوم لإصلاح

المجتمعات وسعادتها إلا بهذا المنهج الإلهي القويم.

وبرغم أن كثيرًا من شباب الأمة قد عادوا إلى الدين وعملوا له لكن لا يزال كثير ممن بيدهم القرار بعيدين عن الالتزام بالدين الشامل الكامل الذي يجب أن يسيطر على كل نواحي الحياة ولا يبقى جانب منها لله وجانب آخر لسياسات مخالفة لشرعه بل يجب أن يكون كل شيء لله سبحانه وتعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].



المبحث الثالث: الإيمان بالله تعالى كبرى المنن على عباده. وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: الإيمان أعظم نعم الله على عباده.

المطلب الثاني: إسلام الأعراب.

المطلب الثالث: ثمرات الإيمان.

المطلب الرابع: المفتاح الفذ لأقفال الحياة.

المطلب الأول: **الإيمان أعظم نعم الله على عباده:**

لله الفضل والمنة في هدايتنا وتوفيقنا، فلولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صمنا ولا صلينا، فقد أكرمنا الله تعالى بالإسلام كما أكرمنا بمحمد ﷺ نبي الرحمة وهادي الأنام، فالله وحده هو الذي هدانا لهذا الإيمان الذي أخرجنا به من الظلمات إلى النور.

ولكن ما أكثر المنانين اليوم والمتجبرين، فإذا صلى أحدهم ركعتين منّ على الله بصلاته، وإذا تصدق بفلسين منّ بصدقته أيضًا، وإذا فعل معروفًا مع أحد فالويل لذلك الأحد من منّ ذلك الرجل واستعلائه عليه مع أن الفضل كله لله هو الذي يجب أن يمن علينا أن هدانا للإيمان ورزقنا وأعطانا وعافانا ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [النحل: ١٨][(١)].

﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾:

لقد منوا بالإسلام، وزعموا الإيمان، فجاءهم الرد أن لا يمنوا بالإسلام، وأن المنة لله عليهم لو صدقوا في دعوى الإيمان.

وهذا الرد الذي يتضمن حقيقة ضخمة، يغفل عنها الكثيرون، وقد يغفل عنها بعض المؤمنين، إن الإيمان هو كبرى المنن التي ينعم بها الله على عبد من عباده في الأرض، إنه أكبر من منة الوجود الذي يمنحه الله ابتداء لهذا العبد؛ وسائر ما يتعلق بالوجود من آلاء الرزق والصحة والحياة والمتاع، إنها المنة التي تجعل للوجود

---

(١) الصواف.. مصدر سابق ص ١٨٧-١٨٩.

الإنساني حقيقة مميزة وتجعل له في نظام الكون دورًا أصيلاً عظيمًا.

وأول ما يصنعه الإيمان في الكائن البشري، حين تستقر حقيقته في قلبه، هو سعة تصوره لهذا الوجود، ولارتباطه هو به، ولدوره هو فيه، وصحة تصوره للقيم والأشياء والأشخاص والأحداث من حوله، وطمأنينته في رحلته على هذا الكوكب الأرضي حتى يلقى الله، وأنسه بكل ما في الوجود حوله، وأنسه بالله خالقه وخالق هذا الوجود؛ وشعوره بقيمته وكرامته، وإحساسه بأنه يملك أن يقوم بدور مرموق يرضى عنه الله، ويحقق الخير لهذا الوجود كله بكل ما فيه وكل من فيه.

فمن سعة تصوره أن يخرج من نطاق ذاته المحدودة في الزمان والمكان، الصغيرة الكيان الضئيلة القوة، إلى محيط هذا الوجود كله، بما فيه من قوى مذخورة، وأسرار مكنونة؛ وانطلاق لا تقف دونه حدود ولا قيود في نهاية المطاف(١).

فهي المنة الكبرى التي لا يملكها ولا يهبها إلا الله الكريم، لمن يعلم منه أنه يستحق هذا الفضل العظيم.

وصدق الله العظيم. فماذا فقد من وجد الأنس بتلك الحقائق والمدركات وتلك المعاني والمشاعر؟ وعاش بها ومعها، وقطع رحلته على هذا الكوكب في ظلالها وعلى هداها؟ وماذا وجد من فقدها ولو تقلب في أعطاف النعيم، وهو يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام. والأنعام أهدى لأنها تعرف بفطرتها الإيمان، وتهتدي به إلى بارئها الكريم؟(٢).

---

(١) في ظلال القران مصدر سابق ٦ / ٣٣٥١.

(٢) المصدر نفسه ٦ / ٣٣٥٣.

المطلب الثاني: **إسلام الأعراب:**

قال تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

هل هؤلاء الأعراب المذكورون في الآية مسلمون أم منافقون؟

اختلف العلماء في ذلك فمنهم من يرى أنهم مسلمون وأن الله تعالى أثبت لهم الإسلام بقوله﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ ومنهم من يرى أنهم منافقون وأولوا الآية ﴿قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ أي استسلمنا ظاهرا وأخفوا النفاق في قلوبهم.

فهل الإسلام الذي نفى الله عن أهله دخول الإيمان في قلوبهم، هو إسلام يثابون عليه؟ أم هو من جنس إسلام المنافقين؟ فيه قولان مشهوران للسلف والخلف: أحدهما: أنه إسلام يثابون عليه، ويخرجهم من الكفر والنفاق، وهذا مروي عن الحسن، وابن سيرين[1]، وإبراهيم النخعي[2]، وأحمد بن حنبل، وكثير من أهل الحديث.

والقول الثاني: أن هذا الإسلام: هو الاستسلام خوف السبي والقتل، مثل إسلام المنافقين، قال: وهؤلاء كفار، فإن الإيمان لم يدخل في قلوبهم، ومن لم يدخل الإيمان في قلبه فهو كافر، وهذا اختيار البخاري وغيره من السلف.

والتحقيق أن يقال: إنه مؤمن ناقص الإيمان، مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، ولا

---

(١) محمد بن سيرين الأنصاري مولى أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ توفي سنة ١١٠ هـ (طبقات الحفاظ ص ٣٨).

(٢) إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعي الكوفي اليماني الفقيه أبو عمران- ثقة، مات سنة ٩٦هـ عن خمسين سنة رحمه الله (سير أعلام النبلاء مصدر سابق ٤/ ٥٢٠).

يعطى اسم الإيمان المطلق، فإن الكتاب والسنة نفيا عنه الاسم المطلق، واسم الإيمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله، لأن ذلك إيجاب عليه، وتحريم عليه، وهو لازم له، كما يلزمه غيره وإنما الكلام في اسم المدح المطلق، وعلى هذا فالخطاب بالإيمان يدخل فيه ثلاث طوائف: يدخل فيه المؤمن حقًا، ويدخل فيه المنافق في أحكامه الظاهرة، وإن كان في الآخرة في الدرك الأسفل من النار، وهو في الباطن ينفي عنه الإسلام والإيمان، وفي الظاهر يثبت له الإسلام والإيمان الظاهر، ويدخل فيه الذين أسلموا ولم تدخل حقيقة الإيمان في قلوبهم، لكن معهم جزء من الإيمان وإسلام يثابون عليه، ثم قد يكونون مفرطين فيما فرض عليهم، وليس معهم من الكبائر ما يعاقبون عليه كأهل الكبائر، ولكن يعاقبون على ترك المفروضات، وهؤلاء كالأعراب المذكورين في الآية وغيرهم، فإنهم قالوا: آمنا من غير قيام منهم بما أمروا به باطنًا وظاهرًا، فلا دخلت حقيقة الإيمان في قلوبهم، ولا جاهدوا في سبيل الله، وقد كان دعاهم النبي ﷺ إلى الجهاد، وقد يكونون من أهل الكبائر المعرضين للوعيد، كالذين يصلون ويصومون، ويزكون، ويجاهدون، ويأتون الكبائر، وهؤلاء لا يخرجون من الإسلام، بل هم مسلمون[1].

فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين و إنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه فأدبوا في ذلك[2].

ونفي الإيمان المطلق، لا يستلزم أن يكونوا منافقين، كما في قوله تعالى:

---

(١) الإيمان.. لابن تيمية - الطبعة الخامسة ١٩٩٦م -المكتب الإسلامي بيروت - تحقيق زهير الشاويش -ص ١٨٨-١٩٠ بتصرف.

(٢) تفسير ابن كثير مصدر سابق.. ٤/ ٢٣٤.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ١ - ٣].

ومعلوم أنه ليس من لم يكن كذلك، يكون منافقًا من أهل الدرك الأسفل من النار، بل لا يكون قد أتى بالإيمان الواجب، فنفي عنه، كما ينفي سائر الأسماء عمن ترك بعض ما يجب فيها، فكذلك الأعراب لم يأتوا بالإيمان الواجب، فنفي عنهم لذلك وإن كانوا مسلمين معهم من الإيمان ما يثابون عليه(١).

وهذا حال أكثر الداخلين في الإسلام ابتداء، بل حال أكثر من لم يعرف حقائق الإيمان، فإن الرجل إذا قوتل حتى أسلم، كما كان الكفار يقاتلون حتى يسلموا، أو أسلم بعد الأسر، أو سمع بالإسلام فجاء فأسلم، فإنه مسلم ملتزم طاعة الرسول ولم تدخل إلى قلبه المعرفة بحقائق الإيمان، فإن هذا إنما يحصل لمن تيسرت له أسباب ذلك، إما بفهم القرآن، وإما بهداية خاصة من الله يهديه بها.

وسياق الآية يدل على أن الله ذمهم، لكونهم منوا بإسلامهم لجهلهم وجفائهم وأظهروا ما في أنفسهم مع علم الله به، فإن الله تعالى قال: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلو لم يكن في قلوبهم شيء من الدين لم يكونوا يعلمون الله بدينهم، فإن الإسلام الظاهر يعرفه كل أحد(٢).

(١) الإيمان.. لابن تيميه مصدر سابق ص ١٩١ -١٩٢.

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٢-١٩٣.

المطلب الثالث: **ثمرات الإيمان:**

وحين نتحدث عن ثمرات الإيمان وآثاره في النفس والحياة إنما نعني الإيمان القوي الدافق.. الإيمان حين يبلغ مداه، ويشرق على القلوب سناه، ويخط في أعماق النفوس مجراه، لا نتحدث عن الإيمان الضعيف المزعزع، الإيمان المخدر النائم، إنما نتحدث عن الإيمان الحي اليقظ. ولا يضيرنا أن أصحاب هذا الإيمان قليلون، فإنه كلما زاد عمق الإيمان في القلوب وسلطانه في النفوس، ازداد أثره المبارك في حياة الأفراد والمجتمعات.

وإذا كان هذا أثر الإيمان عمومًا فإن الإيمان الإسلامي خصوصًا أكثر نفعًا وأطيب ثمرًا، فإن الإيمان في الأديان الأخرى قد علق به ما شابه وكدر صفاءه، إن عقيدة الإسلام عقيدة تتسع للروح والمادة، والحق والقوة، والدين والعلم، والدنيا والآخرة، إنها عقيدة التوحيد التي تغرس في النفس الكرامة والحرية، وتجعل الخضوع لغير الله كفرًا وفسقًا وظلمًا، وتأبى على الناس أن يتخذ بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله.

وإذا كان للدين والإيمان هذا الأثر في كل بلاد الدنيا، فإن أثره أعمق، وضرورته أعظم في البلاد الإسلامية والعربية خاصة.

إن لكل قفل محكم أصيل، مفتاحًا معينًا، مهما حاول الناس فتحه بغيره كانت محاولاتهم عبثًا لا فائدة منه، ولا طائل تحته، إلا إضاعة الوقت والجهد في تجارب فاشلة ومفتاح الشخصية الإسلامية والعربية على وجه خاص هو الدين، هو الإيمان، هو عقيدة الإسلام.

ومهما حاول أي شخص أن يزكي هذه الشخصية، وأن يفجر طاقاتها المكنونة بغير مفتاحها الأصيل- وهو الدين والإيمان- فإنه يحاول عبثًا، كمن يبني على الماء،

أو يكتب في الهواء.

بعقيدة الإسلام انطلق العرب المؤمنون من جزيرتهم، يخرجون العالم من الظلمات إلى النور، ويؤدبون الأكاسرة والقياصرة، وكل من صعر خده من الجبابرة وينقلون الناس من عبادة الخلق إلى عبادة الخالق، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

وبعقيدة الإسلام انتصرت الأمة العربية والإسلامية على أوروبا، وقد جاءت بقضها وقضيضها في تسع حملات صليبية، تريد أن تلتهم الأخضر واليابس في هذا الشرق المسلم.

وبعقيدة الإسلام انتصرت على غزو التتار الذين زحفوا على هذا الشرق كالريح العقيم: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]. وكادوا يدمرون الحضارة الإنسانية كلها لولا أن قيض الله لهم من مسلمي مصر والشام من ردهم على أعقابهم وهزموهم بإذن الله في عين جالوت وكان مفتاح النصر صيحة أطلقها القائد المملوكي «قطز» فهزت المشاعر، واستثارت العزائم، وأيقضت الهمم، وهبت بها على المقاتلين نسمات الجنة، تلك هي الصيحة التاريخية «وآ إسلاماه».

والأمة العربية اليوم تحارب عدوًا شريرًا يجثم على صدرها، ويحتل قلب ديارها ويهدد وجودها وكيانها بالتفتيت والتمزيق، ذلك هو «إسرائيل» التي تمدها وتعاونها كل قوى الكفر في العالم شرقية وغربية خاصة الولايات المتحدة الأمريكية.

ولن تجد الأمة سلاحا أمضى وأبقى من الإيمان.

إنه لا بد من العتاد الحربي والقوة المادية التي أمر الله بإعدادها، لإرهاب عدو الله وعدو الأمة، ولكن السلاح لا يعمل إلا في يدي بطل، والبطل لا يصنعه إلا الإيمان.

ولقد فتن أقوام من هذه الأمة بالمذاهب المادية الحديثة التي قذف بها الغرب،

والتي لا تجعل لله ولا للآخرة مكانًا في الحياة، ولا تعترف بالدين إلا باعتباره خادمًا وأداة يمكن استخدامها - عند الضرورة - لاسترضاء الجماهير المتدينة أو إلهائها أو استثارتها لغرض موقوت.

ومن أجل ذلك نحي الدين والإيمان عن مكانه في قيادة الأمة وتربيتها، وعزلها عن التعليم والثقافة والتوجيه والإعلام، وعن سائر ميادين حياتنا الفكرية والعملية، والاجتماعية والسياسية، إلا بعض رسوم ومظاهر وقشور أبقيت للدين لا تسمن من شبع ولا تغني من جوع[1].

إن من ثمرات الإيمان: تحرير الإنسان من العبودية لغير الله أو الخضوع لسواه: ومن أجل هذا يدعو القرآن الناس جميعًا إلى هذا الإيمان: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤].

وحتى يكون التحرر من الخضوع لغير الله كاملاً فإن القرآن الكريم ينفي شبهة القداسة عن أي فرد من الناس ولو كان رسولاً نبيًا ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وقد خاطبه القرآن بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]. فالملك كله لله والأمر كله له.

ومن الثمار أيضًا: تحرير النفس من سيطرة الغير والخوف منه: لأن أولئك الذين يخشونهم لا يملكون ضرا ولا نفعا ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ

(١) الإيمان والحياة.. مصدر سابق ص ١٢.

وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٦ - ١٠٧] ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

وإذا تحررت النفس من الخوف من الغير فإنها تتحرر من الذل والعبودية والخضوع لغير الله، إن الإنسان قد يذل لغيره خوفًا على حياته أو رزقه أو جلبًا للمنفعة أو دفعًا للمضرة، وقد بين القران أن المنفعة والمضرة بيد الله كما أن الحياة والموت والرزق بأمره ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ ﴾ [النساء: ٧٨]. ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ ﴾[آل عمران: ١٥٤] والرزق كالموت والحياة بيد الله لا يجوز أن يخاف الإنسان عليه من أحد سواه(١).

وللإيمان بالله ثمار كثيرة واضحة في حياة الأفراد والمجتمعات لا تتحقق إلا إذا طبق الإيمان في حياة الناس اعتقادا وقولاً وسلوكًا وأهمها باختصار ما يلي:

١- الرضاء بالقضاء والصبر على البلاء إذ كله من عند الله.

٢- بذل كل معروف ومحبوب للرب الخالق، وترك كل مكروه له سبحانه.

٣- سلامة النفس من أمراضها والسكينة والرضا في القلب.

٤- الطاعة الكاملة مع الحب الغامر لمن كان سببًا لكل خير وهو الرب العظيم سبحانه.

٥- ما فات في الدنيا يعوض في الآخرة.

---

(١) معالم الثقافة مصدر سابق ص ١٣٨-١٣٩.

٦- حب ما يحبه الله- ٨- من النبيين والصالحين والأعمال والأخلاق، وبغض ما يبغضه الله سبحانه من الأشرار والمفسدين والأعمال والأخلاق لأن من أحب أحدًا أحب ما يحبه وأبغض ما يبغضه.

٧- التسليم الكامل لشرع الله بل هوى نفس المؤمن وراحة فؤاده في تحكيم شرعه في القليل والكثير والعظيم والحقير.

٨- الإيمان بالله شرط قبول الأعمال.

٩- نيل الرضا والحب والإنعام من الله - عز وجل بالإيمان.

١٠- الحياة الطيبة في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة للمؤمنين.

١١- الفطنة والحذر من لوازم الإيمان.

١٢- الإيمان ينجي من دخول النار ومن البقاء فيها.

١٣- الإيمان الكامل يستلزم العمل الصالح.

١٤- الإيمان هو التطبيق الفعلي للإسلام فمن أسلم بلسانه لا بد وأن يصدق بقلبه ويعمل بجوارحه حتى يكون مؤمنًا «قل آمنت بالله ثم استقم»[(١)].

١٥- يولد الإيمان الحقيقي حلاوة في القلب تجعل صاحبها لا ينفك عن تحصيل أسبابها[(٢)].

---

(١) رواه مسلم ١/ ٦٥ برقم: ٣٨ كتاب الإيمان باب جامع أوصاف الإسلام.

(٢) نضرة النعيم مصدر سابق ٣/ ٧٤٨.

المطلب الرابع: **المفتاح الفذ لأقفال الحياة**[١]:

ولنا أن نختم هذا الفصل بهذه الكلمة الطيبة التي نقلها الشيخ القرضاوي/ عن الشيخ أبي الحسن الندوي[٢] رحمه الله، وقد صور بها كيف فتح الله برسوله ﷺ أقفال الحياة وأنه لا مفتاح اليوم إلا ذلك المفتاح (الإيمان) مهما جربت من مفاتيح فإنها لن تنفع فلتعد الأمة إليه وليستمع أتباعها للشيخين في هذا الحديث الشاعري الروحي بقلوبهم وآذانهم يقول الدكتور/ يوسف القرضاوي:

«إن الرجوع إلى الإيمان بالله والآخرة هو الأمل الوحيد في خلاص الإنسان مما يعانيه اليوم من مشكلات تهدد الإنسان بالدمار، دما ر خصائصه الذاتية، ومقوماته المعنوية، التي كان بها إنسانًا، واستحق بها السيادة في الكون والخلافة في الأرض».

إن الإيمان الحق- كما جاء به الإسلام- هو الحل الفذ لعقد الحياة المعاصرة التي استعصت على العلم وعلى الفلسفة، وحار فيها المفكرون والمشرعون وطلاب الإصلاح.

ويطيب لي أن أنقل هنا كلمة مضيئة للداعية الكبير أبي الحسن الندوي بين فيها كيف طلعت شمس الرسالة المحمدية على العالم فأفاضت عليه نورًا جديدًا، وحياة جديدة.

وكيف فتح النبي محمد ﷺ أقفال الحياة الكثيرة المتعددة بمفتاح الإيمان العجيب قال الأستاذ في حديث شاعري بينه وبين نفسه عند غار حراء في مكة المكرمة:

---

(١) الإيمان والحياة مصدر سابق ص٢٦٩ وما بعدها.

(٢) علي عبد الحي الحسني فخر الدين الندوي أبو الحسن ولد في الهند عالم ومؤلف كبير توفي عام ١٩٩٩م (عظماء الإسلام - محمد سعيد مرسي - ص٦٢٢ - الطبعة الأولى ٢٠٠١م - دار الثقافة للعلوم طنطا).

لقد كانت الحياة كلها أقفالاً معقدة وأبوابًا مقفلة، كان العقل مقفلاً أعيا فتحه الحكماء والفلاسفة، كان الضمير مقفلاً أعيا فتحه الوعاظ والمرشدين كانت القلوب مقفلة أعيا فتحها الحوادث والآيات، كانت المواهب مقفلة أعيا فتحها التعليم والتربية والمجتمع والبيئة، كانت المدرسة مقفلة أعيا فتحها العلماء والمعلمين، كانت المحكمة مقفلة أعيا فتحها المتظلمين والمتحاكمين، كانت الأسرة مقفلة أعيا فتحها المصلحين والمفكرين، كان قصر الإمارة مقفلاً أعيا فتحه الشعب المظلوم والفلاح المجهود والعامل المنهوك، وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلة أعيا فتحها جوع الفقراء وعري النساء وعويل الرضعاء، لقد حاول المصلحون الكبار والمشرعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال ففشلوا وأخفقوا، فإن القفل لا يفتح بغير مفتاحه وقد ضيعوا المفتاح من قرون كثيرة وجربوا مفاتيح من صناعتهم ومعادنهم فإذا هي لا توافق الأقفال وإذا هي لا تغني عنهم شيئا، وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال فجرحوا أيديهم وكسروا آلتهم.

ففي هذا المكان المتواضع، المنقطع عن العالم المتمدن، وعن جبل ليس بمخصب ولا بشامخ تم ما لم يتم في عواصم العالم الكبيرة ومدارسه الفخمة ومكتباته الضخمة، هنا منّ الله على العالم برسالة محمد ﷺ وفي رسالته عاد هذا المفتاح المفقود إلى الإنسانية، ذلك المفتاح هو (الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر) ففتح به هذه الأقفال المعقدة قفلا قفلا، وفتح به هذه الأبواب المقفلة بابًا بابًا، وضع هذا المفتاح النبوي على العقل الملتوي فتفتح ونشط واستطاع أن ينتفع بآيات الله في الآفاق والأنفس، ويتوصل مع العالم إلى فاطره، ومن الكثرة إلى الوحدة، ويعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والأوهام. وكان قبل ذلك محاميًا مأجورًا يدافع عن كل قضية حقا وباطلاً.

وضع هذا المفتاح على الضمير الإنساني النائم فانتبه، وعلى الشعور الميت

فانتعش وعاش، وتحولت الأنفس الأمارة بالسوء مطمئنة لا تسيغ الباطل ولا تتحمل الإثم حتى يعترف الجاني أمام الرسول بجريمته ويلح على العقاب الأليم الشديد، وترجع المرأة المذنبة إلى البادية حيث لا رقابة عليها ثم تحضر المدينة وتعرض نفسها للعقوبة التي هي أشد من القتل، ويحمل الجندي الفقير تاج كسرى ويخفيه في لباسه ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس ويدفعه إلى الأمير لأنه مال الله الذي لا يجوز الخيانة فيه.

كانت القلوب مقفلة لا تعتبر ولا تزدجر ولا ترق ولا تلين فأصبحت خاشعة واعية تعتبر بالحوادث وتنتفع بالآيات وترق للمظلوم وتحنو على الضعيف.

وضع هذا المفتاح على القوى المخنوقة والمواهب الضائعة فاشتعلت كاللهيب وتدفقت كالسيل، واتجهت الاتجاه الصحيح، فكان راعي الإبل راعي الأمم وخليفة يحكم العالم، وأصبح فارس قبيلة وبلد قاهر الدول وفاتح الشعوب العريقة في القوة والمجد.

وضع المفتاح على المدرسة المقفلة وقد هجرها المعلمون وزهد فيها المتعلمون وسقطت قيمة العلم وهان المعلم، فذكر من شرف العلم وفضل العالم والمتعلم والمربي والمعلم، وقرن الدين بالعلم حتى كانت له دولة ونفاق وأصبح كل مسجد وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة، وأصبح كل مسلم متعلمًا لنفسه، معلمًا لغيره، ووجد أكبر دافع إلى طلب العلم وهو الدين.

وضعه على المحكمة المقفلة فأصبح كل قاض عادلاً وكل حاكم مسلم حكمًا مقسطًا، وأصبح المسلمون قوامين لله شهداء بالقسط، ووجد الإيمان بالله واليوم الآخر فكثر العدل وقل الجدل، وفقدت شهادة الزور والحكم بالجور.

وضعه على الأسرة المقفلة وقد فشى فيها التطفيف بين الوالد وولده، والأخ

وإخوته، والرجل وزوجته، وتعدى من الأسرة إلى المجتمع فظهر بين السيد وخادمه والرئيس والمرؤوس والكبير والصغير، كل يريد أن يأخذ ما له ولا يدفع ما عليه، وأصبحوا مطففين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، فغرس في الأسرة الإيمان وحذرها من عقاب الله وقرأ عليها قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

وقسم المسؤولية على الأسرة وعلى المجتمع كله فقال «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[1] وهكذا أوجد أسرة عادلة متحابة مستقيمة ومجتمعا عادلا، وأوجد في أعضائه شعورا عميقا بالأمانة وبالخوف الشديد من الآخرة حتى تورع الأمراء وولاة الأمور وتقشفوا، وأصبح سيد القوم خادمهم، ووالي الأمة كولي اليتيم: إن استغنى استعفف وإن افتقر أكل بالمعروف، وأقبل إلى الأغنياء والتجار فزهدهم في الدنيا ورغبهم في الآخرة وأضاف الأموال إلى الله فقرأ عليهم ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾ [الحديد: ٧]. ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡۚ﴾ [النور: ٣٣]. وحذرهم من اكتناز وادخار الأموال وعدم الإنفاق في سبيل الله فقرأ عليهم ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ

(١) رواه البخاري مصدر سابق – كتاب الجمعة – باب الجمعة في القرى والمدن ١/ ٣٠٤ برقم: ٨٥٣.

لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[التوبة: ٣٤ - ٣٥].

أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح المؤمن بالله، الخائف من عقاب الله، الخاشع الأمين، المؤثر للآخرة على الدنيا، المستهين بالمادة المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية، يؤمن بأن الدنيا خلقت له وأنه خلق للآخرة، فإذا كان هذا الفرد تاجرًا فهو التاجر الصدوق الأمين وإذا كان فقيراً فهو الرجل الشريف الكادح، وإذا كان عاملاً فهو العامل المجتهد الناصح، وإذا كان غنيًا فهو الغني السخي المواسي، وإذا كان قاضيًا فهو القاضي العادل الفهم، وإذا كان واليًا فهو الوالي المخلص الأمين، وإذا كان سيدًا رئيسًا فهو الرئيس المتواضع الرحيم، وإذا كان خادمًا أو أجيرًا فهو الرجل القوي الأمين، وإذا كان أمينًا للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم.

وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلامي وتأسست الحكومة الإسلامية في بدورها، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم، فكان المجتمع مجتمعًا صالحًا أمينًا مؤثرًا للآخرة على الدنيا متغلبًا على المادة غير محكوم لها، انتقل إليه صدق التاجر وأمانته، وتعفف الفقير وكدحه، واجتهاد العامل ونصحه، وسخاوة الغني ومواساته، وعدل القاضي وحكمته، وإخلاص الوالي وأمانته، وتواضع الرئيس ورحمته، وقوة الخادم، وحراسة الخازن، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة مؤثرة للمبادئ على المنافع، والهداية على الجباية، وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة، كلها إيمان وعمل صالح، وصدق وإخلاص، وجد واجتهاد وعدل في الأخذ والعطاء، وإنصاف النفس مع الغير.

وقد ذهلت في حديثي لنفسي، وتمثلت إلي الجماعات الإسلامية الأولى بجملها

وتفاصيلها كأني أشاهدها وأتنفس في جوها وانقطعت الصلة بيني وبين العالم الحاضر.

وحانت مني التفاتة إلى هذا العصر الذي نعيش فيه فقلت: إني لأرى أقفالاً جديدة على أبواب الحياة الإنسانية وقد قطعت الحياة مراحل طويلة وخطت خطوات واسعة وتعقدت الحياة والتوت وتطورت المسائل وتنوعت، وتساءلت هل يمكن فتح هذه الأقفال الجديدة بذلك المفتاح العتيق؟ وأبيت أن أحكم بشيء، هل أختبر هذه الأقفال وأضع عليها المفتاح، ولمست هذه الأقفال بالبنان فإذا هي الأقفال القديمة بتلوين جديد، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم، وإذا المشكلة الكبرى وأساس الأزمة هو الفرد الذي لا يزال لبنة المجتمع وأساس الحكومة، ووجدت أن هذا الفرد قد أصبح اليوم لا يؤمن إلا بالمادة والقوة ولا يعنى إلا بذاته وشهواته وإنه يبالغ في تقدير هذه الحياة ويسرف في عبادة الذات وإرضاء الشهوات، وقد انقطعت الصلة بينه وبين ربه ورسالة الأنبياء وعقيدة الآخرة، فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء هذه المدنية، فإذا كان تاجرًا فهو التاجر المحتكر النهم الذي يحجب السلع أيام رخصها ويبرزها عند غلائها ويسبب المجاعات والأزمات، وإذا كان فقيرا فهو الفقير الثائر الذي يريد أن يتغلب على جهود الآخرين بغير تعب، وإذا كان عاملاً فهو العامل المطفف الذي يريد أن يأخذ ماله ولا يدفع ما عليه، وإذا كان غنيا فهو الغني الشحيح القاسي الذي لا رحمة فيه ولا عطف، وإذا كان واليًا فهو الوالي الغاش الناهب للأموال، وإذا كان سيدا فهو الرجل المستبد المستأثر الذي لا ينظر إلا إلى فائدته وراحته، وإذا كان خادمًا ضعيفًا فهو الضعيف الخائن، وإذا كان خازنًا فهو السارق المختلس للأموال، وإذا كان وزير دولة أو رئيس وزارة أو رئيس جمهورية فهو المادي المستأثر الذي لا يخدم إلا نفسه وحزبه ولا يعرف غيره.

وبهؤلاء الأفراد تكون المجتمع وتأسست الحكومة، فكان مجتمعًا ماديًا، اجتمع

فيه كل ما ذكر من الغش والخداع والخيانة والنهب للأموال و.........و......
وبهذه النفسيات المادية تولدت أزمات طريفة ومشاكل معقدة، تشكو منها الإنسانية بثها وحزنها، كالسوق السوداء وفشو الرشوة والغلاء الفاحش واختفاء الأشياء والتضخم النقدي، وأصبح المفكرون والمشرعون لا يجدون حلا لهذه المشاكل وأصبحوا إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمة أخرى، بل إن حلولهم القاصرة ومعالجتهم المؤقتة هي التي تسبب أزمات جديدة وتنقلوا من حكومة شخصية إلى ديمقراطية ديكتاتورية ثم إلى ديموقراطية، ومن نظام رأسمالي إلى نظام اشتراكي شيوعي، وإذا الوضع لا يتغير لأن الفرد الذي هو الأساس لا يتغير، ويجهلون، أو يتجاهلون في كل ذلك، أن الفرد هو الفاسد المعوج، ولو عرفوا أن الفرد هو الأساس وأنه فاسد معوج لما استطاعوا إصلاحه وتقويمه لأنهم على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم والتربية والنشر، لا يملكون ما يصلحون به الفرد، ويقومون إعوجاجه، ويحولون اتجاهه من الشر إلى الخير، ومن الهدم إلى البناء لأنهم أفلسوا في الروح، وتخلوا عن الإيمان، وفقدوا كل ما يغذي القلب ويغرس الإيمان، ويعيد الصلة بين العبد وربه، وبين هذه الحياة والحياة الأخرى، وبين المادة والروح، وبين العلم والأخلاق وفي الأخير أدى بهم إفلاسهم الروحي ومادتهم العمياء واستكبارهم إلى استعمال آخر ما عندهم من آلات التدمير التي تبيد شعبًا بأسره وتخرب قطرا بطوله، حتى استهدفت الحضارة والحياة البشرية.

إنه تصوير عجيب لواقع الحال اليوم، ولمشكلة العالم، ولحلها أيضًا، وذلك بالعودة إلى منهج القرآن الكريم في بناء النفوس، وإصلاح العقول والقلوب، وتربية الفرد، والمجتمع، على الإيمان بالله سبحانه والتحرر من ما سواه، من الأنداد والشهوات، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

الخاتمة

بعد هذا التطواف مع منهج القرآن في إصلاح المجتمع من خلال سورة الحجرات؛ نجد أن السورة تنقلت بنا من موضوع إلى موضوع؛ ومن خلق إلى خلق؛ لتبني المجتمع المسلم المنشود بناء سليمًا صحيحًا معافى من كل الأمراض التي تهدد بنيان المجتمعات عمومًا إذا لم تتخلق بهذه الأخلاق؛ وقد جاءت السورة بتوجيهات كريمة مصدرة بنداء المؤمنين:

التوجيه الأول: يدعوهم إلى الاحتكام إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وعدم تقدمهما بأي أمر مهما صغر؛ والمجتمع الذي يرجع إلى الله ورسوله إلى الوحي المعصوم في عقيدته وعبادته وسلوكه ومعاملته فإنه مجتمع راشد في نفسه، يستطيع أن يرشد غيره.

والتوجيه الثاني: يطالب المجتمع بالتأدب مع رسول الله ﷺ، ومع سنته، ومع ورثة الأنبياء من العلماء العاملين.

والتوجيه الثالث: يطالب المجتمع بالصدق في الحديث، والتثبت في الخبر وأن لا يستعجل في تصرفاته وأحكامه، وتلك ميزة مجتمع المؤمنين الصادقين، الذين التزموا طريق الرسول ﷺ، واقتدوا به في ذلك خوفًا من مخالفة هديه، فإن ذلك يحبط العمل، ولا بد أن أفراد هذا المجتمع يعلمون أن من تمام الإيمان إعطاء الحقوق وقول الحق ولو على النفس.

والتوجيه الرابع: يدعوهم إلى العمل على إطفاء نار الفتنة والأخذ على يد الظالم حتى يرضخ للصلح ثم السعي بعد ذلك في الإصلاح بين الطرفين بالعدل

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجُرات: ٩] وأن الإصلاح بين المؤمنين من واجبات الأخوة التي رباطها الإيمان ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾ [الحجُرات: ١٠].

والتوجيه الخامس: يدعوهم إلى ترك الأعمال السيئة، ويعلمهم أن من نواقض الأخوة ظهور هذه الأعمال التي نهى الله تعالى عنها؛ مثل السخرية والهمز واللمز والتنابز بالألقاب، وكذا الظن السيئ، والتجسس، والغيبة، وهذه الأخلاق تنافي الإيمان، وهي ظلم في نفس الوقت، واستجابة للتوجيهات الربانية أن يحارب المؤمنون هذه الأعمال السيئة في أنفسهم، ومجتمعهم حتى يتحرر المجتمع منها، وتصبح أعمالًا منبوذة ومنبوذ من يتعامل بها ومن أخطأ ووقع فيها تاب وأناب ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجُرات: ١١].

والتوجيه السادس: يدعوهم إلى وحدة الصف وجمع الكلمة، وأنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، والمجتمع الراشد يعرف أن الناس خلقوا من أب واحد وأم واحدة وخالقهم واحد فلا يتفاخرون بلون أو لغة أو بلد أو غيرها ويعلمون أن التفاضل بالتقوى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجُرات: ١٣].

والمجتمع الصالح يعلم أن أساس صلاحه الإيمان بالله تعالى والإخلاص له؛ وأنه محتاج إلى تأييد الله له في كل أمر؛ وأن ذلك يجعله متواضعا لربه؛ فلا يمن بإعماله وإيمانه، ولا يزكي نفسه؛ بل يقوم بالأعمال وهو يخاف ربه ويرجوه تعالى ﴿إِنَّمَا

ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحُجُرات: ١٥ - ١٧].

أهم النتائج لهذه السورة هي:

١- خطورة التقدم بين يدي الله ورسوله، وأن التقدم ليس محصورًا في معنى معين. بل النهي شامل لكل ما يطلق عليه تقدمًا حسًا أو معنى صغيرًا أو كبيرًا، ولعل أشد أنواع التقدم خطورة بين يدي الله ورسوله هو الحكم بغير ما أنزل الله، ولفظ (لا تقدموا بين يدي الله ورسوله) فيه من الإعجاز ما لا يستطيع أحد مهما أوتي من البيان وفصل الخطاب أن يقارب أو يماثل هذه الصورة المعجزة.

٢- الأدب مع رسول الله ﷺ دين يجب أن يلتزمه المجتمع المسلم في حياته وبعد مماته وفي السورة ثلاثة آداب رئيسة هي الأدب مع كتاب الله، والأدب مع رسول الله ﷺ، والأدب مع الخلق بعضهم بعضًا، ومن الآداب الهامة الأدب مع العلماء باعتبارهم ورثة الأنبياء.

ومن الأدب مع الرسول ﷺ الاقتداء والتأسي به، وعدم الابتداع في الدين، وأن الغلو في رسول الله ﷺ لا يزيد الغالي إلا بعدًا عن شرعه ﷺ.

٣- الإشاعة داء قاتل، وقَالَةُ السوء لا تتوقف عند حد، والكذب قد فشا سوقه وراجت بضاعته، والتثبت في الأخبار لم يعد له مكان بل يتلقف الناس الأخبار ويفرحون بها وينشرونها دون الرجوع إلى منهج القرآن، مهما كان

لها من أثار مدمرة على الإنسان والمجتمع، ما لم يتقيد أفراد المجتمع بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحُجُرات: ٦].

٤- الأخوة هي البلسم الشافي في وسط عالم يموج بالتقاطع والتدابر، ويمسي ويصبح على القتال والتناحر، والقيام بواجب إصلاح ذات البين يعزز من متانة الأخوة واستمرار بنيان المجتمع، وقيامه بواجباته وأدائه لدوره الريادي في تحقيق منهج القرآن الكريم، وهذا يحتاج إلى وعي المسلمين في كل مكان لما يراد لهم من تفريق جمعهم، وتشتيت شملهم، والواقع اليوم يشهد لهذا بكل وضوح، أن هم أعدائنا ألا تبقى أخوة ولا يقوم إصلاح بين الناس.

٥- منهج القرآن الكريم واضح في حربه على كل خلق يؤثر سلبًا في بنيان المجتمع المسلم مهما صغر في نظر بعض أفراد المجتمع، ومن ذلك تحريم السخرية واللمز والنبز والظن السيئ بالمسلمين، والتجسس عليهم واغتيابهم، وقد جاء النهي عنها بطرق مختلفة لأن هذه الأخلاق المذمومة مما يضعف بنيان المجتمع ويفتح الثغرات للأعداء لتمزيق وحدة الأمة، وإضعاف قوتها.

٦- لا يمكن أن تستقيم الحياة، وتصفو من أكدارها إلا بالتقوى، ولن يحقق الإنسان تقوى الله تعالى إلا إذا التزم أحكامه قولًا وعملًا، وتعاهد قلبه وأخلصه لله. ومن التقوى الإيمان بأن البشرية مخلوقة من أصل واحد، وأب واحد، ولها رب واحد فلا تتفاخر بالأنساب، أو الألوان، أو الألقاب، وإنما البشرية كلها تعيش المساواة التي لم يستطع منهج غير منهج القرآن أن يوجدها بين الناس حقيقة واقعة؛ وإذا وجدت أي فوارق في المجتمع فإن

منهج القرآن يعالجها، ويجعل علاجها من الإيمان، ويتبين من دراسة هذه السورة أنه ليس هناك ما يفضِّل جنسًا على جنس، أو فردًا على فرد إلا بالتقوى.

٧- من خلال منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمع وصلنا إلى نتيجة مفادها أن الإيمان بالله تعالى أبرز أصل من أصول بناء المجتمعات، وبدونه لا يقوم بناء، وأن بقية الأصول والآداب والأخلاق تابعة له، وأن الإيمان ليس مجرد ادعاء باللسان دون اعتقاد القلب، وعمل الجوارح؛ وأن للإيمان شواهد وضوابط، ومن ذلك الدعوة إلى الإيمان، والجهاد في سبيل الله، والالتزام بالكتاب والسنة، في حياة الأفراد والمجتمعات.

٨- إن سورة الحجرات حوت نظامًا كاملًا، ودستورًا شاملًا لمجتمع فاضل، هو المجتمع المؤمن؛ وأن هذا الدستور يحتاج إلى مزيد من البيان والدراسة والتحليل، والبحث عن السبل التي تسهل للمجتمع المؤمن تطبيق هذا الدستور في حياته قولاً وعملاً، ولن يكون ذلك إلا بالاقتداء برسول الله ﷺ (وأصحابه رضي الله عنهم).

٩- إن منهج القرآن الكريم في إصلاح المجتمعات لا يقوم في الأرض بمجرد التمني والدعاوى الزائفة، بل لا بد من الإيمان به، والعمل له، والتضحية في سبيل نشره حتى يظهره الله على كل مناهج الأرض ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبة وسلم.



فهرست المصادر والمراجع

١ **القرآن الكريم** .

٢ **آفات اللسان**
سعيد بن علي القحطاني
مكتبة العلم القاهرة

٣ **آفات على الطريق**
السيد محمد نوح
الطبعة الخليجية الأولى ١٩٩٨م - دار اليقين للنشر مصر

٤ **أحصاه الله ونسوه**
عبد الملك القاسم
الطبعة الثانية ١٩٩٥م دار القاسم الرياض

٥ **أحكام القرآن**
لأبي بكر محمد بن عبد الله المعافري الأشبيلي المعروف بابن العربي،
الطبعة الأولى ٢٠٠١ م دار إحياء التراث العربي بيروت تحقيق / علي البجاوي

٦ **إحياء علوم الدين**
أبي حامد محمد الغزالي
- عالم الكتب

٧ **أخلاق المسلم**
وهبة الزحيلي
الطبعة الأولى ٢٠٠٢م دار الفكر دمشق

٨ **أخلاق النبي في صحيح البخاري ومسلم**
عبد المنعم الهاشمي
الطبعة الأولى ٢٠٠٢م دار ابن حزم بيروت

٩ **أخلاقنا الاجتماعية**
مصطفى السباعي
الطبعة الأولى ١٩٩٩م المكتب الإسلامي بيروت-

١٠ **أدب الخطاب**
أبي عبد الله مصطفى العدوي الطبعة الأولى ١٩٩٩م مكتبة صنعاء الأثرية

١١ **الأذكار**
لأبي زكريا يحي بن شرف النووي
الطبعة الثانية ٢٠٠٢م دار بن كثير دمشق تحقيق يوسف بديوي

١٢ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**
عز الدين علي بن ابي الأكرم محمد المعروف بإبن الأثير
دار أحياء التراث العربي بيروت

١٣ **أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن**
محمد الأمين الشنقيطي - عالم الكتب

١٤ **أضواء على حقيقة المساواة**
يس عبد العزيز القباطي

١٥ **إعلام الموقعين**
محمد بن أبي بكر أيوب بن القيم
1973م دار الجيل بيروت

١٦ **اقتضاء الصراط المستقيم في مخالفة أهل الجحيم**
أحمد بن عبد الحليم بن تيميه
مطبعة السنة المحمدية القاهرة الطبعة الثانية ١٣٦٩هـ تحقيق : محمد حامد الفقي

١٧ **الأخلاق الإسلامية وأسسها**
عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني
الطبعة الخامسة ١٩٩٩م دار القلم بيروت

١٨ **الأخوة**
جاسم الياسين
الطبعة الثالثة ١٩٨٦م دار الدعوة للنشر والتوزيع الكويت

١٩ **الاخوة**
محمد حسين يعقوب
الطبعة الثانية - دار التقوى-

٢٠ **الأخوة الإسلامية**
عبد الله ناصح علوان
الطبعة السادسة ١٩٩٧م دار السلام بيروت

٢١ **الأساس في التفسير**
سعيد حوى
الطبعة الأولى ١٩٨٥م دار السلام بيروت

٢٢ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**
يوسف بن عبد الله بن عبد البر
الطبعة الأولى ١٤١٢هـ دار الجيل بيروت تحقيق / علي محمد البجاوي

٢٣ **الإشاعة وأثرها على أمن ا لمجتمع**
محمد بن دغش القحطاني
دار طويق للنشر الرياض- الطبعة الأولى ١٩٩٧م

٢٤ **الإصابة في تمييز الصحابة**
أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
الطبعة الأولى ١٩٩٢م دار الجيل بيروت تحقيق / علي محمد البجاوي

٢٥ **الأعلام**
خير الدين الزركلي
الطبعة الرابعة عشرة ١٩٩٩م در العلم للملايين بيروت

٢٦ **الإيمان**
تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية
الطبعة الخامسة ١٩٩٦م المكتب الإسلامي تحقيق / الألباني

٢٧ **الإيمان - أركانه حقيقته نواقضه**
محمد نعيم ياسين
الطبعة الأولى ٢٠٠١م - دار الوفاء - مصر المنصورة

٢٨ **الإيمان أولا فكيف نبدأ به**
مجدي الهلالي
الطبعة الأولى ٢٠٠٠م دار التوزيع والنشر

٢٩ **الإيمان ، حقيقته وأثره في النفس وا لمجتمع**
محمد الشرقاوي
الطبعة الثانية ١٩٩٠م دار الجيل بيروت

٣٠ **الإيمان والحياة**
يوسف القرضاوي
الطبعة السادسة عشرة ١٩٩٣م بدون

٣١ **البداية والنهاية**
إسماعيل ابن كثير الدمشقي
الطبعة الخامسة ١٩٨٣م مكتبة المعارف بيروت

٣٢ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع –**
محمد بن علي الشوكاني
دار المعرفة بيروت

٣٣ **البينات في تفسير سورة الحجرات**
عبد المجيد البيانوني –
الطبعة الثانية ١٩٩٩م دار نور المكتبات جدة –

٣٤ **التأدب مع الرسول في ضوء الكتاب والسنة**
حسن نور حسن
1991 م دار المجتمع للنشر جده

٣٥ **التثبت والتبين في المنهج الإسلامي**
أحمد محمد العليمي
الطبعة الأولى ٢٠٠٠م دار ابن حزم بيروت –

٣٦ **التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية**
محمد راكان الدغمي –
الطبعة الثانية ١٩٨٥م دار السلام بيروت –

٣٧ **الترغيب والترهيب**
عبد العظيم بن عبد القوي المنذري
دار الكتب العلمية بيروت١٤١٧هـ الطبعة الأولى تحقيق إبراهيم شمس الدين

٣٨ **التشريع الجنائي الإسلامي**
عبد القادر عودة –
الطبعة الرابعة عشرة ٢٠٠٠م مؤسسة الرسالة

٣٩ **التفسير القرآني للقران** ..
لعبد الكريم الخطيب – دار الفكر العربي بيروت

٤٠ **التفسير الكبير**
محمد بن عمر بن حسن الرازي
دار إحياء التراث بيروت – الطبعة الثالثة

٤١ **التعريفات**
علي بن محمد الجر جاني -
دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ تحقيق إبراهيم الإبياري

٤٢ **التكافل الاجتماعي في الإسلام**
مصطفى السباعي –
الطبعة الأولى ١٩٩٨م دار الوراق بيروت

٤٣ **التوقيف على مهمات التعريف**
محمد عبد الرؤوف المناوي
– دار الفكر دمشق – الطبعة الأولى ١٤١٠هـ

٤٤ **الجامع الصحيح**
محمد بن إسماعيل البخاري
الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ دار ابن كثير للنشر اليمامة بيروت تحقيق/ مصطفى ديب البغا

٤٥ **الجامع لأحكام القرآن**
محمد بن أحمد القرطبي –
دار الشعب – القاهرة الطبعة الثانية ١٣٧٢هـ تحقيق / احمد البردوني

٤٦ **الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه**
عبد الرحمن بن صالح المحمود—
الطبعة الثانية ١٩٩٩م دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض

٤٧ **الخصائص الكبرى**
جلال الدين السيوطي
دار الكتب العلمية بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨٥م

٤٨ **الدر المنثور**
جلال الدين السيوطي—
١٩٩٣م دار الفكر بيروت -

٤٩ **الدرر الكامنة**
احمد بن علي بن حجر العسقلاني –
مطبعة دار المعارف – حيدر أباد الهند – الطبعة الثانية ١٩٧٢ – تحقيق / محمد عبد المعيد

٥٠ **الدين**
محمد عبد الله دراز
الطبعة الرابعة ١٩٩٩م دار القلم الكويت

٥١ **الرد الوافر**
محمد بن أبي بكر بن القيم
المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ تحقيق / زهير الشاويش

٥٢ **الرسالة**
محمد بن إدريس الشافعي – ١٩٣٩م القاهرة – تحقيق: أحمد محمد شاكر

٥٣ **الرياض النضرة**–
أحمد بن عبد الله الطبري –
دار الغرب الإسلامي بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٦م

٥٤ **السنن الكبرى**
أحمد بن شعيب النسائي
الطبعة الأولى ١٤١١هـ دار الكتب العلمية

٥٥ **السيرة الحلبية**
علي برهان الدين الحلبي
دار المعرفة بيروت ١٤٠٠هـ

٥٦ **السيرة النبوية**
علي محمد الصلابي
- الطبعة الأولى ٢٠٠١م دار التوزيع القاهرة

٥٧ **السيرة النبوية**
لأبي الحسن الندوي
1987م إدارة إحياء التراث الإسلامي- قطر

٥٨ **الشامل في التربية الإسلامية**
محمد يوسف محمد
2001 م لطلاب الثانوية السودان

٥٩ **الشفاء بتعريف حقوق المصطفى**
القاضي عياض بن موسى اليحصبي
-الطبعة الأولى ٢٠٠١م دار الفكر لبنان -

٦٠ **الشقائق النعمانية العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم**
طاشكبري زاده
دار الكتاب العربي بيروت – ١٣٩٥هـ

٦١ **الشيخ ابن باز بقية السلف وإمام الخلف**
تقديم مانع بن حماد الجهني
من إصدارات الندوة العالمية للشباب لإسلامي –١٤٢٠هـ

٦٢ **الطبقات الكبرى** -
محمد بن سعد الزهري - دار صادر بيروت

٦٣ **العصبية أضرارها ومخاطرها**
عبد الملك مرشد الشيباني
م 1998دار الجد للطباعة صنعاء

٦٤ **العين**
الخليل بن احمد الفراهيدي
– دار ومكتبة الهلال – تحقيق: مهدي لمخزومي وإبراهيم السامرائي .

٦٥ **الغيبة**
حسين العوايشة
الطبعة الثانية ٢٠٠١م دار ابن حزم بيروت

٦٦ **الغيبة**
عبد الله الأثري
- الطبعة الأولى ٢٠٠٠م دار ابن خزيمة الرياض

٦٧ **الفتاوى السعدية**
عبد الرحمن السعدي
-الطبعة الأولى ١٩٩٥م عالم الكتب بيروت

٦٨ **الفتاوى الكبرى**
تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية—
الطبعة الأولى ١٣٨٦هـ دار المعرفة بيروت-

٦٩ **الفكر المنهجي عند المحدثين**
همام عبد الرحيم سعيد
-الطبعة الأولى ١٤٠٨م كتاب الأمة قطر

٧٠ **الفوائد**
محمد بن أبي بكر بن القيم
الطبعة الثانية ١٩٧٣م دار الكتب العلمية -

٧١ **القاموس المحيط** ..
محمد بن يعقوب الفيروز أبادي
المؤسسة العربية بيروت -

٧٢ **المجتمع الإسلامي**
محمد عبد الله الخطيب
- الطبعة الأولى ٢٠٠٠م دار المنار الحديثة للنشر

٧٣ **المجتمع المتكافل**
عبد العزيز الخياط
1972م مؤسسة الرسالة بيروت

٧٤ **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**
محمد الغزالي
الطبعة الأولى ٢٠٠٠م دار الشروق - القاهرة

٧٥ **المختار من كنوز السنة النبوية**
محمد عبدالله دراز

٧٦ **المرجعية العليا في الإسلام**
يوسف القرضاوي
الطبعة الثانية ٢٠٠١م مكتبة وهبة القاهرة

٧٧ **المستدرك على الصحيحين**
محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري
الطبعة الأولى ١٤١١هـ دار الكتب العلمية تحقيق / مصطفى عطاء

٧٨ **المشروعية الإسلامية العليا**
علي جريشة
-الطبعة الثانية ١٩٨٦م دار الوفاء مصر

٧٩ **المعجم الأوسط**
سليمان بن أحمد الطبراني
دار الحرمين – القاهرة - ١٤١٥هـ

٨٠ **المعجم الصغير**
سليمان بن أحمد الطبراني
المكتب الإسلامي - بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٥م

٨١ **المعجم العربي الأساسي**
تأليف أحمد العايد وآخرون
بتكليف من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - الجامعة العربية تونس ١٩٩٩م

٨٢ **المعجم الكبير**
سليمان بن أحمد الطبراني
الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ مكتبة العلوم والحكم تحقيق / حمدي السلفي

٨٣ **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**
محمد فؤاد عبد الباقي - ١٩٨٦م دار الدعوة تركيا

٨٤ **المعجم الوسيط**
مجمع اللغة العربية
دار الدعوة تركيا ١٩٨٩م إخراج إبراهيم مصطفى وآخرون

٨٥ **مقتطف من عيون التفاسير**
مصطفى الخيري المنصوري
– الطبعة الأولى ١٩٩٦م – دار السلام القاهرة – تحقيق : الصابوني

٨٦ **المقتطف من عيون التفاسير**
محمد علي الصابوني
-الطبعة الأولى ١٩٩٦م دار السلام القاهرة

٨٧ **الملل والنحل**
محمد بن عبد الكريم الشهرستاني
دار الفكر – بيروت – بدون طبعة ولا سنة طبع

٨٨ **المنجد في اللغة والأعلام**
الطبعة الثامنة والعشرون ١٩٨٦م دار المشرق بيروت

٨٩ **المنظور الإسلامي لممارسة الخدمة الاجتماعية**
عفاف الدباغ
الطبعة الأولى ١٩٩٤م مكتبة المؤيد الرياض

٩٠ **الموسوعة الفقهية** –
وزارة الأوقاف
بدولة الكويت – ١٩٨٧م الطبعة الثانية

٩١ **النبي المربي**
أحمد رجب الأسمر—
الطبعة الأولى ٢٠٠١م دار الفرقان عمان -

٩٢ **الوابل الصيب من الكلم الطيب**
لابن القيم –
الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ دار الكتاب العربي بيروت

٩٣ **أمراض النفوس**
إبراهيم الجمل
الطبعة الثالثة ١٩٩٢م دار الكتاب بيروت

٩٤ **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**
أبو بكر الجزائري
-الطبعة الثانية ١٤١٨هـ دار لينة للنشر والتوزيع - مصر

٩٥ **بغية الطلب في تاريخ حلب** –
كمال الدين عمر بن أبي جرادة
دار دار الفكر بيروت – الطبعة الأولى ١٩٨٨م

٩٦ **تاريخ بغداد**
أحمد بن علي البغدادي
دار الكتب العلمية بيروت

٩٧ **تاريخ الأمم والملوك**
محمد بن جرير الطبري
-الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ دار الكتب العلمية بيروت

٩٨ **تاريخ مولد العلماء ووفياتهم**
محمد بن عبد الله الربعي
-الطبعة الأولى ١٤١٠هـ دار العاصمة الرياض-

٩٩ **تحذير أهل الإيمان عن الحكم بغير ما أنزل الرحمن**
إسماعيل الحسني–
الطبعة الأولى ١٩٩٣م دار الهجرة صنعاء

١٠٠ **تدريب الراوي**
– عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطي –
–مكتبة الرياض الحديثة – الرياض – تحقيق / عبد الوهاب عبد اللطيف

١٠١ **تطهير العيبة من دنس الغيبة**
أحمد بن حجر الهيتمي
-الطبعة الأولى ١٩٨٨م دار الكتب العلمية بيروت

١٠٢ **تفسير آيات الأحكام**
للصابوني
الطبعة الثانية ١٩٧٧م مكتبة الغزالي دمشق

١٠٣ **تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور**
محمد الطاهر بن عاشور -الطبعة الأولى ٢٠٠٠م مؤسسة التاريخ بيروت

١٠٤ **تفسير الرازي مفاتيح الغيب**
محمد بن عمر بن الحسن التيمي البكري المعروف بالفخر الرازي
دار إحياء التراث العربي – الطبعة الثانية

١٠٥ **تفسير الطبري**
محمد بن جرير الطبري
الطبعة الأولى ١٩٩٢م دار الكتب العلمية بدون بلد

١٠٦ **تفسير القاسمي**
محمد جمال الدين القاسمي
الطبعة الثانية ١٩٧٨م دار الفكر بيروت

١٠٧ **تفسير القرآن العظيم**
إسماعيل بن كثير الدمشقي
-الطبعة السابعة ١٩٩٥م دار المعرفة بيروت تحقيق د/ يوسف المرعشلي

١٠٨ **تفسير سورة الحجرات**
عبد الرحمن البنا
دار الاعتصام القاهرة

١٠٩ **تقريب التهذيب**
ابن حجر العسقلاني
دار الرشيد سوريا – الطبعة الأولى ١٩٨٦م تحقيق: محمد عوامة

١١٠ **توضيح المقاصد في شرح قصيدة ابن القيم**
أحمد بن إبراهيم بن عيسى
المكتب الإسلامي بيروت – الطبعة الثالثة ١٤٠٦هـ تحقيق/ زهير الشاويش

١١١ **تهذيب الكمال**
يوسف أبو الحجاج المزي
الطبعة الأولى ١٩٨٠م مؤسسة الرسالة بيروت تحقيق / بشارعواد معروف

١١٢ **تهذيب سيرة ابن هشام**
عبد السلام محمد الهارون
الطبعة السادسة ١٩٨٩م مكتبة السنة القاهرة

١١٣ **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان** عبد الرحمن السعدي ، الطبعة السادسة ١٩٩٧م مؤسسة الرسالة

١١٤ **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**
محمد بن أبي بكر أيوب بن القيم –
الطبعة الثانية ١٩٨٧م دار العروبة – الكويت تحقيق / شعيب الأرنؤوط

١١٥ **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**
محمد بن أبى بكر ابن القيم – دار الكتب العلمية بيروت

١١٦ **حاشية ابن القيم على سنن أبي داود**
محمد بن أبي بكر أيوب بن القيم
-الطبعة الثانية ١٤١٥هـ دار الكتب العلمية بيروت-

١١٧ **حصول الطلب بسلوك الأدب**
محمد بن حسن الشريف
الطبعة الثانية ١٩٩٩م دار الأندلس الخضراء

١١٨ **حقوق النبي بين الإجلال والإخلال**
مجموعة من الباحثين–
الطبعة الأولى ٢٠٠١م كتاب المنتدى الإسلامي

١١٩ **حقوق النبي على أمته في ضوء الكتاب والسنة**
محمد بن خليفة التميمي
مكتبةأضواء السلف الرياض - الطبعة الأولى ١٩٩٧م

١٢٠ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**
أبو نعيم الأصفهاني
-الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ دار الكتاب العربي بيروت-

١٢١ **حول تطبيق الشريعة**
محمد قطب
الطبعة الثانية – مكتبة السنة -

١٢٢ **خلق المسلم**
محمد الغزالي
المكتبة الفيصلية مكة المكرمة

١٢٣ **دليل الفالحين**
محمد الأشعري
- الطبعة الأخيرة ١٩٩٤م دار الفكر بيروت

١٢٤ **رسائل العاملين**
جاسم بن محمد بن مهلهل الياسين
الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ مؤسسة الكلمة للنشر

١٢٥ **رسالة وجوب تحكيم شرع الله**
عبدالعزيز بن عبد الله بن باز
الطبعة الخامسة ١٤٠٩هـ الرئاسة العامة للدعوة والإرشاد السعودية

١٢٦ **رسالتان في الغيبة**
أبي حامد الغزالي و ابن تيميه ١٩٩٤م دار الحديث القاهرة

١٢٧ **رفع الريبة في بيان ما يجوز وما لا يجوز من الغيبة**
محمد بن محمد الشوكاني
الطبعة الأولى ١٩٨٩م مكتبة التابعين القاهرة

١٢٨ **روح القرآن جزء الأحقاف**
عفيف عبد الفتاح طباره
الطبعة الثانية ١٩٨٤م دار العلم للملايين بيروت

١٢٩ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**
محمود الألوسي
الطبعة الأولى ٢٠٠٠م دار إحياء التراث بيروت

١٣٠ **رياض الصالحين**
يحي بن شرف النووي
الطبعة الأولى ١٩٧٩م دار التراث القاهرة

١٣١ **زاد المسير في علم التفسير**
عبد الرحمن بن علي بن الجوزي
الطبعة الثالثة ١٩٨٤م المكتب الإسلامي

١٣٢ **زاد المعاد**
محمد بن أبي بكر أيوب بن القيم
مؤسسة الرسالة - بيروت الطبعة الرابعة عشرة - ١٩٨٦م تحقيق / شعيب الأرناؤط

١٣٣ **سبل السلام**
محمد بن إسماعيل الصنعاني
دار إحياء التراث بيروت – الطبعة الرابعة – ١٣٧٩هـ

١٣٤ **سلسلة الأحاديث الصحيحة**
محمد ناصر الدين الألباني
مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض – ١٩٩٥م

١٣٥ **سلسلة الأحاديث الضعيفه**
محمد ناصر الدين الألباني
الطبعة الأولى ١٤١٢هـ مكتبة المعارف – الرياض

١٣٦ **سنن أبي داود**
سليمان بن الأشعث السجستاني
دار الفكر

١٣٧ **سنن البيهقي الكبرى**
أحمد بن الحسين البيهقي
1994 م مكتبة دار الباز مكة

١٣٨ **سنن الترمذي**
محمد بن عيسى الترمذي
دار إحياء التراث العربي بيروت تحقيق / أحمد محمد شاكر

١٣٩ **سنن الدار قطني**
علي بن عمر الدر قطني البغدادي
دار المعرفة بيروت ١٩٦٦م تحقيق عبد الله هاشم يماني

١٤٠ **سنن الدارمي**
عبد الله بن عبد الرحمن الدار مي
دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الأولى – ١٤٠٧هـ

١٤١ **سنن النسائي**
أحمد بن شعيب النسائي–
مكتب المطبوعات الإسلامية حلب – الطبعة الثانية ١٩٨٦م تحقيق / عبدالفتاح ابوغده

١٤٢ **سورة الحجرات دراسة تحليلية وموضوعية**
ناصر بن سليمان العمر
الطبعة الثالثة ٢٠٠١م دار الصديق للنشر صنعاء

١٤٣ **سياحة إيمانية في سورة الحجرات**
محمود ماضي
الطبعة الأولى – دار الدعوة الإسكندرية – ٢٠٠٠م

١٤٤ **سير أعلام النبلاء**
شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي
الطبعة التاسعة ١٤١٣هـ مؤسسة الرسالة تحقيق / شعيب الأرناؤوط

١٤٥ **شرح العقيدة الطحاوية**
ابن أبي العز الحنفي
المكتب الإسلامي بيروت - الطبعة التاسعة ١٩٨٨م

١٤٦ **شريعة الإسلام خلودها وصلاحها للتطبيق**
يوسف القرضاوي
الطبعة الثالثة ١٩٨٣م المكتب الإسلامي بيروت

١٤٧ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**
عبد الله بن أحمد الدمشقي – دار الكتب العلمية بيروت

١٤٨ **شعب الإيمان**
أحمد بن الحسين البيهقي
الطبعة الأولى ١٤١٠هـ دار الكتب العلمية بيروت

١٤٩ **صحيح ابن حبان ترتيب ابن بلبان**
محمد بن حبان
مؤسسة الرسالة بيروت - الطبعة الثانية ١٩٩٣م

١٥٠ **صحيح ابن خزيمة**
محمد بن إسحاق بن خزيمة
المكتب الإسلامي بيروت – ١٩٧٠م

١٥١ **صحيح الجامع الصغير وزيادته**
محمد ناصر الدين الألباني
المكتب الإسلامي بيروت - الطبعة الثالثة ١٩٨٨م

١٥٢ **صحيح مسلم**
مسلم بن الحجاج النيسابوري
دار أحياء التراث العربي بيروت تحقيق / محمد فؤاد عبدالباقي

١٥٣ **الصحيح المسند من أسباب النزول**
مقبل بن هادي الوادعي الطبعة الثانية ١٩٩٤م دار القدس صنعاء

١٥٤ **صفة الصفوة**
عبد الرحمن بن علي أبو الفرج ابن الجوزي
—دار المعرفة بيروت– الطبعة الثانية ١٩٧٩م

١٥٥ **صفوة التفاسير**
محمد علي الصابوني
الطبعة الأولى ١٩٨١م دار القرآن بيروت

١٥٦ **صيد الخاطر**
ابن الجوزي
دار الإشراق الدوحة – الطبعة الثانية ١٩٩٨م
١٥٧ **ضعيف الجامع الصغير وزيادته**
محمد ناصرالدين الألباني المكتب الإسلامي بيروت- الطبعة الثالثة ١٩٩٠م
١٥٨ **ضعيف سنن ابن ماجه**
محمد ناصر الدين الإلباني
الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ المكتب الإسلامي - بيروت
١٥٩ **ضعيف سنن النسائي**
محمد ناصر الدين الإلباني
الطبعة الأولى ١٤١١هـ المكتب الإسلامي - بيروت
١٦٠ **طبقات الحفاظ**
عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ دار الكتب العلمية بيروت
١٦١ **طبقات المفسرين**
أحمد محمد الأدنروي - مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة
الطبعة الاولي١٩٩٧م تحقيق/ سليمان بن صالح الخزي
١٦٢ **طبقات المفسرين**
عبد الرحمن السيوطي
الطبعة الأولى ١٣٩٦هـ مكتبة وهبة القاهرة -
١٦٣ **عظماء الإسلام**
محمد سعيد مرسي
-الطبعة الأولى ٢٠٠١م دار الثقافة للعلوم طنطا -
١٦٤ **علوم الحديث**
أحمد محمد العليمي
الطبعة الأولى ٢٠٠١م دار ابن حزم بيروت
١٦٥ **عنصر القوة في شرح ركن الأخوة**
عبد الله الوشلي
الطبعة الأولى ٢٠٠١م مكتبة خالد بن الوليد صنعاء
١٦٦ **عون المعبود**
محمد شمس الحق آبادي
الطبعة الثانية - دار الكتب العلمية بيروت -

١٦٧ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
- دار المعرفة بيروت – ١٣٧٩هـ تحقيق/ محمد فؤاد عبد الباقي

١٦٨ **فتح القدير**
محمد بن علي الشوكاني
- دار الفكر بيروت

١٦٩ **فقه الدعوة في إنكار المنكر**
عبد الحميد البلالي
الطبعة الرابعة ١٩٩١م دار الدعوة الكويت

١٧٠ **فن إصلاح ذات البين**
إبراهيم بدر الشهاب –
الطبعة الأولى ٢٠٠١م مؤسسة الرسالة بيروت -

١٧١ **في ظلال التقوى.**
عبد الهادي وهبي
مكتبة الدليل – السعوديه - الطبعة الأولي ١٩٩٥م

١٧٢ **في ظلال الحجرات**
محمد علي قطب
دار القلم بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٧م

١٧٣ **في ظلال القران**
سيد قطب
(الطبعة الخامسة عشرة ١٩٨٨م دار الشروق) بيروت - القاهرة

١٧٤ **فيض القدير**
عبد الرؤوف المناوي
الطبعة الأولى ١٩٩٨م مكتبة نزار الباز مكة تحقيق حمدي الدمرداش

١٧٥ **قبس من نور القرآن**
محمد علي الصابوني
الطبعة الأولى ١٩٩٧م دار السلام

١٧٦ **قصة الإيمان**
نديم الجسر
الطبعة الثالثة ١٩٦٩م المكتب الإسلامي بيروت

١٧٧ **كشف الخفاء ومزيل الألباس عن ما اشتهر من الأحاديث**
إسماعيل بن محمد بن عبدالهادي العجلوني
الطبعة الثالثة ١٣٥١هـ دار إحياء التراث العربي - بيروت

١٧٨ **لباب التأويل في معاني التنزيل**
علاء الدين الخازن–
دار الكتب العلمية بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٥م

١٧٩ **لباب النقول في أسباب النزول**
جلال الدين السيوطي
الطبعة الأولى ١٩٩٧م دار المعرفة بيروت

١٨٠ **لسان العرب**
محمد بن مكرم بن منظور –
الطبعة الثانية – دار الصادر بيروت –

١٨١ **مجمع الزوائد**
علي بن أبي بكر الهيثمي
دار الريان القاهرة ودار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٧هـ

١٨٢ **مجموع الفتاوى**
تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية – مجهول الطبعة –

١٨٣ **مختار الصحاح**
محمد بن أبي بكر الرازي
١٩٩٥م مكتبة لبنان ناشرون تحقيق / محمود خاطر

١٨٤ **مختصر الشمائل المحمدية**
محمد ناصر الدين الألباني
الطبعة الرابعة ١٤١٣هـ مكتبة المعارف الرياض

١٨٥ **مدارج السالكين**
محمد بن أبي بكر أيوب ابن القيم
الطبعة الثانية ١٩٧٣م دار الكتاب العربي بيروت -

١٨٦ **مسند أبي داود**
أبو داود الطيالسي – دار المعرفة -

١٨٧ **مسند أبي يعلى**
أحمد بن علي بن المثنى
الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ دار المأمون للتراث -

١٨٨ **مسند الإمام أحمد**
أحمد بن حنبل مؤسسة قرطبة – مصر

١٨٩ **مسند الشاميين**
سليمان بن أحمد الطبراني
الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ مؤسسة الرسالة -

١٩٠ **مسند الشهاب**
محمد بن سلامه القضاعي
الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ مؤسسة الرسالة-

١٩١ **مسيرة الإصلاح**
عبد الملك مرشد الشيباني
الطبعة الثانية ٢٠٠٢م مكتبة خالد بن الوليد صنعاء-

١٩٢ **معالم الثقافة الإسلامية**
عبد الكريم عثمان
الطبعة الأولى ٢٠٠١م مؤسسة الرسالة -

١٩٣ **معالم الدعوة في القصص القرآني**
عبد الوهاب الديلمي
الطبعة الأولى ١٩٨٦م دار المجتمع جده -

١٩٤ **معجم مقاييس اللغة**
أبي الحسين أحمد بن فارس
الطبعة الأولى ٢٠٠١م دار إحياء التراث العربي بيروت-

١٩٥ **مقدمة ابن خلدون**
عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي
الطبعة الخامسة ١٩٨٤م دار القلم بيروت

١٩٦ **من أدب القرآن الكريم**
عبد الغني أحمد ناجي
- دار الاعتصام القاهرة

١٩٧ **من أعلام الحركة الإسلامية** ،
المستشار : عبد الله العقيل
٢٠٠٠م دار التوزيع والنشر الإسلامية تحقيق / بدر محمد بدر

١٩٨ **منهاج السنة النبوية**
تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية
الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ مؤسسة قرطبة

١٩٩ **منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين..**
هشام إسماعيل الصيني
الطبعة الثانية ١٩٩٨م المنتدى الإسلامي

٢٠٠ **منهج الدعوة الإسلامية في البناء الاجتماعي**
محمد بن محمد بن الأمين الأنصاري
الطبعة الثانية ١٩٩٦م مطابع الصفاء

٢٠١ **منهج القرآن الكريم في رعاية ضعفاء المجتمع** ،
عماد زهير حافظ
الطبعة الأولى ١٩٩٢م مطابع شركة المدينة المنورة

٢٠٢ **موارد الضمآن**—
علي بن أبي بكر الهيثمي
دار الكتب العلمية بيروت-

٢٠٣ **موسوعة نظرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم** ،
مجموعة من الباحثين بإشراف د/ صالح بن حميد
الطبعة الأولى ١٩٩٨م دار الوسيلة للنشر والتوزيع جده

٢٠٤ **نحو تفسير موضوعي**
محمد الغزالي
الثالثة ١٩٩٧م دار الشروق القاهرة

٢٠٥ **نحو منهج شرعي لتلقي الأخبار وروايتها**
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
الطبعة الثالثة ٢٠٠٠م دار السليم للنشر – السعودية

٢٠٦ **نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء**
محمد حسن بن عقيل موسى
الطبعة الثالثة ١٩٩٨م دار الأندلس الخضراء جده

٢٠٧ **نظرات في سورة الحجرات**
محمد محمود الصواف
الطبعة السادسة ١٩٨٧م– مؤسسة الرسالة بيروت

٢٠٨ **نوادر الأصول في أحاديث الرسول**
محمد بن علي بن الحسن الترمذي
الطبعة الأولى ١٩٩٢م دار الجيل بيروت تحقيق / عبد الرحمن عميرة

٢٠٩ **مجلة نوافذ** - العدد ٣٩ - يناير ٢٠٠٣م اليمن

فهرست الموضوعات

الموضوع الصفحة

الإهداء ٥
شكر وتقدير ٧
مقدمة المؤلف ٩
تقديم الشيخ المستشار عبد الله العقيل... ١١
تقديم الدكتور عبد الوهاب الديلمي.. ١٣
تقديم الشيخ عبد الرحمن العماد ١٥
تمهيد بين يدي السورة... ١٩
أسباب اختيار الموضوع ٢١
أهمية الكتاب... ٢٢
أهداف الكتاب.. ٢٢

الفصل الأول/**الأدب مع الرسول ﷺ**

المبحث الأول: وجوب التحاكم إلى الشرع....... 29
المطلب الأول: الآيات وأسباب النزول ٣١
المطلب الثاني: وجوب التحاكم إلى الشرع والأدلة عليه................ ٣٦
المطلب الثالث: صلة التحاكم إلى الله ورسوله بالعقيدة.................٤١
المطلب الرابع: من ميزات الشريعة الإسلامية الجمع بين الثبات والمرونة ... ٤٨
المطلب الخامس: أبشع أنواع التقدم بين يدي الله ورسوله؟..............٥١
المطلب السادس: التفريق بين النصوص الشرعية و آراء البشر ٥٣
المبحث الثاني: الأدب مع الرسول ﷺ وعدم تقدمه بأي أمر ٥٧
المطلب الأول: تعريف الأدب لغة واصطلاحًا ٥٩

المطلب الثاني: الإيمان برسالته ﷺ........................ ٦٢
تعريف الإيمان لغة واصطلاحًا........................ ٦٢
حكم الإيمان به ﷺ........................ ٦٣
ثمار الإيمان بنبوته ﷺ........................ ٦٦
المطلب الثالث: وجوب محبته ﷺ........................ ٦٨
معنى المحبة........................ ٦٩
أنواع المحبة........................ ٧٠
علامات المحبة........................ ٧١
ثمار محبته ﷺ........................ ٧٣
المطلب الرابع: الحياء منه ﷺ........................ ٧٥
المبحث الثالث: أدب الصحابة مع النبي ﷺ وتوقيرهم له........................ ٨١
المطلب الأول: في مجالسته ﷺ........................ ٨٣
المطلب الثاني: في الاستئـــذان........................ ٨٥
المطلب الثالث: غض الصوت عنده ﷺ........................ ٨٩
المطلب الرابع: صفة مناداته ﷺ........................ ٩٣
المطلب الخامس: صور من توقير الصحابة له ﷺ........................ ٩٦
أبو بكر الصديق........................ ٩٧
ثابت بن قيس........................ ٩٨
أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب زيد بن الدثنة........................ ٩٩
أبو دجانة الأنصاري........................ ١٠١
قصة السعدين في غزوة الخندق........................ ١٠٢
شهادة مشرك قبل إسلامه........................ ١٠٣

معاذ بن جبل.. ١٠٤
عدم تقدم الصحابة النبي ـ ﷺ حتى فيما يعلمون وللنساء مواقف ١٠٥
المبحث الرابع: من لوازم الأدب مع النبي ﷺ.......................... ١٠٧
المطلب الأول: الصلاة على النبي ﷺ................................ ١٠٩
مفهوم الصلاة على النبي ﷺ لغة واصطلاحًا.......................... ١٠٩
حكم الصلاة على النبي ﷺ... ١١٠
صيغ الصلاة على النبي ﷺ... 111
فضل الصلاة على النبي ﷺ... ١١٢
فوائد وثمرات الصلاة على النبي ﷺ.................................. ١١٣
المطلب الثاني: عدم التأدب معه ﷺ من محبطات الأعمال............... ١١٦
المطلب الثالث: الأدب مع ورثة الأنبياء.............................. ١٢٠
مكانة العلماء وفضلهم... ١٢١
الآثار المترتبة على الوقيعة في العلماء................................ ١٢٣
ما يجب علينا تجاه العلماء... ١٢٤
أمور لابد من بيانها... ١٢٥
المطلب الرابع: آداب عامة.. ١٢٧
الأدب مع الأمير والمسؤول.. ١٢٧
الأدب مع الخلق... ١٢٩
من فوائد الالتزام بالأدب... ١٣٠
الفصل الثاني/**المنهج الشرعي في التثبت**
المبحث الأول: التثبت مفهومه وأهميته................................ ١٣٥
المطلب الأول: الآيات تمهيد وأسباب النزول.......................... ١٣٧

تمهيد ١٣٧
أسباب النزول.. ١٣٩
المطلب الثاني: تعريف التثبت والتبين.. ١٤٠
التثبت لغة واصطلاحًا.. ١٤٠
التبين لغة واصطلاحًا.. ١٤١
المطلب الثالث: وجوب التثبت وأهميته ١٤٢
وجوب التثبت ١٤٢
أهمية التثبت.. ١٤٥
المبحث الثاني : ظوابط التثبت وأنواعه.. ١٤٩
المطلب الأول: صفات من نقبل خبره.. ١٥١
عدالة الراوي وضبطه ١٥١
حسن الفهم ودقة الاستيعاب للمراد ١٥٢
منهج علماء الحديث في التثبت والتبين ١٥٣
اختصاص الأمة بالإسناد.. ١٥٤
مقارنة الخبر بالواقع ١٥٦
المطلب الثاني: أنـــواع التثبت ١٥٧
التثبت من الأخبار عمومًا.. ١٥٨
التثبت من استقبال القبلة في الصلاة ١٥٩
التثبت في شهادة الشهود ١٥٩
التثبت من رؤية هلال شهر رمضان وذي الحجة.. ١٦٠
المطلب الثالث: العوامل المساعدة على التثبت.. ١٦٠
المطلب الرابع: الموقف من الدعايات والأقاويل المغرضة.. ١٦٣

الكـــذب ١٦٣
الإشاعـــات ١٦٦
نماذج للشائعات ١٦٧
أسباب انتشار الشائعات ١٧٠
المبحث الثالث: آثار عدم التثبت وعلاجه ١٧٣
المطلب الأول: آثار عدم التثبت على الأفراد ١٧٥
اتهام الأبرياء من الناس زورًا وبهتانًا ١٧٥
سفك الدماء وسلب الأموال ١٧٦
الحسرة والندامة ١٧٦
فقد ثقة الناس مع النفور والكراهية ١٧٧
التعرض للغضب الإلهي ١٧٧
المطلب الثاني: آثار عدم التثبت على المجتمعات ١٧٧
خلل واضطراب المجتمع ١٧٧
الفتور أو التراخي في العمل ١٧٨
إفساح المجال للأدعياء والدخلاء ١٧٨
الانطلاق من الخيال لا من الواقع ١٧٩
الحرمان من العون والتأييد الإلهي ١٧٩
زرع البغضاء و الشحناء بين أفراد المجتمع ١٧٩
المطلب الثالث: نماذج في التثبت والتأني ١٨٠
موسى عليه السلام والخضر ١٨١
سليمان والهدهد ١٨٣
عمر بن الخطاب ١٨٤
الوزير أبي القاسم بن مسلمة ١٨٥

المطلب الرابع: علاج عدم التثبت ١٨٦

الفصل الثالث/**الأخوة وإصلاح ذات البين**

المبحث الأول: مفهوم إصلاح ذات البين وفضله..........................١٩٧

المطلب الأول: الآيات وأسباب النزول.....................................١٩٩

المطلب الثاني: تعريف إصلاح ذات البين لغة واصطلاحًا ٢٠١

المطلب الثالث: فضل إصلاح ذات البين ٢٠٢

المطلب الرابع: باب دعوي لإصلاح الأفراد والمجتمعات...............٢٠٥

المبحث الثاني: ضرورة إصلاح ذات البين لحماية المجتمع من التمزق.....٢٠٩

المطلب الأول: حكم إصلاح ذات البين....................................٢١١

المطلب الثاني: حاجة المجتمع لإصلاح ذات البين.......................... ٢١٣

المطلب الثالث: وجوب العدل في الإصلاح ٢١٦

المطلب الرابع: نصائح عامة في الإصلاح بين الناس ٢٢٠

المطلب الخامس: نتائج إهمال الإصلاح.......................................٢٢٤

المبحث الثالث: الأخـوة الإسلامية ٢٢٧

المطلب الأول: تعريف الأخوة وفضلها ٢٢٩

التعريف اللغوي والاصطلاحي....................................٢٢٩

فضل الأخوة ٢٣١

المطلب الثاني: حقوق الأخوة...٢٣٢

حقوق عامة ٢٣٣

حقوق خاصة ٢٣٤

المطلب الثالث: نوا قض الأخوة...٢٣٧

سـوء الظـن.. ٢٣٧
الغيبة.. ٢٣٧
السخرية والاحتقار والهمز والنبز واللمز................ ٢٣٧
الحسد.. ٢٣٨
المماراة والمنافسة.. ٢٣٨
القطيعة والتحامل القلبي................................. ٢٣٩
معرفة الحقوق ونسيان الواجبات......................... ٢٣٩
عدم التحاكم إلى شرع الله في العلاقات.................. ٢٣٩
المطلب الرابع: وسائل تعميق الإخوة.................... ٢٤٠
المطلب الخامس: ثمرات الإخوة.......................... ٢٤٣
الفوائد الخاصة... ٢٤٣
الفوائد العامة.. ٢٤٥
الفصل الرابع: **التربية الوقائية لحماية المجتمع المسلم من التمزق**
المبحث الأول: حماية المجتمع المسلم من السخرية وعواملها.......... ٢٥٣
المطلب الأول: الآيات وتمهيد وأسباب النزول.............. ٢٥٥
المطلب الثاني: تعريف السخرية وحكمها.................. ٢٦٠
تعريف السخرية لغة واصطلاحًا......................... ٢٦٠
حكم السخرية.. ٢٦١
المطلب الثالث : أنواع السخرية وبواعثها.................. ٢٦٣
المطلب الرابع : عوامل السخرية........................... ٢٦٧
الهمز واللمز من السخرية............................... ٢٦٧
التنابز بالألقاب من السخرية............................. ٢٦٩

المطلب الخامس: مضار السخرية وعلاجها........................... ٢٧١
مضار السخرية وعواملها........................... ٢٧١
علاج السخرية وعواملها........................... ٢٧٢
المبحث الثاني: **حماية المجتمع من سوء الظن والتجسس** ٢٧٥
المطلب الأول: تمهيد ٢٧٧
المطلب الثاني : تعريف الظن لغة واصطلاحًا........................... ٢٧٩
المطلب الثالث : أنواع الظن.. ٢٨١
المطلب الرابع : تعريف التجسس لغة واصطلاحًا........................ ٢٨٤
المطلب الخامس: التجسس المشروع وغير المشروع ٢٨٦
التجسس المشروع.................. .... ٢٨٦
التجسس غير المشروع................................. ٢٨٩
المطلب السادس: توعية المجتمع من خطر التجسس ٢٩٢
النهي عن مكاشفة الأعداء ونقل الأخبار لهم............ ٢٩٣
تماسك الجبهة الداخلية ومحاربة الإشاعات................ ٢٩٤
المبحث الثالث: **حماية المجتمع من الغيبة** ٢٩٧
المطلب الأول: تمهيد وتعريف الغيبة ٢٩٩
المطلب الثاني: حكم الغيبة والترهيب من الوقوع فيها.................. ٣٠٢
المطلب الثالث: الأسباب الباعثة على الغيبة ٣٠٧
الغضب وإشفاء الغيظ................................. ٣٠٧
تزكية النفس.. ٣٠٧
الحسد ٣٠٧
الهزل والتفكه... ٣٠٨

السخرية والاستهزاء ٣٠٨
عدم التثبت والتبين ٣٠٨
البيئة المحيطة ٣٠٩
عدم تقدير العواقب المترتبة على الغيبة ٣٠٩
العمل لصالح أفراد أو جهات مشبوهة...........................٣٠٩
إظهار التعجب من أصحاب المعاصي...... ....٣١٠
الظهور بمظهر الغضب لله على من يرتكب المنكر.........٣١٠
إظهار الرحمة والتصنع بمواساة الآخرين......... ....٣١٠
المطلب الرابع: ما يباح من الغيبة...٣١٠
المطلب الخامس: علاج الغيبة وطريق التوبة منها وكفارتها ٣١٤
علاجها...٣١٤
طريق التوبة من الغيبة وكفارتها ٣١٦
الفصل الخامس: **معالجة الفوارق الاجتماعية**
المبحث الأول: **وحدة الأصل والنشأة**.................... ....٣٢١
المطلب الأول: الآية وتمهيد وأسباب النزول ٣٢٣
المطلب الثاني: أصل البشرية ٣٢٥
آدم أصل البشرية..٣٢٥
في القرآن الناس جميعًا لآدم....................................٣٢٨
السنة تؤكد أن جميع الناس لآدم ٣٣٢
المطلب الثالث: التنوع للتعارف ٣٣٤
المطلب الرابع: التنوع يدعو للإخوة...٣٣٧
المبحث الثاني: **العصبية وأثرها في تمزيق المجتمعات**......................٣٤١

المطلب الأول: تعريف العصبية لغة واصطلاحًا ٣٤٣
المطلب الثاني: منشأ العصبية وسببها ٣٤٥
منشأ العصبية..٣٤٥
أسباب العصبية ٣٤٧
المطلب الثالث : أنواع العصبية ٣٤٨
العصبية العنصرية ٣٤٨
العصبية المذهبية..٣٥٠
العصبية الدينية..٣٥٢
العصبية القبلية والأسرية..٣٥٣
العصبية الحزبية..٣٥٤
العصبية الوطنية..٣٥٥
المطلب الرابع: أثر العصبية في تمزيق المجتمعات........................... ٣٥٥
المطلب الخامس: كيف عالج الإسلام العصبية..٣٥٩
التذكير بأصل الإنسان..٣٥٩
ذم العصبية ٣٦١
المبحث الثالث: أساس التفاضل في الإسلام ٣٦٥
المطلب الأول: تعريف التقوى لغة واصطلاحًا ٣٦٧
المطلب الثاني: التقوى في الكتاب والسنة..٣٦٩
التقوى في الكتاب..٣٦٩
التقوى في السنة ٣٧٣
المطلب الثالث: طرق الوصول إلى التقوى ٣٧٥
العبادة..٣٧٥

الصيام.. ٣٧٦
قراءة القرآن بتدبر ٣٧٧
الهداية ٣٧٧
سلوك الصراط المستقيم ٣٧٨
المطلب الرابع: ثمرات التقوى ٣٨٠
معية الله ومحبته للعبد............................ ٣٨٠
ولاية الله ورضوانه للمتقين ٣٨٠
الانتفاع والهداية بالقرآن ٣٨١
التيسير في كل الأمور............................ ٣٨٢
قبول العمل وصلاحه ٣٨٢
الفوز والفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة.............. ٣٨٣
الفصل السادس: **الإيمان بالله أساس صلاح المجتمعات**
المبحث الأول: حقيقة الإيمان بالله وحاجة الناس إليه ٣٨٧
المطلب الأول: الآيات وتمهيد وأسباب النزول ٣٨٩
المسألة الأولى: الآيات ٣٨٩
المسألة الثانية: تمهيد........................ ٣٨٩
المسألة الثالثة: أسباب النزول................ ٣٩٠
المطلب الثاني: مفهوم الإيمان........................ ٣٩١
تعريف الإيمان والإسلام ٣٩١
ورود لفظ الإيمان في سورة الحجرات ٣٩٥
المطلب الثالث: حقيقة الإيمان........................ ٣٩٨
المطلب الرابع: زيادة الإيمان ونقصانه ٤٠٣

المطلب الخامس: حاجة الناس للإيمان بالله ٤٠٩

المبحث الثاني: **أثر الإيمان في إصلاح الفرد والمجتمع** ٤١٣

المطلب الأول: الإنسان بين المادية والإيمان ٤١٥

الإنسان في نظر الماديين ٤١٥

الإنسان في نظر المؤمنين ٤١٧

المطلب الثاني: نماذج إيمانية ٤١٩

سحرة فرعون ٤٢٠

عمر بن الخطاب ٤٢١

الخنساء ٤٢٢

غلام وفد تجيب اليمن ٤٢٤

المطلب الثالث: أثر الإيمان في إصلاح الأفراد ٤٢٦

المطلب الرابع: أثر الإيمان في إصلاح المجتمعات ٤٣١

المبحث الثالث: **الإيمان بالله تعالى كبرى المنن على عباده** ٤٣٩

المطلب الأول: الإيمان أعظم نعم الله على عباده ٤٤١

المطلب الثاني: إسلام الأعراب ٤٤٣

المطلب الثالث: ثمرات الإيمان ٤٤٦

المطلب الرابع: المفتاح الفذ لأقفال الحياة ٤٥١

الخاتمة ٤٥٩

فهرست المراجع ٤٦٥

فهرست الموضوعات ٤٨٥